

سوزان مولر أوكين

المجلس
الأعلى
للثقافة

النساء في الفكر السياسي الغربي



المشروع القومي للترجمة

ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام

457

المشروع القومي للترجمة

النساء في الفكر السياسي الغربي

تأليف : سوزان مولر أوكين

ترجمة : إمام عبد الفتاح إمام



٢٠٠٢

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٥٧

- النساء في الفكر السياسي الغربي

- سوزان مولر أوكين

- إمام عبد الفتاح إمام

- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لكتاب :

WOMEN IN WESTERN

POLITICAL THOUGHT

تأليف : Susan Moller Okin

صادر عن دار نشر : Princeton University Press

(1979)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم المختلفة ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة المترجم

لا تزال قضية المرأة - فى يومنا الراهن - بالغة الأهمية فى مجتمعاتنا المتخلفة؛ فعلى الرغم من القيمة الكبرى المترتبة على مساواة المرأة بالرجل، وعلى عمل هذه الرئة المعطلة بحيث يتنفس المجتمع بطريقة صحية وسليمة - فإنها لم تتقدم خطوة واحدة عن نضالها الماضى! بل إن من مفكرينا مَنْ يرى أن هناك «ردة» فى عالم المرأة: «وأن أبشع جوانب الردة فى حياة المرأة اليوم ليس هو أنها تريد أن تتعلم إلى آخر المدى فيمنعها أحد، وليس أنها تريد أن تعمل بما تعلمته فيمنعها أحد.. وإنما الجانب البشع من تلك الردة هو أن المرأة اليوم تريد أن تجعل من نفسها وبمحض اختيارها حريما يتحجب وراء الجدران، أو يتستر وراء حجب وبراقع، وكأنها الفريسة السهلة تخشى أن تتخطفها الصقور. أما أن تحصن نفسها بقوة الروح وبالشعور بكرامتها إنسانة واعية مستتيرة، فذلك زمن أوشك على الذهاب مع زهاب رائدات الجيل الماضى. ألا ما أبعد الفرق فى حياة المرأة المصرية بين الليلة والبارحة، ففى بارحتها ألفت بحجابها فى مياه البحر عند شواطئ الإسكندرية^(*). إيذانا بدخولها عصر النور.. وأما فى ليلتها هذه، فباختيارها تطلب من شياطين الظلام أن ينسجوا لها حجابا يرد عنها ضوء النهار...»^(١). والواقع أن هناك بعض القضايا المهمة التى يصبح الاتفاق عليها ضرورة ملحة، ولو حدث مثل هذا الاتفاق فسوف تنقش كثرة كثيرة من الغيوم والسحب منها:

(*) الإشارة هنا إلى حادثة مشهورة فى تاريخ الحركة النسائية المصرية ملخصها أن هدى شعراوى عند عودتها من رحلة لها فى الخارج - وكان ذلك عقب ثورة ١٩١٩ - ذهب حشد كبير من النساء لاستقبالها فى ميناء الإسكندرية، ولوحت لهن الزعيمة، وهى على ظهر السفينة ثم ألفت برقعها فى البحر قبل نزولها إلى الشاطئ.

(١) د. زكى نجيب محمود «فى مفترق الطرق» ص ١٢٩ وما بعدها، وانظر فى وضع المرأة عموما «وإذا الموعودة سئلت» فى الكتاب نفسه ص ٨٥ وما بعدها - دار الشروق بالقاهرة عام ١٩٨٥ .

أولاً : إن المرأة لا تولد امرأة، بل تصبح امرأة، أو تصير امرأة، وهي حقيقة كشفت عنها الفلسفة الوجودية المعاصرة بالنسبة للإنسان بصفة عامة - كما كشفت عنها «سيمون دي بوفوار» بالنسبة للمرأة بصفة خاصة في كتابها «الجنس الثاني»! وإذا تسألنا: ماذا يعنى ذلك؟ كانت الإجابة أنه يعنى الكشف عن الأثر الهائل للأوضاع الاجتماعية على المرأة فهى التى تشكلها فى الإطار الذى نريده لها: «البنات لا تجلس على هذا النحو، ولا تتحدث بهذا الشكل ولا تضحك ولا تتفوه بألفاظ أو تقوم بحركات كهذه... إلخ»! ومن هنا فإن المعطيات البيولوجية - رغم أهميتها ليست هى العامل الحاسم فى تشكيل المرأة، وإنما التربية أو التنشئة الاجتماعية هى التى تقوم بهذا الدور..

وهناك نتيجة مهمة مترتبة على هذه القضية الأولى، وتشكل هى نفسها القضية الثانية:

ثانياً : يترتب على ذلك قضية بالغة الأهمية ، ألا وهى أنه ليس هناك ما يسمى بطبيعة المرأة، فهذه الطبيعة يشكلها المجتمع مثلها مثل القوانين، والشرائع والقيم الأخلاقية ؛ مما يذكرنا بالنزاع القديم بين السوفسطائيين من ناحية، وسقراط وأفلاطون وأرسطو من ناحية أخرى حول «الطبيعة والعرف»، والذى حسمته الفلسفة الوجودية المعاصرة عندما نفت نفياً تاماً أن تكون هناك طبيعة محددة أو «ماهية» سابقة على وجود الإنسان، وذهبت إلى أنه هو الذى يصنع ماهيته «فأنا أكون ما أنا»!.. فأنا لست محصوراً فى الطبيعة المحدودة للكائنات الأخرى، وإنما أنا كائن حر - وهذه إضافة وجودية - أصنع «طبيعتى الخاصة» إن صحَّ التعبير، والمهم هو إلغاء «الطبيعة» المحددة سلفاً!..

ويؤدى ذلك إلى قضية ثالثة مهمة، هى:

ثالثاً: سطوة العادات والتقاليد التى قد تكون فى بعض الحالات أشد تأثيراً من الدين، بل قد تؤثر هى نفسها فى الدين فيعترف بها وتصبح جزءاً منه!..

رابعاً : القضية الأخيرة وهى قضية متفرعة من العادات والتقاليد وهى مجموعة من المشاعر والعواطف والانفعالات التى لا تعتمد على «العقل» والمنطق - والتى تجسدت فى مبدأ ظالم هو المبدأ الذى يُنظَّم العلاقات الاجتماعية القائمة بين الجنسين. وتجعل

من الصعب الكشف عن أنه مبدأ فاسد من جنوره، لأنه يقوم على أساس تبعية أحد الجنسين (النساء) للجنس الآخر (الرجال) - وهو مبدأ ينبغى أن يحل محله مبدأ المساواة الكاملة التي لا تسمح بوجود ميزة لجانب على حساب جانب آخر!

والواقع أن قضية تحرير المرأة أصبحت تشبه - من حيث المشاعر والعواطف - قضية تحرير الزوج في الولايات المتحدة الأمريكية التي وجد المدافعون عنها صعوبة بالغة في إقناع الناس «بالعقل» على تغيير مشاعرهم المتأصلة في أعماق نفوسهم! بل هناك أسباب كثيرة تجعل المشاعر المتصلة بقضية المرأة أبعد غورا، وأعمق جنورا من كل المشاعر التي تتجمع حول الأنظمة والعادات والتقاليد وتحميها!

وعلى الرغم من أن الكتاب الذي نقدمه اليوم لقراء العربية يدور حول الفكر الفلسفي السياسي وقضية المرأة فإنه يكشف عن أثر العادات والتقاليد العارم في تفكير الفلاسفة مصداقا لقول هيجل: «إن كلا منا هو ابن عصره وربيب زمانه... وأن الفلسفة هي عصرها ملخصا في الفكر...»^(١). وهذا واضح من الأثر الطاغى الذي كان لعادات وتقاليد المجتمع الأثيني - الذي يكن كراهية واحتقارا للمرأة ويضعها في مرتبة بين الرجال والعبيد! وهذا ظاهر في تفكير أفلاطون وأرسطو على نحو ما سنبيين بعد قليل!

وكتابنا الحالي يتألف من خمسة أجزاء تقع في اثني عشر فصلا وتعالج أربعة من كبار الفلاسفة السياسيين: اثنين من القدماء هما أفلاطون و أرسطو، واثنين من المحدثين هما «مل» و «روسو». بالإضافة إلى ثلاثة فصول (في الجزء الخامس) عن قضية المرأة والأسرة في المجتمع الأمريكي، ثم ملحق عن أفلاطون.

وتبدأ المؤلفة في الفصل الأول بالحديث عن أفلاطون الذي تعتبر أفكاره لغزا محيرا «لا يقبل الحل» لأنه يذهب من ناحية إلى أن جنس الأنثى خلق من أنفوس الرجال الأشرار، لكنه من ناحية أخرى يقترح تربية متساوية ودورا اجتماعيا واحدا للجنسين! وهذا هو اللغز الأفلاطوني المحير عند المؤلفة! مع أنه في الواقع لا هو لغز، ولا هو محير. فأفلاطون يتفق تمام الاتفاق مع التراث اليونانى الذى كان يكن كراهية شديدة

(١) «أصول فلسفة الحق» ص ١١٦ من ترجمتنا ونشرته مكتبة مدبولى بالقاهرة عام ١٩٩٦ .

للمرأة. وينظر إليها باحتقار أشد! فهو يقول عن تربية الحراس: «إننا سنكون على حق لو جنبنا عظماء الرجال ذلك العويل والنحيب وتركناه للنساء...» (الجمهورية ٣٨٨). وكذلك «لن ندعهم يحاكون امرأة شابة كانت أو مسنة (٣٩٥) - وهو باختصار ينبهنا إلى ضرورة استبعاد العنصر «النسائي» من برنامج التربية، فنحن نريد رجالا قبل كل شيء، ومن ثم فلا نقبل من يحاكي النساء! كما يحذرنا من أن نترك الحراس يتشبهون بالنساء، أو بأسلوب الأنثى، فهو أسلوب ينفر منه جدا - ونستطيع أن نلاحظ بسهولة كيف أن أفلاطون يصنّف النساء دائما في أحاديثه مع العبيد والأطفال والأشرار، والمخبولين من الرجال، أو مع الحيوانات والقطيع! فهو لا يتحدث عن المرأة ككثي بأى قدر من التعاطف على الإطلاق .

لكن كيف يمكن لهذه النصوص أن تتفق مع ما يقوله عن المساواة «المزعومة» بين الرجل والمرأة؟ الواقع أن أفلاطون كان يضع في ذهنه «صورة الرجل» كحارس مثالي للمدينة الفاضلة! ومن ثم فلن تكون المساواة مقصودة لذاتها. وإنما هي نتيجة منطقية لإلغاء الأسرة، ولا علاقة لها بتحرير المرأة. ومن هنا فإذا انضمت النساء إلى الحراس فلا بد أن يَكُنَّ «مسترجلات»، إن صحَّ التعبير، فلا يستولى عليهن ما يستولى على النساء عادة من انفعالات شديدة في حالات الحزن بحيث تتحول إلى عويل ونحيب؛ إننا نريد رجالا أشداء كما نريد المرأة القوية الصامدة «الشجاعة» - وعلينا أن نضع في ذهننا ما ينبهنا إليه الباحثون من أن كلمة الشجاعة اليونانية تعنى حرفيا «الرجولة»^(١).

فحل اللغز المحير عند أفلاطون بسيط للغاية قدّمه «روسو» «في لمحة خاطفة» لكنها حادة الذكاء تتلخص في أن أفلاطون بعد إلغائه للأسرة احتار في أمر المرأة: ماذا يفعل بها؟ فنعالها إلي رجل! وهذا حق تماما ودليلنا على ذلك يتألف من ثلاث زوايا: الأولى إنه ظل يكره خصائص الأنثى ويحتقرها طوال محاورة الجمهورية، وقد ذكرنا فيما سبق بعض النصوص التي تؤيد ذلك. والثانية أنه يشترط على المرأة «المسترجلة» التي سوف يساويها بالرجل - أن تتخلى عن كل ما يمت للأنثى بصلة، فعليها أن تسير في الشارع أثناء التمرينات الرياضية والعسكرية عارية تماما مثلما يفعل الرجال نون

(١) راجع في ذلك كله كتابنا: «أفلاطون والمرأة» ص ٦١ - ٦٣ ... الخ (سلسلة الفيلسوف.. والمرأة) - مكتبة مدبولي عام ١٩٩٦ .

أن تشعر بأى خجل! والثالثة أنه عندما عادت الملكية في محاورة «القوانين» عادت معها الأسرة، ومن ثم عادت المرأة إلى وضعها الطبيعي الذي فرضه عليها المجتمع الأثيني.

وما يقال عن أفلاطون - يقال عن أرسطو، فإذا كان أفلاطون قد لخص وضع المرأة اليونانية، فإن أرسطو قنن هذا الوضع عندما بذل جهده ليضع نظرية فلسفية عن المرأة يستمد دعائمها الأساسية من الميتافيزيقا، ثم راح يطبقها في ميدان البيولوجيا أولاً، والأخلاق والسياسة بعد ذلك ليثبت - فلسفياً - صحة الوضع المتدنى للمرأة الذي وضعتها فيه العادات والتقاليد اليونانية.

وتأتى خطورة نظرية أرسطو عن المرأة من أنها ترددت بعد ذلك بكثرة فى تراثنا العربى، ربما لأنها وجدت أرضاً خصبة مهياًة لتقبلها بما تحتوى عليه من آراء مماثلة لا يتقصها سوى التنظير! لقد قالت سوزان بل: «إن الصورة التى رسمها أرسطو للمرأة بالغة الأهمية، وذات أثر هائل، فقد ترسبت فى أعماق الثقافة الغربية، وأصبحت الهادى والمرشد عن النساء بصفة عامة.»^(١) وهى عبارة تصدق بنصها على التراث العربى.

بل إن كلمة «المرأة» فيما يبدو لا تدخل ضمن مفهوم «الإنسان» كما يتصوره أرسطو: فالكلمة التى يستخدمها المعلم الأول هى **Anthropos** وهى كلمة يونانية تعنى «الموجود البشرى»، لكن سرعان ما يتضح أن فئة ضئيلة جداً هى التى ينطبق عليها هذا اللفظ وهى فئة الرجل الأثينى الحر! وهى التى تشارك فيما يسميه بالفضائل البشرية، والخير الأقصى، وسعادة الإنسان.

وإذا كانت الفضائل للرجل فهو أيضاً رأس الأسرة بما له من عقل راجح يستطيع تدبير شئون المنزل والمدينة معاً، وهو أشبه بربان السفينة الذى يستعين بأنوات جامدة كالدفعة، كما يستعين بالأحياء من البشر، أما المرأة فهى لا تصلح لإدارة الدولة ولا إدارة الأسرة. ويكفى أن نقول باختصار شديد إن الرجل عند أرسطو هو الصورة والمرأة هى الهىولى، ولهذا يقتصر دورها على إنجاب الأطفال ورعايتهم، والإشراف على الأعمال المنزلية، وأداء الواجبات نحو الزوج..!

(١) راجع كتابنا «أرسطو.. والمرأة» من سلسلة «الفيلسوف.. والمرأة» مكتبة مدبولى بالقاهرة عام ١٩٩٦ .

أما «روسو» فهو يواصل نظرة التراث الغربي كله إلى النساء - رغم مخالفتها للمبادئ الرئيسية في الأخلاق ونظريته الاجتماعية ، فالمرأة مزودة بمواهب الجزئيات والأمور الثانوية فهي ناقصة وعاجزة تماما عن التفكير المجرد. و«روسو» يجعل من المرأة موضوعا جنسيا للرجل، ولهذا فهي لا بد أن تكون مغرية ومثيرة في أن معا بعيدة عن الخوف الجنسي مع السيطرة على رغباتها اللامحدودة ومن هنا جاءت دعوته للمرأة أن تكون جنسية ومحتشمة، أن تكون مرغوبة وعفيفة معا، أى أن تقوم بدور «دكتور جيكل ومستر هايد» على حد تعبير المؤلفة! وعلى هذا الأساس يجعل روسو السيطرة المطلقة للأزواج على زوجاتهم بحيث تنحصر النساء داخل جدران المنزل عقب الزواج، مع الرغبة في فصل الجنسين وانعزالهما حتى داخل المنزل. كما يقترح تربية أخلاقية للنساء - في كتابه «إميل» - هي الضد المباشر لما اقترحه من تربية أخلاقية للرجال.

وهكذا يتضح أن ما كتبه «روسو» عن اللامساواة والتفاوت بين البشر، ودعوته إلى المساواة كان يقصد بها المساواة بين الرجال فقط .

وكلامه في بداية كتابه «العقد الاجتماعي» عن أن الإنسان يولد حرا، مع أنه يراه مكبلا بالأغلال... إلخ ، هذا الحديث كله ينصب على الرجل نون المرأة التي ولدت لتكون مكبلة بأغلال الرجل وقيوده .

لم يبدأ إنصاف المرأة إلا مع الفيلسوف الرابع «جون استيوارت مل» الذي دعا إلى المساواة بين الرجل والمرأة في كتابيه «مذهب المنفعة العامة»، و«الحرية...»^(١). ثم أفرد كتابا خاصا لقضية المرأة جعل عنوانه «استعباد النساء...»^(٢). أعلن فيه إدانته للمبدأ الذي ينظم العلاقات الاجتماعية القائمة بين الجنسين، كما كشف عن أن صعوبة المشكلة تكمن فيما يحيط بها من مشاعر وعواطف وانفعالات تجعلها أقرب إلى مشكلة تحرير الزوج بالولايات المتحدة . كما سبق أن أشرنا من قبل .

وتنتهى المؤلفة إلى نتيجتين الأولى: أن العامل الأكثر أهمية في تصور الفلاسفة وحججهم عن النساء هو نظرة كل فيلسوف للأسرة ، فالفلاسفة الذين ينظرون إلى

(١) قمنا بترجمتهما بعنوان «أسس الليبرالية السياسية» ونشرتهما مكتبة مدبولي بالقاهرة عام ١٩٩٦ .

(٢) وقد ترجمناه ضمن سلسلة «الفيلسوف والمرأة» ونشرته مكتبة مدبولي بالقاهرة.

الأسرة على أنها مؤسسة طبيعية وضرورية - حددوا النساء بوظائف الجنسية، والإنجاب وتربية الأطفال... إلخ. والنتيجة الثانية: أن الفلاسفة نظروا إلى الدور الذي انحصرت فيه المرأة على أنه دور أمله عليها طبيعتها ذاتها، فهم لا يمتدّون إلى المرأة تصوراتهم عن «الطبيعة البشرية»؛ بل ينظرون إليها بطريقة مختلفة كثيرا ما تكون معارضة للرجال، فهم يحاولون أن يبحثوا في طبيعة النساء عن العوامل الفطرية الكامنة الموجودة خلف الغشاء الذي أنتجته التنشئة الاجتماعية والعوامل البيئية الأخرى .

وبعد، فهذا هو الكتاب الذي يعالج موضوع «النساء في الفكر السياسي الغربي» ترجمناه لعله يلقي بعض الضوء على قضية المرأة في بلادنا. ونرجو أن نكون بنقله إلى المكتبة العربية - قد أسهمنا ولو بقدر متواضع في إثراء المكتبة الفلسفية السياسية من ناحية، وفي المشروع القومي للترجمة من ناحية أخرى.

والله نسأل أن يهدينا جميعا سبيل الرشاد،،،

إمام عبد الفتاح إمام

مدخل

لقد أدت الحركة الحالية المؤيدة للمساواة بين الجنسين إلى قدر ملحوظ من اتساع المعرفة في مجالات لم تكن مطروقة من قبل؛ فتركيز الانتباه حديثا على النساء في ميادين: التاريخ، والدراسات القانونية، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والنقد الأدبي - أدى إلى عدد من الأعمال الإبداعية المهمة، حتى أننا لا نبالغ إذا قلنا: إن هذه المجالات لن يُنظر إليها بعد ذلك على نحو ما كانت من قبل. لكن أحدا حتى الآن لم يفحص بعد، في شيء من الاتساق، معالجة موضوع النساء في الأعمال الكلاسيكية في الفلسفة السياسية، تلك الأعمال التي كشف فيها المفكرون العظام عبر التاريخ أفكارهم عن الحياة السياسية والاجتماعية للجنس البشري للتقليل مما ترتب على ذلك من هوة في معرفتنا.

ومن المهم أن ندرك منذ البداية أن تحليل أفكار النظريات السياسية التي ظهرت في الماضي ونقدها، ليس بحثا أكاديميا ملغزا، وإنما هو وسيلة مهمة للكشف عن - وكذلك فهم - المزاем الكامنة وراء أنماط التفكير المتأصلة بعمق والتي استمرت تؤثر في حياة الناس بطرق رئيسية. ولقد أصبحت النساء - خلال القرن الحالى رسميا - مواطنات بالفعل في كل بلد من بلدان العالم الأوربي، وفي كثير من بقية أنحاء العالم أيضا. فبعد أن كن مستبعدات تماما، ومعزولات، في مجال خاص هو مجال الأسرة - أصبحن عضوات لهن حقوق في عالم السياسة. غير أن النساء يعترفن، على نحو متزايد، بأن المكاسب السياسية والرسمية المحدودة التي حصلت عليها الحركة النسائية المبكرة لم تضمن على الإطلاق بلوغهن المساواة الحقيقية في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية من حياتهن. فعلى الرغم من أن النساء الآن مواطنات، فإن الشيء الذى لا يمكن إنكاره أنهن بقين مواطنات من الدرجة الثانية. إذا قيست من منظور الخصائص التى يقيم على أساسها المواطنون - تقليديا - كالتعليم، والاستقلال

الاقتصادي، أو الوضع الوظيفي فلا يزلن خلف الرجال. وبالمثل إذا قيست هذه المكاسب من منظور المشاركة السياسية - لا سيما في المستويات العليا، والسلطة السياسية، فإنهن لم يقتربن في أي مكان من المساواة مع الرجال. وفضلاً عن ذلك فقد كانت النساء في العقود السابقة يطالبن بهذه المساواة الجوهرية، وبوضع حد لإبعادهن وعزلهن في مجال المواطنة من الدرجة الثانية. فقد ادعين أن لهن الحق في أن يكن عضوات في المجتمع ومواطنات في الدولة، على نفس مستوى الرجال. ولقد تمّ - من حيث المبدأ على الأقل - الاعتراف بهذه الدعاوى.

والقول بأن النساء قد اكتسبن حقوق المواطنة الرسمية، لكن لم يتحقق لهن من أية زاوية أخرى المساواة مع الرجال - دفعني أن أتجه نحو الأعمال العظيمة في الفلسفة السياسية، وفي ذهني سؤالان أساسيان:

أما السؤال الأول: فقد تساءلت عما إذا كان التراث الموجود في الفلسفة السياسية يؤكد دخول النساء في موضوعها؟ وإن لم يكن، فلماذا؟ لأنه إذا كانت الأعمال التي شكّلت أساس تراثنا السياسي والفلسفي مناسبة في عالم قد تمّ فيه تحدي وضع اللامساواة للنساء جذرياً، فلابد لنا من أن نعترف بأن المزايم والنتائج ترتبط داخلياً بفكرة أن الجنسين هما أساساً - ولا بد أن يكونا - غير متساويين.

والسؤال الثاني: ومن الواضح أنه يرتبط بالسؤال الأول - فقد حاولت أن أكتشف ما إذا كانت حجج الفلاسفة عن طبيعة النساء ووضعهن الصحيح في النظام الاجتماعي والسياسي، يمكن أن تساعدنا - في سياق النظريات السياسية الكاملة للفلاسفة - على فهم السبب في أن حصول النساء على حقوقهن السياسية والرسمية لم يؤد إلى مساواة حقيقية وجوهرية بين الجنسين.. ولست أهدف من ذلك القيام بأي ربط سببي بين حجج وأفكار الفلاسفة العظام من ناحية، والأفكار والممارسات الحديثة من ناحية أخرى. لكنني أذهب إلى أن أنماط التفكير من النساء التي تسير في موازاة تامة مع بعض أنماط تفكير الفلاسفة التي ناقشناها هنا لا تزال منتشرة في كتابات المفكرين المعاصرين، وفي أيديولوجيات الممثلين السياسيين، والمؤسسات السياسية المعاصرة، ولقد برهنا على صحة هذه الدعوى في الجزء الخامس، عندما اتجهنا إلى تحليل بعض الآراء المعاصرة الحاسمة عن النساء مثل آراء علماء الاجتماع من نوى

النفوذ، والمحاكم العليا في الولايات المتحدة، واكتشفت تشابهات مذهلة بينها وبين أفكار النظريات السياسية التي قمت بتحليلها في الفصول السابقة. وعن طريق الدراسة النقدية للحجج التي صورتها عن النساء مجموعة من أرفع العقول في تاريخ الفكر الغربي فإنني لأمل أن أضيف شيئاً لفهمنا للحجج الحديثة التي توازيها في الطرق والأساليب المهمة والتي تشكل محاولة مستمرة لتبرير معاملة النساء بطرق ليس فيها مساواة.

ولابد لنا من الاعتراف في الحال، أن التراث العظيم للفلسفة السياسية يعتمد بصفة عامة على كتابات الرجال، وللرجال، وعن الرجال. في حين أن استخدام ألفاظ عامة جداً مثل «الإنسان» و«الجنس البشري» والضمير الضمني «هو» - قد يؤدي بالمرء إلى أن يعتقد أن الفلاسفة كانوا يقصدون الإشارة إلى الجنس البشري ككل، وليس ثمة حاجة إلى أن نبحث في مؤلفاتهم لنتحقق من أن مثل هذا الزعم لا أساس له من الصحة. فنحن نجد «روسو» مثلاً يخبر القارئ في كتابه «مقال عن أصول وأسس التفاوت بين الناس»: «إنني أتحدث عن الرجال أساساً». ومن ثم يصبح من الواضح تماماً أن موضوع بحثه هو التفاوت بين الرجال على وجه الخصوص، وأن التفاوت بين الجنسين مفترض عَرَضاً^(١). لقد أشار المؤيدون للمساواة في الماضي والحاضر - وهم على وعى تماماً بمثل هذه الممارسات - إلى خطورة الغموض والالتباس في الاستخدام اللغوي في الثقافة الأبوية البطريركية^(٢). لأنها مكنت الفلاسفة من إعلان مبادئ كما لو أن تطبيقها سيكون عاماً، ثم يسيرون نحو استبعاد النساء من الميدان.

حتى عندما استخدم الفلاسفة كلمات تشير في لغتهم الخاصة بشيء من الغموض إلى «الموجود البشري»، فإنهم لم يشعروا مطلقاً بأي عائق يمنعهم من استبعاد النساء

(1) The First and Second Discourse, P. 110.

(٢) تعد ماري وليستون كرافت من أوائل المؤيدين للمساواة الذين أشاروا إلى هذا الشذوذ في المعالجة، وذلك في كتابها «دفاع عن حقوق المرأة» وهو عمل رائد في تصحيح اللغة والتوجه نحو الليبرالية ممثلة في عصرها في «توماس بين»، وإعلان الثورة الفرنسية لحقوق الإنسان. راجع في مناقشتين حديثتين للتفرقة بين الجنسين الملازمة للغة.

Elizabeth Lane Bearsley: Referential Genderisation and sheila Robbotham: Woman Consciousnesses, Man's World" p. 34 - 38.

من النتائج التي توصلوا إليها. فقد ناقش أرسطو - مثلاً في شيء من التفصيل - المقصود بالخير الأقصى بالنسبة للموجود البشري.. Anthropos ثم استمر بعد ذلك ليحدد خصائص النساء جميعاً، بأنها ليست محرومة عن طريق العرف فحسب - وإنما هي أساساً بحسب تكوينها لا تتناسب مع هذا الخير الأقصى. ويستخدم كإناط - من ناحية أخرى - أكثر الألفاظ عمومية وشمولاً عن الذات البشرية في نظريته الأخلاقية والسياسية - بل إنه يقول أحياناً إنه لا يحصر مناقشته على الموجودات البشرية، وإنما ينطبق حديثه على «الموجودات العاقلة بأسرها». وبعد ذلك يمضي لتبرير استخدام معيار مزيج عن الأخلاق الجنسية إلى الحد الذي يرى معه أنه لا بد من الصفع عن المرأة إن هي أقدمت على قتل طفلها غير الشرعي، لأن «من واجبها» أن تتمسك «بشرفها الجنسي» مهما كان الثمن؛ وهو أيضاً ينتهي إلى أن الخاصية الوحيدة التي تجعل أى شخص على الدوام غير مؤهل للمواطنة في الدولة - وبالتالي غير مؤهل للالتزام بالقوانين التي تمت الموافقة عليها - وهي أن يكون قد وُلِدَ أنثى^(١). وبالتالي فحتى كلمات «شخصي» و«إنساني» و«موجود عاقل» من الواضح أنها لا تشمل النساء بالضرورة.

ولقد كانت هذه الظاهرة ممكنة بسبب غموض اللغة والتباسها؛ وهو أمر لا يقتصر على الفلسفة السياسية؛ والبيانات العظيمة في ثقافتنا السياسية أيضاً، مثل: «إعلان الاستقلال»، و«إعلان الدستور» التي تمت صياغتها في ألفاظ عامة، على نحو ما يوضح الفصل الذي خصصناه عن النساء والقانون [الفصل الحادي عشر] فهذه الألفاظ كثيراً ما تُؤوَل بطريقة تستبعد النساء. وهكذا نجد أنه عندما أعلن الآباء المؤسسون^(٢) أن «من الحقائق الواضحة أن الناس جميعاً ولدوا

(1) Kant's Political writings, Trans. H. B. Nisbet, ed. Hans Reiss. Cambridge, 1970, pp. 43 - 47, 78, 158 - 159.

(٢) تقصد المؤلفة بالآباء المؤسسين مجموعة المفكرين الذين صاغوا لأول مرة وثيقة إعلان الاستقلال في ٤ يوليو عام ١٧٧٦ في الولايات المتحدة من أمثال «جيفرسون» و«نكولن» و«جون آدمز» وغيرهم وكان لهم دور كبير في تأسيس الولايات المتحدة واستقلالها (المترجم).

متساوين»^(١) - لم يقصدوا فقط استبعاد إمكان العبيد من هذا المجال، لكنهم كانوا أيضا سعداء (كما قال جون آدمز لزوجته : لأنهم لم يهملوا السيدات) ، فاقترحوا أن تكون النساء متساويات أيضا فهذا أمر واقع وهو ما ينبغي أن يكون^(٢). وبالمثل فعلى الرغم من أن صياغة الدستور قد استخدمت لفظ «الأشخاص» إلا أنه لم تكن هناك أية فكرة واضحة في أذهان واضعي هذا الدستور تجعل من الممكن تأويل كلمة «الأشخاص» بحيث تشمل النساء كما تشمل الرجال معا^(٣).

إننا نعرف أن «الطبيعة البشرية» كما اكتشفها، ووصفها، فلاسفة مثل: أرسطو، وتوما الأكويني، وماكيافلي، ولوك، وروسو، وهيغل - وكثيرون آخرون - تميل إلى الإشارة إلى الطبيعة البشرية الذكورية فقط ، وبالتالي فجميع الحقوق والحاجات التي اعتبرت بشرية، لم تدرك على أنه يمكن تطبيقها على النصف الأنثوي من الجنس البشري، ومن ثم فقد كان هناك - ولا يزال - داخل تراث الفلسفة السياسية والثقافة السياسية، ميل متغلغل في هذا التراث لجعل العبارات العامة المزعومة كما لو كانت تعنى أن الجنس البشري لا ينقسم إلى جنسين، ولذلك فهي إما أن تتجاهل جنس الأنثى تماما، أو أن تسير في المناقشة من منظور لا يتسق بتاتا مع التأكيدات التي قيلت عن «الإنسان» و«الإنسانية».

وعلى الرغم من هذا التجاهل العام للنساء، فإن هناك مجموعة مهمة وممتعة من فلاسفة السياسة كان لديهم قدر كبير من الحديث عنهن. وتشمل الأجزاء الأربعة الأولى من هذا الكتاب تحليلاً لحجج أفلاطون، وأرسطو، وروسو، ومل - حول موضوع النساء:

(١) هذه هي العبارة الأولى في وثيقة إعلان الاستقلال:

«إننا نؤمن بأن هذه الحقائق واضحة بذاتها. وهي أن الناس قد خلقوا سواسية، وأن خالقهم قد حباهم بحقوق معينة هي جزء من طبيعتهم...» - وهي نفسها المبادئ التي سوف يتأسس عليها دستور الولايات المتحدة بعد ذلك بأحد عشر عاما (الترجم).

(٢) مقتبس من مراسلات جون آدمز، انظر كتاب :

- Alice Rossi: The Feminist Papers N. Y. 1973, p. 9 - 11 .

(٣) انظر مثلاً، فيما بعد، بداية الفصل الحادي عشر ، لمعرفة - رأى جيفرسون في هذا الموضوع.

طبيعتهن، تنشئتهن الاجتماعية، وتعليمهن، وورهن المناسب، ووضعهن في المجتمع. ومما لا طائل تحته - إن لم يكن من المستحيل - أن نعالج هذا الموضوع من فراغ. ومن ثم فإن ما فعلته هو تحليل أفكار هؤلاء الفلاسفة عن النساء في سياق نظرياتهم السياسية والاجتماعية بأسرها، مع إشارة خاصة لتصوير كل فيلسوف عن دور الأسرة. ولقد فحصتُ خلال الدراسة الأفكار المختلفة عن النساء والحجج التي تدعم هذه الأفكار فيما يتعلق بمنطقها الداخلي واتساقها مع حجج ونتائج كل فيلسوف عن الرجال، وعن السياسة، وعن المجتمع ككل. ومن الواضح أنه في اختياري لأربعة من الفلاسفة، فإنني لم أزعم قط أنني غطيت معالجة النساء داخل تراث الفلسفة السياسية بأسره، فبغض النظر عن خلاف الاشتراكيين الذين يحتاجون إلى تفسير خاص، فإنني اخترت هؤلاء الأربعة الذين كانوا من بين المنظرين السياسيين أعظم مَنْ قَدَّمَ إسهماً أشد إقناعاً وفكراً أكثر أهمية وإثارة في هذا الموضوع.

أما المشكلة بالنسبة لماركس والماركسيين وغيرهم من الاشتراكيين، فهي أننا إذا ما أخذناهم معاً لوجدنا أن لديهم أشياء كثيرة قالوها، وأن مثل هذا الاستبصار إذا ما قُدِّم في موضوع النساء في المجتمع، فإنه يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها. ولقد كان اليوتوبي شارل فوريه^(١)، أول مَنْ استخدم وضع النساء في المجتمع كمقياس نقيس به تقدم هذا المجتمع، وكان كذلك أول مَنْ نظر إلى تقدم النساء نحو الحرية على أنه سببٌ أساسيٌ للتقدم الاجتماعي العام: «أما الأحداث الأخرى فهي تتأثر بهذه التغييرات السياسية». فهو يؤكد أنه «ليس ثمة سبب يؤدي إلى التقدم أو الانهيار الاجتماعي بسرعة قدر ما يؤدي تغيير وضع النساء.. إن اتساع نطاق المزايا التي تحصل عليها النساء هو السبب الأساسي في كل تقدم اجتماعي»^(٢). ولم يتجاهل الاشتراكيون، وأنصار المساواة بين الجنسين - أمثال فلورا ترستان، وماركس، وجون استوارت مل - مبادرة فوريه، فقد طور ماركس علاقة المساواة مع النساء، والتقدم الاجتماعي العام في مخطوطات عام ١٨٤٤ - يقول:

(١) شارل فوريه Charles Fourier (١٧٧٢ - ١٨٢٧) فيلسوف وعالم اقتصاد فرنسي يعتبر رائداً من أبرز رواد الاشتراكية في فرنسا (المترجم).

(2) The Utopian Vision of Charles Fourier pp. 195 - 196 .

«علاقة الرجل بالمرأة هي أكثر العلاقات "طبيعية" بين موجود بشري وموجود بشري آخر، ومن ثم فهي تشير إلى أي حد أصبح سلوك الرجل الطبيعي سلوكا إنسانيا، وإلى أي حد أصبحت ماهيته الإنسانية، ماهية طبيعية بالنسبة له. وكيف أن طبيعته البشرية، قد أصبحت طبيعية بالنسبة له.. ومن هذه العلاقة يمكن تقييم مستوى تطور الإنسان ككل..»^(١).

وعلى الرغم من أن ماركس نفسه لم يطور هذه الفكرة كموضوع رئيسي في أعماله فإن أنجلز، وبيبل ^(٢) Bebel والمنظرين التقدميين في مدرسة فرانكفورت قد طوروا على نحو أبعده، الانتقادات الاجتماعية لوضع المرأة في المجتمع والأسرة التقليدية.

وتحتاج الكتابات الاشتراكية عن النساء إلى دراسة قائمة بذاتها، بسبب سمتين تختص بهما الأنماط الاشتراكية في التفكير وإن لم تكن فريدة فيهما. السمة الأولى: أن المنظرين الاشتراكيين كانوا أقل ميلاً من معظم المنظرين السياسيين الآخرين إلى النظر إلى الأسرة على أنها مؤسسة بشرية ضرورية، كما أنهم كانوا على وعى تام بالعلاقة بين الأشكال المختلفة لمؤسسة الأسرة، والأشكال المختلفة للبنية الاقتصادية لا سيما علاقات الملكية الخاصة. وهذا يعني أن معظم الاشتراكيين - لا جميعهم - كتبوا عن دور المرأة داخل الأسرة، أكثر مما تقبلوها كما هي.

السمة الثانية: من الملاحظ أن الفكر الاشتراكي تعوزه النزعة إلى جعل «الطبيعة» و«الطبيعي» مثالية، ولديه ميل إلى إحلال هذه المعايير الخاصة بالامتياز الاجتماعي محل ما هو «إنساني» و«ثقافي» بوجه خاص. وإلى حد كبير بسبب أهمية هذين النمطين من التفكير في موضوع النساء كانت مساهمة الاشتراكيين في هذا الموضوع ذات أهمية ملحوظة تماما. أما دراسة هذه المساهمة فهي مهمة أمل أن أقوم بها، بحيث يمكن أن نعدّ كتابنا الحالي بمثابة الأساس الجوهري لها.

(1) Karl Marx: Early Writings p. 154.

(٢) أوجست بيل A. Bebel (١٨٤٠-١٩١٣) زعيم اشتراكي ديمقراطي ألماني، انضم إلى الحركة العمالية الألمانية عام ١٨٦١ - ثم اعتنق الاشتراكية. وكان أحد قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني من ١٩١٢ - ١٩١٣ (المترجم).

من التحليل الذي قمتُ به لحجج ونتائج: أفلاطون، وأرسطو، وروسو، ومل فيما يتعلق بالنساء وبورهن السياسي والاجتماعي المناسب - ينبثق موضوعان مترابطان: **الأول:** أن العامل الأكثر أهمية وتأثيراً في تصور الفلاسفة وحججهم عن النساء هو نظرة كل فيلسوف للأسرة، فالفلاسفة الذين نظروا إلى الأسرة على أنها مؤسسة طبيعية وضرورية حددوا النساء بوظائفهن الجنسية، والإنجاب، وتربية الأطفال ورعايتهم داخل الأسرة. ولقد أدى ذلك إلى فرض مجموعة من القواعد الأخلاقية، تصوراً لحقوق النساء يختلف بطريقة متميزة عن الحقوق المفروضة للرجال. وإذن فالزعم بضرورة الأسرة قد أدى بالمنظرين إلى النظر إلى الفروق البيولوجية بين الجنسين على أنها تستلزم جميع الفروق الأخرى الخاصة بالعرف والعادات والمؤسسات، وفروق الدور الذي يقوم به الجنس داخل الأسرة لا سيما في شكلها الأبوي - البطرياركي.

والموضوع الثاني: هو نتيجة للموضوع الأول، فقد نُظر إلى الدور الذي انحصرت فيه المرأة على أنه دور أمله عليها طبيعتها ذاتها. وهكذا نجد أنه حيثما يناقش الفلاسفة موضوع النساء صراحة فإنهم - في الأعم الأغلب - لا يمدون إليهن تصوراتهم المختلفة عن «الطبيعة البشرية»، فهم لم يخصصوا للنساء دوراً متميزاً فحسب، وإنما عرفوهن بطريقة منفصلة، وكثيراً ما تكون معارضة للرجال. فهم يبحثون في طبيعة النساء - لا على نحو ما يبحثون في طبيعة الرجال - أي محاولين أن يفصلوا الطبيعة عن نتائج التطبع (أو التربية)، وأن يكتشفوا العوامل الفطرية الكامنة الموجودة خلف الغشاء الذي أنتجته التنشئة الاجتماعية والعوامل البيئية الأخرى؛ بل إن طبيعة النساء تُرى بدلاً من ذلك، كشيء أمله البنية الاجتماعية والاقتصادية التي يفضلها الفلاسفة، وتعرّف على أنها تناسب أفضل وظائفها التي يحددها لها ذلك المجتمع.

أما الفلاسفة الذين يتساءلون، وهم يضعون قواعد نظرياتهم السياسية: «ماذا يشبه الرجال؟»، ما القوة الكامنة في الرجل؟ فإنهم يتجهون - في الأعم الأغلب - إلى جنس الأنثى ويتساءلون: «من أجل ماذا تكون النساء؟». فهناك إذن رابطة لا يمكن إنكارها بين «الطبيعة الأنثوية» المحددة والبنية الاجتماعية، والموقف الوظيفي تجاه المرأة ينتشر في تاريخ الفكر السياسي.

والنتائج المستخلصة هنا هي :

أولاً: لا يمكن إضافة النساء ببساطة إلى موضوع النظرية السياسية الموجودة، لأن أعمال التراث الفلسفي تقوم إلى حد كبير جدا على الزعم بالتفاوت وعدم المساواة بين الجنسين. وفي حالة المنظرين الذين تكون للمساواة بالنسبة لهم - بشكل أو بآخر - قيمة كبيرة، فإن معالجة لا مساواة النساء تتجه إلى أن تتوارى خلف الحديث عن رأس الأسرة الذكر أكثر من الفرد الناضج أو الراشد، باعتباره الوحدة الأولية في التحليل السياسي . والواقع أن معالجة المساواة التامة للنساء، تنطوي على ما هو أكثر كثيرا من حق التصويت، إذ أنها تحتاج إلى إعادة التفكير في معظم المزايم الأساسية في الفلسفة السياسية كما أنها تحتاج إلى دراسة الأسرة واعتماد المرأة تقليديا عليها ودورها التابع لها.

ثانياً: لما كنا قد فحصنا بعض النظريات النافذة عن النساء في القرن العشرين، وحللنا التمييز القانوني ضد النساء، فقد أصبح واضحاً أن هذه المشاعر لابد أن تكون موضع اهتمام عام، وليس بالنسبة للمؤرخين أو دارسي النظرية السياسية وحدهم، فالمعالجة الوظيفية للنساء - من وجهة النظر المألوفة عن طبيعة النساء ، ونمط الحياة المناسب الذي يقوم على دورها ووظائفها في بنية الأسرة الأبوية لا يزال حياً ومؤثراً في يومنا الراهن، والشخصيات العملاقة في علم الاجتماع الحديث، وعلم النفس المعاصر، تعرض حججا عن النساء توازي حجج «أرسطو»، و«روسو». وفضلاً عن ذلك، فإذا نحن فحصنا الآراء التي هبطت إلينا من المحاكم العليا في البلاد في القضايا التي تتضمن التفرقة بين الجنسين، فإننا نجد هنا أيضاً أن القضاة يستخدمون استدلالات وظيفية ذات طابع أرسطي مذهل لكي يبرروا معالجتهم النساء كطبقة مستقلة أو منفصلة. وهكذا نتأكد من أن الفهم العميق لهذا النمط من الحجج يمكن أن يساعدنا في رؤية السبب الذي جعل النساء - رغم حصولهن على الحقوق السياسية - لا يزلن مواطنات من الدرجة الثانية.

وتحتاج الفصول التي تلت ذلك إلى كلمة تفسير إضافية. فمن الواضح أن هناك أنواعاً كثيرة من اللامساواة في العالم الواقعي وفي النظرية السياسية معاً، ونحن هنا لم نعالج سوى نوع واحد منها هو اللامساواة في معالجة النساء. والمواقف التي اتخذتها النظريات السياسية كما سيتضح حول الأنواع الأخرى من نظريات المساواة واللامساواة لا توازي بالضرورة ولا حتى تتفق مع آرائها حول معالجة المساواة

واللامساواة بين الجنسين، فأولئك الذين ذهبوا إلى ضرورة وجود مساواة تامة وفعلية بين الجنسين تصبح أحيانا عدم مساواة من زوايا أخرى. كما أن بعض الفلاسفة - من ناحية أخرى - الذين قدموا حججا قوية بالنسبة للمساواة بين الرجال، عارضوا بنفس القوة المساواة بالنسبة للنساء. ولم أقم بمناقشة ذلك باستثناء موقف الفيلسوف من المساواة العامة أو اللامساواة العامة ما يؤثر في حججه بالنسبة للفروق بين الجنسين، أو لتوضيح عرض هذه الحجج. وليس ذلك بسبب أنني أنظر إلى الأنواع الأخرى من اللامساواة على أنها غير مهمة، بل بالأحرى بسبب أن المعالجة غير العادلة للنساء، قد ظلت مهمة طويلاً للأسف بين مدارس الفكر السياسي. والأنواع الأخرى من اللامساواة - اللامساواة في الطبقة بصفة خاصة بل أيضا اللامساواة القائمة على الجنس، والدين، والطبقة والأصل العرقي لم تتجاهلها بصفة مستمرة.

هذا الكتاب بمعنى ما يمكن مقارنته بمسرحيته «مات روزنكرانس وجلد رنشترن» ففي هذه المسرحية التي بُنيت أساساً على مسرحية «هاملت»، يشدد «توم ستوبارد»^(١) على هذا الزوج المراوغ أصلاً ويجعلهما، بدلاً من البطل التقليدي، في بؤرة أساسية من المسرحية، وبناء على ذلك فإن المسرحية، وجميع شخصياتها وعلاقاتهم ببعضهم البعض تُرى من منظور جديد تماماً. وبالمثل فعندما تتحول النساء اللاتي كن شخصيات ضعيفة باستمرار، في النظريات السياسية والاجتماعية في العالم الأبوي إلى شخصيات رئيسية، فإن المسرحية بل الشكل كله الذي تمثل فيه يبدو مختلفاً أتم الاختلاف.

(١) توم ستوبارد Tom Stoppard كاتب مسرحي انجليزي ولد عام ١٩٢٧ في تشكسلافيا - معظم مسرحياته كوميدية وكثيراً ما تُعالج مشكلات ميتافيزيقية وأخلاقية - أشهر مسرحياته هي التي تشير إليها المؤلفة وقد أصدرها عام ١٩٦٦ (الترجم).

الجزء الأول

أفلاطون

الفصل الأول

أفلاطون والتراث اليونانى فى كراهية المرأة

تبدو أفكار أفلاطون عن المرأة، فى البداية، لغزا لا يقبل الحل، وقد يتساءل المرء: كيف يمكن لفيلسوف متنسق التفكير بصفة عامة، أن يؤكد من ناحية أن جنس الأنثى خلق من أنفوس الرجال الشريرة، من أنفوس غير العقلاء، ثم يقترح من ناحية أخرى تربية متساوية، ودورا اجتماعيا واحدا للجنسين؟ كيف يمكن للفكرة التى تقول إن المرأة بطبيعتها شريرة وأكثر شرا من الرجل، أن تتفق مع الفكرة الثورية التى تقول إن المرأة يمكن أن ترتفع إلى مستوى الحكام الفلاسفة فى الدولة المثالية..؟ قبل أن نحاول الإجابة عن هذه الأسئلة. من المهم أن ننظر فى التراث اليونانى المتعلق بالمرأة. من حيث التربية، والوضع أو المكانة، وأن ندرس النساء الأثينيات فى ذلك العصر.

هناك نغمة كراهية للمرأة قوية وواضحة منذ بداية الأدب اليونانى عند الشاعر «هزيود» فى كتابيه «الأعمال والأيام»، و«أنساب الآلهة». فقد عاش الرجال على الأرض - طبقا لرواية هزيود - فترة طويلة أحرارا بغير مرض ولا تعب ولا جهد، ثم ظهرت بانديورا Pandora^(١) للمرة الأولى التى جلبت معها الشرور والشقاء للعالم، «ومنها ظهر جنس خبيث وقبائل من النساء، ومصدر عظيم للأذى، وعاشت جنبا إلى جنب مع الرجال الفانين»^(٢) وهكذا كان أول انحطاط للجنس البشرى مرتبطا بظهور المرأة أو

(١) الاسم Pandora يعنى «جميع العطايا» أو كل الهبات، وهى «حواء» فى الأساطير اليونانية، خلقها إله الحدادة الشانه الأعرج هيفاستوس وأعطتها أفروديت بعضا من جمالها، وعلمتها أئينا أعمال المنزل وغزل الصوف وأعطتها أفروديت شىءا من رشاقتها... الخ وهكذا حصلت على كل الهبات. رفض برومثيروس (المتبصر) الزواج منها، وتزوجها شقيقه «أبيمتوس» (أى المتهور أو العجول)... الخ. طالع قصتها بالتفصيل فى كتابنا «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الثالث ص ٩٤ - ٩٥ مكتبة ميبولى - بالقاهرة عام ١٩٩٦ (الترجم).

(2) Hesiod: Works: Theogony p. 585 and CF pp 87 ff. works and Days 73 ff.

العقاب الأزلى للرجل. رغم أنها كانت - لسوء الطالع - ضرورية للإنجاب، ومفيدة لأعمال المنزل. حتى أن هزيود ينصح الفلاح أن يحصل أولاً على المنزل، ثم على المرأة ثم على الثور الذى يحرث الأرض»^(١). لكنه يحذر قرأءه من الثقة فى المرأة بنأى وجه من الوجوه.

وفى استطاعتنا أن نستخرج من أعمال هوميروس صورة مماثلة؛ وإن كانت أقل عنفا فى عدائها للمرأة. يقول فينلي M. Finley عن عالم الأوديسة: «ليس من شك فى أن هوميروس يكشف تماما، ما ظل صوابا فى العالم القديم كله، وهو النظر إلى المرأة على أنها بحكم الطبيعة أدنى، وهى من ثم محكومة فى وظيفتها بإنجاب الأبناء، والقيام بالواجبات المنزلية، أما العلاقات الاجتماعية ذات المغزى، فينبغى أن تُترك للرجال وحدهم...»^(٢).

صحيح أن التراث اليونانى يصور وجود إلهات من الإناث لهن قوة ومركز وكرامة، إلا أنه ينبغى علينا أن نتذكر أن كلمة «إلهة» لا تدل بالضرورة على جميع الخصائص التى تلحق عادة بالأنثى البشرية. «فأعظم الآلهات - لا سيما الإلهة أثينا - كانت تُمتدح لما لها من صفات الرجولة»^(٣). ونادرا ما تُصور النساء الفانيات فى «الإلياذة» إلا على أنهن يسببن الغيرة ويشعلن الحرب، أو على أنهن جزء من الغنائم مثل الحيوانات والعبيد. وتلعب النساء فى الأوديسا نورا بارزا، مع الاستثناء الغريب لـ «أرتى Arte» ملكة «الفياقيين.. Phaeceans» النبيلة التى رفع لها «أوليس» .. الضيف الغريب استرحامه - فإنهن يهبطن عادة إلى المرتبة الثانية^(٤). وعلى الرغم من أن بنلوبى *Pene-lope* ^(٥) كانت توصف بأنها حكيمة، وصاحبة عقل ممتاز - فإنها كانت تقوم بالغزل

(1) Works and Days pp 400 f. and pp 370 f.

(2) M. I. Finley: The World of Odysseus p. 18

(٣) انظر أمثلة على ذلك «محاورة المانبة» 181 من أ - ج . والمرجع السابق ص ١٥١ .

(4) Homer: The Odyssey 50 - 60.

والمرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤ وأيضاً ص ١٥٠ .

(٥) بنلوبى التى نقضت غزلها هى زوجة أوليس القائد اليونانى الكبير فى حرب طروادة الذى ضل طريقه فى العودة ما يقرب من عشرين عاماً . وكان الخطاب طوال هذه المدة يتوافدون لخطبة بنلوبى التى وعدتهم أنها ستقوم باختيار واحد منهم بعد أن تنتهى من غزل ثوب كانت تنسجه، لكنها كانت تنقض فى المساء ما غزلته طوال النهار - فضرب بها المثل لوفاء الزوجة وأمانتها (المترجم).

والنسيج، فتلك هي وظيفتها الطبيعية. وكثيرا ما كان ابنها تليماك Telemachus ينهرها ويأمرها أن تعود إلى الأعمال المنزلية التي تناسبها كما لو كانت عبدا. فالنساء الأرسقراطيات - وحتى الآلهات - كن ينخرطن في الأعمال المنزلية مثل: غسيل الملابس، وإعداد الفراش للضيوف، وإعداد الطعام. ولا يتوقفن عن غزل الصوف.

وكما يقول فينلي: «كان يُحرّم عليها حق الحياة النبيلة، والاحتفال بالشجاعة، والاشتراك في ألعاب المنافسات، وقيادة الأنشطة من أى نوع، هكذا كانت النساء بغض النظر عن الطبقة التي ينتمين إليها»^(١) كن يعشن في ركن منعزل بعيدا عن الرجال لا يشاركن إلا نادرا في الاحتفالات والأعياد، وهن يرسلن، أو يبعن، كعرائس للرجال الذين اختارهم لهن أباهن.

وتصف أشعار «هوميروس» عالما تنطبق فيه مقاييس الامتياز على أشخاص يعتمدون على أوضاعهم ووظائفهم المحترمة في المجتمع. والنظرة الفاحصة لهذا التصور الأخلاقي جوهرية لفهم الكتابات الكلاسيكية على الأقل حتى أرسطو. فكلمات المديح الرفيعة مثل جيد Agathaos وممتاز أو فاضل Arete لم تكن في الأصل تقال إلا على أولئك الذين يقومون بأوار الرجل الهوميري الأرسقراطي^(٢). وهذه الكلمات تعنى أن الفرد الذي تقال عنه يملك في أن معا المهارات الداخلية والمصادر المالية الخارجية الضرورية التي تجعله قادرا على إنجاز هذا الدور. يقول «أ. و. أدكنز A. w. Adkins»: لكي يكون المرء فاضلاً لابد أن يكون شجاعا، ذا مهارة، ناجحا في الحرب والسلم على السواء. ولا بد أن تكون لديه الثروة ووقت الفراغ (في السلم) في أن معا بوصفها الشروط الضرورية لتطوير هذه المهارات، كما أنها في الوقت ذاته المكافأة الطبيعية لهذه الوظائف الناجحة»^(٣). ومعظم أفراد المجتمع لا سيما النساء، غير مؤهلين لمثل هذا الامتياز الأرسقراطي الذكوري. وهكذا نجد أن فضيلة المرأة هي تصور مختلف اختلافا كبيرا، ذلك لأن الفضائل المطلوبة للنساء لتمكينهن من أداء وظائفهن على

(١) فينلي «عالم الأوديسة» ص ٨٢

(1) A. W. Adkins: "Merit and Responsibility: A Study in Greek Values" pp 30 - 36. Alasdain

(2) Ma Intyre: "A Short History of Ethics" Chapter 2.

(3) A. W. Adkins: "Merit and Responsibility pp 33 - 39 .

أحسن وجهه هي فضائل مختلفة أتم الاختلاف تتعلق بالجمال، واعتدال القوام، والمهارة في الغزل والنسج، وأعمال المنزل، وقبل ذلك كله الإخلاص في الحياة الزوجية. والمبرر الواضح لمعيار الامتياز هذا عند النساء هو - كما يشير ادكنز - أن الرجل هو الذي يحدد المقاييس ويضع المعايير؛ في هذه الحضارة الأبوية بالمعنى الدقيق، ومن هنا كان العنصر المهم هو أداء النساء لوظائفهن من حيث علاقة هذه الوظائف بالرجال. ولما كانت النساء محصورات في أعمال المنزل فلم يكن ثمة حاجة أن يطلب منهن أن يكون لهن فضائل الإقدام والمنافسة المطلوبة للمحاربين من الرجال^(١).

وعلى حين أن سلوك أبطال هوميروس تكشف عن أن الواحدية الجنسية [ممارسة الجنس مع امرأة واحدة] لم تكن مفروضة على الرجال، فإن أسوأ جريمة يمكن أن ترتكبها امرأة هي خيانة زوجها. ومن هنا كانت هيلين Helen^(٢) - وربما أسوأ منها كلوتومنسترا^(٣) خائنات وبغايا وهن الوغدادات الحقيقيات في شعر هوميروس. وكثيرا ما كانت تؤخذ الأخيرة كضد مختلف عن نبلوبى الفاضلة. والمرأة عرضة للغواية بسبب ضعفها وطبيعتها الشريرة. وحتى بنلوبى الفاضلة كانت تخشى على نفسها أن تتحول عن طريق «السحر والفتنة» مثل هيلين - فعلى الرغم من إخلاصها الطويل، فإن الارتياب في أن تقع في النهاية في الخيانة أو أن تنسى زوجها كان يتغلغل في قصيدة هوميروس (الأوديسة)^(٤). وهكذا نجد أن موضوع الشر الأنثوي، وخيانة الأنثى، موجود عند هوميروس بقدر ما هو موجود عند هزيود. ويقال لنا إن كلوتومنسترا «لم تلتخ نفسها فقط، بل جنسها كله، وكل امرأة شريفة إلى أبد الدهر...»^(٥).

(1) | bid. pp. 36 - 37.

(٢) فينلى «عالم الأوديسة» ص ١٤٨، وادكنز «الجدارة والمسئولية» ص ص ٤٠ ، ٤٢ .

(٣) هلن Helen (والكلمة تعنى القمر) أجمل امرأة في العالم - هكذا تقول الأساطير اليونانية - زوجة «مينولاوس» ملك أسبرطة، خانتته وأحببت الأمير الطروادى «باريس» - وهربت معه إلى طروادة وكان ذلك هو السبب المباشر في اندلاع حرب طروادة - راجع كتابنا «معجم أساطير العالم» المجلد الثانى ص ١١٥ مكتبة مدبولى عام ١٩٩٦ (المترجم).

(٤) زوجة البطل أجامنون قائد الأسطول اليونانى في حرب طروادة خانتته زوجته وأعدت العدة مع عشيقها لقتله عند عودته من الحرب، انتقم منها ابنها «أورست» (المترجم).

(4) Odysseus, 11, 334/ p. 182 - 3.

لم ينصلح حال المرأة من العصر الهوميروى إلى العصر الكلاسيكي، ويصدق ذلك بصفة خاصة على أثينا فى العصر الكلاسيكى^(١). فالوظيفة الطبيعية للمرأة كمربية لأطفالها، ومدبرة لمنزلها، سجلتها الآداب الكلاسيكية اليونانية تسجيلاً جيداً، فيعرض علينا أكسانوفون Xenophon^(٢) فى كتابه عن الاقتصاد أو تدبير المنزل صورة لزوجات نموذجية لأحد ملاك الأرض الأثينيين: «تخضع لرقابة صارمة حتى ترى وتسمع أقل قدر ممكن، ولا تسأل إلا أقل أسئلة ممكنة». فوالداها يقدمانها إلى زوج وهى فى سن الخامسة عشرة يقوم بتدريبها حتى تستطيع النهوض بأعباء المنزل^(٣). أما قسمة العمل التقليدية بين عمل للرجل وآخر للأنثى، فإنها تقدم لها على أنها قدرٌ فرضته الآلهة وهو مغروس بعمق فى الصفات الطبيعية للجنسين. ويؤكد «فكتور اهرنبرج» -Victor Ehrenberg فى دراسته للمجتمع اليونانى أن هذا هو الوصف النمطى للحياة المألوفة التى كانت تعيشها المرأة «فالزواج يخضع لمشيئة أهلها، ولا اعتبارات اقتصادية ولا تتعلم الفتيات إلا تدبير شئون المنزل». حتى بالنسبة لافيجينيا Phigenia^(٤) تُقدم [فى الأدب اليونانى] على أنها عاجزة عن الكتابة، ويلاحظ اهرنبرج ملاحظة مهمة، هى أن الشخصيات النسائية البارزة القليلة فى كوميديا «أرستوفان»^(٥) لا يلقي أى شك على هذا الانطباع العام. بل هن بالأحرى لا يكتسبن تآلقهن الصارخ، إلا إذا نُظر إليهن

(1) John Addington Symonds: A Problem in Greek Ethics P. 44. Jean Ithurriague: Les Idées de Platon sur La Condition de la Femme P. 38, 47. Sarah B. Pomeroy: "Goddess, whores, Wives, and Slaves, Chop.4 and 5.

(٢) أكسونوفون (وأحياناً يرسم زينوفون) ٤٢١ - ٣٥٢ ق.م مؤرخ يونانى وتلميذ سقراط. كتب الذكريات (عن حياة سقراط وتعاليمه). وكذلك «المأدبة» وهى محاوره كان فيها سقراط الشخصية الرئيسية (المترجم).

(3) Xenophon: Oeconomicus, in "Xenophon's Socratic Discourse" Trans. Carnes Lardx ed Leo Strauss, Ithaca, 1970, P 29 and C F 30 - 33 .

(٤) افيجينيا Iphigenia ابنة أجاممنون فى الأساطير اليونانية اضطر والدها أن يضحي بها خلال حرب طروادة لاسترضاء الآلهة أرتميس التى كانت قد أثارت رياحاً معاكسة حالت نون إبحار الأسطول - طالع قصتها فى كتابنا «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الثانى ص ١٩٦ (المترجم).

(٥) أرستوفان Aristophanes (٤٥٠ - ٣٨٨ ق.م) كاتب مسرحى يونانى يُعد أعظم شعراء الكوميديا فى العالم القديم (المترجم).

تماما بناء على خلفية الحياة اليومية للنساء»⁽¹⁾، وعزل النساء المحترمات في حياتهن ضرورة صارمة. وهن بصفة عامة يعشن في ركن منعزل من الدار (هو ركن الحریم) يفصله عن الجزء الخاص بالرجال باب مغلق، إذ لا ينظر إلى الزوجات أو الفتيات على أنهن يصلحن للمشاركة في المناقشات الجادة، علما بأن إنكار خبرتهن العقلية يستمر حتى في سن النضج؛ فهن يعاملن معاملة القاصر، إذ يحرم عليهن ما يحرم على الفتيان تحت سن الثامنة عشرة. ولا يُسمح للمرأة في ظل القانون الأتيكي Attic Law [أى القانون الأثيني] أن ترفع دعوى أمام القضاء إلا عن طريق الكفيل القانوني. كما يمنع النساء من الاقتراب من الأماكن التي يناقش فيها الرجال والفتيان مسائل عقلية أو شئوننا مدنية : الملاعب، والأسواق، ودور القضاء، والموائد. وكما يقول جون أدنجتون سيمونديز، ملخصا الموقف: «إن جميع العناصر العليا في النشاط الروحي والذهني، والظروف التي يمكن أن تتصور فيها الانفعالات السمة الكريمة.. أصبحت مميزات خاصة بالرجال وحدهم.. كما أصبح إطراء العواطف مقتصرًا على جنس الذكر»⁽²⁾.

ولم تكن أنشطة النساء في أثينا وحركتهن محدودة بقسوة فحسب، كما هي الحال في عصر هوميروس، وإنما امتد هذا الكبت، وبنفس القوة، إلى شخصياتهن أيضا. وهناك أكثر من شاهد في المسرح اليوناني على تطبيق ذلك «المثل القديم» الذي اقتبسه أرسطو من مسرحية «أياس Ajax» لسوفكليس «الصمت المتواضع هو تاج المرأة»⁽³⁾. وفي الخطاب الجنائزي - يكشف بركليز بوضوح عن التفاوت بين المعايير المعاصرة

(1) Ehrenberg: The People of Aristophanes p. 202 and 295 - Society and Civilization in

(2) Greece and Rome. P. 59. Cf. Ronald B. Levinson. : " In Defence of Plato" F. 83.

(3) Symonds: A Problem in Greek Ethics p. 12 .

وكمراجع لهذه الفقرة بصفة عامة انظر ص ص ٣٢ ، ٦٤ وأيضا:

Glenn Morrow: Plato's Cretan City p. 285 n. 111. Levinson p. 82 - 85 Ithurriague pp 47 - 48 .

Grube: Plato's Thought.' pp 87 - 88. H. D. Rankin: "Plato and the individual" pp. 83 - 84 Alvin Gouldner: Enter Plato, p 62 .

(3) Sophocles: Ajax, pp. 291 - 293. Aristotle The Politics, I, XIII, 11 - CF. Lysistrata pp 41 - 42 . and Ehrenberg: The People of Aristophanes, p. 202.

للامتياز التي تطبق على الرجال وعلى النساء. ففي هذا الخطاب الذي يتضمن إطراء للرجل الأثيني - وهو نموذج كلاسيكي شهير يتحدث عنه اليونانيون - ينصح بركليز النساء الأرامل أن يتحلين بذلك «الامتياز الأنثوي» [وهو الصمت] الذي يتفق مع «خلقهن الطبيعي» وسوف يُنسب أعظم مجد «للك المرأة التي تتكلم أقل ما يمكن وسط الرجال سواء قالت قولاً حسناً أو سيئاً..»^(١).

ومما يدعو للسخرية أن دعاوى الاحترام لا تشترط في نساء الطبقة الراقية في أثينا ممن يرغبن في الزواج - تحصيل أى قدر من المعلومات عن مجتمعهن أو ثقافته، أكثر من الموجود عند البغايا والعاهرات اللاتي يتحول إليهن الرجل في حرية. والتفرقة الصارمة بين هذين النوعين من النساء وهي تفرقة ظلت قائمة حتى العصور الحديثة، كما استمر موقف اليونان الأساسى تجاه النساء، توضحها العبارة الآتية المقتبسة من مرافعة ديموستين في قضية «ضد نيرا .. Against Naera»: «إن من يعيش مع امرأة ويتخذها زوجة، فإنه يريد أن يكون له منها نرية، وأن تصبح نريته أعضاء في العشيرة أو القبيلة أو أية وحدة إدارية في أثينا، وأن يخطب البنات للأزواج كما يفعل مع بناته. أما الخليلات فنحن نحتفظ بهن من أجل اللذة والمتعة، والمحظيات من أجل الرعاية اليومية بأشخاصنا. لكننا نتخذ الزوجات لينسلن لنا أطفالاً شرعيين، وللعناية بالمنزل عناية فيها إخلاص وأمانة»^(٢). وهكذا نجد أن قيمة النساء المرشحات ليكن زوجات من المعاصرات لأفلاطون تنبع من العفة، الصمت القناعة والاقتصاد، لكنها لا تنبع من شخصية المرأة بأى معنى إيجابى. ولقد أشار كريون Creon إلى مدى تموضع ذلك - عندما سئل: أهو ينوى أن يقتل عروس ابنه، فقال: «حسناً! إن هناك حقولاً أخرى أمامه يمكن له أن يحرقها!»^(٣). فهناك إذن شواهد على أن النساء من أبناء الطبقة الراقية في

(1) Thucidides: The pelponnesian war I, vi, p. 109.

(2) Demostenes: Private Orations iii. p. 122. CF. Ehrenberg: Society and Civilization p. 26

للتأكد. عن انتشار هذا الموقف.

(٣) سوفكليس أنتيجونا ٥٧٠ (المؤلفة) - وعروس ابنه هي أنتيجونا التي خالفت قوانين المدينة عندما أصرت على دفن أخيها الخائن. وكانت عقوبة عملها الإعدام، رغم أنها كانت في الوقت نفسه خطيبة ابن الملك كريون الذي أصرت أن تدفن حياً كما كانت تقضى القوانين. أما تعبير الحقل والمحراث فهي تعبيرات جنسية إذ كان المحراث رمزاً لقضيب الرجل، بينما تشير الأرض إلى المرأة. والمقصود أن هناك فتيات أخريات يمكن أن يمارس معهن الجنس أو يتزوج منهن (الترجم).

أثينا قد انحصرت أعمالهن في وظيفة واحدة، إذ ليس لهن أدنى اهتمام بتلك المجالات من الحياة التي تعتبر مهمة في نظر الرجال بل هن يفقدن حتى ذلك العبير السرى الذي اكتسبه جنسهن - فيما بعد - في ظل المسيحية، على نحو ما كانت موضوعات الحب في التراث الرومانسى، وإنما يقيّم فحسب على أنهن ينجبن ورثة شرعيين.

وقد يبدو غريباً في مثل هذا الجو أن يصبح تحرير النساء موضوعاً للنقاش، بل إن كبت النساء - على نحو ما حدث في العصر الفكتورى في إنجلترا - قد وصل إلى الذروة في بداية القرن الرابع قبل الميلاد، وأصبح وضع النساء موضوعاً حياً في أثينا، فتناوله أرسطوفان في كوميديا بعنوان: «الإكليزيا زوست» Ecc Lesiazusae (أى نساء الجمعية)^(١)، ومسرحية ليزيستراتا... Lysistrata^(٢)، فتلك شواهد جيدة على أنه أصبح موضوعاً جارياً للأحاديث الساخرة والهزاء. فضلاً عن ذلك فيبدو أنه ليس ثمة شك في أن سقراط التاريخى^(٣) كان يطرح أفكاراً أبعد ما تكون عن التفكير النمطى لذلك العصر فهو يقول مثلاً في «مأدبة» أكسانوفون: «إن طبيعة النساء ليست أدنى من طبيعة الرجال على الإطلاق» وإن كان ينتهى إلى نتيجة تنطوى على مفارقة، عندما يقول: «كل ما ينقص المرأة وتحتاج إليه هو القوة والحكم»^(٤). وفي محاورات أفلاطون الأخرى - غير «الجمهورية» - هناك كذلك فقرات متعددة يقترح فيها سقراط وجهة نظر خنثوية أكثر عن الطبيعة البشرية، وبصفة خاصة عن الفضيلة البشرية - أكثر مما كان

(١) مسرحية «نساء الجمعية» - والجمعية هنا هي الجمعية التشريعية أو النيابية أو المجلس التشريعى أو النيابى - وهى تنور حول نساء أثينا يتخفين في زى الرجال ويملأن مقاعد الجمعية. وترجح أصواتهن على أصوات أزواجهن وإخوانهن وأبنائهن، ويختار منهن حكام الدولة. وتتزعّم هذه الحركة امرأة تدعى براكساجورا Praxagora - وهى شديدة الحماس لنيل النساء حقوقهن السياسية، وهى تتهم بنات جنسها بالفقلة لأنهن يرضين أن يحكمن الرجال البلهاء، وتقترح أن تقسم الثروة بالتساوى بين المواطنين على أن يترك الأرقاء من غير أن يفسدهم الذهب. ويتخذ الهجوم على المدينة الفاضلة صورة عنيفة.. (المترجم).

(٢) تنور مسرحية «ليزيستراتا» - حول قيام هذه الفتاة بتزعّم نساء أثينا فى حركة ترمى إلى وضع حد للحروب المتصلة التى شغلت رجال أثينا - فتقرر النساء فى اجتماع عظيم بقيادة «ليزيبتراتا» الإضراب عن النوم مع أزواجهن حتى يتعهد هؤلاء الأزواج بالكف عن القتال. وقد كتبها أرسطوفان عام ٤١١ ق.م (المترجم).

(٣) أى شخصية سقراط كما هى فى الواقع وليست تلك التى صورها أفلاطون أو خلقها أكسانوفون (المترجم).

(4) Xenophon: Symposium, 11, 9, in The Works of Xenophon London 1897.

موجودا، عادة، فى السياق الثقافى. فهو فى محاوره مينون Meno مثلاً وفى سياق البحث لاكتشاف طبيعة الفضيلة، يصدر تأكيداً حاسماً بأن للفضيلة كيفاً واحداً عند المرأة كما هو عند الرجل، ولا فرق بينهما، عندما حاول «مينون» الإشارة إلى الواجبات التقليدية المختلفة وأسلوب الحياة المختلف بين الجنسين. لكنهما معا - فيما يرى سقراط - يحتاجان إلى ضبط النفس والاعتدال، والعدالة، إن أرادا أن يكونا جيدين فى عملهما سواء فى إدارة المنزل أو إدارة المدينة، ومن ثم تكون الفضيلة صفة إنسانية لا تتحدد بطرق مختلفة تبعا لجنس الفرد الذى نتحدث عنه^(١).

وفى محاوره «بروتاجوراس» يكشف سقراط عن رفضه للمعايير الشائعة للنساء بأن يمتدح أسبرطة وكريت ليس فقط لتراثهما الفلسفى القديم، وإنما لأنهما يعرضان علينا نماذج من النساء - وأيضا من الرجال - «يفخرون بثقافتهم العقلية...»^(٢).

ومع ذلك فهناك فى المحاورات أمثلة أخرى عديدة - يذكرها سقراط - تعبر عن كراهية لا حد لها للنساء. وما دام يستحيل فصل أفكار سقراط التاريخى عن أفكار أفلاطون، فإن النقطة المهمة التى ينبغى الإشارة إليها - سواء أكانت هذه الأفكار خلقها سقراط أصلاً أم لا - هى أنه كان هناك فى بيئة أفلاطون الشاب آثار من الفكر الراديكالى عن النساء، تكسو تراثاً قويا من الكراهية لهن.

تصوير النساء المنتشر فى محاورات أفلاطون هو استنكار إلى أقصى حد، وهذا التصوير لجنس الأنثى يعكس إلى حد كبير وببساطة شديدة: إما الانحطاط المعاصر لوضع النساء، أو أن أفلاطون ورفاقه (لا سيما نظريتهم عن الحب) كانت تسيطر عليهم

(١) فى محاوره مينون يدور الحوار على النحو التالى :

- ألم تقل: إن فضيلة الرجل هى حسن إدارة المدينة، وفضيلة المرأة هو حسن إدارة المنزل؟
- بلى !

- وهل يمكن حسن إدارة المدينة أو المنزل إلا بالعدل والحكمة؟

- أى أن الرجل والمرأة بحاجة معاً إلى الشئ نفسه، إن أرادا أن يكونا فاضلين، أعنى أنهما معاً بحاجة إلى العدالة والحكمة... - محاوره مينون لأفلاطون - ٧٣ أ و ب (الترجم).

(٢) «ليس الرجال فقط فى اسبرطة وكريت هم الذين يفاخرون بثقافتهم العقلية، بل النساء أيضاً...»
بروتاجوراس ٢٤٢ (الترجم).

الجنسية المثلية. غير أن هناك كذلك فقرات فى المحاورات تشمل أحكاماً أكثر من أن تكون ضد نساء المجتمع الأثينى، بل تشير إلى اعتقاد عام عند المؤلف بأن جنس الأنثى بفطرته أدنى من جنس الذكر بالضرورة، وسوف ندرس فقرات من هذين النوعين على التوالى :

- واقعة عدم وجود امرأة تشارك بشخصها وبأية طريقة فى محاورات أفلاطون - هذه الواقعة تشكل بذاتها دلالة على الاتجاهات المنتشرة فى ذلك العصر، كما تدل على خصائص الحياة فى أثينا. وليس من المعقول أن تعطينا هذه الواقعة شيئاً من آراء أفلاطون الخاصة عن مقدرة النساء فى الحوار العقلى. فالقول بأن نساء المنزل الذى أقيمت فيه «المأدبة» لسن حاضرات فى حفل العشاء، لكنهن «هناك بالداخل» لا يقول شيئاً عن أفلاطون سوى أنه اختار أن يجرى محاوراته بطريقة واقعية تتفق مع سياق المجتمع المعاصر. والواقع أن النقطة المهمة فى الحديث إنما جاءت على لسان امرأة هى الكاهنة «ديوتيميا»^(١). وقل مثل ذلك فى خصائص المرأة عند أفلاطون التى يجعلها تقوم بغزل الصوف ونسجه، فذلك وصف دقيق لدور المرأة فى المجتمع الأثينى. وفضلاً عن ذلك فإن لغته تحوى الكثير من النقد والاستنكار لجنس الأنثى. كأن يصف سلوكاً بأنه «نسائى أو أنثوى» ليعنى السلوك الجبان، وينبغى علينا أن لا نظن أنها استخدامات خاصة بأفلاطون، وإنما هى تعبيرات دارجة^(٢).

ولا شك أن أفلاطون يشارك رفاقه من الأثينيين احتقارهم للمرأة فى عصره، فهو يضعها مع الأطفال والحيوانات فى مقولة واحدة، ومع غير الناضجين والمرضى والضعاف^(٣)، ولا تخلو محاوره الجمهورية من تمثيل النساء على هذا النحو. فقبل تقديم الفكرة الثورية الخاصة بإدخال النساء ضمن طبقة الحراس، هناك تأكيد على منع الحراس الشبان من تقليد النساء^(٤) - فالمرأة كثيرة اللجاجة، والتباهى، غير

(١) انظر بالنسبة لهذه الكاهنة عرضاً تفصيلياً لرأيها فى كتابنا «نساء.. فلاسفة» ص ص ١٨٢ - ١٩١ مكتبة مدبولى بالقاهرة، عام ١٩٩٦ [المترجم].

(2) Symposium, 173 e, Ion, 540, and Levinson in Defense of Plato, p. 129.

(3) Laws 817 C. Letters, VIII, 355 c. Thaetetus 171 E.

(٤) «وإذن فسوف نكون على حق لو جنبنا عظماء الرجال ذلك العويل والنحيب وتركناه للنساء.. الجمهورية: ٢٨٨ (المترجم).

متعاونة، معتنية بنفسها، مجدفة، سهلة الانقياد، هشة أمام المرض، والحب، والعمل. فضلاً عن أنه سهل خداع النساء بالبهجة التي لا قيمة لها، وبالخرافات، كما أنه عرضة للإفراط في الحزن، تعوزهن معرفة ما يصلح لهن، أو ما هو خير بالنسبة لهن، وهن أدنى في العقل وبصفة عامة من الرجال، ولا يصلحن كنماذج للشباب أكثر من المجانين، والحرفيين، والعبيد^(١). وفضلاً عن ذلك فإننا نجد أفلاطون يسوق تبريراً - في جزء له مغزاه - لمنع المعاشرة الجنسية المثلية، فإلى جانب أن أحد الطرفين تنعدم فيه الرجولة، فإنه يستسلم لشهواته ويقوم بدور الأنثى البغيض^(٢).

وعلى الرغم من أن أفلاطون يستهجن ممارسة اللواط، فإن فلسفة أفلاطون في «الحب»، على نحو ما عرضها في محاورتي «فايدروس» و«المأدبة» تعكس كلها الجنسية المثلية التي كانت منتشرة بين الطبقات الراقية في أثينا. وكما يقول جريجورى فلاستوس G. Vlastos : «إن الدراسة الجيدة لنظرية أفلاطون عن الحب، لا بد أن تضع في اعتبارها ثلاثة أمور على الأقل: أ) أن صاحبها كان يمارس الجنسية المثلية. ب) أنه صوفى . ج) أنه أخلاقي...»^(٣). وإذا ما أخذنا الجنسية المثلية عند أفلاطون جنباً إلى جنب مع اعتقاده بأن المعاشرة الجنسية من الإست «مضادة للطبيعة»، وهي انحطاط لا لإنسانية الإنسان فحسب، بل أيضاً لحيوانيته - لفسرنا كثيراً من أصل الفكرة التي تقول إن الجانب الجسدى في الحب ينبغي قهره، وتجاوزه، حتى نستطيع الوصول إلى الموضوع الحقيقي للحب وهو فكرة الجمال نفسها. ويمكن على هذا النحو أن نفهم النظرية الأفلاطونية في الحب - في جانب كبير منها - على أنها الحاجة إلى إعلاء الدوافع غير المرغوب فيها.

خلال المحاورتين المخصصتين للحب، كان حب النساء أمراً مستتقراً إذ من الملاحظ أن أحداً - بمن في ذلك سقراط - لم يُبدِ أى اعتراض على تفسيرات الحب التي قدمها «بوزيناس» أو «أرسطوفان»، وهما معا قد حملا بعنف على الجنسية المغايرة

(1) Republic 3872 - 3882, 395, 431, b - c , 605 d - e Laws 639b.

(2) Laws 836 e.

(3) G. Vlastos: Platonic Studies T D. 24 - 25, Princeton University Press.

[أى العلاقة الجنسية بالمرأة] - فقد قسم «بوزنياس» الحب إلى نوعين^(١): الحب المخصص لأفروديت السماوية - الأخت الكبرى^(٢) «التي ليس فيها شيء من خصائص الأنثى، بل خصائص الذكر تماما»^(٣)، وأفروديت الصغرى الأرضية التي تشارك طبيعتها فى الأنثى والذكر معا ولا شك فى خسة ودناءة الحب الذى يُنسب إلى أفروديت العامية الأرضية فهو حب يؤثر فى الناس تأثيرا وقتيا عابرا ويعتمد على المصادفة وحدها. وهو الحب الذى يعمر قلوب السفلة، ومن علاماته أنه يتجه إلى النساء والغلمان، فهو حب حسى لا روحى يسعى لإشباع شهواته البهيمية. أما أفروديت السماوية فهى الكبرى التى يُنسب إليها النوع الممتاز من الحب فلا أثر للأنثى فيها، لأنها جاءت من الذكر وحده [لها أب وليست لها أم!] وهى لذلك بريئة من نزق الشباب وطيشه وهى تلهم أتباعها بالاتجاه نحو الذكر وحده مفضلة الأقوى والأعقل^(٤).

أما أرسطوفان فعنده أن الرجال المحظوظين حقا ليسوا من يبحثون عن نصفهم الأنثوى الضائع، بل أولئك الذين يبحثون عن الرجال، وهم الذين تدفعهم بواقعهم الجنسية إلى أعضاء من نفس جنسهم. هؤلاء الرجال لديهم «أعظم تكوين رجولى» وهم الذين يبدون رجولة حقيقية فى الحياة العامة الذين يحبون الغلمان أكثر من حبهم للنساء، ويفضلون قضاء حياتهم كلها مع الرجال، وهم يتزوجون وينسلون أطفالاً فقط استجابة لعادات المجتمع^(٥).

وينتشر مثل هذا التحيز - رغم أنه يُنسب إلى امرأة حكيمة. فعلى الرغم من أن هناك حبا للجنس الآخر والإنجاب، الذى يؤخذ رمزا تدور حوله نظرية الحب - فإن سقراط يشوه سمعة الاتصال الجنسي، وإنجاب ذرية من الجسد لصالح إنجاب أعلى

(١) كان بوزنياس يعتقد أنه لا توجد أفروديت واحدة بل اثنتان، «أفروديت الكبرى وهى بنت أورانوس ولا أم لها واسمها أفروديت السماوية، وأفروديت الصغرى... وتسمى أفروديت العامية. والحب الذى يرتبط بها نسميه بالحب الوضع...» المأذبة ١٨١ ح (الترجم).

(٢) «من يعمر قلبه الحب السماوى يميل إلى الذكور دون الإناث، فالذكر أقوى وأنكى بالطبيعة...» - المأذبة ١٨٢ (الترجم).

(٣) لاحظ أنها ابنة أورانوس إله السماء ولا أم لها فلا أثر للأنثى فيها على الإطلاق! (الترجم).

(4) Symposium, 18 a - d.

(٥) المأذبة ١٨٩ د و ١٩٢ ح لا سيما ١٩٢ .

هو «حمل وولادة من الروح». وهو يقابل بين الحب الذي يختار المرأة موضوعا له ويؤدي إلى تكوين الأسرة، وبين حب الذكور من خلال ولادة الأفكار، والشعر والقانون، ويمكن أن نعلو على حب فرد جزئى لنصل فى النهاية إلى معرفة جمال الروح نفسها^(١). ويذهب «جريجورى فلاستوس» إلى أن استخدام صورة الجنس الآخر للإنجاب تدل إلى حد ما، على عدا للجنسية المغايرة وللنساء، وهو عدا كامن فى النظرية. وينتهى إلى أنه فى ذروة فلسفة الحب بأسرها، حيث تواجهنا فكرة الجمال وجها لوجه، فإن «صورة الجنسية المثلية تسقط». «وما بدا على أنه لواط ينتهى إلى زواج أعلى»^(٢). وليس واضحا بالضبط ما الذى يعنيه فلاستوس بذلك. وعلى أية حال فلو أنه كان يقصد - كما يبدو أنه يفعل - أن هناك إدخالاً لأية جنسية مغايرة فى نظرية النوع الأعلى من الحب، فإن النتيجة التى انتهى إليها تكون بغير أساس يدعمها. فعلى الرغم من استخدام أفلاطون لصورة «نموذج الجنسية المغايرة» كما يقول فلاستوس، فمن الواضح أن النسخة الرمزية من الإنجاب - الإنجاب الروحى الذى هو الإنجاز الوحيد للحب فى الجنسية المثلية - هى الفكرة الجديرة بالمعالجة الفلسفية.

وكما يقول سقراط «مَنْ ذا الذى لا يُفضّل مثل هذه الأبوة عن مجرد التناسل البشرى المعروف؟»^(٣). وكما أن أفلاطون استخدم صورة تنطبق أصلاً على الجنسية المغايرة - فإنه استخدم كذلك صورة حرفة الغزل خلال محاورة «السياسى». ومع ذلك فليس لدى القارئ فى الحالتين ما يبرر الانتقال إلى موضوع حقيقى للنقاش عن خصائص الموضوع المجازى فيما عدا تلك الخصائص التى تحول إليها بالفعل.

فجانِب الجنسية المغايرة من الصورة ليس من ثم سوى الانتقال المشروع إلى دائرة اهتمام أفلاطون الحقيقية منه الانتقال إلى جانب العمل اليدوى الآخر. ومن الواضح تماما - على الرغم مما يقوله فلاستوس - أن رؤية أفلاطون للحب كطريق مؤد إلى المتعة الفلسفية يستبعد النساء تماما، غير أننا إذا ما وضعنا فى ذهننا بنية أثينا الاجتماعية ووضع النساء فيها؛ فإن رؤيته هذه لا تدهشنا. طالما أن الرجل

(1) Symposium 208 a 211 E CF. Thaetetus 150 .

(2) G. Vlastos: The Individual as an Object of Love P. 42.

(3) Symposium, 209 C.

الأرستقراطي اليوناني في ثقافة عقلية واعية بتحضرها كهذه، سيكون من المستحيل عليه بالفعل، أن تنمو أية علاقة حميمة بينه وبين المرأة، ما دامت النساء قد اضطرن لأن يصبحن على هذا النحو، فضلاً عن اعتقاد أفلاطون أن الحب الوحيد بين الرجال يمكن هو وحده أن يكون من ذلك النوع الرفيع الذي يمكن فهمه تماماً. وإذا كان السياق المعاصر على هذا النحو فلا عجب أن نجد في محاورتي «فايدروس» و«المأدبة» برهنة على تفضيل حب الجنسية المثلية على حب الجنسية المغايرة وتأكيداً على سمو الأخلاقى للأولى^(١) !

ولا يمكن أن نكون معقولين إذا ذهبنا إلى القول بأن احتقار النساء الذي تعرضه أو تتضمنه الأمثلة السابقة كلها، ليس حكم إدانة على جنس الأنثى كله في الحاضر والماضي والمستقبل، وإنما هو يستهدف فقط نساء أثينا في عصره. لكن هناك فقرات متنوعة في المحاورات تشير إلى إيمان عام بدونية أي أنثى بشرية في أي عصر. والفقرات الصارخة من هذا النوع هي الموجودة في محاور «طيمائوس» وهي المحاور التي كتبت بعد «الجمهورية» مباشرة^(٢).

فهو هنا يحدثنا عن خلق الإنسان بطريقة تذكرنا بهزيود ، فهو يقول : «الطبيعة البشرية نوعان: الجنس الأعلى وسوف يسمى من الآن فصاعداً باسم "الرجل". فلم يكن الخلق الأصلي يتألف إلا من الرجال. أولئك الذين استطاعوا قهر شهواتهم أصبحوا فضلاء على الأرض، وسوف يُسمح لهم بالعودة إلى سعادة النجوم التي أتوا منها. أما بالنسبة لأولئك الذين فشلوا على الأرض، والجبناء والأشرار، فسوف يعاقبون بأن يولدوا من جديد نساءً^(٣). وهكذا خلقت المرأة بناءً على أسطورة أفلاطون، فهي لم

(1) CF. Levinson: In Defense of Plato p. 121.

(2) Timaeus 42 - a - d.

وهو يقول في محاوره طيمائوس « الطبيعة البشرية على نوعين، والجنس الأعلى منهما سوف يتسم بسمة خاصة، ويدعى فيما بعد رجلاً، ٤٢ أ (الترجم).

(٣) وفي محاوره «السياسي» كذلك يصور العصر الأصلي الذي كان فيه الرجال لا يولدون من النساء، بل ينبثقون كاملي النضج من الأرض ثم يتطورون إلى الوراء فيعودون أطفالاً ثم يفنون. عندما تخلى ا عن الجنس البشري، فقد كان عليه أن ينسل نفسه، وأن يتطور من الطفولة حتى الشيخوخة. ولم يكن هزيود وأفلاطون وحدهما، بل أيضاً أرسطو، والتراث المسيحي وروسو - فهم جميعاً لديهم نسختهم الخاصة من أسطورة انكشاف عصر للرجال عاشوا فيه قبل ظهور النساء.

تخلق من الرجل فحسب كما جاء في سفر التكوين، بل خلقت من الرجال الأشرار الفاشلين. وإذا لم يتم تحسينهم بعد هذا العقاب فسوف يولدون من جديد في صورة حيوانات دنيا «حيوانات تشبه طبيعته الشريرة التي اكتسبها». والطريقة الوحيدة لكي تستعيد النفس التي هبطت على هذا النحو - صورتها الأولى ووصفها الأول هو أن تبرهن على انتصار الجانب العقلي على الجانب اللاعقلي. وهكذا نجد أمامنا تسلسلاً من الخيرية والعقلانية التي توضع فيها المرأة في مكان وسط بين الرجال والحيوانات^(١). كما نجد في محاورة القوانين أيضاً أن لدى النساء استعداداً للاتجاه نحو الشر ضعف اتجاه الرجل. ومن ثم يحتجن إلى نظام خاص يوضع لهن^(٢). وفضلاً عن ذلك فإننا نجد أن أسطورة الخلق الموجودة في محاورة «طيمائوس» معروضة أيضاً في محاورة «القوانين» في صورة اقتراح - بمقدار ما تكون هذه العملية ممكنة - أكثر العقوبات ملائمة للرجل الذي يكشف عن جبنه الذي يرمى درعه بعيداً ويهرب، فإن أنسب عقاب له أن يتحول إلى امرأة^(٣).

ويتضح من هذه الفقرات غير المحددة بزمان معين أو مكان محدد أن أفلاطون يؤمن بأنه لا بد من النظر إلى النساء - بغض النظر عن الظروف - على أنهن أدنى من الرجال من حيث العقل والفضيلة. ولقد فسر بعض الباحثين أمثال هذه الفقرات على أنها «زلات» أو «هفوات» مثلما فعل كورنفورد Cornford الذي يرى أن أفلاطون «ينزلق أحياناً» إلى الحديث عن المرأة " بالطريقة الشعبية" ، ويقول ليفنسون Levinson : «إن المسألة لتبدو كما لو أن أفلاطون ينسى للحظات معتقداته التقدمية...»^(٤). غير أن أفلاطون لم يكن من ذلك النوع من المفكرين الذين يمكن أن نقول عنهم إنهم ينسون معتقداتهم لا سيما في موضوع خصص له قدراً كبيراً من محاوراته. وعلى الرغم من

(1) Timaeus 42 - a - d , also 90 e and 91 d

(2) Laws 78 l d - e.

يرى أفلاطون في القوانين أن استعداد المرأة الفطري أخط من استعداد الرجل، ولهذا لا بد من وضع نظام خاص للموائد العامة بالنسبة للمرأة، غير نظام موائد الرجال (المترجم).

(3) Laws 944 d - e.

(4) Cornford. "Psychology and Social Structure in The Republic of Plato" P. 259 In D fense of Plato p. 129.

ذلك فإن هناك هوة واضحة تفصل بين اتجاه أفلاطون العام واتجاهه نحو المرأة ومعتقداته عنها، وهي هوة تعكس كثيرا من التراث اليوناني في كراهية المرأة. والاقتراحات الراديكالية حول مسألة الحراس من النساء التي عرضها في الكتاب الخامس من الجمهورية. إننا إذا ما فحصنا هذه الاقتراحات في سياقها، ومن حيث أهدافها بالنسبة لأهدافها العامة ولبنية المجتمع المثالي، فسوف يكون في استطاعتنا فهمها.

الفصل الثانى

الملكة الفيلسوفة والزوجة الخاصة..

ليس الهدف من الفن الحقيقى للحكم، كما تصوّره أفلاطون، سعادة طبقة أو مجموعة معينة من المواطنين، وإنما هو تقديم أعظم قدر ممكن من السعادة للمجتمع بأسره^(١)، غير أن «السعادة» يمكن أن تكون كلمة مضللة لأنها إذا ما قادتنا إلى أفكار الحرية، والحقوق الفردية والمساواة فى الفرص.. فإننا نكون بعيدين جدا عن فكرة أفلاطون عن السعادة. فلا المساواة، ولا الحرية، ولا العدالة - بمعنى الإنصاف - هى قيم أفلاطون. وإنما القيم الثلاث التى أقام عليها مجتمعه المثالى هى الانسجام، والفاعلية، والخير الأخلاقى: والقيمة الأخيرة هى المفتاح الرئيسى فى فلسفته السياسية. إذ بسبب إيمانه بالقيمة الذاتية للنفس، وما يترتب على ذلك من أهمية صحتها، فإن أفلاطون لم يكن يعتقد أن السعادة تنتج عندما يسلك المرء بحرية أو أن يتصرف كما يشاء. ومن ثم فإن رجل السياسة ينبغى عليه لا أن يحافظ فقط على حياة رعاياه، وإنما عليه أيضا إصلاح أخلاقهم بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية^(٢). ومن ثم فإنه على الرغم من أن الهدف النهائى للحاكم الحق هو سعادة المواطنين، فإن الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك الهدف هى الارتفاع بهم جميعا. عن طريق التربية والقانون - إلى مستوى ممكن من الفضيلة والحكمة.

غير أن أفلاطون ينظر إلى جميع الأخطاء البشرية الجسيمة على أنها إحدى الخصائص الموجودة بالفطرة عند معظم الناس^(٣) ذلك الإفراط فى حب الذات الذى هو

(١) الجمهورية ٤٢٠ ب.

(٢) السياسى ٢٩٧ ب - قارن القوانين ٦٤٤ - ٦٤٥ و ٧٠٥ - ٧٠٦ أ.

(٣) يقول أفلاطون : «ولكن أفدح أخطاء النفس هو خطأ فطرى فى أغلب الناس، خطأ يلتمس الجميع العذر فى أنفسهم، ولا يحاولون بذلك تجنبه، وهو الخطأ المتضمن فى المبدأ القائل: «إن كل إنسان هو صديق نفسه بالطبع». - القوانين ٧٢٢ ح (الترجم).

المنبع الثابت لكل حالات الخطايا في كل حالة»^(١). ولا يزال هناك ما هو أسوأ من ذلك، فعلى حين أن النفس، الجسد بعدها، لا بد أن تكون لها الأولوية، فهناك الميل المنتشر فيهما لإعطاء الملكية الخاصة - وفي الحقيقة ينبغي أن توضع الممتلكات الخاصة في أحط مكان - اهتماما عظيما^(٢) ومن ثم فإن مهمة الحاكم هي أن ينمي في رعاياه «فضيلة مزوجة» فلا بد له أن يعمل على التغلب على تطرفهم في حب الذات، وتفضيلهم لاقتناء الأشياء المادية في أن معا - وتفضيل ذلك على خير النفس. فالشخص الذي يريد أن يكون فاضلاً وعظيماً عليه أن يتجاوز مصالحه الخاصة. وقبل كل شيء أن يفصل نفسه عن عاطفة الاقتناء. وكما لاحظ «جلين مورو» هناك كثرة من الشواهد في محاورتي «الجمهورية» و«القوانين» على أن أفلاطون ينظر على الدوام إلى الموقف المعتدل تجاه الملكية على أنه عنصر جوهرى لضمان أمن الدولة ورخائها^(٣). ويذهب سقراط إلى أن الاقتناء هو الذي أدى بأول دولة - وهي الدولة التي كانت بسيطة «وحقيقية» وصحية - إلى الحروب مع جيرانها، كما أدى إلى جميع التعقيدات التي تبعث ذلك. وهو الموضوع الذي يتكرر في الكتاب الثامن من الجمهورية ويتم فيه تحليل مسار الانهيار السياسى بوصفه الفساد الناتج من ازدياد الثراء^(٤).

محاورة الجمهورية هي محاورة راديكالية إلى أقصى حد. أفلاطون وهو يشكل نولته المثالية على استعداد لأن يتشكك بمعظم عادات وتقاليد المعاصرين المقدسة ويتحداها والحل الذي يقترحه لمشكلة الأنانية والاهتمامات المقدسة هو إلغاء الملكية الخاصة، وبالتالي القضاء على الاهتمامات الشخصية إلى أعظم حد ممكن، إذ في مثل هذه المدينة لا يكون الانسجام وحده موضوعيا بل أيضا وحدة المصلحة. ويتساءل سقراط: «أليس شر ما في الدولة هو ما يمزق وحدتها ويفرقها أشتاتا؟ وأفضل خير

(1) Laws, 7 d - e.

(2) Laws, 743 d - e.

(٣) مورو «المدينة الكريتية» - Cretan City p. 101 - وأيضا القوانين ٧٣٦ ح.

(4) Republic 372 - 373 e and VIII Passim.

فيها هو ما يجمع شملها ويوحدها؟^(١) ولا شيء يمكن أن يمزق وحدة الدولة أسرع من أن يكون بعض المواطنين سعداء، وبعضهم الآخر يخيم عليهم الحزن من جراء نفس الحادث، بحيث لا يتخذ الجميع موقفا واحدا ولا حتى يرغبون في ذلك. إن الطريقة لإنجاز أعلى درجة ممكنة من الوحدة هي أن يشعر المواطنون جميعا - على قدر المستطاع - بنفس القدر من الأفراح أو الأحزان في نفس المناسبات، ولن يحدث هذا الإجماع للأفراح والأتراح، إلا إذا كانت كل الأشياء مملوكة ملكية عامة. فأفضل الدول المحكومة هي التي لا تستطيع أن تقول فيها «هذا ملكي» «وهذا ليس ملكي» على شيء معين وبنفس الطريقة^(٢).

ولا شك أننا لسنا بحاجة، إن كان ثمة حاجة، للقول بأن أفلاطون مدَّ نطاق الملكية الجماعية إلى جميع طبقات المدينة المثالية. وأول «كذبة نبيلة» تقال للمواطنين هي أنهم يشكلون أسرة كبيرة. وأن ذلك تعبير كامل عن الدولة المثالية التي يمكن أن تتحقق - لسوء الطالع - جزئيا. وبسبب إيمان أفلاطون بميل معظم البشر إلى الأنانية فقد اعتبر نبذ الملكية الخاصة أمرا لا يمكن أن يحققه إلا أفضل الأشخاص. وهذا ما يتضح في «محاورة القوانين» التي رفض فيها إمكان إلغاء الملكية بالنسبة للمواطنين في مدينته الفاضلة الثانية، طالما أن الفلاحة الجماعية للأرض، «أمر فوق طاقة مولدهم ونشأتهم وتربيتهم...»^(٣) وما هو محال بالنسبة لمواطني الدولة المثالية الثانية مع التخطيط لتربيتهم بعناية - لا بد أن يفوق - للأسف طاقة الطبقات الدنيا في المدينة المثالية. ومن ثم فإن طبقة الحراس هي وحدها التي يمكن أن تعيش على مستوى المثل الأعلى للملكية المشتركة ووحدة المصالح^(٤).

ومن هنا فقد اعتبر القضاء على المصالح الذاتية الأنانية ضرورة قصوى لتلك الطبقة التي ستتولى حكم غيرها من المواطنين والعمل على سعادتهم، بغض النظر عن

(1) Republic 462 a - d.

(2) Republic 462 a - d.

(3) Laws 739 - 74 a .

(4) Republic 416 - 417 b.

واقعة أنه تم إعدادهم إعدادا جيدا للقضاء عليها. طالما أن الشخص سوف يُعنى دائما بما يحب، فإن الحراس بصفة خاصة سوف يحبون المجتمع كله، ولن تكون لهم مصلحة أخرى سوى رخاء هذا المجتمع. وبالنسبة لهم جميعا فإن ترتيبات الملكية المسموح بها «أن نختار لهم ما نضمن أنهم لن يحدوا عن الكمال بوصفهم حراسا، وما يعصمهم من إساءة معاملة بقية المواطنين...»⁽¹⁾. إن ملكية الحكام للأرض والثروة سوف تؤدي إلى الفرقة - بالضرورة، فيما يرى أفلاطون، وتجعل من الحكام «سادة وأعداء لغيرهم من المواطنين بدلاً من أن يكونوا حلفاء لهم»⁽²⁾. فالجمع بين الثروة والمصالح الخاصة وبين السلطة السياسية أمر لا يمكن أن يطاق ولن يؤدي إلا إلى دمار المدينة.

والمثل الأعلى للحراس عند أفلاطون يُعبّر عنه المثل القائل: «كل شيء مشاع بين الأصدقاء»⁽³⁾ لكن إذا كانت الملكية المشاعة للأشياء الجامدة بين طبقة الحراس هي عون هائل للوحدة المطلوبة للدولة، فإنه ينتج عن ذلك - فيما يبدو - أن الملكية المشاعة للنساء والأطفال، سوف تؤدي إلى وحدة أعظم؛ ومن الواضح تماما من الطريقة التي ينظر بها أفلاطون إلى مشاعية الملكية أنها تتضمن في الحال إلغاء الأسرة؛ فهو لم ينظر إلى الأمرين على أنهما متميزان ويحتاجان إلى تبريرين مختلفين ومستقلين. والواقع أن أول ذكر لإلغاء الأسرة ورد على شكل تسلل - وبين قوسين في الغالب -⁽⁴⁾ في محاوره «الجمهورية» وكذلك التلخيص القصير المعروض في محاوره «القوانين» والاقتراحان مبرران بنفس الحجج وفي الأعم الأغلب في نفس الوقت. وفي محاوره «القوانين» لا سيما في الفقرات التي يعيد فيها أفلاطون النظر في مؤسسات الدولة المثالية، فإن تصنيف النساء والأطفال معا ضمن الممتلكات الأخرى يرد كثيرا. ومن ثم فإننا نراه يتحدث عن «مشاعية الزوجات والأطفال وجميع الأمتعة الشخصية» ويقارن فيما بعد

(1) Republic 416 c - d.

(2) Republic 417.

(3) Republic 423 e and Laws 739 c.

(5) Republic 423 e.

بين هذه المشاعية، وبين ذلك الوضع الذى تبقى فيه النساء والأطفال والمنازل ملكية خاصة، وتُنسب هذه الأشياء جميعاً إلى الملكية الشخصية للأفراد»^(١).

وهكذا صنّف أفلاطون النساء كما كانت تصنفهن الثقافة التى عاش فيها، على أنهن قسم أو فرع مهم من الملكية الخاصة. والتعبير نفسه تعبیر «المشاع أو الملكية العامة» للنساء والأطفال الذى استخدمه ليدل على نظامه المقترح فى الزواج المؤقت، إشارة أبعد على ذلك طالما أن الظاهرة يمكن أن توصف وصفاً أكثر دقة بأنها «شيوع الرجال» لكن المبتكر المبدع لم تكن تلك عادته فى التفكير فى مثل هذه الأمور^(٢).

وكما أن الصور الأخرى من الملكية يراها أفلاطون مدمرة لوحدة المجتمع ، فكذلك «الزوجة الخاصة» - ينظر إليها أفلاطون على أنها تسبب الشقاق والدمار بنفس الطريقة. وهكذا فى مقابل المدينة الموحدة التى يقترحها، يشير إلى تلك التنظيمات فى المؤسسات التى تبذر بذور الفرقة والتحزب «بحيث يحاول كل فرد على حدة أن يغتصب ما يمكن أن يحصل عليه ليضعه فى بيت خاص به، يضم امرأته وأطفاله هو وحده، فيكون هؤلاء جميعاً مصدر أفراح وأحزان خاصة به وحده»^(٣). ومرة أخرى نراه يصدّم ممارسات الأثينيين بالنسبة للملكية الخاصة والنساء فى أن معا يقول: «إنك تعرف عاداتنا الخاصة فى ذلك الأمر، إننا نحزم أمتعنا معا . ونضعها - كما يقول المثل - بين أربعة جدران، ونوكل إلى النساء أمر الهيمنة عليها..»^(٤) فمن الواضح أن الزواج التقليدى والمرأة فى نورها المعتاد كمديرة للمنزل ومشرفة عليه يراها أفلاطون مدعاة للشقاق والفرقة والعداء والحسد بل أعظم عائق للوحدة ورخاء المدينة.

غير أن أفلاطون فى الكتاب الثامن من الجمهورية يستعرض وينتقد أشكالاً منحة متتالية من الأنظمة السياسية، ونستطيع أن نرى فيها كيف ربط بين الملكية الخاصة للنساء وبين فساد تلك الأنظمة. فالنساء يصبحن مشاعاً فى نفس اللحظة التى

(1) Republic 424, 462, 464 and Laws, 739 c, 807 b.

(2) Cf. Grube Plato's Thought P. 89.

(3) Republic 464 c - d.

(4) Laws 805 e.

تصبح فيها غيرهن من الممتلكات الخاصة مشاعا أيضا نون تفسير منفصل، وهن يصبحن «خصوصيات» في نفس اللحظة التي تصبح فيها الملكية الأخرى خاصة. وهكذا يوصف مسار انحطاط الدولة. فما أن تصبح المرأة «خاصة» برجل واحد حتى تُعجّل بمسار الانهيار، وذلك يرجع إلى اهتمامها الخاص بالمصالح الجزئية. في البداية يبدأ الحكام بامتلاك الأرض، والمنازل، واقتناء المال، ليكونوا لأنفسهم كنوزا منزلية وزوجات محبوبات، فيفشلون كحراس للشعب، وتبدأ المدينة في الانهيار^(١). ثم بعد ذلك يصور الاقتناء الخاص للنساء على أنه العامل الرئيسي في فساد أبعاد. إذ تشكو الأم من أن زوجها تعوزه الثروة، والمركز مما ينقص من قدرها بين النساء الأخريات. مما يجعل الشاب التيموقراطي Timocratic^(٢) يبدأ في احتقار والده الثرى ويشعر بالتحدي ليظهر أنه أكثر من رجل. وهكذا فإن الزوجة بما لها من اهتمامات أنانية «تلقى على مسامع زوجها عديدا من هذه الصفات التي يحب أمثالها من النساء أن يرددنها في هذه الحالات». ومن ثم تصبح الزوجة مثل بانديورا Pandora الأصل الذي صدرت عنه جميع الشرور^(٣).

والقول بأن أفلاطون وحد بين إلغاء الأسرة وشيوع الملكية ولم ينظر إلى الأولى على أنها حرمان عاطفي أشد قسوة من الثانية - لابد أن يفهم في سياق وظائف الأسرة ووضعها في الطبقة الراقية المعاصرة في الحياة الأثينية من زاوية وضع قطع النساء الأثينى والرابطة الوثيقة الغربية بين الأسرة وملكية الأرض - غزل أفلاطون من الموضوعين غزلاً بدا لنا واضحا ومتميزا بحيث لا يحتاج إلى تفسير وكما سبق أن رأينا فقد كان من المستحيل إما أن يكون الأزواج والزوجات أصدقاء كل يوم، أو أن يكونوا رفاقا في الجوانب العاطفية والعقلية^(٤) وبالتالي كما يتفق الباحثون المحدثون

(1) Republic 547 b, 548a

(٢) أي حكم الجاه والشرف والمجد Timé (الترجم).

(3) Republic 549 C. e

(٤) مورو Morow مدينة أفلاطون الكريتية ص ١٠٢ حاشية ١٣ حيث يلاحظ أن العادات في أثينا كانت تمنع التنازل عن أرض الأسرة. والرابطة بين الفكر اليوناني الكلاسيكي والممارسة العملية، وبين الزوجة وورعاية ملكية المنزل مؤكدة في أوصاف تدير المنزل التي نكرها اكسانوفون وأرسطو.

فى الحياة اليونانية : " فالأسرة لم تشغل مكانة كبيرة فى معظم الكتابات اليونانية " بما لها من جوانب عاطفية وسيكولوجية و«يندر أن تكون الحياة الأسرية كما نفهمها الآن موجودة فى القرن الخامس قبل الميلاد فى أثينا» (١) فقد كان انتشار الجنسية الخنثوية يعنى أننا أمام مؤسستين تكمل الواحدة منهما الأخرى، وهما يوجدان معاً: الأسرة التى تهتم بما يمكن أن نسميه بالجانب المادى، واللواط و(الغوانى) يشبعان الجانب العاطفى - وإلى حد ما - العقلى عند الرجل»(٢).

ومن ناحية أخرى فعلى حين أن الأسرة لم تكن بالقطع، محور اهتمام الطبقة الراقية فى الحياة العاطفية اليونانية، فقد كانت تعمل بطرق لا تسير عليها الأسرة الحديثة وهى طرق تجعلها بالقوة سبباً أكثر للخلاف والشقاق من الناحية الاجتماعية، فقد انبثقت الأسرة واحدة الرأس من العشيرة فى عصور حديثة نسبياً، ولم تكتسب الدولة Polls الولاء إلا بالتدريج، وهو ولاء كان يقتصر على العشيرة فى مرحلة سابقة: ولقد منَّت أنتيجونا النموذج النمطى لهذا الصراع بين الولاعين. والواقع أنه كانت هناك مجالات متنوعة فى الحياة لم يصبح واضحاً فيها بعد ما الذى سوف يسود أهو الأسرة أم الالتزامات المدنية. وتعرض «محاورة القوانين» بطريقة جيدة المدى الذى يكون فيه أقرباء الضحية - بدلا من الحكام - مسئولين عن ضمان نيل الجريمة العقاب المناسب(٣) وتتجلى سيادة الواجبات للأباء، وتعلو على أى فكرة عن العدالة والقانون فى محاورة «أوطيفرون»(٤) ففى هذه المحاورة نجد سقراط يتشكك فيما إذا كانت

(1) M. I. Finley : The Ancient Greek PP. 193 ` 124 . Ehrenberg society and Civilization p . 59 .

(2) Finley: The Ancient Greek P. 194

(3) Laws e. g. 866 and 843 e.

(٤) فى محاورة أوطيفرون يلتقى سقراط بتلميذه أوطيفرون فى الصباح الباكر وقد جاء الأخير إلى ساحة القضاء ليشتكو والده متهما إياه بقتل أحد الأشخاص فيسأله سقراط «أحسب أن الرجل الذى قتله والدك كان أحد أقربائك لا شبهة فى هذا، لأنه لو كان غريباً لما فكرت قط فى اتهامه ص ١٥ من ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود . وكان الضحية فى الواقع هو أحد العبيد (المترجم).

الضحية واحدا من أقرباء أوطيفرون»^(١) ومن هنا فإن الأسرة الأثينية بغض النظر عن وظيفتها الضعيفة كأساس للعاطفة كانت في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ككيان اقتصادي راسخ . ومركز لواجبات مهمة مُشكلةً قوة حاسمة واضحة وتهديدا مستترا للولاء المدني للدولة.

إن دارسي أفلاطون الذين عبّروا عن رعبهم العميق من فكرة إلغاء الأسرة، وأن يحل محلها تلك الترتيبات الجنسية المخصصة لإنتاج أفضل سلالة - يبدو أنهم عالجوا الموضوع بطريقة تنطوي على مفارقة تاريخية واضحة عندما أهملوا - أو تجاهلوا - دور الأسرة ووظيفتها في المجتمع الأثيني . فعندما يعترض جروبي Grube - مثلا - على نظام اللقاءات الجنسية العابرة المخصصة للحراس، ويصفها بأنها لا يمكن قبولها بين الحراس ؛ لأنها تؤذي المشاعر البشرية العميقة « وتتجاهل تماما عنصر الحب بين الزوجين ^(٢) فيبدو أنه نسي أن الأسرة في ذلك الوقت لم تكن المكان الذي تعبر فيه العواطف البشرية العميقة عن نفسها. وحتى المعلومات السطحية الموجودة في محاورة «المأدبة» مع ما فيها من مقارنة مستهجنة بين أولئك الذين يتجهون بحبهم نحو النساء وينشئون أسرا، وأولئك الذين لديهم حب روى أعلى يتجهون به نحو الغلمان والبحث الفلسفي حتى المعلومات في هذه المحاورة تكشف عن أن أفلاطون ومستمعيه لم ينظروا قط إلى إلغاء الأسرة على أنه قصور حاد في حياتهم العاطفية الحميمة. ولا يزال موقفه «ليون شتراوس» شديد الغرابة من ذلك لأنه لم يزعم فحسب أن الأسرة مؤسسة طبيعية. وأن الاتجاه نحو إلغائها هو «عرف» بل جعل المسألة - التساؤل عما إذا كان إلغاء الأسرة ممكنا أم لا- اختبارا قاسيا لمدى صلاحية الدولة المثالية بأسرها ^(٣).

والفقرات التي يشير إليها من «محاورة الجمهورية» لكي يبرهن على «واقعة مفترضة هي أن الناس فيما يبدو يرغبون - على نحو طبيعي - أن يكون لهم أطفال من

(1) Euthyphro , 42b.

(2) Plato's Thought P. 270 , see also A. E. Taylor : Plato the Man and His work, P. 278.

(3) "On Plato' s Republic" in The City and man , P. 117 .

صليهم» لا تكفى أبدا للبرهنة على هذه النقطة. وفضلا عن ذلك فإن اعتراضه على ضوابط أفلاطون لسلوك الجنسية المغايرة (أى مع المرأة) يعنى أن «مزاعم الأيروس Eros قد لذت ببساطة بالصمت»، وذلك يعنى إنكارا تاما لانتشار الحب (الأيروس) المرتبط بالجنسية المثلية فى ذلك العصر . والواقع أن من المرجح جدا أن مستمعى أفلاطون قد وجدوا قيود الدولة المثالية على سلوكهم - سلوك الجنسية المثلية - أبعد أثرا من مشاعرهم الجنسية من إلغاء الأسرة، ومن الضوابط التى توضع على المعاشرة الجنسية المغايرة (أعنى مع المرأة).

ونفس هؤلاء الباحثين - جروبي وتيلور ، وشتراوس الذين رفضوا إلغاء الأسرة بوصفه عملا مستحيلا - هم أنفسهم الذين ضاقوا بالبديل المقترح وهو أن يختار الشريكان بعضهما عن طريق القرعة، ولأغراض تحسين النسل . وأولئك الذين رفضوا هذه المقترحات لأنها مستحيلة وغير عملية تماما بالنسبة «للطبيعة البشرية» بسبب أنها لا تطاق⁽¹⁾ يفعلون خيرا لو أنهم درسوا وضع النساء المحترمات عند اليونان فهن محرومات ومحكومات بصدد حياتهن الجنسية، كجنسين معا من الحراس يوجدان فى الدولة الثالثة بون أن يكون من الممكن تعويضهن بأية مشاركة فى الحياة خارج دائرة المنزل - فلم يكن مسموحا للمرأة عند اليونان أن تختار شريكها من الجنس الآخر أكثر من اختيار الحراس لشركائهن عند أفلاطون. وفضلا عن ذلك فإن الشريك فى حالتها ليس لديه فحسب الحق المطلق أن يتصل بها، وأن ينبج منها طوال حياتها، بل تنقل له جميع السلطات أيضا التى كانت لوالدها عليها من قبل. فالمرأة بمجرد أن تتزوج لا يُسمح لها أن تجد لنفسها بديلا أو مخرجا جنسيا آخر، وإنما عليها أن تعتمد على الزوج فحسب، فى حين أن هذا الزوج قد يكون لديه عدد من البدائل الجنسية المثلية أو المغايرة. واتساع هذا المعيار المزوج واضح فى كلمة «الزنا» اليونانية التى تعنى المعاشرة الجنسية التى تقوم بها امرأة متزوجة مع رجل غير زوجها، وليس ثمة حاجة

(1) Taylor , p. 978 See also Grube . P 970, and Strauss, p. 117.

إلى القول بأن العقاب لا بد أن يكون قابسيا. وحتى إذا مات زوجها فإن على المرأة أن تكبح جماح نفسها وجسدها ما دامت قد عادت إلى كفالة أو وصاية والدها أو حارسها الذي بيده أن يعيد تزويجها حسب مشيئته. بل إن المواطن يستطيع - كبديل عن الزواج - أن يقدم أخته أو ابنته على سبيل التسرى كمحظيات ، كما يمكن إرسالها إلى بيت من بيوت البغاء دون أى ملام على من يملكها (١).

إذا كانت النساء الأثينيات من الطبقات الراقية اللاتي يعشن فى واحد من أكثر المجتمعات ثقافة، مجتمع فيه ثقافة من أرفع الثقافات التي عرفها العالم، يمكن السيطرة عليهن وحرمانهن إلى هذا الحد - فمن الصعب أن نجادل ونقول إن مقتضيات الطبيعة البشرية تجعل نظام اللقاء الأفلاطونى بما فيه من متطلبات مفترضة «عفة غير طبيعية» (٢)، ومن المستحيل أن تكون تشريعا . إن حياة النساء الجنسية كانت مقيدة طوال الجزء الأعظم من التاريخ البشري، بنفس الصرامة التي افترضها أفلاطون، ليضبط بها حياة حراسه فمطالب الحب الشهوانى Eros قد صممت ببساطة عند المرأة بنجاح ملحوظ. ويبدو من جانب كبير من التاريخ البشرى أن جنس الأنثى، وكذلك الموجودات البشرية يمكن إرغامها لتقبل بالفعل أى حد من الضبط على حياتها الجنسية والعاطفية. والمهم بالطبع ، أن الباحثين المعنيين قد استخدموا ألفاظا مثل الانفعالات البشرية أو الطبيعة البشرية للإشارة إلى الرجل فحسب. والأمر الذى كان مرعبا حقا عند «جروبي، وتيلور، وشتراوس» هو أنه بينما نجد أن اليونان كغيرهم من الشعوب احتفظوا بالنساء للنسل والإنجاب المشروع، وحكموا حياتهن على هذا النحو - فإن أفلاطون جرؤ واقترح أن تكون الحياة الجنسية للحراس من الرجال والنساء معا بغرض إنجاب أفضل سلالة للمجتمع.

إن مغزى إلغاء أفلاطون للأسرة عميق للغاية - وكما سنرى فيما بعد - فقد تردد صدى هذا الاقتراح عند عدد من المنظرين والحكام وأصحاب المجتمعات اليوتوبية فيما بعد . وكما أكد ستانلى ديموند فى مقال رائع عن مغزى دراسة أفلاطون للأسرة :

(1) The urriagne:les Ideés de Platon ,P . 53 .

(2) Grube, P. 270.

«فإن الهدف الواضح هو تخليص الحراس من جميع الارتباطات والعواطف التي يمكن أن تقلل من تكريس جهودهم للدولة - لقد شعر أفلاطون بوضوح بالتعارض والتطاحن بين الأسرة والدولة - ولكي يضمن الولاء الكامل للدولة فقد ألغى الثانية ببساطة» (١) وفضلا عن ذلك فإن من المهم أن نلاحظ أن الحل الثوري للصراع عند أفلاطون لم يكن يعنى ببساطة طمس الروابط الأولية للقرابة بل مدّها واتساعها من خلال كل الطبقة الحاكمة، فالواقع أن الحراس كانوا يتخيلون أنفسهم أنهم جميعا أسرة واحدة. (٢) وهو يشدد بطرق شتى على أن تشكيل الحراس لأسرة واحدة ليس سوى مجرد إجراء شكلي فحسب، فلن يخاطب كل منهم الآخر بقوله أخى أو أبى وما شاكل ذلك، إذ سيكون من السخف كما يقول جلوكون^(٣) «أن يكون من بين الحراس من يردد بلسانه أسماء الأقارب هذه لئلا نرى أن يطبقها في سلوكه» (٤) وهكذا نجد أن الخوف والعار المرتبطين بالعنف الموجه نحو والد ما سوف يعمل كجزء قوى غير مألوف ضد كل من يهاجم أى فرد من الجيل القديم. وبالمثل فإن القضايا ودعاوى المنازعات لن تكون أقل شيوعا عنها داخل أى أسرة. وسوف يرجع انتصار المدينة في الحرب في جانب كبير منه - إلى واقعة أن الجنود لن يكون لديهم استعداد للتخلي عن رفاقهم بأكثر مما يكون لديهم لهجر أعضاء أسرهم الخاصة^(٥) والواقع أنه كما لاحظ جريجورى فاستوس: «فإن المجتمع المثالي الذي تعرضه «الجمهورية» هو جماعة مثالية ترتبط معا بروابط الحب الأخوي» (٦).

والنتيجة المهمة جداً - بالنسبة لأغراض هذا البحث - في تحويل أفلاطون لطبقة الحراس إلى أسرة واحدة هي المضمون الراديكالي لدور المرأة. ولقد كشف «روسو» في

(١) راجع فيما بعد الفصل الثامن.

(2) Plato and The Definition of The primitive, P. 126 .

(3) Timaeus 18 c-e

(4) Republic, 463 c-e

(5) Republic, 464 d-e , 465 a - b, 471c -d .

(6) The Individual as an Object of love P. 11.

هجومه المرير على أفلاطون بسبب إلغاءه للأسرة، وإعطائه فرصاً متساوية للنساء في أن معا - عن فهم لماح للرابطة بين هذين الابتكارين يقول: «إننى على وعى تام أن أفلاطون فى الجمهورية وصف تدريبات رياضية واحدة للرجال والنساء معا»، ويقول أيضاً: «بعد أن تخلّص من الأسرة الفردية فى نظامه للحكومة، ولم يعد يدرى بعد ذلك ماذا يفعل بالنساء، فقد وجد نفسه مضطراً أن يحيلهن إلى رجال»^(١). ولو أننا وضعنا كلمة «الشعب» بدلاً من كلمة «الرجال» طالما أن الرجال عند روسو - كما سنرى فيما بعد - بطرق كثيرة مهمة هم الشعب، فإنه يبدو أن روسو كان على حق. ولم يتفق الباحثون الذين درسوا الرابطة بين «الموجتين الأوليين» من المفارقة «فى الكتاب الخامس - وهما منح فرص المساواة للنساء، وإلغاء الأسرة - فقد أكد بعضهم استقلال الفرضين؛ بينما أكد البعض الآخر أن من المحتمل أن تكون هناك رابطة سببية بينهما، لكنهم لم يشاعوا توريط أنفسهم فى اتجاهها، ولقد أكد واحد منهم على الأقل بطريقة قطعية - لوز تقديم أى مبررات - أن تحرير المرأة هو الذى أدى إلى إلغاء الأسرة^(٢).

غير أن هناك فيما يبدو عدة أسباب تبرر إلى حد ما وجود علاقة سببية بين المفارقتين يسير اتجاهها فيما أكده روسو.

فلما لم تكن هناك ثروة خاصة فى الدولة المثالية، ولا زواج لطبقة الحراس وترتيبات الحياة، مشاع، فليس ثمة نور منزلى تقليدى، تقوم به سيدة المنزل التقليدية، طالما أن التخطيط للنسل، وتربية الأطفال المشاع، تقلل من الحمل غير المتوقع، ومن الوقت المطلوب للأمهات، فإن فترة الأمومة لم تعد تشغل وقتاً كاملاً بالنسبة للمرأة. وإذن فلم يعد النساء

(1) Rousseau: Emile, Oeuvres Complètes, Pléiade Edition, VOL. 4 pp. 699 - 700.

(٢) وكأمثلة على هذه المواقف الثلاثة على التوالى انظر:

Christine Pierce: "Equality,; Republic V ." - 6. Straus : " On Plato's Republic" P. 116 .

A - E. Taylor: "Plato, The man and his work" p 278

واعترضات:

William Jacobs: "Plato on Female Emancipation and Traditional Family"

قد جعلتنى أراجع كلماتى الأصلية لهذه الفقرة.

يعرفن عن طريق نورهن التقليدي. غير أن كل فرد في النولة المثالية بوظيفته إن كان رجلاً أو وظيفتها إن كانت امرأة. وتربية المواطن وعمله مكرس تماماً لإنجاز أفضل النتائج في حرفته الخاصة⁽¹⁾. وإذا كانت علاقة الحراس من النساء برجال معينين، وبالأطفال، وبالمنزل، قد توقفت حتى أصبحت حاسمة، فليس ثمة مجال أمام أفلاطون سوى أن ينظر إلى النساء على أنهن شخصيات قائمة بذاتها، فإن شئنا أن يتخذن مكانهن كعضوات في طبقة الحراس، فلا بد لكل عضو بالضرورة من المشاركة في هذه الطبقة. وهكذا كان على أفلاطون أن يقنع مستمعيه المتشككين بأن النساء قادرات حقا على إنجاز أعمال تختلف أتم الاختلاف عن تلك المهام التي يحددها لهن المجتمع في العادة. وطالما أن جو الرأي العام كان معاديا لهذه الطريقة في التفكير، فإن تأكيدات سقراط أن طبيعة المرأة ليست أدنى من طبيعة الرجل، وأن فضيلة الرجال والنساء واحدة وهي نفسها، فلا بد بغير شك أن تكون قد مهدت الطريق أمام أفلاطون لكي يطرح حججه.

وسوف نناقش في شيء من التفصيل حجج الكتاب الخامس في «الجمهورية» عن طبيعة المرأة في الفصل الثالث، لكننا بحاجة الآن إلى تلخيص نقاطها الرئيسية هنا. يبدأ سقراط بأن يذكر مستمعيه أنهم جميعا متفقون تماما أن كل فرد لابد أن يخصص له عمل يناسب طبيعته أو طبيعته. لكنه يقول طالما أنه لم يزعم أحد أنه لا فارق بين طبيعة الرجل والأنثى، فإنه يخشى عليهم الآن من خطر الوقوع في تناقض ذاتي إذ هم قالوا إن الحراس الإناث عليهم أن يعملن نفس الأعمال التي يقوم بها الرجال. وعلى الرغم من أنه يذكرنا بأن هناك طرقا عديدة يمكن أن تختلف فيها الموجودات البشرية من حيث طبيعتها، ونحن لا ننظر إليهم جميعا على الإطلاق على أنه من المناسب تخصيص وظائف مختلفة للأشخاص المختلفين. ويؤكد سقراط عند هذه النقطة: «إننا

(1) Republic 370.

وهذه الفكرة توضحها التأكيدات الواردة في الفقرات 707a - 406d فإذا لم يعد المرء قادراً على إنجاز مهمته فإنه لم يعد يستحق الحياة بعد ذلك.

لا نقوم بأية محاولة نختبر بها نوع هذا الاختلاف أو الاتفاق في الطبائع، إلى أى موضوع ننسبه، وذلك حين ننسب إلى الطبائع المختلفة أعمالاً مختلفة، وإلى الطبائع المتماثلة أعمالاً متماثلة^(١). لكنه يستطرد قائلاً: أليس من المعقول أن ننظر فقط في الاختلافات والتماثلات الموجودة في النشاط الذي نتحدث عنه؟ إننا لا نتساءل مثلاً عما إذا كان الرجل أصلع الرأس أو طويل الشعر لهما نفس الكفاءة في ممارسة مهنة صناعة الأحذية، ومن ثم فلا يوجد هناك سبب فيما يبدو للنظر في أمر الاختلاف بين الجنسين من حيث وظيفتهما في الإنجاب. «فالاختلاف لا يرجع إلا إلى أن المرأة تلد والرجل ينجب». أما بصدد تقرير ما إذا كانا سيقومان بدورين متساويين في طبقة الحكام، فإن سقراط يلقي عبء البرهان بحسم على كل من يقول إنهما يقومان بدور واحد. وهو يذهب إلى أنه لما كانت خصائص النفس هي التي تحدد ما إذا كان الشخص له طبيعة مطلوبة لعمل معين، ولما كان الجنس لا يرتبط بالنفس أكثر من ارتباط حضور أو غياب الشعر - فإن أعضاء الجنسين معا سيكون لديهم المهارة في جميع الفنون المختلفة معتمدين على طبيعة أنفسهم الفردية. وهكذا نجد أنه على الرغم من أنه يؤكد أن النساء بصفة عامة غير قادرات كالرجال بصفة عامة لا سيما من حيث القدرة البدنية. فإن الأعضاء الأفراد من كلا الجنسين سيكونون قادرين على إنجاز جميع الوظائف المطلوبة للدولة بما في ذلك: الحراسة والفلسفة. والطريقة الوحيدة لضمان أن الأشخاص قد عينوا في الوظائف التي هم أنسب الناس لها - هي أن تحدد مميزات وجدارة كل شخص بغض النظر عن نوع الجنس.

هذه الحجة الفريدة في نوعها بسيطة فيما يبدو بين الفلاسفة السياسيين في تقييم دور النساء، ولقد كان لها مضامين ثورية؛ فاقترح أفلاطون الجريء القائل أنه ربما لا توجد هناك اختلافات بين الجنسين بغض النظر عن دورهما في عملية الإنجاب ممكن فقط بسبب متطلبات الوحدة داخل طبقة الحراس، وما يترتب على ذلك من إلغاء للملكية الخاصة والأسرة، وما يستلزمه من إلغاء لدور الزوجة والتقليل من دور الأم. وفضلاً عن

Republic 454b, - 454 - 456.

(١) وانظر بصفة عامة :

ذلك فما أن يُفتح الباب حتى نعترف أن إمكانيات المرأة لا حدود لها، ويُلقى دور الجنسين التقليدي بين الحراس تماما - حتى أن أفلاطون يصف رعاية الأطفال بأنها مهمة الرجال والنساء معا^(١). وينتهي أفلاطون إلى أنه رغم أن النساء كجماعة أقل قدرة، فإن أفضل النساء يمكن أن تشارك أفضل الرجال في المناصب الرفيعة في إدارة الدولة، وهكذا فإن «الملك الفيلسوف»، كما يسمى دائما هو اسم يشمل الجنسين معا^(٢).

سوف نناقش في الملحق في نهاية الكتاب العداء الغامر لشراح أفلاطون من الذكور للموجة الأولى من المفارقة عنده؛ غير أن إحدى التهم الموجهة ضده ينبغي دراستها هنا؛ فقد ذهب «ليون شتراوس»، و«ألان بلوم A. Bloom» إلى أن حجج أفلاطون التي تتعلق بمساواة النساء تعتمد على التجرد من الجسد أو «نسيانه» وبصفة خاصة «تجرده من الاختلاف بين الجنسين فيما يتعلق بالإنجاب»^(٣). ومن الواضح أن ذلك غير صحيح، لقد كان أفلاطون حريصا جدا أن يضع في اعتباره تلك الفروق بين الجنسين الملموسة بيولوجيا ومنها: الحمل والرضاعة، والفروق في درجة القوة العضلية. والخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الشراح، مع ملايين غيرهم، وهو ما لم يقع فيه أفلاطون، هو أن دور جنس الأنثى من الناحية التقليدية التامة ينتج منطقيا من واقعة واحدة هي أن النساء يلدن أطفالاً. إن المغزى الحقيقي لدراسة موضوع المرأة في الكتاب الخامس من محاورة «الجمهورية» هو أنه واحد من أمثلة قليلة جدا في تاريخ الفكر التي انفصل فيها المضمون البيولوجي للأنثى بوضوح عن وضعها التقليدي والدستوري والعاطفي الذي كانت - عادة - تتوحد معه. إن إلغاء أفلاطون لدائرة ما هو خاص بالنسبة لحياة الحراس يستلزم كنتيجة له فحصا جذريا لجميع الفروق التأسيسية بين الجنسين.

(1) Republic 460 b.

(2) Republic 540 c.

(3) L. Strauss "On Plato's Republic Part 2, of The City and pp. 116 - 117. Alan Bloom, Interpretive Essay to the Republic of Plato pp 382 - 383.

يشير سقراط مرتين - خلال نقاش يدور حول التربية المناسبة والدور المناسب للنساء - إلى أن هذه الأمور مع إلغاء الأسرة هي في الواقع جوانب من موضوع واحد، وهو يتحدث في البداية عن «حق امتلاك النساء والأطفال وتحديد طرق معاملتهم»⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى ذلك فإن طريقة طرح السؤال عن تحرر الحراس من النساء قد تمّ هو نفسه بشكل له مغزى خاص. فبعد أن قدّم سقراط بطريقة جانبية الاقتراح القائل بأن الحراس لا بد أن يكون لهم نساء وأطفال على المشاع وغير ذلك من المقتنيات، فإنه أخذ موقفاً متحدياً في بداية الكتاب الخامس ليبرر هذا القرار المهم. فبدأ أولاً في مناقشة التربية والمعاملة للنساء على قدم المساواة مع الرجل. وثانياً الإنجاب على المشاع وتنظيم التربية. ويبدو أنه بعد أن قرر إلغاء الدور التقليدي للمرأة، عندما قرر إلغاء الأسرة، وجد نفسه مضطراً أن يقدم اقتراحاً عملياً قابلاً للتنفيذ عن طريق البرهنة على أن النساء قادرات على شغل وظائف أخرى كثيرة، وأنه يمكن الاستفادة منهن خارج نطاق المجال التقليدي. وفقرة قصيرة من محاوره «القوانين» تكفي لتبين لنا إلى أي حد كان أفلاطون على وعى بخطر تحرير النساء من أسرهن، أي من الدور التقليدي المنزلي، بدون إعطائهن أي وظائف بديلة. فهو يعتقد أن النموذج الذي تقدمه اسبرطة ينبغي أن يكون كافياً لتثبيط همة أي مشروع في «أن يدع جنس الأنثى ينغمس في الترف، ونفقات لا ضابط لها، بينما يراقب جنس الذكر...»⁽²⁾. وهكذا نجد أن إلغاء أفلاطون للأسرة هو الذي جعله يعيد التفكير في موضوع دور المرأة وقدراتها الكامنة، بل قل بدقة أكثر : اضطره إلى أن يفعل ذلك.

هناك دليلان إضافيان يدعمان القضية التي تقول إن إلغاء أفلاطون للأسرة هو الذي قاده إلى تحرير الحراس من النساء، بدلاً من أن يكون العكس هو الصحيح.

الدليل الأول: ليس هناك ذكر للنساء من الطبقات الدنيا. بل يقال لنا إن النساء من هذه الطبقات سوف يحتفظ بهن ربوات للبيوت على نحو ما يُحتفظ الزراع بملكية الأرض والمنزل وغيرها من المقتنيات الخاصة. والرابطة الوثيقة بين هذه الأشياء وبين الملكية

(1) Republic 451, and 455 .

(2) Laws 806 a - c.

الخاصة للنساء والأطفال تعنى أن الأسرة سوف يُحتفظ بها أيضا عند الطبقات الدنيا على الرغم من أن ذلك لا يقال صراحة^(١).

وفضلاً عن ذلك فليس ثمة شك في أن أحد الأهداف الأولى في تنظيم أفلاطون للحرفيين هو الفاعلية القصوى، التي ربما تعنى أفضل استخدام ممكن لجميع أعضاء هذه الطبقة. لكن - رغم هذا الهدف - ورغم الحجة المتعلقة بمواهب النساء في الكتاب الخامس - فإنه كان يمكن تطبيقها تماما على الحرف الأخرى مثلما يطبقها على إدارة أو حكم الدولة. لكن ليس ثمة ذكر لتطبيقها على أى طبقة من طبقات النساء سوى طبقة الحراس. ويبدو أن التفسير الوحيد الممكن لذلك هو أنه حيثما كانت الأسرة. تحولت النساء إلى زوجات خاضعات تقوم بوظائف الأمومة. أما مسألة مساواتهن للرجال في الأوار الأخرى، فإنها تصبح في هذه الحالة مسألة غير قابلة للنقاش.

الدليل الثانى: ما حدث للنساء كما نرى الآن في مدينة أفلاطون المثالية الثانية ، على نحو ما عرضها في «محاورة القوانين» - يؤكد تأكيداً قاطعاً الفرض الذى فرضناه، وهو أن أفلاطون يُظهر في موضوع النساء (وفى محاورة القوانين) شعوراً متناقضاً **Ambivalence** فالمأزق الذى وقع فيه نتيجة عدم قدرته على التوفيق بين المعتقدات التى تزداد رسوخاً عن القدرات الكامنة فى جنس الأنثى مع إعادة إدخال الملكية الخاصة الأسرة فى البنية الاجتماعية للدولة، فهو من ناحية لديه فكرة عن النساء كأفراد وبوصفهن نصف المجتمع مع مواهب واسعة نادرة ومعتلة. ويبدو أن أفلاطون قد أصبح مقتنعاً أكثر من ذى قبل - فى الوقت الذى كتب فيه محاورة القوانين أن الممارسات الموجودة فى مجتمعه بخصوص النساء حمقاء^(٢). وأنه ينبغى للنساء أن يتعلمن وأن يُستفاد من إمكاناتهن - كالرجال إلى أقصى حد. كما أن العبارات

(1) Republic 417 a - b.

(٢) يقول أفلاطون:

«إننى أقول إن الممارسات الحالية فى الجزء الخاص بنا من العالم هو الحماسة بعينها. إذ أنه من الحماسة الخالصة ألا يتحد الرجل والمرأة فى متابعة نفس الأهداف بكل ما لديهما من طاقة» القوانين ٨٠٥ ب (المترجم).

الراييكالية عن النساء في الكتاب الخامس من الجمهورية قد سارت في محاوره «القوانين» إلى حدود قصوى جديدة. ومن ناحية أخرى تُعدّ محاوره «القوانين» وثيقة أقل ثورية من محاوره «الجمهورية» فهي أبعد ما تكون عن «النموذج الذي وضع في السماء»، بحيث يصبح تحقيقه على الأرض إمكانية بعيدة المنال جدا بحيث لا يهم أن نسأل هل يمكن أن توجد أم لا، فالمدينة الفاضلة الثانية معروضة في «محاوره القوانين» أقل كثيرا من الناحية اليوتوبية^(١) وعنوان المحاوره نفسه يترجم عادة «بالقوانين»، وربما كنا أكثر دقة لو ترجمناه «بالتراث.. Tradition». ولقد كان من الكوارث ذات الدلالة على «واقعية» أفلاطون هذه - تصوره لنور النساء، فما هو مقترح لهن بألفاظ عامة لم ينفذ ببساطة في المؤسسات التفصيلية للدولة التي أصبحنا فيها مرة أخرى زوجات خصوصية وظيفتها الأمومة وتربية أطفال معينين.

وكما نرى الآن فإن حجج أفلاطون ونتائجها في محاوره «القوانين»، حول الإمكانيات الطبيعية للمرأة هي أكثر راديكالية بكثير مما هو موجود في «الجمهورية»، إذ الواقع يبدو أنه يعزو إلى التربية والرعاية المختلفة التي يقدمها الجنسان، عمليا، جميع الفروق والاختلافات في قدراتهم وإنجازاتهم التالية. وهو يشير إلى مثال نساء «السامرتيان... Sarmatian»^(٢) اللاتي كن يشاركن في القتال على قدم المساواة مع الرجال - مما يبرهن على قدرات جنس الأنثى. ويذهب أفلاطون إلى أن الممارسة الأثينية التي تؤكد أنوارا حاسمة لكل جنس ممارسة حمقاء بل هي خلف محال Ab-surd. إن الخطأ الفاحش الذي يمكن أن يقع فيه المشرع هو الذي يسمح بضياح طاقة نصف الدولة.

ويصف أفلاطون هذه الممارسة اللامعقولة بأنها «هي التي لا تسمح للرجال والنساء بمتابعة نفس الأهداف بكل قوتهم، وبقلب واحد»^(٣).

لكن بعد أن صدر إعلان عام بأن القانون ينبغي أن يفرض نفس التربية، ونفس التدريب، على البنين والبنات معا - «وأن جنس الأنثى لا بد أن يشارك جنس الذكور إلى

(1) Republic 593 b - Laws 739.)

(٢) نسبة إلى سارمتيا Sarmatiea وهي منطقة قديمة تقع شمال البحر الأسود (الترجم).

(٣) محاوره القوانين ٨٠٥ أ - ب .

أقصى حد ممكن فى التربية وفى كل شىء آخر» فإنه «ينبغى على النساء أن يشاركن الرجال فى كل نمط حياتهم...»^(١). المشرع الأثينى عند أفلاطون فشل فى تطبيق هذه المفاهيم فى حالات كثيرة من الأمثلة الدقيقة. ولكى نفهم التناقض أو عدم الاتساق بين العبارات العامة عن النساء، وبين التحديدات التفصيلية المختلفة تماما المتعلقة بمعظم واجبات المدينة المهمة، لابد أن ندرس نتائجها على النساء وإعادة وضع الأسرة...

رغم أن من الواضح أن ذلك كان مصدر أسف لأفلاطون، فقد أقنع نفسه أن المواطنين فى الدولة الفاضلة الثانية لما كانوا: لا آلهة ولا أبناء آلهة، فإنه ليس لديهم القدرة على أن تكون الملكية مشاعا بينهم. وفضلاً عن ذلك فإن إعادة وضع الملكية الخاصة هو واحد من أعظم الفروق والاختلافات البعيدة المدى بين «الجمهورية» و«القوانين» - وهو يجلب معه فى نفس الفقرة إعادة إدخال نظام الزواج والأسرة^(٢). وواضح من السياق أن حاجة الرجل الذى يملك ملكية خاصة إلى وريث هى التى أدت إلى اختفاء شيوع ملكية النساء والأطفال فى آن واحد، مع اختفاء شيوع الملكيات الأخرى. لكن على الرغم من التوحيد بين النساء والأطفال معا - ومع الملكيات الأخرى - كان شيئاً طبيعياً أمام العقل الإغريقى لدرجة أنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى وجود تبرير خاص - فإن الفشل فى إنجاز مشاعية الملكية يعنى، فيما يبدو، أن النساء أصبحن أيضاً ملكيات خاصة.

(١) «أود أن أقول يا كلينياس Cleinias إنه إذا كانت هذه الأمور لم يبرهن عليها برهنة كافية، فقد يكون هناك اعتراض على حجتنا، لكن الواقع أن مَنْ يرفض القانون عليه أن يبحث عن أساس آخر للاعتراض، وستظل اقتراحاتنا جديدة، إنه ينبغى على النساء أن يشاركن بقدر المستطاع فى التعليم، وفى جميع الطرق الأخرى مع الرجال. لأنه إذا لم تشارك المرأة فى كل حياة الرجال، فإنه يلزم أن يكون هناك نظام آخر لحياتهن» القوانين ٨٠٥ ح (المترجم).

(2) Laws 740 a - c.

ويقول أفلاطون: «دع المواطنين يوزعون الأرض والمنازل فيما بينهم، ولا يجعلون الأرض مشاعاً بينهم ما دام شيوع الملك يجاوز حدود مولدهم، ونشأتهم، وتربيتهم. لكن عند توزيع الملكية فلنجعل الملاك أيضاً يشعرون أن نصيبهم الخاص ينتمى كذلك إلى الدولة ككل. وما دامت الأرض هى أهم فعلية العناية بها، كما يعنى الأطفال بأهمهم. لأن الأرض هى الآلهة وهى الملكة وهم رعاياها القانون» القوانين ٧٤٠ أ (المترجم).

وفضلاً عن ذلك فإن الأسرة هي الأساس في المدينة التي تخطط لها محاورة «القوانين» وكما لاحظ جلين مورو G. Morrow فإن الدولة هي اتحاد أصحاب البيوت أو الأسر، وليست مجموعة من المواطنين المنفصلين «وحيوية الأسرة في نولة أفلاطون واضحة في نقاط كثيرة في تشريعاته»^(١). إن وجود مزارات للأسرة، والزواج المعقد الملىء بالتفصيلات، وقوانين الوراثة، والدور الحاسم للأسرة في رفع الدعاوى الجنائية، وإنكار حق الأبناء في الدفاع عن أنفسهم ضد آبائهم - جميع هذه الأمور تشير إلى الوضع المركزي والسلطوي للأسرة^(٢).

ولقد كانت قوانين الزواج هي أول ما صدر، ومضامينها عن وضع النساء مباشرة وشاملة. وبالمقارنة إلى نظام اللقاءات العابرة بين الأزواج في «الجمهورية» - وهو النظام الذي لا يكون فيه لأي جنس من الجنسين حرية الاختيار ولا حق الرفض، أو تفضيل رفيق بون آخر. لكن مع إعادة إدخال نظام الزواج الدائم، فإن مسألة اختيار الزواج، بلا أدنى تفسير، تختلف أتم الاختلاف عند النساء عنها عند الرجال. صحيح أن الزواج إلزامي للجميع، ما دام يُنظر إلى الإنجاب على أنه واجب عام. لكن على حين أن الرجل يقرر من هي التي سوف يتزوجها، شريطة أن يضع في ذهنه أفضل أنواع النسل لمجتمعه، فإن المرأة «تُعطي» للرجل أثناء الزواج^(٣) كما أن حق الخطبة وقف على جنس الرجال. وحالة واحدة يكون للمرأة الحق في أن تقول شيئاً في اختيار زوجها هي عندما لا يكون لها أقرباء من الذكور على الإطلاق. ويرفض أفلاطون في سخرية وهو يناقش حق الشفعة في اختيار المرأة - أن يفرض بالقوة منع الزواج غير المناسب، ويرى أننا إذا فعلنا ذلك - فإلى جانب أنه سخف سيكون هناك سبب للسخط والحنق^(٤). ومن الواضح أن ما هو مألوف ومعتاد بالنسبة للنساء سيكون قيدياً لا يُحتمل إذا ما طُبِّق على اختيار الرجال.

(1) Plato's Cretan City p. 118 - 119.

(2) Laws 866 a , 868c 871b, 879c See Marrow pp 120 - 121.

(3) Laws 923c.

أنا مدينة لوليم جالوب في مساعدتي في توضيح هذه النقطة - من المراسلات الخاصة عام ١٩٧٧ .
(المؤلفة).

(4) Laws 773c.

يقول أفلاطون: «سوف يكون ذلك مدعاة للسخرية، كما أنه سوف يثير فضلاً عن ذلك الحنق والاستياء»
٧٧٣ - أ (الترجم).

وضع المرأة - كما تحدده قوانين الزواج - يرتبط ارتباطا وثيقا بواقعة أن المرأة تُستبعد أيضا من مقتنيات الملكية الخاصة. وحتى إذا لم يكن للابنة أشقاء فإنها يمكن أن تشارك في ميراث الأسرة فقط كأداة من خلالها يصبح الزوج الذي اختاره لها أبوها وريثا لأبيها^(١). وتزودنا محاورة «القوانين» بوثيقة واضحة جدا عن الرابطة الجوهرية بين الملكية الخاصة والميراث وبين نظام الزواج ووضع النساء. فعندما يملك الرجل ملكية يمكن أن تورث فلا بد أن يملك كذلك زوجة حتى يضمن الوريث الشرعى. واقعة أن النساء يصبحن بذلك زوجات خصوصيات يعنى بطرق شتى أنهن يعاملن كملكية خاصة أكثر مما يعاملن بوصفهن أشخاصا. فليس فى استطاعة النساء أن يرثن ملكية حقيقية وهو الأمر الذى يحدد إلى حد كبير إطار الشخصية داخل المجتمع (فالابن الذى لا يرث عليه أن يغادر المدينة، ما لم يجد مواطنا آخر يتبناه ويجعله وريثا له)^(١). كما أن النساء يعاملن معاملة السلع يهبها الأقارب من الذكور، فإذا ما عرفنا هذه السمات الأساسية فى البنية الاجتماعية للمدينة، فلن يدهشنا أن نجد أفلاطون - رغم أقواله العامة المضادة - يعجز عن معالجة النساء كأنداد متساوية مع المواطنين من الرجال، فوضع المرأة كملكية خاصة يبلو أنه استولى بالشفعة على تنفيذ نواياه المعلنة.

على الرغم من أن الوضع القانونى للنساء فى الدولة المثالية الثانية عند أفلاطون قد تحسّن عن وضعهن فى أثينا، فإنه لم يكن مساويا قط للرجال. يقول جلين مورو: «من المؤكد أن نية أفلاطون المعلنة (رغم أنها لم تنفذ تماما) كانت إعطاء النساء وضعاً مساويا أكثر للرجال فى ظل القانون»^(٢). فقوانين الطلاق المقترحة - على خلاف قوانين الزواج - تعامل المرأة بقدر ملموس من المساواة أفضل من قوانين أثينا المعاصرة. والقوانين الجنائية توقع نفس العقاب لقتل أو إيذاء الزوجات، مثل الأزواج تماما. وهى تطبق بصفة عامة بون تفرقة بين الجنسين سواء من جانب الادعاء أو الدفاع^(٣). والمثل الصارخ لمعالجة القانون للنساء على قدم المساواة مع الرجال هو حالة المعاشرة

(1) Laws 928, E - 929 A.

(2) Cretan City, p. 113, Note, 55.)

(3) Laws 784 b.

الجنسية بعيدا عن الزواج حيث تمتد العقوبات نفسها لتشمل المذنبين من الجنسين معا^(١). وهذا الابتعاد غير المألوف من المعيار الأخلاقي المزوج، يمكن للمرء أن يتوقع وجوده في مجتمع مؤسس تأسيسا صارما على الزواج الواحدى والميراث، من المرجح أن يفسره هدف أفلاطون في أن يجعل جميع الأعضاء في مدينته فضلاء وعلى شىء من العفة والاعتدال بقدر المستطاع. فليست المعايير هي التي تم تخفيفها عن النساء، وإنما هي تنطبق بحسب على الرجال - غير أن التصور الأثيني للنساء على أنهن أدنى من الرجال من الناحية القانونية لا يزال قائما في محاورة «القوانين» بطرق ذات مغزى، فضلا عن أن النساء لسن جديرات بالملكية أو باقتناء ملكيات خاصة، فإنه لا يسمح لهن حتى سن الأربعين بالإدلاء بالشهادة أمام المحاكم أو رفع دعوى أو تقديم الناس، كما أنه لا يسمح إلا لغير المتزوجات بإقامة الدعوى أمام القضاء^(٢). إذ لا تزال النساء - لا سيما إذا تزوجن - إلى حد كبير نساء محصنات **Femmes Couvertes**.

وما بدأ ينكشف من خلال إنكار الحقوق القانونية والمدنية الهامة للنساء تؤكد به قوة الأنوار التي خصّصت للنساء داخل إطار الحكومة الرسمي. ولقد قيل لنا ذات مرة في محاورة «الجمهورية»، أن النساء من طبقة الحراس يشاركن الرجال في كل جانب من جوانب الحكم والحراسة. إذ لا يخصص لهن على وجه التحديد مناصب معينة، والحالة الوحيدة التي يذكر فيها وظائف محددة للنساء تجيء في نهاية حديث سقراط عن تربية الفلاسفة، وهنا - لأن الفكرة ربما بدت فاضحة أو شائنة للغاية - فإن أفلاطون يجد أنه من الضروري أن يذكر مستمعيه، أن كل شىء مما قاله ينطبق كذلك

(1) Laws 784 E.

(2) Laws 937 A.

يقول أفلاطون:

«وستكون المرأة الحرة صالحة للشهادة والدفاع، إذا ما تجاوزت سن الأربعين من عمرها. وسيكون لها الحق في رفع الدعوى أمام القضاء، إذا لم يكن لها زوج. أما إذا كان زوجها على قيد الحياة فلن يسمح لها إلا بالإدلاء بشهادتها فحسب.

«كما أنه سوف يسمح للعبيد من كلا الجنسين بالإدلاء بالشهادة، وكذلك الطفل يسمح له بالشهادة والدفاع في جرائم القتل فحسب». القوانين ٩٣٧ - أ (المترجم).

على أولئك النساء اللاتي يملكن قدرات ضرورية^(١). وليس من المحتمل أن الحراس من النساء إذا سمح لهن بالمنافسة على المراتب العليا، أن يُستبعدن من أية وظيفة أخرى. وفي محاورة «القوانين» - في المقابل - رغم الأقوال العامة التي اقتبسناها فيما سبق، نجد أفلاطون يحدد عندما تكون وظيفة معينة - مثل وظيفة «الكهانة» التي يقوم بها أشخاص من الجنسين معا. ثم يذكر بصفة خاصة وظائف معينة تشغلها النساء، عادة، مع مضمون قوى بأن النساء وحدهن الجديرات بتلك الوظائف^(٢). وهكذا نجد أن النساء سيكون من وظائفهن مراقبة الزوجين، ورعاية الأطفال. ويورهن في النظام التربوي تزويد الأطفال بالوجبات، والإشراف على مبارياتهم - باختصار سيخصص للنساء الوظائف التي ليست راقية المستوى مثل جميع الأعمال المنزلية، والرعاية والتغذية وتوجيه الأطفال. وهي جميع الأعمال التي كانت التقاليد والأعراف الاجتماعية تخصصها للنساء. ومن ناحية أخرى فليس هناك أية اقتراحات خاصة بمشاركة النساء في وظائف القضاء. أو في «المجلس الليلي المقدس» الذي يوازي دوره نور الفلاسفة في «الجمهورية»^(٣).

يتلقى الأطفال دروسهم على يد مدربين تربويين ذكورا. أما بالنسبة لوظيفة مراقب التعليم التي هي «في غاية الأهمية» - وهي «أعلى الوظائف في الدولة». فلا بد أن يشغلها «أفضل الموظفين» وهذا الموظف الممتاز يقول أفلاطون صراحة إنه لا بد أن يكون رجلاً،

(١) القول بأن الحاكم عند أفلاطون يشار إليه عادة باسم الملك الفيلسوف «يجعلنا نقول إن التذكرة كانت ولا تزال ضرورية (المؤلفة). «لا تظن أن ما قلته ينطبق على الرجال نون النساء، بل إنه ينطبق عليهما معا، ما دام هؤلاء يتمتعن بالمواهب اللازمة... الجمهورية. ٥٤٠ ج (المترجم).

(٢) Laws 741c, 759 b, 764c, 800b, 828b, 813c, 784 a - c, 790 A, 794, a - b 795d, 930. «وإن يمكن أن نقول إنه سيكون هناك خدم للمعابد من الكهنة والكاهنات» القوانين ٧٥٩ - أ. «... وفضلاً عن ذلك يقوم الكهنة والكاهنات بتقديم القوانين وتلاوة الصلوات...» القوانين ٧٤١ - ج.

(٣) Laws 961 b.

وكان على المجلس أن يعقد جلساته في الصباح الباكر، وهو الوقت المفضل حيث يكون الفرد متحرراً من جميع مشاغله الأخرى (المترجم).

إذ «لابد أن يكون له أطفال شرعيون»^(١). وهذا التخصيص يضيف وزنا لما يتضمنه العمل. والدولة المثالية الثانية، وإن لم نذكر جدارة النساء بوضوح، فإن معظم الوظائف لا سيما العليا منها يحتفظ بها الرجال^(٢). وفضلاً عن ذلك فحتى بالنسبة للوظائف التي تكون المرأة جديرة بها، فإنها لا تتأهل إلا عندما تصل إلى سن الأربعين، في حين أن الرجل يكون أصح لهذه الوظائف متى بلغ سن الثلاثين من عمره^(٣).

وعلى الرغم من الاقتراح الخلفي في محاورة «القوانين»، فإننا نجد أنه لصالح النظام والانضباط، فإنه حتى النساء المتزوجات ينبغي عليهن تناول الوجبات المشتركة، رغم انفصال الرجال عن النساء في تناول الطعام - فمن الواضح أن أفلاطون قد تخطب في الحكمة - وربما إذا كان الاقتراح عملياً - بالنسبة لإخراج الزوجات من عزلتهن المنزلية. وهكذا نجد، مثلاً، عندما يصف مراسم الجنازة التي تعد للمواطنين المميزين، فإننا نراه يحذف النساء والأطفال في سن الرعاية من القائمة التي توجد في كل طبقة أخرى من طبقات المجتمع، وهن يحذفن كذلك من المسابقات الكورالية^(٤). لكن ربما نلاحظ أكثر من ذلك إصرار أفلاطون السابق على التدريبات العسكرية والرياضية، وركوب الخيل، وكيف أنها تلائم النساء، وكيف أن النساء المدربات يمكنهن اقتحام ساحة القتال كالرجال سواء بسواء^(٥) - لكنه حين يسير في التنظيمات التفصيلية فإنه - تقريباً - يستبعد النساء تماماً من الخدمة العسكرية. فعلى الفتيات في البداية أن يتعلمن فنون القتال فحسب: «إذا رغب فيها» بينما مثل هذا التدريب إلزامي بالنسبة للأولاد^(٦). وإذن فعلى الرغم من أن أفلاطون وضع شرطاً عاماً هو أن الرجال والنساء

(1) Laws 765 d - 766)

يوافق لفنستون على هذه النتيجة في كتابه «دفاع عن أفلاطون» ص ١٣٣ . ويلاحظ مورو أن أفلاطون لا يقترح في أي مكان أن يشغل النساء وظيفة مدعية أساسية في مراقبة الجمعية الشعبية ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(2), (3) Laws c 785 b.

(3) Laws 947 d 904 e.

(4) Laws 804, e - 805. a

(5) Laws 794 C - d.

والأطفال عليهم أن يشاركوا فى التدريبات العسكرية على الأقل مرة واحدة فى الشهر، فإننا نجده عندما يضع تفصيلات هذه التدريبات على نحو واضح فإنه يستبعد مرة أخرى النساء بعد سن الزواج (عشرين سنة على الأقل) - على نحو ملحوظ، فلا هن يتدربن فى مسابقات الجرى، ولا على المصارعة - مع أنهما رياضتان يوصفان بأنهما جانبان متكاملان فى التدريب. أما ركوب الخيل فهو يرى أنه ليس من الحكمة «وضع قوانين وقواعد إجبارية لإشراكهن فى مثل هذه الرياضة»^(١).

وينبغى علينا أن نلاحظ أن أفلاطون لم يكن بالقطع - كعادته - يترك الخيار فى نظامه التربوى للمواطنين لا سيما إذا كان الأمر يمس تلك الجوانب الخاصة بالدفاع عن الدولة.

وأخيرا فإن نظام الخدمة العسكرية بالنسبة لرجال يبدأ من سن العشرين إلى سن الستين: «أما بالنسبة للنساء فلو ظهرت أية علامة للاستفادة منها فى الخدمة العسكرية، فلتكن فترة خدمتها بعد أن تكون قد انتهت من رعاية أطفالها وحتى سن الخمسين، فى تلك الوظائف التى ترى أنها ممكنة ومناسبة بالنسبة لها»^(٢). وهذا يعنى أنه بالنسبة للتقريرات الضخمة حول ضرورة - وعقلانية - تدريب النساء على قدم المساواة ليشاركن الرجال فى الدفاع عن الدولة، فالواقع أن النساء يسمح لهن - نون إرغام - بالتدريب حتى سن العشرين، ثم يستبعدن من معظم الأنشطة العسكرية حتى الانتهاء من رعاية الأطفال - وبالتالي يستثنين مرة أخرى فى الخمسين - وما دام الرجال فى مجتمع أفلاطون المحترم ليس لهم متنفس جنسى آخر سوى زوجاتهم، وما دام منع الحمل صعبا فى نولة متقدمة، فإن ذلك سوف يعنى أيضا أن علينا أن نتوقع خمس سنوات من الخدمة العسكرية للنساء والراشدات، ولن يؤدى ذلك قطعا إلى إنتاج نساء الأمازونات^(٣).

(1) Laws 834 d, 834 a 834 d.

(2) Laws 785 b.

(٣) نساء الأمازونات.. Amazons.. فى الأساطير اليونانية (والكلمة تعنى: بغير صدور) قبيلة من المقاتلات الإناث تعيش فى كباوكيا فى أسيا الصغرى، ولهن فى الصدر ثدى واحد، أما الثانى فقد أزيل فى الصغر حتى تستطعن إطلاق القوس فى حرية أكثر - راجع بالتفصيل كتابنا «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الأول ص ٧٥ مكتبة مدبولى بالقاهرة عام ١٩٩٦ (المترجم).

على الرغم من رغبة أفلاطون المعلنة ونواياه الصريحة أنه سيجعل النساء في مدينته الفاضلة الثانية على قدم المساواة مع الرجال في تحمل واجبات المواطنة، فإن الواقع أنهن بقين زوجات خصوصيات، وبذلك أبطل أفلاطون مشاركتهن في الحياة العامة لثلاثة أسباب:

أولاً: الأمور العملية الخاصة بالحمل والرضاعة التي لم تكن عليها سيطرة وضبط كما هي الحال في «الجمهورية» حيث الرفاق الحراس يخضعون لسيطرة الحكام. أما النساء في محاورة القوانين، فطالما أنهن زوجات دائمت فلسن قادرات على تحديد حملهن، وليس في استطاعتهم أن يكن مسؤولات على أساس دائم عن الواجبات العامة لا سيما العسكرية منها.

ثانياً: إعادة تنظيم المنزل الخاص جعل كل زوجة ربة بيت مسئولة عن رعايته ورفاهيته. ومن الواضح أن الأمم في القوانين عليها أن تشارك في رعاية الطفل الصغير أكثر كثيراً من زوجات الحراس اللاتي لم يكن يعرفن أن الطفل هو طفلهن^(١).

ثالثاً: السبب الثالث هو أنه من الواضح أنه لا يمكن لأفلاطون أن يتصور أن الفساد اللاتي لهن «زوجات خصوصيات» - الملكية الخاصة للمواطن الذكر - ينبغي أن يقمن بنفس الأنوار العامة، لا سيما العسكرية منها، كالحراس من الإناث اللاتي لم يكن يعرفن من حيث علاقاتهن التقليدية بالرجال. في حين أن الحراس من الإناث يستطيعن، كالرجال، أن يتمرن عاريات - فإن الفتيات في محاورة «القوانين» لابد أن يرتدين «أردية محتشمة» بوصفهن عذارى سرعان ما يصبحن زوجات محترمات وملكية خصوصية لمواطن ينبغي أن لا يُسمح لهن أن يراهن العالم الخارجي على أي نحو^(٢). والواقع أن أفلاطون يعبر عن كثير من الأفكار الغربية في محاورة «القوانين»، فالزوجات يتناولن طعام العشاء في مكان عام لكن على موائد منفصلة. كما سبق أن عبر في «الجمهورية» عن اقتراحه بأن جميع الحراس من الجنسين ينبغي أن يتدربن عراة^(٣). في حين أنه رأى أن من المحذور أن يترك النساء بغير نظام في خطر من

(1) Laws 808 a - 808 e.

(2) Laws 833d.

(٣) قارن بين: محاورة القوانين ٧٨١د ومحاورة الجمهورية ٤٥٢ أ - ب.

إهمال الرجال . ويصر على أن النساء أيضا يتناولن طعام العشاء فى مكان عام، كان على وعى تام بأنه فى مجتمع كالذى يخطط له، سوف تكون هناك مقاومة لا حد لها لمثل هذه الفكرة. وبالتالي فعلى الرغم من أنه يأسف من أنه حتى نساء اسبرطة المتدريبات فزعن وهربن عندما غزا العدو مدينتهن - ورأى أنه من الحمق إهمال إمكانية بالغة الأهمية للدفاع كهذه - يقصد جنس الأنثى كله. فإنه فيما يبدو وجد أن من المستحيل أن يبقى متسقا مع اقتراحه الأصلي الذى يقول إن النساء ينبغى أن يشاركن فى الأنشطة العسكرية مثل الرجال. لو أن مجرد العشاء المنفصل للزوجات الخصوصيات يمكن أن يسبب احتجاجا ما عنيفا ، فليس معروفا ما الثورات التى يمكن أن تنشب بسبب الاقتراح القائل بأن الرجال ينبغى أن يختلطوا مع الزوجات الخاصات بالرجال الآخرين فى ساحة القتال. وعلى الرغم من جميع نواياه المعلنة فى محاوره «القوانين» لتحرير النساء، والاستفادة من مواهبهن - التى هو مقتنع الآن بأنهن يمتلكنها - فإن إعادة أفلاطون للأسرة، كان له أثر مباشر فى أن يضع النساء بعزم راجعا القهقرى إلى مكانهن التقليدى.

الفصل الثالث

طبيعة الأنثى والبنية الاجتماعية

لقد ركّزنا حتى الآن على موضوع العلاقة بين معالجة أفلاطون للمرأة في مدينته الفاضلة (الأولى والثانية) وعلى بعض الخصائص المهمة الأخرى في هذين المجتمعين، ولا سيما نظام الملكية الخاصة بالأسرة. وسوف نتجه الآن إلى تحليل: كيف ناقش أفلاطون موضوع المرأة. وهل طبق على قضية المرأة نفس الحجج والمعايير المنطقية التي طبّقها عندما ناقش طبيعة الرجل؟! وهل سمح لنتائج حوله حول طبيعة النساء أن تُخرج كل ما تتضمنه؟ وأخيراً ما دلالة الإجابة عن هذه الأسئلة على الأنوار المختلفة التي حددها للمرأة في محاورتي «الجمهورية» و«القوانين»؟.

مفهوم الطبيعة *Nature* عند أفلاطون بالغ الأهمية فهو ليس مسألة بسيطة على الإطلاق، وهو يُستخدم بكثرة في المحاورات لفظ *Physis* مع أشكال كثيرة من الأفعال والصفات المشتقة من هذا الجذر، والواقع أن فهم هذا المصطلح ومعناه المعقد هو أمر حاسم بالنسبة للتقييم الصحيح لفكر أفلاطون حول الأهمية النسبية للخصائص الفطرية والعوامل البيئية في تكوين القدرات البشرية والشخصية الإنسانية.

يقول أفلاطون في محاورته «فايدرس» إن تحديد طبيعة أي شيء ليس أمراً بسيطاً. وهو يشدد على أننا لا نستطيع: «أن نفكر في طبيعة أي شيء» نون أن نتدبر بامعان كيف تعمل هذه الطبيعة، وكيف تؤثر في الأشياء الأخرى وكيف تؤثر هذه الأشياء بدورها في هذه الطبيعة. وإذا واصلنا السير في البحث نون أن نفعل ذلك، فلابد أن يكون ذلك - فيما يقول - أشبه بتقدم الأعمى^(١). وهذا يعني أنه من غير المحتمل أن تشير المظاهر السطحية، بدقة، إلى الطبيعة الحقيقية للأشياء. بل لابد لنا أن ننظر عن

(١) فايديروس ٢٠٧ ح.

قرب إلى البيئة التي يتفاعل فيها الشيء مع غيره قبل أن نزعم أننا نعرف أى شيء عن طبيعتها. غير أننا سوف نرى أن أفلاطون نفسه عندما يتحدث عن طبيعة النساء لا يتبع باستمرار نصيحته هذه.

كان السؤال حول ما إذا كانت الخصائص الفطرية، والعوامل البيئية هي التي لها الأهمية الأولى في نشأة الطبيعة البشرية - سؤال شغل تفكير اليونانيين الكلاسيكيين والتراث الذي تشكل في سياقه تفكير أفلاطون - كان فيما يبدو يدعو إلى التشديد العظيم على الجانب الفطري مقابل آثار التربية، في تفسير كيف يصبح الأشخاص على ما هم عليه. ومن الواضح مثلاً أن الأهمية الكبرى للشاعر المؤثر ثيوجنس Theognis كانت في وصف الجانب الفطري الثابت، أما الأثر الضعيف للتربية في خلق إنجاز عقلي وشخصية طيبة^(١) غير أن معظم الشراح فيما يبدو قد اعترفوا بذلك في الوقت الذي عارض فيه أفلاطون بقوة هذا التأكيد السائد. فمحاورة «الجمهورية» - وكذلك «القوانين» بقدر ما هما يدوران حول السياسة فإنهما يدوران حول التربية بأوسع معنى ممكن للكلمة^(٢).

إحدى المشكلات التي ينطوى اكتشافنا للنقطة التي يقف عندها أفلاطون بخصوص الوزن النسبي للخصائص الفطرية وعوامل البيئة هي أنه لا يستخدم باستمرار لفظ Physis ومشتقاته لتعني ما هو فطري. وهذا الاستخدام ليس - على الإطلاق - خاصاً بأفلاطون وحده. فالكلمة اليونانية تشير إلى كل من «التكوين، والبنية،

(١) لقد كتب ثيوجنس الشاعر ، يقول مثلاً:

«إنه يستحيل عليك أن تجعل الأحق حكيماً

أو الشرير صالحاً - فذلك علم لم يفهمه

الفن البشري على الإطلاق..

لا يوجد في الطبيعة البشرية مشاركة،

ليس ثمة برنامج ولا حيلة من حيل المهارة البشرية،

يمكن أن تصلح الانفعالات الطاغية أو الإرادة...» .

انظر : «أعمال هزيود، وثيوجنس، وكاليمachus» ص ٤٤٢ .

ويؤكد الشراح في الموضوع الذي طال النقاش فيه وهو هل الفضيلة أو الرذيلة فطرية - نجد «بندار»

و«يوربيدس» أيضاً يقفان في صف الجانب الإيجابي.

(٢) التربية عند أفلاطون يمكن أن تشمل كل شيء ابتداء من حفلات الشراب إلى التشريع لكل الأمور

قارن Laws, 641.

والماهية» فى الشىء، وكذلك إلى تطوره، أو كما يمكن أن تقول، إلى الطريقة التى ينمو بها؛ فللكلمة معنى استاتيكي وديناميكي فى آن معا^(١). ولما كنا نميل إلى التعبير عن المشكلة بحيث تكون «الطبيعة» ضد «التربية» - وهما حدان يطرد الواحد منهما الآخر - كانت استخدامات أفلاطون لكلمة «الطبيعة» استخدامات مضللة. وأحياناً يكون من الواضح تماماً أن لفظ «طبيعة» و«طبيعى» لا يدل على الفطرية كما هى الحال مثلاً عندما يقول إنه فى «القابلية الطبيعية يكون العضوات فى الغالب متوازيات، لكننا نحن أنفسنا نستخدمها فى العادة بطريقة خاطئة. فنجعلها مختلفين»^(٢) غير أنه يتضح فى بعض الفقرات الأخرى أو ما يسميه أفلاطون بالطبيعة يتضمن عناصر ليست فطرية على الإطلاق ولكنها تطورت بالتمرين والعادة. ففى محاوره «القوانين» - مثلاً - بينما لا يجعل الفروسية وركوب الخيل أمراً إجبارياً على البنات فإنه يقول: «أما بالنسبة للنساء فلا ينبغى إرغامهن على المشاركة فى هذه المباريات بقوانين. لكن إذا كان تدريبهن المبكر قد أدى إلى نمو هذه العادات، فأصبحن متساويات جسدياً مع الرجال بحيث تسمح طبيعتهن بذلك فيجب أن يسمح لهن بذلك نون لوم»^(٣). ومن ناحية أخرى فإننا نجد فقرة ذات دلالة فى محاوره الجمهورية يقول فيها سقراط: «المدينة التى تبدأ بداية سليمة، تنمو كالدائرة فالتربية والتدريب إذا ما أحسن توجيههما أنتجا طبائع خيرة وطبائع سليمة، وهذه بدورها إذا ما تلقت مثل هذه التربية، فإنها تنمو على نحو أفضل من التى كانت قبلها...»^(٤). فإذا كانت طبيعة شخص ما كما هو واضح فى هذه الفقرات يمكن «إنتاجها» على الأقل فى جانب منها - بواسطة بيئته - أو بيئتها - فلن نستطيع أن نزعم بعد ذلك أن كل شىء قاله أفلاطون عن الطبيعة أو الطبيعى بالنسبة للفرد يعنى الإشارة إلى كفيات فطرية. وهكذا فإنه، مثلاً، عندما يقيم قسمته الحادة للعمل على مقدمة تقول:

(١) ف. م. كورنفود «من الدين إلى الفلسفة» ص ٧٣ .

(2) Laws, 794 d - e.

(3) Laws, 834 d.

(4) Republic, 424 a.

«إن كلاً منا بالطبع لا يشبه أى شخص آخر، بل هو بالأحرى يختلف عنه بطبيعته»^(١) فلا شيء فى هذا السياق - الواقع لا شيء عند أفلاطون سوى الزعم بأن طبيعة شخص ما هى فطرية تماماً - لا شيء فى هذا السياق يجعلنا نفترض أنه اعتبر الفرق بين الطبيب والنجار فطرياً تماماً أو حتى يسيطر عليه الجانب الفطرى، ومن الواضح أنه من المغالاة فى التأويل أن تترجم كلمة *Physis* بكلمة الطبيعة.. *Nature* أى منذ الميلاد كما فعل شورى *Shorey* بالنسبة «لمحاورة الجمهورية» ٤٨٥ - أ.

ومن المؤكد أن أفلاطون لم يكن يجهل الخصائص الفطرية أو الموروثة، كما أنه لم ينكر أهميتها. فهو عندما يناقش الفشل الأخلاقى اللاإرادى يقول: «كل منا حين يكون سيئاً فإنه يصبح كذلك لسببين هما معاً خارج سيطرتنا، أعنى استعداداً سيئاً للجسد، وتربية سيئة..»^(٢). ومن ناحية أخرى فإننا نراه فى محاورة فايدرس يتحدث عن تجاوز الكيفيات الفطرية مع التربية وذلك أمر واضح. كما أن سقراط يكتشف كيف يصبح المرء خطيباً مفوهاً، يقول: «إن كان لك بالطبيعة استعداد للخطابة فلا شك أنك ستكون خطيباً ممتازاً وتلك هى الحال فى جميع الأمور الأخرى. سوف تصبح خطيباً شهيراً لو أنك حصلت أيضاً علماً ومراناً، لكن إذا افتقرت إلى واحد من الشرطين السابقين فستكون بالتالى خطيباً ناقص التكوين»^(٣). ومن ثم فإن الاستعداد الفطرى مهم، لكنه لا يكفى وحده لإنتاج الشخص الكفو فى أية مهنة أو فن. فالبذرة الفطرية ينبغى أن تُربى حتى تنمو وتزدهر. وأخيراً يقال لنا فى محاورة «القوانين» إنه بسبب عدم كفاية «المولد، والرعاية، والتدريب»^(٤) يعجز المواطنون عن الاحتفاظ بالملكية المشتركة.

لكن الموضوع حتى الآن تافه جداً، فهناك مفكرون أنكروا تماماً أهمية العوامل الفطرية والعوامل البيئية، فالشيء الهام هو تقييم أين يكمن التشديد الأكبر، وهناك

(١) الجمهورية ٣٧٠ أ
(٢) طيماوس ٨٦ د و ٨٧ ب.
(٣) فايدروس ٢٦٩ ح.
(٤) القوانين ٧٤٠ أ.

شواهد واضحة فى المحاورات على أن أفلاطون كان ينسب الوزن الأكبر من التأثير للبيئة والتربية. ولا يمكن أن ننكر أنه وضع تشديدا قويا على أهمية تجربة الطفولة المبكرة إذ يسأل سقراط: «ألا تعلم أننا نبدأ بتربية الأطفال.. وأن البداية هى أهم جانب فى كل شىء، ولا سيما إذا تعلق الأمر بكائن صغير رقيق، إذ أن ذلك هو العهد الذى تتكون فيه الشخصية، وينطبع ما تود إحداثه فيه من التأثيرات...؟»^(١).

وهذا هو السبب فى أنه لابد من أن تكون هناك عناية فائقة بالقصص التى تروى للحراس الشباب، وفى «القوانين» - لجميع المواطنين الصغار، وكذلك الألعاب التى يلعبونها، لأن هذه الأمور هى التى تُشكل نفوسهم، فما ينطبع فى ذهن الطفل الصغير من آراء ومعتقدات فى هذه السن يكون مؤثراً ويصعب أن يتغير^(٢). ما دامت «نقطة البداية فى تربية الإنسان تحدد المجرى الذى سوف تسير فيه أيضاً. فلا يسمح للشباب من الحراس فعل شىء ما حتى أثناء اللعب لا يتناسب مع وضعهم ووظيفتهم المقبلة. وبالمثال فإن الحرفيين عليهم أن يركزوا فى تعليم أطفالهم حرفهم منذ الصغر^(٣). ثم يحذرنا سقراط بعد ذلك من النتائج القوية على الشخصية التى يتم فيها تركيز مفرط على الجانب البدنى فى التربية فى حين تكون التربية فى الجوانب الجمالية غير ما فيه أو العكس. واللاتوازن الأول سوف يبالغ فى تطوير الجانب الحيوى فى طبيعة الفرد إلى حد التوحش، فى حين أن اللاتوازن الثانى سوف يبالغ فى الجانب الآخر الأليف جانب الاستعداد الطبيعى حتى أننا نصل بالشخصية إلى حد الإفراط فى النعومة. والرسالة الواضحة هى أن البيئة والمران يمكن أن تجعل بعض جوانب الإمكانيات الأصلية تنوى، على حساب بعض الجوانب الأخرى التى تصبح مسيطرة بطريقة غير صحية^(٤).

ويقال لنا : إن الحراس قد تم اختيارهم فى الأصل بسبب ذلك الجمع النادر بين القدرات - الاستعداد للرقعة نحو نويهم، والقسوة تجاه الأعداء^(٥). غير أن التربية

(١) الجمهورية ٢٧٧ ب.

(2) Republic, 424 e 425 C. See also laws 797. 816.

(3) (4) Republic, 410 C - 411e.

(5) Republic, 375.)

التفصيلية الشاملة التي يتلقونها تشهد أن أفلاطون لم يكن يعتقد أنه حتى الأفراد من أصحاب الخصائص المتميزة يمكن أن نتوقع لها أن تنمو في الطريق الصحيح دون عناية مركزة وانتباه حذر تجاههم. وفضلاً عن ذلك فحينما يدرس سقراط بعد ذلك المشكلة الكبرى مشكلة المهام أو الوظائف ومتطلباتها التي تفرض على الطبقة الحاكمة، وهو يؤكد أنهم سيجدون هذه المهام بسيطة هيئة طالما أن «الشيء العظيم أو بالأحرى، الشيء المكتفى ما زال موجوداً». وهذا الشيء العظيم المكتفى، ليس كما يريد منا بعض شراح أفلاطون أن نعتقد كصفات فطرية لهذه النخبة المختارة، وإنما هو بدلاً من ذلك، «التربية والتعليم» إذ أن التربية الصالحة إذا ما أنارت نفوس مواطنينا أصبحوا عقلاء وسوف يعترفون بعقلانية جميع التنظيمات الاجتماعية التي تعرض عليهم^(١).

وتؤكد أسطورة الكهف الافتراض بأن أفلاطون يؤمن بأن التربية هي العامل الأعلى وزناً في تحديد مستوى الإنجاز البشرى؛ فالأسطورة كلها مطروحة لكي تبين الهوة الواسعة بين القدرات عند المتعلم وغير المتعلم. فهما ليسا نمطين مختلفين من الشخصية متميزين منذ لحظة الميلاد، بل بالأحرى «صورة لطبيعتنا أثناء تربيتها، أو عدم تربيتها»^(٢).

ونقارنهم بأناس تعلموا أن يدركوا، فإن الناس كما هم في وضع غير متعلم يشبهون بمن اختبأوا تحت الأرض، لا يصلهم شيء سوى ظلال تعطيهم انطباعات بالعالم الخارجى.

وفي محاورة «القوانين» يشدد أفلاطون على سيطرة التربية التي تشمل كل شيء ابتداء من حفلات الشراب إلى التشريع لكل أنواع المسائل، وتبدو أعظم مما كانت عليه من قبل. أما بالنسبة لإيمان أفلاطون بالقدرات البشرية الفطرية، فيبدو أنه أصبح أكثر اضمحلالاً: ويقال لنا إن المواطنين في المدينة الفاضلة الثانية «ليسوا - في الجانب الأغلب منهم سوى دُمى». وكما يقول جلين مورو: «لقد أخذ أفلاطون المشرع في النهاية كل فرصة لوضع برنامج التربية»^(٣). فالرجل الأثيني - في محاورة القوانين - يؤكد

(1) Republic, 423 d - e.

(2) Republic, 514 A.)

(3) Laws, 804 b; Plato's Cretan City, P. 541.

فى الكتاب الأول «أن الرجل المتعلم جيداً سيكون مواطناً صالحاً..» ويقال إن وظيفة مراقب التعليم هى أعلى وأهم وظيفة فى الدولة، حتى إذا ما أضيفت البيئة إلى فترات الطفولة الأولى التى أخذ بها فى محاورة «الجمهورية» والتى يتردد صداها فى التطور التالى، ويتم التشديد على أنه لن يحدث أبداً - حتى إذا ما حدث انهيار قاسٍ للسكان - أن يدخل الناس الذين تمَّ تعليمهم تعليماً سيئاً إلى المدينة. ففى محاورة القوانين - قبل كل شىء - يكشف أفلاطون أن البنية التشريعية والاجتماعية كلها لهذا المجتمع المقترح مصممة على أن يكون مثقفاً أو متعلماً، لأنه على الرغم من أن الإنسان يُعدُّ مخلوقاً أليفاً فإن أفلاطون يحذرننا إذا ما كان التعليم قاصراً أو سيئاً فإنه يتحول إلى أشرس المخلوقات على الأرض»^(١) كثيراً ما يتخذ أنصار ترجيح العوامل الفطرية عند أفلاطون. من أسطورة المعادن دليلاً على أنها تبرهن على أولوية العوامل الفطرية بوصفها تحدد الشخصية والقدرات البشرية^(٢). غير أن ما فات هؤلاء الباحثين، فيما يبدو، هو أنه يقول لنا بصراحة إن أسطورة المعادن **أكنوبية**. مع التسليم أنها ليست أكنوبية عادية، والأكنوبية «الحقيقية» من النوع الذى يبغضه جميع الآلهة ويكرهه كل الناس، وهو «استقرار الجهل فى نفس الشخص الذى كذبنا عليه». وإنما هى بالأحرى مثال على الأكنوبية «فى الحديث» التى «ليست غير ناضجة تماماً» وهى لا تستحق التوبيخ، طالما أنه يمكن أن تكون نافعة ومفيدة للموجودات البشرية «كصورة من العلاج»^(٣) ولا يسمح لغير الحكام أن يقولوا مثل هذا النوع من الكذب لصالح المدينة ككل. والاتجاه إلى معالجة هاتين «الكذبتين النبيلتين» فى نهاية الكتاب الثالث، كمجاز فحسب، يفيد فى تبسيط الحقيقة وجعلها نابضة بالحياة أكثر. أصبحت فيما يبدو بلا تبرير تماماً وفضلاً عن ذلك فإن الكذب الأساسى الذى تنطوى عليه كل من

(1) Laws, 766 a.

(2) See, e. 9. Gouldner: Enter Plato, P. 228' Grube, Plato's Thought pp. 268 - 269. Alons dair Macintyre: A Short History of Ethics" p. 44.

(3) Republic, 382 a - d, 389 d.

الأساطير التي تقال للمواطنين عن أصلهم هو أن الاختلافات بين أعضاء الطبقات الاجتماعية المختلفة هي اختلافات فطرية تماما. وحتى يتم عقلنة الهيراركية (الطبقات التصاعدية) والاحتفاظ بها والبالغة الأهمية لاستقرار المجتمع، ورخاء الدولة المثالية، فإن أفلاطون يقترح أنه لا بد لمواطنيه أن ينسوا تربيتهم وتعليمهم - التي كانت مميزة بشكل واضح - ويعتبروها مجرد أحلام؛ ويعتقدوا بدلاً من ذلك أن الإله هو الذي شكّلهم من مواد ذات كفاءات متميزة ومختلفة - فجعل بعضهم من ذهب، وبعضهم من فضة، والآخر من البرونز أو الحديد. وهكذا فإن الاختلافات الهائلة بين المواطنين التي جاءت نتيجة لأمزجتهم الفطرية من ناحية، والاختلافات الواسعة في التربية التي مروا بها، تُنسب كلها إلى العامل الأول. وهكذا تُستخدم الدعاية الفاسدة لكبت وقمع الحوافز غير المرغوبة من أجل التقدم. ونفس هذه «الكذبة النبيلة» قيلت للنساء طوال التاريخ.

وإذا سلمنا بأن جانب التربية عند أفلاطون هو العامل الغالب، فإن الحجة التي استخدمها في الكتاب الخامس من «الجمهورية» للبرهنة على أن الذكر والأنثى من الحراس لهم طبيعة واحدة، وبالتالي ينبغي أن تحدد لهم نفس الوظائف والمهام - تبدو غريبة للغاية؛ فهو حتى هذه النقطة كان يؤكد بقوة شديدة أهمية كل من البيئة الشاملة والتدريب النوعي الخاص لتدريب القدرات من جميع الأنواع. ويبدو، إذن، أن الخط الواضح عنده الذي ينبغي أن يسير عليه هو أن يؤكد أنه سبب الاختلافات الكبيرة في التربية والرعاية المعاصرة لكلا الجنسين، فإن المرء لا يستطيع أن يقدر تقديراً سليماً قدرات النساء، أو أنه يمكن لهذه القدرات - إذا ما دُرِّبَت أن تصبح مثل قدرات الرجال، وما دامت طبيعة الشخص يمكن أن تفسد بعدد من الطرق عن طريق تكوين أنواع مختلفة من العادات، والمبالغة في التشديد على - أو إهمال - جوانب مختلفة من الإمكانيات الأصلية، فلا يمكن أن تكون هناك طريقة نعرف بها كيف نقارن بين قدرات النساء الفطرية وقدرات الرجال، طالما أن الإهمال الشامل للتربية النسائية قائم ومستمر. إذا كان يمكن أن نقارن بين الرجال الذين يتعلمون تعليماً مألوفاً، وبين الرجال الذين يتعلمون تعليماً جيداً، كما يمكن مقارنة سكان الكهف بأولئك الذين يدركون العالم الواقعي الحقيقي، فإن النسيان عندئذ على نحو ما هن موجودات في

أثينا المعاصرة - يمكن أن يقال إنهن يقضين حياتهن داخل توابيت نون أن يجدن حتى ذلك الضوء الخافت الذى يلقي بظله على الجدران. إذ المقابلة بين النساء فى المجتمع الذى يعيش فيه أفلاطون، والنساء كما ينبغى أن يعشن هى بالقطع أعظم كثيراً من المقابلة بين زملائه الأثينيين من الرجال، وأولئك الذين يخطط لهم فى مدينته المثالية. ومن ناحية أخرى إذا كان يمكن أن يضار الشبان من الحراس حقاً كما يقال عندما يستمعون إلى ما يروى عن ضعف وحماقات الأبطال الذكور الذين ورد ذكرهم فى شعر ودراما الأسلاف، فما هى صورة الذات التى يمكن للمرء أن يتوقع أن ترسمها الفتاة لنفسها من تراث تنتشر فيه مثل هذه الوجهة من النظر عن جنسها فى هذه الآداب؟^(١) وعلى الرغم من أن أفلاطون يؤكد أن الشخص الذى يبقى فى الجهل ليس أمامه خيار سوى أن يفرض يؤمن بما يقوله له الآخرون عن نفسه^(٢)، فإنه لا يطبق هذه الحقيقة عن صورة الذات على غسيل المخ الذى خضعت له نساء اليونان من عصر هزيود حتى عصر بركليز^(٣).

أفلاطون وهو يواجه مهمة ضخمة - هى مهمة أن يبرهن لمستمعيه المرتابين أن النساء ينبغى تدريبهن لينجزن نفس الوظائف المدنية الرفيعة التى يشغلها الرجال - فشل فى تطبيق مذهب سيطرة البيئة عنده. فليس ثمة سوى إشارة موجزة واحدة لاعتقاده أنه ليس من الممكن استخدام نفس الحيوان لنفس الأشياء^(٤)، ما لم تحدد له نفس التدريب والمران^(٥). وبغض النظر عن ذلك كان البرهان الذى استخدمه يستهدف بيان أنه لا يوجد شئ تستطيع النساء - كطبقة - أن يقمن به أفضل من الرجال - كطبقة، حتى فى مجال الأمور التى كانت التقاليد تحتفظ بها للنساء. ومن ثم فليس

(1) epublic, 387 - 389.

(٢) يقول أفلاطون: «لنتصور رجلاً لا يعرف كيف يقيس، أكد له كثير من أمثاله من الجهلة أن طول قامته متران ألن يكون لزاماً عليه أن يصدقهم؟» الجمهورية ٤٢٦ ح (المترجم).

(3) Republic, 426 d - e.

(٤) «وهل من الممكن أن نعهد إلى حيوان بنفس عمل حيوان آخر إن لم نغذه ونتعهده بنفس الطريقة،» الجمهورية ٢٥١ د (المترجم).

(5) Republic, 451 e.

هناك تحديد أو تخصيص لأنوار معينة للنساء، ويترتب على ذلك أنه لا يوجد أى نور مخصص بصفة خاصة للرجال كطبقة. بل بالأحرى، كما أشار عندما قدم فكرة تقسيم العمل لأول مرة. فإن الأشخاص، لا طبقات الأشخاص، هم الذين لديهم طبائع تناسب الفنون المختلفة. وتعميم القول بأن الرجال يكونون، عموماً، أفضل من النساء فى كل شىء، لا يمنع من أن كثيراً من النساء يَفْقُن كثيراً من الرجال فى أمور متعددة»^(١).

ويعتقد أفلاطون أنه برهن بالحجة السابقة على أن الأنوار التقليدية للجنسين لا هى طبيعية ولا عقلية:

«ليس فى إدارة الدولة، أيها الصديق. من عمل يختص به النساء وحدهن من حيث هن نساء، ولا الرجال من حيث هم رجال. لكن لما كانت الملكات قد انقسمت بين الجنسين، وأن المرأة قادرة بطبيعتها على كل الوظائف، وكذلك الرجال، وإن تكن المرأة فى كل شىء، أدنى قدرة من الرجل»^(٢).

وهكذا نجد أفلاطون - وبطريقة ملتوية - يبرهن لمستعميه المتشككين على شىء كان يمكن، بالقطع، أن يكون مفيداً فى الالتجاء إلى نظريته الخاصة بالأهمية المركزية للتربية بمعناها الواسع فى تحديد مستوى القدرة التى يصل إليها مختلف الأشخاص. فلماذا لم يستفد من الواقعة ذات المغزى وهى أن قدرات النساء مجهولة وأن قدراتهن المعروفة الشائعة قد شوهها وضعهن فى المجتمع؟ ربما كان تردد سقراط الشديد فى تقديم اقتراحه المذهل عن النساء يرجع إلى اختياره لأقل الطرق راديكالية فى الهجوم، ربما أنها أيضاً أقل الطرق فى الإقناع^(٣). وكما تقول كريستين بيرس: «يمكن لحجة أفلاطون.. أن تُفسر بأنها محاولة للتسليم بما يرغب أن يقوله عدو للمرأة، رغم أن الحجة لا تزال تبرر المضمون المنطقي للفرص المتساوية للجنسين...»^(٤). ربما أن

(1) Republic, 455d' Pierce Equality: Republic V⁹.

(2) Republic, 455 d - e.

(٣) رغم أن سقراط يقول إنها أقل موجاته الثلاثة مفارقة فإنه كان يعنى أنها أكثر حساسية للسخرى الظاهر فى مقترحاته هنا عنها فى أى مكان آخر فى «الجمهورية». (المؤلفة) - والموجات الثلاثة التى يقصدها سقراط هى الموجة الأولى هى المساواة بين الرجل والمرأة (٤٥٧ ح) والموجة الثانية هى إلغاء الأسرة (٤٧٢ - أ) والموجة الثالثة هى: الملوك الفلاسفة ٤٧٣ ح (المترجم).

(4) Equality: Republic, V.

أفلاطون الرغم من معتقداته قرر أن يجعل سقراط يسير في الخط الأقل مقاومة ليجعل النساء يُقبَلْنَ في طبقة الحراس بنفس شروط الرجال.

غير أنه يمكن جداً أن يكون المبرر الذي جعل أفلاطون يستخدم أضعف أنواع الحجج في «الجمهورية» هو أنه لم يكن مقتنعاً بعد بأن النساء إذا ما تلقين نفس التعليم والتربية مثل الرجال، فإنه يمكن لهن أن يكن مثل الرجال، فيما عدا القوة البدنية الخالصة. غير أننا نجد في محاورة «القوانين» حديثاً صريحاً واضحاً في الموضوع، فهو لا يؤمن فقط في الروايات القديمة التي سمعها بل يقول:

«إننى أعلم الآن من ملاحظاتي الخاصة أنه يوجد من الناحية العملية عدد من القصص عن نساء يعشن (بجوار البحر الأسود) يدعون بالسورماتيد *Souromatides* في منطقة البحر الأسود.. *Pontus* تفرض عليه المساواة مع الرجال واجب استعمال القوس والأسلحة الأخرى. وكذلك الفروسية وهنَّ يمارسنها على قدم المساواة معهم... وما دامت مثل هذه الأوضاع يمكن أن توجد، فإننى أؤكد أن الممارسة الحالية التي تنتشر في بلادنا في الوقت الحاضر هي ممارسة عابثة وغير معقولة، وأعنى بها ألا يسمح للرجال والنساء معا بالسعى وراء أهداف واحدة، وبكل ما لديهم من قوة»⁽¹⁾. ولا شك أن إيمان أفلاطون بقدرات جنس النساء قد قوي منذ أن وضع على لسان سقراط الحجج الملتوية في الكتاب الخامس من محاورة «الجمهورية».

فلا يدهشنا، إذن، أن نجد في محاورة «القوانين» ذلك الجزء من البرهان الذي يبدو مفقوداً بوضوح من دعاوى أفلاطون حول النساء في «الجمهورية»، فها هنا يؤكد أفلاطون في صورة مجازية على ضرورة التربية والمران لتطوير القوى الفطرية، وينطبق ذلك على مشكلة الاختلافات والفروق بين الجنسين. ولما كان قد وصف توأ التدريب العسكري المبكر للأولاد وفرض على الفتيات أيضاً - إن وافقن على ذلك - أن يشاركن في الدروس، لا سيما تلك التي ترتبط باستخدام الأسلحة، [وقبل كل شيء استعمال الحربة والدرع].

(1) Laws, 804 - 805 A .

ويؤكد الأثيني (في محاورة «القوانين») «أن النظرة المنتشرة الآن بصدد هذه الأمور... تقوم على جهل شامل تقريباً...»^(١). وعندما سُئِل ما هي هذه النظرة التي يقصدها - رغم أنه لم يكن قد ذكر حتى ذلك الوقت كلمة واحدة عن استخدام اليدين والقدمين، فإنه يدخل في مناقشة طويلة حول خطأ الاعتقاد بأن إحدى اليدين بطبيعتها - وليس بالتربية ونتيجة للمرات - هي أقوى وأقدر من الأخرى. ثم يسير في الحوار لكي يثني على مَنْ لديه القدرة على استخدام اليدين بطريقة متساوية. «وجلين مورو» الذي ربما يعرف محاورة القوانين أكثر مما يعرفها أى شخص آخر، يعتقد أنه ليس ثمة شك على الإطلاق فيما يتحدث عنه أفلاطون، يقول:

«المماثلة واضحة، أعنى أن الدولة التي تهمل تدريب نساءها مثلها مثل الرجل الذي يدرب يده اليمنى فحسب - أن أفلاطون يشعر، بوضوح، أن مناقشة موضوعات أقل خلافاً، هي أفضل طريق لإعداد القارئ لقبول اقتراح أكثر صعوبة»^(٢).

والواقع أن القارئ الذي يقبل افتراض أفلاطون أن استخدام اليد اليمنى مسألة ناتجة عن التنشئة الاجتماعية، «وأن الطبيعة قد جعلت الأعضاء في كل من الجانبين متوازنة توازناً كبيراً» سوف يصعب عليه أن ينكر أن قدراً كبيراً من الاختلاف بين إنجازات الجنسين قد ترجع إلى أن الذكور قد درسوا وتعلموا، بينما الإناث سجينات وقد تُركنَ بلا تعليم. ونتيجة قبول مشروعية الحجة حول اليدين لابد أن تكون - على أقل تقدير - التسليم بأن التربية المختلفة اختلافاً هائلاً بين الجنسين تجعل من المستحيل معرفة قدرات المرأة الفطرية.

وهناك، بالنسبة لنا، عدة مبررات مقنعة تجعلنا نقول إن «مورو..Morrow» كان على حق. وأن ما يبدو على أنه مناقشة حول استخدام أعضاء الجسم هو في الواقع مناقشة حول استخدام النساء والرجال:

(1) Laws, 794 C - d .

(2) Plato's Cretan City, P 329 .

أولاً: كما لاحظ «مورو» أنه ليست المسألة فقط أن أفلاطون لم يذكر من قبل موضوع استخدام اليدين على قدم المساواة، بل إنه لم يذكرها مرة أخرى طوال تنظيمه للتدريبات البدنية والتمرينات العسكرية. رغم أنه من المرجح جدا أنه كان في صفها، فإنها بالتأكيد لم يكن لها بالنسبة له نفس الأهمية التي لتدريب النساء وهو الموضوع الذي شدد عليه مرات كثيرة.

ثانياً : من الأهمية لليدين اللتين تدريباً للأغراض العسكرية أن تؤكد تدريبهما لذلك الغرض، في حين أن سياقات أخرى نجد أنها قليلة الأهمية أن اليد اليسرى تلعب دوراً أضعف^(١). وكما يقول أفلاطون في فقرة مجازية: «إن الرجل الذي لديه مجموعتان من الأعضاء في الدفاع والهجوم ينبغي أن لا يترك أحدهما بغير مران أو تدريب بقدر المستطاع». وهذه العبارة تتكرر بعد قليل لكن هذه المرة عن الدولة التي تهمل أحد الجنسين^(٢). وفي أنشطة أخرى معينة، قليلة الأهمية، ينظر أفلاطون إلى تقسيم العمل بين اليدين، وبين الجنسين، على أنه قليل الأهمية^(٣).

ثالثاً : يفهم اليونانيون رمزية المجاز الأفلاطوني حتى أنه يكون أكثر وضوحاً بالنسبة لهم عنه بالنسبة لنا، ذلك لأنهم اعتادوا في قائمة الأضداد الفيثاغورية أن تتحد

(1) Laws, 795 a - c .

(2) Laws, 795 with 805 a - b .

(٣) ومن ثم فليس يهم في عزف الموسيقى أن تستخدم اليدين وأن يتطور استخدامهما على نحو مختلف، وكذلك استخدام اليد اليمنى في نهاية الفقرة. ويقسم أفلاطون مراقبة الأطفال بين مراقبين تبعاً لجنس الأطفال. وهو يقترح أن تقوم النساء بمراقبة الألعاب والوجبات، بينما يقوم الرجال بمتابعة الدروس (٧٩٥). أما إلى أي حد يؤثر تقسيم العمل هذا في إدراك الفتيات لأنفسهن ولجنسهن فذلك أمر لم يضعه أفلاطون في الحسبان. وهو يعتقد ببساطة، فيما يبدو، أنه من الضروري في بعض الحالات - لصالح المدينة - استخدام النساء والانتفاع بهن تماماً مثل الرجال، أما في مجالات أخرى يكون فيها توزيع الأدوار غير هام للصالح العام، فإن على النساء أن يتمسكن بدورهن التقليدي في تربية الأطفال، بينما يزداد عند الرجال دورهم العقلي التقليدي.

الأنثى مع اليسار شأنها شأن جميع خصائص «النحس»، والأشياء الشريرة الأخرى: كالسيئ والظلام... الخ - بينما يتحد الذكر مع اليمين كما يتحد مع الخير والنور، وجميع الصفات الأخرى التي نعجب لها^(١).

رابعا : هناك نقاط متعددة في مناقشة استخدام اليدين حيث يوحى الموضوع المطروح للنقاش بأنه حديث عن الأشخاص أكثر منه حديث عن الأعضاء أو الأطراف البشرية. يقول الأثيني في محاوره القوانين: «هناك فارق واسع هنا بين ذلك المقاتل الذي تعلم دروسه والمحارب الذي لم يتعلمها، بين ذلك الذي درب تدريباً جيداً، وذلك الذي لم يتم تدريبه»^(٢). ومرة أخرى، في نهاية الفقرة يرتبط الموضوع الحقيقي بالتشبيه أو المماثلة، عندما يقال لنا : إن هدف تربية الأطفال هو «أن جميع البنين والبنات يمكن لهم النمو وهم قادرون على استخدام اليدين والقدمين معاً، بحيث يستحيل أن تفسد مواهبهم الطبيعية عن طريق العادات المكتسبة»^(٣).

أخيراً : لقد كان لدى أفلاطون مبرر قوى لأن يكون حذراً في محاوره «القوانين» بصدد التعبير، بطريقة علنية، عن معتقداته التي أصبحت الآن أكثر راديكالية حول القدرات الكامنة للنساء. وبغض النظر تماماً عن أن الموضوعات التي تناقش، لم تعد النساء فحسب، بل الزوجات أيضاً، فإن المدينة الفاضلة الثانية التي تقوم على أنها «نموذج.. في السماء»، بل على أنها مشروع أكثر تواضعاً، ومن المحتمل جداً أن يكون من الممكن أن تتحقق^(٤). ولكن على الرغم من أنه كان على وعى بأن مقترحاته سوف ينفر منها كثيرون^(٥)، فإن أفلاطون يجعل الأثيني الغريب في «محاوره القوانين» يقول إن في نيته «أن لا يحذف شيئاً من الحقيقة أو الجمال الكامل»، وأنه من الآن فصاعداً

(١) قارن أرسطو كتاب «الميتافيزيقا» - مقالة الألفا ٩٨٦ أ . وأنا مدينة لفيكتور ميتزا بصدد الإشارة إلى

هذا الترابط. انظر أيضاً كارولين وايتيك في مقالها «نظريات عن الفروق بين الجنسين» في مجلة:

Philosophical Forum, Vol. 3 i Vos 1 - 2, 1973 - 1974, 57 - 60.

(1) Laws, 795 d .

(2) Laws, 795 d .

(3) Republic, 592 b, Laws 739 c-d.

(4) Laws, 810 d - e .

سوف يقرر إلى أى حد تكون مقترحاتهم مفيدة، وكم من التشريعات المقترحة مقبول، وأيها سوف يثير اعتراضات»^(١). وطالما أنه بسبب نظام الأسرة، كما سبق أن رأينا، فإن نسبة كبيرة من النتائج المعقولة عن النساء وبورهن قد تحول وأصبح غير قابل للتطبيق، فإنه لا يدهشنا أن يختار أفلاطون إخفاء معظم عباراته الراديكالية عن النساء تحت ستار «الحقيقة والجمال الكامل». والواقع أنه سوف يوجه اهتماما كبيرا فى محاورة «القوانين» للأخطار التى تحتوى عليها كل أشكال الإبداع^(٢)، والابتكار فى مجال الأنوار والأنواع الجنسية هو واحد من أحد الأنواع التى يمكن للمرء أن يقترحها؛ إنك حين تقول أمورا شائنة أو فاضحة عن النساء فى «الجمهورية» - وحتى هنا كانت حساسية أفلاطون للسخرية عظيمة - فهذا شىء، وشىء آخر أن تقول حتى أمورا أكثر ثورية عن النساء وقدراتهن الفطرية فى محاورة «القوانين» كانت أكثر محافظة تماما، وتقليدية أكثر، ووثائق متدنية، فيما عدا تقديمهن فى صورة مجازية لابد أنها بدت للمستمعين أكثر قبولا وأقل إهانة.

فى الوقت الذى كتب فيه أفلاطون محاورة «القوانين» كان قد وصل إلى الاعتراف بأنه ليس من الإنصاف أن تمثل النساء فى مجتمعه الطبيعة البشرية للأنتى. والواقع أنه لم يكن يُعرف الشىء الكثير عن طبيعة النساء فى ذلك الوقت. فى حين أن المرء يمكن أن يستخلص بعض الانطباعات عما تستطيع النساء إنجازه من أمثلة النساء المحاربات فى المجتمعات الأخرى حيث كن يشاركن الرجال فى ساحة القتال. ومع ذلك فإن العبارات التى قيلت عن النساء فى القوانين، وكذلك المبدأ العام هى أكثر راديكالية بكثير جداً من التفصيلات الفعلية فى المجتمع التى استمدت منه. والواقع أن النساء قمن بدور ليس مساوياً على الإطلاق لدور الرجال. وفضلاً عن ذلك فإن أفلاطون يصرح - فى غضون المحاورة - عدة تصريحات عن «طبيعة النساء» تتناقض تناقضاً صارخاً مع حجته تقول إن طبيعة الشىء بصفة عامة - سواء أكان هذا الشىء النساء أو اليد

(1) Laws, 746 b - c .

(2) Laws, 797 .

اليسرى - لا يمكن معرفتها طالما أن هذا الشيء يتلقى تدريباً متميزاً ومعالجة متميزة بصفة عامة. وهكذا فإنه لكي يفسر، مثلاً، ضرورة خضوع النساء لنظام العشاء العام، نراه يؤكد أن النساء «بطبيعتهن» ضِعْفُ الرجال - على الأقل - في اتجاههن نحو الشر^(١). وليس ثمة ما يبرر إدانة النساء على الإطلاق باستعدادهن المضاعف للشر؛ لأن نظرية أفلاطون نفسه عن الشر الأخلاقي تذهب إلى أنه يرجع للتدريب السيء والبيئة الفاسدة، كما يرجع إلى قصور مزاجية سواء بسواء. وأفلاطون نفسه هو الذى قال ينبغي علينا أن نوجه اللوم إلى المربين أكثر مما نوجهه إلى المتعلمين^(٢). لكنه لا يشير إشارة واحدة إلى أن تعليم النساء وطرق الحياة اليومية المحيطة بهن تجعلهن أقل بكثير امتلاء للفضيلة المدنية والروح العامة من المؤثرات المماثلة للرجال.

لكن الفقرة ذات الدلالة أكثر من غيرها، والتي ترتبط بجنس الأنثى فإنها ترد عند مناقشة نوع أو لون الموسيقى التي تناسب الجنسين، وعلينا أن نضع فى أذهاننا أن «الموسيقا» تدل على الجمال كله كضد للبدن، جانب من تربية اليونان، ينظر إليه أفلاطون على أنه العامل الأكثر أهمية فى تكوين الشخصية^(٣). وموقع الحوار فى الفقرة التى نحن بصدد فحصها له دلالة الخاصة، فهو من ناحية يقع بين التحذير من أخطار الابتكار والإبداع - لا سيما فى ألعاب الأطفال، والرقص، والأغاني، والمضاعفات العنيفة التى يمكن أن تحدثها هذه التغيرات الثقافية. ومن ناحية أخرى أوضح عبارة فى المحاوره ذكرها أفلاطون عن اقتراحاته الراديكالية عن المساواة فى التربية واستخدام النساء. فما يقترحه الأثيني الغريب فى «القوانين» هو أن كلمات الموسيقى المخصصة للبنين والبنات لابد أن تحدها «الفروق الطبيعية بين الجنسين». مما يجعل واضحاً فى الحال أن «منْ لابد أن يعلن بوضوح أين يكمن نوع الأنثى وخاصيتها» هو المشرع وليس الطبيعة. وفضلاً عن ذلك فإن تشريعه لهذا الموضوع يسير على النحو التالى:

(١) القوانين ٧٨١ - ولم يترجم بيورى Bury كلمة Physis الموجودة فى الأصل اليونانى.

(2) Timaeus 87 b.

(3) Republic, 410 c - 411e, Laws 802 c .

«في استطاعتنا أن نؤكد أن ما هو نبيل وما له ميول رجولة هو الذكر، وما يميل بالأحرى، إلى النوق واللياقة، والرزانة والرصانة، سوف نعلن عن طريق القانون والعرف أنه أنثى». ويبو بالقطع أن مثل هذه الكلمات يصعب أن تتسق مع النتيجة التي انتهى إليها الكتاب الخامس في الجمهورية من أن الحراس من النساء والرجال لهم «طبيعة واحدة» - لكن علينا أن ننتبه إلى واقعة أساسية هي أن الفقرة التي اقتبسناها فيما سبق ليست وصفاً للفروق الطبيعية بين الجنسين، وإنما هي وصف، بالأحرى، لما ينبغي أن ننظر إليه على أنه فروق طبيعية بين الجنسين، وذلك لأغراض مجتمع جزئي معين. إنه قاعدة حول كيف ينبغي على الجنسين أن يفكرا في نفسيهما، وكيف يفكر كل منهما في الآخر^(١).

غير أننا ينبغي أن نلاحظ كذلك أن الاستخدام الوصفي عند أفلاطون لكلمتي «طبيعة» و«طبيعي» لم يقف عند حدود هذه الفقرة. فمن الواضح أن هناك نتائج متناقضة عن طبيعة النساء في مجتمعه الفاضل. وتصبح أوضح عندما نقدر أنه اتجه نحو استخدام كلمات «طبيعي» و«طبقاً للطبيعة كتصديق على قرارات سبق أن اتخذها بطرق أخرى أكثر منه كمقياس تصدر القرارات، في المقام الأول، عن طريقه. ويمكن البرهنة على هذه الفقرة بوضوح عن طريق تحليل استخدامه للحيوانات الأخرى - والتي تحررت من وصمة العادات والأعراف البشرية - كمثال يمكن أن يوضع أمام الإنسان.

إن استخدام الحيوانات كنماذج لما هو «طبيعي» ومن ثم لما هو خير في مقابل نماذج لسلوك الإنسان التي كثيراً ما تكون فاسدة - كان بالقطع شائعاً عند المفكرين اليونانيين الكلاسيكيين. لم يكن لدى هوميروس - كما يؤكد واحد من أحدث ناشري أعماله - «أى عقدة تفوق أو سمو في العلاقة مع الحيوانات، بل هو يُعجب بخصائص الحيوانات حتى الدبور والذبابة»^(٢). وكانت الطيور إحدى الموضوعات الرئيسية عند

(١) يبدو أن «جلين مورو» قد فاته الطابع الوصفي لهذه الفقرة فهو يرى أنها تشير «إلى إيراك أفلاطون للفروق النوعية الطبيعية الفزيائية للرجال والنساء» المدينة الكرينية ص ٣٢١ .

(٢) مقدمة للإلياذة بقلم E. V. Rieu ، وانظر أيضاً فيما يتعلق بالقسم الثنائي على Nomosphysis :

J. H. Finley: Four Tsages of Greek Thought p. 92.

أرستوفان، وكيف أن حياة الطيور منظمة وسعيدة، إذا ما قورنت بحياة البشر بكل ما فيها من عقد ومؤسسات وعادات فاسدة. ولقد استخدم أفلاطون أيضا هذا النموذج الشائع. لكن كما يقول «رانكن Rankin..»: «إن أفلاطون لم يستخدم - في اتساق - الأساس الطبيعي للمقارنة بين الإنسان والحيوانات الأخرى في تفكيره الاجتماعي، فالممثلة الحيوانية هي أقرب إلى السند المساعد لنظريات قد تم تكوينها بالفعل»^(١). وهكذا يقال لنا في «الجمهورية» إن الحراس قد تم اختيارهم بناء على المعايير المطبقة على الكلاب. وأن أولئك الذين لهم طبيعة فلسفية تجمع بين الرقة والشراسة بنسب صحيحة، تجعلهم أفضل الحكام لأنهم أفضل كلاب للحراسة. وبعد ذلك عندما يقدم سقراط اقتراحه للتدريب والمران واستخدام الحراس من الإناث، يشير إلى غياب أوارالجنس المميز بين الكلاب الواحدة نفسها ليقنع مستمعيه بأن هذه التفرقة ليست «طبيعية» في مجال الإنسان كذلك. وهو يرى مرة أخرى - أننا إذا ما أردنا أن نصل إلى إنتاج أفضل الحراس، فإن علينا أن نتبع الطريقة التي يتوالد بها الحيوان ويتناسل. لكن من الواضح أن هذه المعايير لو طبقت باتساق في مدينتي أفلاطون الفاضلتين في «الجمهورية» و«القوانين» - لفشلت فشلاً ذريعاً، لأن هاتين المدينتين نتاج إنسانى معقد بطريقة لا تصدق، وتتألفان من أعراف هي أفضل ما يميز المجتمع البشرى موضوعة بمقاييس عقلية لا ترحم. وكل مؤسسة تلجأ إلى سلوك الحيوان لدعم نفسها، هناك اقتراحات لا حصر لها لا يمكن أن نتصور ما يوازيها في عالم الحيوان. ومن ثم كانت نماذج الحيوان منتقاة بطريقة جيدة.

ومنطقة التحريمات الجنسية أو التابو Taboos هي منطقة أخرى من المناطق التي يُعدّ الالتجاء فيها إلى السلوك الطبيعي للحيوان أمراً مذهباً لا سيما في محاورة «القوانين». فممارسة الجنس التي يقوم بها الذكر مع الذكر أو الأنثى مع الأنثى ليست منافية للطبيعة البشرية فحسب، بل لطبيعة الحيوان أيضاً ما دام هذا النوع من السلوك غير معروف عند الحيوان^(٢). وهو يقدم ممارسات الطيور وغيرها كنماذج لأوامر الطبيعة التي ينبغي أن يؤسس عليها المواطنون معاييرهم الجنسية: كالزواج الواحدى المخلص طوال حياتهم^(٣). وما لم يذكره أفلاطون، كما لا بد أن يعرف، أنه كما

(1) Plato and The Individual p. 92 .

(2) Laws, 636 b - c, 836 c - d .

(3) Laws, 839 a, 840 d - e .

كثرة كثيرة من الحيوانات فإن الرفيق يلتقى بالرفيق بطريقة «غير شرعية» حتى فى الزواج الواحدى، وكثير منها يمارس سفاح القربى أو زنا المحارم عادة، فهذه الحيوانات التى تصلح كنماذج لإبراز نقطة هى التى يلجأ إليها ويتجاهل «النقاط» الأخرى تماماً.

لقد كان أفلاطون على وعى تام بالاختلافات والفروق بين الشعوب - والتى جعلها هيروdot شهييرة لأنها أذهلته حول طقوس الجنازات ومراسم الدفن وهى من الممارسات التى تنظر إليها المجتمعات المختلفة على أنها طبيعية وبالتالي مقدسة^(١). إن الخط الفاصل بين العادات والتقاليد Nomos وبين الفزيقى أو الطبيعى يصبح غامضاً كلما ازدادت محرمات العادات والتقاليد إلى الحد الذى يجعل المجتمع ينظر إلى أى سلوك ينتهكها على أنه مناف للطبيعة. ولقد كان أفلاطون على وعى كامل بنسبية الثقافة. ففي نفس المكان الذى ناقش فيه «معارضة الطبيعة» للجنسية المثلية اعترف لمستمعه الأسبرطى والكريتى «إنه من المحتمل استخدام حجة لا هى مقنعة ولا هى مقبولة فى بولكم». فهو يعترف بأنه من المستحيل، فى العادة، إقناع شعب ما بأن إحدى ممارساته أو عاداته هى ضد أو منافية للطبيعة. ومن ناحية أخرى فإن الأثينى يشير - فى موضوع العشاء المشترك - إلى أنه بينما نجد أن معظم الناس لابد أن ينظروا إلى مثل هذا السلوك على أنه مستحيل بالنسبة للجنسين، فإن الاسبرطيين سوف ينظرون إليه على أنه سلوك طبيعى تماماً بالنسبة للرجال، وهم ينظرون إلى نفس السلوك على أنه غير طبيعى إذا ما طبّق على النساء^(٢). ومن ناحية أخرى، فإن أفلاطون يذكرنا فى «الجمهورية» أن الذى يجد فكرة ممارسة النساء عاريات للتمرينات الرياضية أمام الجمهور فكرة بالغة السخف، ولم يمض وقت طويل حتى اعتبر الإغريق منظر الرجال عراة لا أمراً سخيلاً فحسب، بل مخجلاً أيضاً. وأن كثرة من البرابرة ما زالوا يفكرون على هذا النحو. والواقع أنه ربما كانت كثرة من هذه المقترحات - كما يقول - تبدو غريبة إذا ما خرجت إلى حيز التنفيذ وذلك لمخالفتها المألوف^(٣).

(١) انظر : ليفنستون «دفاع عن أفلاطون» ص ٩٢ .

(2) Laws, 839 c - d .

(3) Republic, 452 - A..

وهكذا نجد أن أفلاطون كثيرا ما يعرض ما يُنظر إليه على أنه طبيعي وضروري بوصفه ليس سوى العادات والتقاليد. لكنه رأى بوضوح أنه حتى تلك العادات التي يفترض التسليم بها بوصفها أوامر للطبيعة هي في الواقع عادات متغيرة تختلف من ثقافة إلى أخرى، ومن ثم فهي مسألة تقاليد أكثر منها مسألة طبيعة. ولقد كان أفلاطون على وعى تام بقوة مثل هذه التحريمات، وفوائد استخدامها عند المشرع، وتحريم الأقارب (أو زنا المحارم) أول مثل على ذلك. إذ يرى أفلاطون في محاورة «القوانين» أن معظم الناس لا يفكرون أبدا في ارتكاب زنا المحارم، ما داموا قد سمعوا بكثرة عن إدانته على أنه عمل مُخزٍ وعار لا يفتقر^(١). واقترح استخدام نفس السلاح الذي يعتنقه الرأي العام، ضد أنواع أخرى من الشنوذ الجنسي، كالجنسية المثلية أو المعاشرة الجنسية خارج الزواج، التي ينتهي إليها المشرع هي أمور مناقضة لرخاء الشعب، فضائله، وهو يستخدم نفس نوع التصديق أو الموافقة في دعم «نظام التزاوج» بين الحراس، رغم أنه من الواضح أن النظام أقيم على أسس نفعية أساساً، ولأسباب خاصة بتحسين النسل. إذ ينبغي أن ينظر إليه المواطنون على أنه «مقدس» إلى أقصى حد^(٢).

كان أفلاطون طوال محاوراته يستخدم الحجة العقلية، فالمعيار هو العقلاني لا الطبيعي، لكنه كان على استعداد - رغم ذلك - أن يلجأ إلى تصديق الطبيعة لكي يضيف وزنا جديدا للنتائج التي انتهى إليها عن طريق الحجة العقلية. والواقع أن الطبيعي هو ما يقوله الحاكم الفيلسوف، فهو الذي يحدد لنا العادات والتقاليد والمؤسسات الأفضل للمدينة. وتطبيق مثل هذا الاستخدام لكلمة «الطبيعي» على موضوع النساء ليس مثيرا فقط داخل سياق الفلسفة السياسية عند أفلاطون، وإنما هو مهم أيضا بسبب أن فلاسفة آخرين - غير أفلاطون - ممن كتبوا في الموضوع، واصلوا استخدام استدلالات مماثلة.

(1) Laws, 838 A - D .

(2) Republic, 453 E .

«فمن الواضح إذن أننا نود أن تكون الزيجات أقدم ما يمكن أن تكون، وهذه القداسة تتوافر في الزيجات التي تجلب أفضل النتائج» الجمهورية ٤٥٨ ح (المترجم).

وأفلاطون يعرف من ملاحظاته الشخصية أنه ليس ثمة خصائص محددة وثابتة تسمى بالطبيعة البشرية للأنثى، فلا بد أن يكون قد لاحظ فساد أثينا وأسبرطة فرأى نوعين مختلفين اختلافاً ملحوظاً من الطبيعة البشرية الأنثوية. وهو يعرف بالإضافة إلى ذلك أن نساء «الأمازون» و«السامراتين» يمثلن أنواعاً تتعارض تعارضاً حاداً مع الأنواع الأخرى من النساء التي اعتادها مستمعوه. وعندما ينقد «الأثيني» النظام المقترح لتدريب المرأة الأسبرطية، فإن نساء السامراتين يبدون كالرجال بجوارهن⁽¹⁾.

وهكذا فإن الطبيعة النسائية هي في الواقع ما صنعتها المجتمعات المختلفة، ولم يكن أفلاطون على وعى بذلك فحسب، بل إن الطبائع المختلفة أيضاً التي تلحق بالنساء في بنائين اجتماعيين في عصره لابد أن تكون استمراراً لمعالجته التقليدية لجنس النساء.

ولما كان إلغاء الملكية والأسرة في «الجمهورية» في طبقة الحكام يستلزم إلغاء المجال التقليدي للنساء، فقد ردّ الاختلاف الطبيعي بين الجنسين إلى اختلاف في وظائفهما في عملية الإنجاب. وما دامت طبيعة النساء في هذه الطبقة هي نفسها مثل طبيعة الرجال، فإن الاقتراح الراديكالي الذي تبع ذلك هو أن تعليمهما وأسلوب حياتهما واحد: فإذا فرضنا على النساء نفس مهام الرجال، فإن علينا أيضاً أن نعلمهن نفس تعليم الرجال.

لقد وضع أفلاطون شخصية مخنثة للحراس جميعاً نساءً ورجالاً على حد سواء، فهما معاً لابد أن يتصفا بصفة الشجاعة، والرقّة، والدمائة، وهما معاً بسبب التربية الواحدة سوف يجلبان الخير العميم للمجتمع كله، ومن ثم فإنه لأغراض هذا المجتمع لابد من إلغاء أنوار الجنس التقليدية، وهذا الإلغاء هو أقرب إلى الطبيعة مما ينسبه العرف إليها.

أما في «محاورة القوانين» فإن إعادة إدخال الملكية الخاصة يتطلب إرجاع الزواج الواحدى، والمنزل، والبيت الخاص، حيث تستعيد فيه المرأة دورها «كزوجة خاصة» وما يستلزمه ذلك. وعلى الرغم من أن عبارات أفلاطون العامة حول إمكانات النساء كانت هنا أقوى مما كانت عليه في «الجمهورية» فإن أفلاطون لم يستطع، بسبب البنية

(1) Laws, 806 - b .

الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الجديد، أن يتابع إلى حد واضح أيا كان، نور المرأة الثورى الذى يبدو أنه ينتج منطقيا من مثل هذه المعتقدات. ففي مثل هذا المجتمع الجديد لابد أن تختلف طبيعة المرأة عن طبيعة الرجل. فهي لابد أن تكون نقية طاهرة محترمة مهذبة حتى تليق أن تكون «زوجة خصوصية» تصون شرعية الوارث الذى سوف يرث هذه الملكية. أما الرجل فإن عليه أن يستعيد صفات النبيل والشهامة التى كانت أبعد ما تكون عن صفات الحارس من النوع المثالى. وبالإضافة إلى ذلك فإن النساء اللاتى - بسبب نورهن داخل المنزل الخاص - سوف يكن أقل ميلاً للفضيلة المدنية من الرجال لابد بصفة خاصة أن يتدربن تدريباً جيداً بسبب هذه الدونية الأخلاقية «الطبيعية» لجنس الأنثى. وتشير حاجات المجتمع إلى أن الشر الطبيعى المفترض فى الأنثى - الذى ربما يرجع إلى أنها وجهت نحو مجال خاص - يتحول إلى طهارة أنثوية «طبيعية».

لقد أصبح واضحاً الآن، إذن، أن أفلاطون لا يطبق - على النساء، باتساق، نفس الحجج التى طبقها عندما ناقش طبيعة الرجال. ففي «الجمهورية» على الرغم من الاقتراحات الثورية الخاصة بالحراس الإناث، فقد فشل فى أن ينفذ معتقداته فى قوة التنشئة الاجتماعية والتربية، وبذلك يضع برهانه الوحيد عن إمكانات المرأة أقل قوة مما ينبغى لها أن تكون. وفى محاوره «القوانين» من ناحية أخرى بعد أن وصل إلى نتائج راديكالية عن قدرات النساء غير المتطورة التى عبّر عنها فى صورة مجازية هى استخدام اليدين، فشل فى أن يصل مع هذه النتائج إلى نهايتها، ومن الواضح أن السبب هو إعادة الأسرة، ومن ثم إعادة نور الزوجة، فتحوّلت النساء وعادت إلى الوراء كملحق زائد، وملكية خاصة للرجال. والاختلاف المذهل بين نور المرأة فى محاوره «الجمهورية» ونورها فى محاوره «القوانين» - لا يرجع إلى أن أفلاطون غير آراءه ومعتقداته عن طبيعة المرأة وقدراتها، وإنما جاء الاختلاف من أن الملكية الخاصة والأسرة قد تمّ إلغاؤهما فى «الجمهورية» ثم أعيدتا فى «محاوره القوانين». فعندما تصوّر المرأة مرة أخرى على أنها ملكية خاصة فإنها تلحق بملكات الرجل. وعندما تحدد الأسرة واحتياجها وظيفه المرأة، فإن التنشئة الاجتماعية والتنظيم الذى يوصف للمرأة لابد أن يطمئن أن طبيعتها قد تشكلت وبقيت متفقة مع نورها.

الجزء الثاني

أرسطو

الفصل الرابع

مكانة المرأة والطبيعة في عالم الوظائف

تختلف فلسفة أرسطو اختلافا ملحوظا في الهدف والنفمة العامة عن فلسفة أفلاطون؛ فعلى حين أن أفلاطون من خلال المحاورات كان أساسا ناقدا يثير أسئلة راديكالية، فإن أرسطو يشرع في تحصيل المعرفة عن الطريقة التي يوجد بها العالم. وفضلاً عن ذلك يبدأ في شرح السبب الذي جعله يوجد على هذا النحو. وربما لن تجد فيلسوفا آخر - ولأحتى هيغل نفسه - في أعماله ينطبق عليه تعريف هيغل للفلسفة بأنها عصرها ملخصا في الفكر مثلما ينطبق على أرسطو^(١).

يقول أرسطو عن موضوع المعرفة العلمية في كتابه «الأخلاق النيقوماخية»: «إننا جميعا نفترض أن ما نعرفه لا يمكن أن يكون خلاف ذلك: ومن ثم فإن موضوع المعرفة العقلية هو معرفة الضرورة، ومن ثم فهو أزلي»^(٢). فهو يرى أن موضوع البحث العلمي ليس تصحيح ملاحظاتنا عن العالم، بل البرهنة على السبب الذي من أجله يوجد عالم. وعلى الأجزاء التي يتكون منها، ولماذا لا بد أن يكون على هذا النحو. وليس هذا المنظور مقتصرًا على فلسفته الطبيعية بل إنه يتغلغل بعمق في كتاباته السياسية والأخلاقية. فهو لم يحاول مثل أفلاطون أن ينطلق من أساس عقلي لفحص ونقد أنماط السلوك الشائعة والآراء والمعايير. فمنهم أرسطو في البحث مختلف أتم الاختلاف. وهو معروض في كتابه «الأخلاق النيقوماخية» في بداية مناقشته لإحدى القضايا.

(١) قارن عبارة هيغل: «إن لنا منا هو ابن عصره وربيب زمانه، وبالمثل يمكن أن نقول عن الفلسفة إنها عصرها ملخصا في الفكر» ترجمتنا لكتاب «أصول فلسفة الحق» مكتبة مديولى بالقاهرة عام ١٩٩٦ (الترجم).

(٢) الأخلاق النيقوماخية - الكتاب السادس ١١٣٩ - ب .

يقول: «إن علينا أن نبدأ كما هي الحال في جميع الحالات الأخرى، بالوقائع الملاحظة أمامنا، ثم نناقش أولاً المشكلات، ثم نستطرد فنبرهن - لو كان ذلك ممكناً - على حقيقة جميع الآراء الشائعة...»^(١).

وإذن فقد تصور أن مهمته كفيلسوف للأخلاق أن يخلص الآراء والمعايير الأخلاقية المنتشرة مما فيها من تناقض وغموض قد يفسدها أو يشوهها. والافتراض أنه يحتمل أن تكون صحيحة وأن تكون خاطئة^(٢). والأخلاق عند أرسطو هي إلى حد كبير أخلاق تقليدية واضحة ومبررة. وهو على خلاف أفلاطون لا يجادل في الأخلاق أكثر مما يجادل في البيولوجيا. إن العالم يجب أن يكون مختلفاً عما هو عليه، لكنه يبدأ من اعتقاد أساسي هو أن الوضع القائم سواء في مملكة الطبيعة أو في المجال الاجتماعي هو أفضل طريقة لوجود الأشياء.

غير أن هذا المنظور المحافظ لم يأخذ به أرسطو بطريقة دجماطيقية وإنما كان له مبرره الخاص، إذ يذهب إلى أن الأشياء إنما تكون على ما هي عليه بسبب وظيفتها؛ فكل منها يقوم بوظيفة معينة، وبقاؤه إنما يدل على أنه يقوم بعمله خير قيام. وهو يؤكد في بداية كتابه «السياسة» أن: «كل شيء يستمد طابعه الجوهري من وظيفته وكفافته على القيام بها، ومعنى ذلك أن الأشياء التي لم تعد صالحة لتأدية وظيفتها، ينبغي أن لا نقول إنها لا تزال الأشياء نفسها...»^(٣).

نظرة أرسطو الوظيفية يوضحها تماماً التفسير الذي قدمه لطبيعة النفس. فعلى الرغم من أن النفس أو الماهية هي سمة تتسم بها الكائنات الحية وحدها، فإنها تعرف بالإشارة إلى شيئين هما آلات ووسائل وظيفية مثل: الفأس والعين. ويؤكد أرسطو في البداية: «ولنفرض مثلاً أن آلة كالفأس كانت جسماً طبيعياً، فإن ماهية الفأس، تكون جوهرها، وتكون نفسها لأن الجوهر إذا ما فارق الفأس، فلن يكون هنا فأس،

(١) الأخلاق النيقوماخية الكتاب السابع ١١٤٥ - ب .

(٢) انظر ألان «فلسفة أرسطو» ص ١٢٤ وليود «أرسطو: بنية فكره وتطورها» ص ٢٠٦ .

(2) Politics, 1, 1253 - A .

إلا بالاشتراك بالاسم.. Equivocally» ثم يضيف قائلاً: «إذا كانت النفس حيوانا كان البصر هو النفس»^(١). ومن الواضح أن «نفس» الشيء فى رأى أرسطو هو قدرتها على أداء وظيفتها، وفى الوقت الذى يبدو فيه ذلك معقولاً جداً بما فيه الكفاية عندما يطبق على الأعمال الفنية أو أعضاء الجسم فإنه يمتد أبعد من ذلك - يقول: «فيجب أن نطلق، إذن، ما صحَّ قوله عن الأجزاء على الجسم الحى بأكمله»^(٢).

ومن الواضح أن أرسطو لم يعرف أية تمييزات ذات مغزى بين الموجودات الطبيعية، أما المصنوعات البشرية، أو أجزاء مكونة للموجودات الطبيعية، فهو لم يدرك فقط العلاقة بين النفس والجسم على أنها علاقة سلبية كما هى الحال، عندما قال: «ينبغى أن يستخدم كل فن أدواته الخاصة به، وأن تستخدم النفس البدن المناسب لها»^(٣) لكنه أدرك كذلك الكائن الحى كله بطريقة وظيفية أو أدائية.

غير أن هناك مجموعة معينة من المتطلبات كانت ضرورية للموجودات لكى تدرك على ضوء وظائفها. إذ من الواضح أن الشيء لا يمكن أن نقول إن له علاقة بغيره إلا من خلال وظيفته. وهذا هو السبب فى أن الأدوات وأجزاء البدن كانت أمثلة نموذجية للأشياء التى نفكر فيها وظيفياً. وحتى نفترض أن الموجودات الحسية لها وظيفة توازى الأعضاء، فلا بد أن ننظر إليها من حيث علاقتها ببعضها ببعض، وبالعالم ككل، ولقد قدّم أرسطو مثل هذه النظرة. على الرغم من أن ديمقريطس الفيلسوف الطبيعى المبكر كان يعترف بأن الظواهر الطبيعية ضرورية، فإن أرسطو انتقده لأنه حذف مفهوم العلة الغائية. يقول أرسطو: «صحيح أن جميع موجودات الطبيعة تحكمها الضرورة، فإنها فى الوقت ذاته موجودة من أجل غاية معينة أو سبب نهائى أو علة غائية. فهى موجودة

(1) De Anima, 11, 412 b .

(٢) أرسطو: «فى النفس»، ١١، ٤١٢ ب - ويضيف أرسطو «ذلك أن نسبة جزء النفس إلى جزء الجسم هو كنسبة الأساس بأكمله إلى الجسم الحاس بأكمله، من حيث هو كذلك» (المترجم).

(٣) النفس، ١، ٤٠٧ ب وقارن الكتاب الثانى ٤١٥ ب.

من أجل ما هو أفضل في كل حالة»^(١). ويشير الجزء الأخير من هذه العبارة إلى واقعة بالغة الأهمية وهي أن نظرة أرسطو إلى الكون هيراركية (تصاعدية) فالكون عند أرسطو مرتب من النبات إلى الإنسان، ثم فيما بعد الإنسان الأجرام السماوية والآلهة. وهو منظم بطريقة هيراركية دقيقة، وهذا ما مكَّنه أن يقول: «في عالم الطبيعة كما هي الحال في عالم الفن، نجد أن الأشياء الدنيا (أو ما هو أدنى موجود لصالح ما هو أعلى)»^(٢).

ولهذا فإن أرسطو كثيرا ما يشدد على أن «الطبيعة لا تفعل شيئا باطلا». وهو يذهب إلى أن النبات موجود ليعطى دعما لبقاء الحيوان. والحيوان ليدعم بقاء الإنسان. وطالما أن من الواضح أن الإنسان هو قمة الموجودات الفانية فإن جميع الحيوانات لا بد أن تكون موجودة بالطبيعة من أجل الإنسان^(٣). غير أن النظرة ليست تشبيهية، فعلى حين أن جميع الموجودات البشرية هي الموجودات العليا. داخل إطار الجنس البشرى يوجد أيضا النظام الهيراركي ويتدعم. فعندما يقترب أرسطو من دراسة المجتمع البشرى نراه يصل في الحال إلى مقدمات أساسية ورأسخة تعمل عنده كأساس للأخلاق والسياسة، وهي أن المدينة اليونانية Polis طبيعية، ومن ثم فهي أفضل صورة من صور التجمع السياسى، وكذلك الأسرة اليونانية التى تتألف من أعضاء خاضعين هم الزوجة والأطفال والعبيد هي مؤسسة طبيعية، وأنها أفضل صورة للمنزل والبنية الأسرية. ولكى تعرف كيف توصل أرسطو إلى هذه المعتقدات - وهي معتقدات ظفرت لنفسها بجانب كبير من قوتها من واقعة أن هدف المؤسسات كانت بالفعل هي العالم اليونانى الموجود فى عصر أرسطو - فإن علينا أن نفحص كيف تصور وظيفة الإنسان.

يذهب أرسطو فى بداية «الأخلاق النيقوماخية» - تقريبا - إلى أن السعادة هي الغاية النهائية لنشاط الإنسان، ثم يشرع فى بيان ما هذه السعادة: «ربما أمكن

(1) Generation of Animals v, 789b .

(2) Politics, vi, 1333 A .

Politics, I, 1256 b. CF. also 1253 .

(٣) كمثال «لاقتصاد الطبيعة»

تحديدها لو أننا حددنا أولاً وظيفة الإنسان»^(١). ومما له مغزاه أن الوظيفة المناسبة للإنسان - على خلاف وظائف الأعضاء الدنيا في سُلّم الموجودات - ليست أن يحقق غرضاً لخدمة موجود أعلى، فعلى حين أن الإنسان يشارك الحيوانات الدنيا في بعض الوظائف كالتغذية والنمو والإحساس فإنه يتميز عنها بالعقل، وما دامت هذه هي السمة المميزة، فإن الخير الأقصى للإنسان هو: الحياة النشطة للمبدأ العقلي عنده^(٢). إن علاقة الإنسان بالموجودات التي تعلوه في سُلّم الهيراركية ليست خدمة أغراض خاصة بهذه الموجودات، رغم أن قدرته العقلية تجعله شبيهاً بالآلهة التي تقضى حياتها كلها في التأمل العقلي، إذ من الواضح أنه من أجل غرضه هو لأجل أغراضها، أنه يضاهيها. وغرضه هو سعادته الخاصة. وليس تحقيق أغراض الآخرين. والواقع أن أرسطو كان على وعى كامل بأن الآلهة هي المثل العليا للفضيلة البشرية وللعقل والاكتفاء الذاتي، فالآلهة على ما هي عليه لأن الإنسان تخيلها على هذا النحو: إننا نجعل حياة الآلهة شبيهة بحياتنا - كما أننا نحن الذين صنعنا هيئتها أيضاً»^(٣) فالفضيلة العليا للإنسان هي ما تتميز به الآلهة أيضاً.

وهكذا نجد أنه على حين أن معظم الكائنات تخدم وظيفة ما في علاقتها بموجود أعلى، وبينما نجد أن غاية بعض الأنشطة تقع خارج النشاط نفسه، فإن غاية الإنسان هي سعادته الخاصة «ويبدو أن نشاط العقل الذي هو التأمل.. لا يستهدف أية غاية خارج ذاته، فمتعته كامنة في ذاته»^(٤). فالنشاط المناسب للإنسان وحده من بين القانونين ليس له نهاية ولأغاية خارج نطاق الفاعل نفسه.

كلمة الإنسان^(٥) التي استخدمها أرسطو طوال حديثه وحججه عن طبيعة الإنسان وعن خير الإنسان الأقصى هي «Anthropos» وهي كلمة يونانية تعني «الموجود البشري»، لكن سرعان ما يتضح أن فئة ضئيلة جداً من جنس واحد من الجنس

(١) الأخلاق النيقوماخية الكتاب السابع ١٠٩٧ - ب .

(٢) الأخلاق النيقوماخية الكتاب السابع ١٠٩٨ - ب .

(٣) السياسة، ١ - ١٢٥٢ ب .

(٤) الأخلاق النيقوماخية ١٠ - ١١٧٧ - ب .

(٥) السياسة، الكتاب الثامن، ١٣٢٨ - أ .

البشرى هي التي ينطبق عليها هذا اللفظ، وهي التي تشارك فيما يسميه بالفضائل البشرية، والخير الأقصى، وسعادة الإنسان. لأن «الإنسان» لا يحتاج إلى عقله فقط، وإنما يحتاج أيضا إلى مجموعة الفضائل الخارجية إن أراد أن يعيش حياة فاضلة. فأرسطو يخبرنا أنه لا يمكن أن يكون سعيدا بدون موجودات: كالأغنياء، والأصدقاء، أطفال كثيرة صالحة. وقت فراغ، نبل المولد، جمال. ومن الواضح أن بعض هذه الأمور تعتمد، بغير شك، على خدمة الآخرين. وهكذا فإن أرسطو يذهب - طبقا للغائية التي تميز بها - إلى أنه ليست المملكة الحيوانية بأسرها وحدها، بل الغالبية العظمى من الموجودات البشرية كذلك - تتجه بطبيعتها إلى أن تكون أدوات تمدّ القلة بالضرورات وسبل الراحة التي تمكنها من أن تكون سعيدة في نشاطها التأملى - وهكذا فإن النساء، والعبيد، والحرفيين، والتجار والصناع هم أدوات مساعدة على تحقيق السعادة القصوى «للإنسان»، يقول أرسطو: «في الشروط الضرورية لوجود الكل في الدولة ليست أجزاء عضوية من النظام الذي تخدمه ككل»^(١) فلا بد من تعريف الخير البشرى، والسعادة البشرية، بتلك الطريقة التي تجعل الغالبية العظمى من الجنس البشرى مستبعدة بالضرورة من إنجاز أى منهما.

ويذهب أرسطو، بين الحين والحين، ربما لكى يجعل المذهب الوظيفى عنده سائغا ومقبولاً إلى أن العلاقات بين أولئك الذين هم بالطبيعة محكومون، وأولئك الذين هم بالطبيعة حكام: مثل الزوج والزوجة، والسيد والعبد، هي خير للجانبين لأن قدراتهما مختلفة أتمّ ما يكون الاختلاف. وذلك جانب جوهرى فى الاستدلال فى نظريته عن الرق، فعلى الرغم من أن العبد بوصفه آلة أو أداة فإنه يقول لنا : «إن وضع الرقيق مفيد وعادل» فالعلاقة بين العبد وسيدته «تعمل على المحافظة عليهما معا»، «وأنهما معا لديهما منفعة واحدة أو مصلحة مشتركة»^(٢). وفضلاً عن ذلك فإن أرسطو يذهب إلى أن العلاقة بين النفس والبدن، بين الصانع وأدواته، بين السيد والعبد، «كل واحدة من

(١) السياسة، الكتاب السابع ، ١٢٥٢ب.

(٢) السياسة ١٢٥٥ أ.

الأشياء الأخيرة هي نافعة لمن يستخدمها»^(١). ولقد ذهب أرسطو، بطريقة موازية، إلى أن علاقة الزوج والزوجة ذات نفع متبادل لأن كلا منهما يساعد الآخر بأن يضع إمكاناته وقدراته في مكانها المناسب، وثانيًا: لأن المرأة في الواقع هي المستفيدة من هذه العلاقة والرجل هو الذي يقدم لها هذه الفائدة»^(٢).

وكما يتوقع المرء فإن الأوهام التي أضفاها أرسطو على بنية العالم الهيراركية حول التبادل أو النفع المتبادل الناتج من الجانب الأدنى ليست متسقة، إذ سرعان ما تختفى بالنسبة للعبيد، عندما يقول: «إن العلاقة بين السيد والعبد هي أساسًا منفعة للسيد وعرضًا منفعة للعبد» الذي لا بد أن يظل موجودًا إن أردنا أن تظل القاعدة نفسها قائمة»^(٣). وبصفة عامة فإن أرسطو يؤكد ذلك بين كل زوج من الأزواج السابقة كما يؤكد بالبنية للحاكم والمحكوم. وهو يرى «أن الخير لا يمكن أن ينقسم بينهما، بل إن الخير فيهما ينتمي إلى ما من أجله وجدا معًا»^(٤) وفي سياق حديث صريح عن سيطرة الرجال على النساء، يقول: «يمكن أن نشبه المحكوم بصانع الناي، والحاكم بالعازف الذي يستخدم الناي»^(٥).

ويؤكد أرسطو أن النساء، «بالطبيعة» أدنى من الرجال. ولهذا كان من الطبيعي أن يحكمهن الرجال: غير أن استخدام كلمة الطبيعة ومشتقاتها غامض ومعقد مثل استخدام أفلاطون^(٦)، فهو أحيانًا يستخدم كلمة «طبيعي» بمعنى «قطري» وكمضاد للخصائص المكتسبة^(٧). وهو أحيانًا يعترف، مثل أفلاطون بأنه يمكن وضع تفرقة

(١) الأخلاق النيقوماخية الكتاب الثامن ١١٦١ - أ .

(٢) الأخلاق النيقوماخية الكتاب الثامن ١١٦٢ - أ - الأخلاق إلى ايديموس الكتاب السابع ١٢٣٨ ب.

(٣) السياسة، الكتاب الثالث ١٢٧٨ ب.

(٤) الأخلاق إلى ايديموس، الكتاب الثامن، ١٢٤٢ - ب

(٥) السياسة، الكتاب الثالث، ١٢٢٧ ب. وانظر «جين بيتكى ايلسيتين» في مقالها «المرأة الأخلاقية، والرجل

اللاأخلاقى» مجلة «السياسة والمجتمع» المجلد الرابع، عام ١٩٧٤ - ص ٤٥٣ - ٤٥٦؛ لمناقشة هذه الجوانب في النظرية الوظيفية عند أرسطو.

(٦) انظر الفصل الثالث فيما سبق.

(٧) انظر مثلاً كتابه «الأخلاق إلى النيقوماخية»، الكتاب الثاني ١١٠٣ - أ. وفي أماكن متفرقة.

ضئيلة جدا بين طبيعة الموجود الناضج والعادات التي اكتسبها خلال حياته^(١). غير أن معظم استخدام أرسطو للفظ يرتبط بالنظرة الوظيفية للعالم. ولقد سبق أن نبهنا إلى أن «الصفة الجوهرية للشيء مشتقة من وظيفته، وأن نفس Soul أى شيء هي قدرته على أداء وظيفته، وعلى ذلك فعندما قال لنا في بداية كتاب السياسة: «تكمُن طبيعة الأشياء في غايتها أو قمتها. لأن كل شيء عندما يكتمل نموه، فإننا نسميه طبيعة الشيء.. سواء أكان ذلك بالنسبة للإنسان أو الحصان أو الأسرة..»^(٢). وينبغي أن تضع في اعتبارنا الرابطة الجوهرية التي كانت موجودة في ذهنه بين الطريقة التي لا بد أن ينمو بها شيء ويتطور وبين وظيفته. ومن الجدير بالذكر أنه عندما قدم لأول مرة العلاقات الأساسية الثلاث الموجودة في المنزل، وضع في ذهنه فحص: «طبيعة كل علاقة والكيفيات التي ينبغي أن يملكها..»^(٣). فواضح، إذن، أن هذين العاملين في عالم أرسطو مترادفان، وعلى ذلك فعندما ساق هذه العبارة الغريبة التي تقول «إننا عندما ندرس.. الموجودات الحية فلا بد أن نركز انتباهنا لكي نكتشف ما هي الطبيعة التي تتجه إليها، لأ في تلك الظروف الفاسدة، وإنما في ظروفها الطبيعية»^(٤). فمن الضروري أن تقوم بعملية إحلال أو تبديل لعاملين مترادفين وهما طبيعة الشيء والخير الذي يخص تلك الطبيعة - إن أردنا أن نعطي لقضية أرسطو أى مضمون. ولا بد أن نعترف أن الاستخدام المعياري لأرسطو لكلمة «طبيعي»، وتعطى للطبيعي في نهاية عبارته مفهوما أخلاقيا متميزا. ولكي تقابل كلمة «الفاسد» بطريقة لها معنى، فإنها لا بد أن تعنى «المنظم تنظيما جيدا» أو «الصالح». وهكذا لا تكون عبارة أرسطو - في هذه الحالة - خالية من القيمة كما ظهرت بادىء ذي بدء. وفضلاً عن ذلك فإن المناقشة

(١) فن الخطابة، الكتاب الأول، ١٣٧٠ أ. ويقول أرسطو «والأمر كذلك بالنسبة إلى العادات، لأن ما صار عادة يصير طبيعياً بوجه ما، والواقع أن العادة هي شيء شبيه بالطبيعة. لأن المسافة بين «غالباً» و«دائماً» ليست كبيرة، والطبيعة تنتسب إلى فكرة «دائماً»، والعادة إلى فكرة «غالباً». - (١٣٧٠ أ) والترجمة للدكتور عبد الرحمن بدوي (الترجم).

(٢) السياسة ١٢٥٢ - ب.

(٣) السياسة، الكتاب الأول، ١٢٥٣ ب.

(٤) السياسة، الكتاب الأول، ١٢٥٤ - أ.

السابقة لمذهب الوظيفي تشير إلى أنه لأشياء منظم تنظيماً جيداً ما لم يتم بالوظيفة التي نسبها إليه أرسطو داخل عالمه الهيراركي. وهكذا أنشأ أرسطو إطاراً فلسفياً نستطيع بواسطته أن نبرر الوضع القائم Status quo، لأن الوظيفة التقليدية لأي شخص تحدد ما هو خير وصالح لهذا الشخص، فطبيعة شخص ما أو حالته الطبيعية تعادل خيره أو صالحه. ومن ثم فكل شخص قد وضع بطريقة طبيعية ليقوم بدوره في المجتمع.

حجج أرسطو عن طبيعة الأشياء والموجودات، لأسيما تلك التي تقع ضمن المجال الإنساني والاجتماعي لأ تكون واضحة ما لم يضع المرء في ذهنه باستمرار استخدامه الخفي لهذا اللفظ، فالأسرة توجد «بالطبيعة» والمدينة Polis وجودها سابق في نظام الطبيعة على الأسرة والفرد^(١). وعندما يقول أرسطو إن الأسرة «طبيعية»، فإنه لأ يقصد على الإطلاق أن لها وجوداً دائماً، بل بالأحرى أن وجودها ضروري للنظام الجيد لحياة الإنسان. والسبب الذي يجعل المدينة سابقة في النظام الطبيعي، هو بالمثل لأ يجعلها أكثر أصالة أو أساسية أكثر من الأسرة، بل السبب أنه بينما نجد أن الأسرة توجد لإشباع الحاجات اليومية المتكررة، ولتدعيم الحياة فحسب، فإن المدينة هي التنظيم الوحيد الذي يستمتع الإنسان بداخله بالاكتمال الذاتي، والذي يمكنه من أن يحيا حياة عقلية. الحياة العليا التي يتطلع إليها. والمدينة Plois هي طبيعية أكثر بعبارة أخرى لأن سمو هدفها - أو غايتها - هو الذي يجعلها مؤسسة أفضل من الأسرة.

وبالمثل فإن حجج أرسطو عن «طبيعية» الرق سوف تكون غامضة ما لم نضع في ذهننا نظريته الغائية الشاملة «لما هو طبيعي» ذلك لأن محاولاته لإقناعنا بأن بعض الناس هم عبيد بالطبيعة لن تكون مقنعة إذا ما اعتمدنا على مزاعمه أن العبيد بالطبيعة هم أولئك الناس الذين يختلفون عن الآخرين «على نحو ما يختلف الجسم عن النفس والحيوان عن الإنسان»^(٢). اللهم إلا إذا قبلنا المقدمات التي تقول إن المجتمع يُبنى بناء أفضل عندما يكون من الممكن أن تنفق القلة الممتازة حياتها في ممارسة النشاط

(١) السياسة، الكتاب الأول، ١٢٥٢ - أ.

(٢) السياسة، الكتاب الأول، ١٢٥٤ - ب.

العقلي، وبالتالي فإن وظائف الآخرين وطبيعتهم ينبغي أن تتحدد - في هذه الحال بأننا يمكن أن نقبل تبرير أرسطو للرق بأنه طبيعي.

وهذه الملاحظات نفسها تنطبق على النتائج التي وصل إليها أرسطو عن طبيعة النساء ووضعهن الطبيعي، فهي لا يمكن أن تفهم إلا بالإشارة إلى وظيفة جنس الأنثى، وأنها تتحقق تماما في المجتمع الطبقي الذي يزعم أنه أفضل مجتمع للإنسان. وفي بداية مناقشته للمنزل يخبرنا أرسطو أنه على خلاف ما يذهب إليه البرابرة:

«العبد والأنثى يتمايزان على نحو طبيعي بعضهما من بعض لأن الطبيعة لا تشبه الحدادين الذين يصنعون "سيوف دلفي Delphic Knife" لكي تُستخدم في عدد من الأغراض: بل هو يصنع كل شيء على حدة ولغرض جزئي معين. إن للطبيعة أنواتها المستقلة، ومن ثم كانت غاياتها أكثر كمالا، لأن ما يستخدم لغرض واحد فحسب يصل بهذا الغرض إلى حد الكمال أكثر منه عندما يستخدم في أغراض متعددة" (١).

ويتضح من سياق هذا النص أن وظيفة العبد هي إمداد الحاجات اليومية للمعيشة، بينما وظيفة الأنثى الأولى هي الإنجاب.

بالنسبة لموضوع وظيفة المرأة وهو موضوع مُتضمن بصفة عامة في كتاب «السياسة»، فلأبد لنا من أن نتحول إلى كتابات أرسطو السيولوجية لتوضيح فكرته. لقد اهتم أرسطو اهتماما شديدا بموضوع الإنجاب، طالما أنه ينظر إليه على أنه أكثر العمليات «طبيعية» بالنسبة للموجودات الحياة الناضجة (١). والواقع أننا إذا ما تأملنا دقة أرسطو المذهلة وأصالة اكتشافاته البيولوجية بصفة عامة لبدت «ملاحظاته» حول التوالد الجنسي منطوية على عدد من الأخطاء الفادحة التي ترجع كلها إلى افتراضه الأساسي الذي يقول إن الذكر دائما - وبطرق شتى - هو أعلى من الأنثى.

والسبب في وجود الشكل الجنسي (أو صورة الجنس) للإنجاب عند معظم الحيوانات، فيما يرى أرسطو، هو تفوق الصورة على المادة. لقد أخبرته «ملاحظاته» عن

(١) السياسة، الكتاب الأول، ١٢٥٢ - ب.

الإنجاب الجنسي أن الذكر من خلال حيواناته المنوية إنما يزودنا بالصورة، صورة النسل، أو نفس Soul الذرية. في حين أن الأنثى من خلال تدفق الطمث تزودنا بالمادة. وما دامت الصورة أفضل وأكثر قدسية في طبيعتها من المادة، فمن الأفضل أيضا أن ينفصل الأعلى والأسمى عن الأدنى. هذا هو السبب في أنه من الأفضل أن ينفصل الذكر عن الأنثى كلما كان ذلك ممكنا.

وهكذا يفسر أرسطو الحاجة إلى التوالد الجنسي على ضوء نظريته الهيراركية إلى العالم والواقع أنه يذهب إلى أن الحاجة إلى هذه الصورة العليا من التوالد هي وحدها التي جعلت الطبيعة تنحرف وتضل عن النموذج العام لكل نوع - ومن الواضح أنه يتصور أن هذا النموذج يجسده الذكر. وقبل أن يفسر ظهور المخلوقات الشاذة في الطبيعة، مباشرة، راح يشرح «الانحراف الأول» الذي يحدث عندما تشكلت الأنثى بدلاً من الذكر. ويقال لنا إن هذا الانحراف عن المألوف هو ضرورة تتطلبها الطبيعة، طالما أن الجنس - لا بد أن «يبقى موجودا». ثم ينتهي إلى أنه ينبغي علينا أن ننظر إلى الأنثى على أنها موجود مشوه، إن صحَّ التعبير «رغم أنه حدث في المجرى المألوف للطبيعة»^(١). أما بخصوص التوالد والإنجاب فهذا هو المبرر الوحيد لوجود الأنثى على الإطلاق. ذلك لأن الأنثى توصف بأنها عاجزة وأنها أدنى. أما الذكر فهو الذي يقوم بالدور الإيجابي النشط، بينما تقوم الأنثى بدور الوعاء السلبي فقط، بالنسبة للحياة الجديدة. أما الرجل فهو الذي يزود الحياة الجديدة بروحها أو مبرر وجودها، أما الأنثى فهي تزودنا بالجسد. وينتهي أرسطو إلى «أن الأنثى على نحو ما هي عليه ذكر مجذب». وحتى بالنسبة للإنجاب «فإن الذكر ذكر بفضل قدرته الخاصة، والأنثى بفضل عجزها الخاص». وفضلاً عن ذلك «فإن كل ما يحدث هو ما يتوقع المرء أن يحدث». وفي كل ما يتعلق بعملها وإنتاجها، «فإن الطبيعة تعمل كما يتوقع العقل منها».

(١) توالد الحيوان ، الكتاب الأول، ٧٢٩ - أ، ٧٣١ أ.

المقترحات التي يقدمها أرسطو في كتاب «السياسة» الخاص بتنظيم الزواج والتناسل تعكس بوضوح هذه المعتقدات البيولوجية وتصور أرسطو للمرأة على أنها أساساً آلة لإنجاب النسل والذرية للرجل. إذ ينظر إلى الزواج على أنه مؤسسة «تزودنا بأصح أجساد ممكنة، إنها نور حضانة لدولتنا»^(١). ولهذا فينبغي أن يكون سن الزواج، بالطبع، عندما يكون الشريكان في قمة قدرتيهما الإنجابية: بالنسبة للمرأة في سن الثامنة عشرة، والرجل في سن الثلاثين. ويوصي أرسطو، وفقاً للنبوءة بأنه ينبغي «على المواطنين ألا يحرقوا الأرض المراحة الصغيرة»، فعندما تكون الأمهات أصغر مما ينبغي يكون لديهن مشكلات خاصة بإنجاب الطفل. وهو يحافظ على نظريته العامة في الإنجاب، فيقول إنه ما دامت الأم لا تزودنا إلا بمادة الطفل وحدها في حين يزودنا الأب بالروح العاقلة، لهذا كان الأب وعقله المهتمين اللذين يوضعان في الحسبان أولاً. وعلى حين أنه ينصح الأم بأن تقوم بالتدريبات، وتناول الطعام الجيد أثناء الحمل؛ ما دام نمو الجنين يستمد غذاءه من جسمها. أما ذهنها فلا بد أن يظل عاطلاً، حتى تحتفظ بأكبر قدر من قوتها لنمو طفلها وما دام الطفل لا يستمد من ذهن أمه، فإننا لسنا بحاجة إلى تطوير ذهنها^(٢).

وعلى الرغم من عجز المرأة الواضح فإنها ضرورية لإنجاب الرجل، وهذه، فيما يبدو، وظيفتها الطبيعية عند أرسطو، ولولاً هذا المطلب للإنتاج الجنسي لما وجد قط هذا «التشوه في الطبيعة». لكن هذا المجتمع المنظم تنظيماً جيداً لا يكون الإنجاب وحده هو وظيفة المرأة، فالإنسان على خلاف الحيوان لا يتزاوج بالصدفة، وفي المواسم؛ طالما أنه ليس حيواناً سياسياً فحسب، لكنه حيوان منزلي أيضاً، لأن الموجودات البشرية تعيش معاً لا من أجل الإنجاب فقط، بل أيضاً من أجل أغراض متنوعة من الحياة. وتنقسم الوظائف منذ البداية وتختلف وظائف الرجل عن وظائف المرأة: «ففي حين أن وظيفة الرجل الجمع والتحصيل فإن وظيفة المرأة الاحتفاظ والتخزين». فمن الضروري أن يقوم

(١) السياسة، الكتاب السابع، ١٣٣٤ ب - ١٣٣٥ ب.

(٢) انظر ملاحظة «باركر» رقم ٢، السياسية، ص ٣٢٧.

رب الأسرة بتوفير الأشياء والخدمات المطلوبة للحياة اليومية، مع افتراض أن جميع طبقات الشعب الأخرى تتجه بالطبيعة لتمكين القلة من مزاوله نشاطها الإنساني الحقيقي - لقد أدى ذلك بأرسطو إلى أن ينظر إلى تقسيم العمل التقليدي بين الجنسين على أنه تقسيم يتفق مع الطبيعة اتفاقا تاما.

لقد كان رد الفعل الذي قام به أرسطو ضد مقترحات أفلاطون الراديكالية بصدد الأسرة والنساء واضحا إلى أقصى حد في هذا السياق إذ يذهب أرسطو في الكتاب الثاني من «السياسة» إلى معارضة أفلاطون بالتفصيل فيما يتعلق بإلغاء الأسرة. فقد أثار ثلاثة اعتراضات رئيسية:

أولاً : يؤكد أنه على الرغم من الوحدة التي تحدث عنها سقراط - بطريقة غير مقنعة - بخصوص الخير الأقصى للمدينة Polis. والتي أراد أن يضمنها عن طريق إلغاء الأسرة الخاصة، حتى يشكل الحراس أسرة واحدة كبيرة. سوف يكون من نتيجتها تدمير المدينة. يقول: «من الواضح أن المدينة التي تنمو وتنمو، وتصبح وحدة أكثر وأكثر. سوف تكف في النهاية عن أن تكون مدينة على الإطلاق». بل بالأحرى سوف تتجه إلى أن تكون أسرة، بل ربما فردا^(١). فالتشابه أو الوحدة المفرطة يصبح شيئا ضارا للغاية بالمدينة Polis.. «التي هي بطبيعتها ضرب من ضروب التجمع».

ثانيا : ويبدو أنه يذهب على نحو متناقض إلى أن اقتراح أرسطو بمد روابط القربى سوف تكون من نتيجته إضعافها، لدرجة أنه لن يكون لها قيمة. ولما كان الناس يعتنون أكثر بما يخصهم فإن أرسطو يزعم أن النتيجة سوف تكون أن الناس سوف يهملون الآخرين بصفة عامة طالما أن المرء لن يجد له أقارب يهتمون به اهتماما خاصا.

أخيرا : يهتم أرسطو كثيرا بأن عدم معرفة الأقارب والأنساب، سوف يؤدي إلى زيادة انتهاك «نقاء الطبيعة» في صورة جرائم مثل «نكاح المحارم»، وقتل الوالدين (الأب أو الأم) وقتل الأشقاء (الأخ أو الأخت). وهذه الحجج ضد أفلاطون ليست ملزمة إذ يمكن منازعة الحجة الأولى من حيث إن هناك أنواعا أخرى من الاختلاف والتباين داخل الدولة المثالية، حتى أن إلغاء الأسرة لن يكون من نتيجته على الإطلاق الإفراط

(١) السياسة، الكتاب الثاني، ١٢٦١: أ - ب.

فى التشابه. فضلاً عن أن الحجتين - الأولى والثانية من حجج أرسطو غير متسقتين بالتبادل، فإذا كان إلغاء الأسرة سوف يضعف روابط القربى، فكيف يمكن فى الوقت ذاته أن يعمل على زيادة الوحدة والتشابه؟ - كما أن الحجة الثالثة ليست، فيما يبدو، مقنعة أكثر من حجة أفلاطون العكسية التى تقول إن تكوين جميع الحراس فى أسرة واحدة سوف تنتهى بامتداد القرابة التقليدية والولاء لها، وكذلك المحرمات من خلال طبقة الحكام بأسرها.

لكن من المؤكد أن أرسطو قد اعتبر نفسه أنهى موضوع أفلاطون، وبالتالى واصل النظر فى أمر الأسرة الخاصة، وأعمال المنزل بوصفهما الأساس الطبيعى والضرورى الوحيد للحياة الاجتماعية. وكما سبق أن ذكرنا فإن سمة أساسية فى منهجه الفلسفى هى البدء بمناقشة الآراء السابقة لأسيما آراء الثقات فى الموضوع الذى يدرسه. وطالما أن الكتاب الثانى من «السياسة» - فى الجانب الأكبر منه - قد أخذ على عاتقه عمل مسح لآراء الكتاب السابقين حول إلغاء الأسرة، وشيوع الملكية الخاصة، وغير ذلك من الإصلاحات الراديكالية، فمن الواضح أنه لم يبق لدى أرسطو شىء يقوله عن المقترحات الراديكالية فى الكتاب الخامس من «الجمهورية» بخصوص التربية المساوية للنساء، وكذلك إتاحة الفرص المتساوية لهن مع الرجال. وإذا استثنينا الإشارة العابرة، فلن نجد سوى تعليق أرسطو على تشبيه أفلاطون للذكور والإناث بالكلاب على أنه تشبيه غير لائق ولا ينطبق على البشر لأنها لا تقوم بنفس أوار الجنسين، وفضلاً عن ذلك فإن رد أرسطو هو بالفعل غير واضح، ما لم يعترف أنه بالنسبة له - ولأفلاطون - ما أن تُحسم مسألة الأسرة، حتى تصبح أوار النساء غير مستقلة. إذ يؤكد أرسطو أن التشبيه غير مناسب تماماً طالما أن «الحيوانات، بخلاف النساء، ليست لديها أية واجبات منزلية»^(١). ومن الواضح تماماً، ما دام قد اعتبر نفسه قد هدم فكرة مشاعية النساء والأطفال أنه لم يجد من الضرورى أن يناقش أفلاطون فى الأفكار المتطرفة عن النساء، وقدراتهن كإفراد أو أشخاص. وطالما أن هناك أسرة وأعمالاً منزلية، فإن النساء يصبحن زوجات خصوصيات يقمن بوظائفهن المنزلية. وليس ثمة ما هو أكثر من ذلك يمكن أن يقال عن هذا الموضوع.

(١) السياسة، الكتاب الثانى، ١٢٦٤ ب.

ويزعم أرسطو أن المرأة يمكن أن تعرف بوظيفتها الإيجابية وواجباتها داخل المنزل، وهذا الزعم منتشر ومتغلغل في كل ما يقوله عنها. والحق أن فلسفة أرسطو الأخلاقية بأسرها متأثرة بنظرتة الهيراركية التي اعتبرها نظرة طبيعية بسبب أنها ضرورية لبلوغ هدف الحياة البشرية:

أولاً : جميع العلاقات الأساسية التي ناقشها في كتابه «الأخلاق» مثل «الصدقة» و«العدالة» يراها مختلفة اختلافا جذريا في طبيعتها ومعتمدة على الأوضاع النسبية في المجتمع التي يشغلها اثنان أو أكثر من الأشخاص الذين نتحدث عنهم.

ثانيا : لا يُنظر إلى أى مصطلح أساسى من مصطلحات الأخلاق مثل «الفضيلة» أو «العفة» أو «الشجاعة» على أنه يمكن أن ينطبق على نحو كلى وعام، ما دام وضع الشخص في الهيراركية البشرية، وبالتالي فإن الوظيفة تحدد نوع الفضيلة المعينة أو العفة أو الشجاعة المطلوبة لهذا الشخص أو ذاك. وسوف أناقش هذين الموضوعين على التوالي.

لما كان أرسطو قد نظر إلى المرأة على أنها بطبيعتها أدنى من الرجل، فإنه يؤكد أن جميع العلاقات بينهما لابد أن تعترف - بقدر الإمكان بتكافؤ هذه اللامساواة. فالعدالة السياسية التي نُظر إليها باعتبارها النوع الوحيد الذى يستحق اسم العدالة، لا يمكن أن توجد إلا بين نظراء أو أنداد ، بين أولئك الذين يشاركون على قدم المساواة فى أن يحكموا وأن يُحكموا المواطنين رفقاء. وفى مثل هذه الحالة سوف يكون من الظلم أن نعامل هؤلاء الأنداد بأية طريقة أخرى غير طريقة المساواة. لكن عندما لا يوجد مثل هذا التكافؤ بين الأشخاص فإن الدولة ستكون أمرا مختلفا أتم الاختلاف. ولا يمكن أن تسمى عدالة على الإطلاق إلا على نحو مجازى. لكن يبدو أن أرسطو لم يكن متأكدا من العدالة المجازية هذه وأنها يمكن أن تنطبق على نحو مناسب على النساء، فهو فى البداية يقول: «يمكن للعدالة أن تتجلى على نحو أوضح، وأكثر صحة، بالنسبة للزوجة أكثر منها بالنسبة للأطفال أو القطيع، لأن الأولى عدالة منزلية، وحتى هذه فإنها تختلف عن العدالة السياسية»^(١). لكنه، فيما يبدو، يتراجع عن هذا التسليم،

(١) الأخلاق النيقوماخية، الكتاب الخامس، ١١٣٤ ب.

عندما يقارن العدالة بين الزوج والزوجة، بالعدالة بين السيد والعبد (الذي هو بالقطع مجرد حيوان) - وبالعدالة بين الجوانب العاقلة والجوانب غير العاقلة من النفس^(١). طالما أنه يقصد أحيانا أن العبد ليس موجودا بشريا على الإطلاق. ويجعل العلاقة بينه وبين سيده موازية للعلاقة بين المستبد ورعاياه، فإنه يترك لدينا انطبعا بأن أرسطو - فيما يتعلق بالعدالة - يهبط بالمرأة إلى منزلة أدنى من الموجود البشري.

وكذلك الصداقة كغيرها من العلاقات الأخلاقية تتفق مع وضع الأصدقاء في الهيراركية الاجتماعية الأرسطية، ولما كان من غير الممكن أن تكون هناك صداقة بين السيد والعبد - بوصفه عبدا - (رغم أن الرجل، على ما فى ذلك من مفارقة، يمكن أن يكون له أصدقاء من حيث هو رجل، فإن الصداقة بين الأب وأطفاله، أو بين الزوج وزوجته - تندرج كصداقة بين المحسن والمستفيد. ويؤكد أرسطو أن «الصداقة بين الزوج وزوجته.. هى نفسها.. الصداقة التى توجد فى حالة النظام الأرسطى، لأنها تكون على قدر الفضيلة. ويكون الأجود فى الخيرات أكثر، وعلى قدر ما ينبغى لكل واحد. تكون العدالة فى هذه العلاقات»^(٢). ويعتمد الفرق فى الأنواع المختلفة من الصداقة فى أن معا على الفضائل والوظائف للشخصين، وعلى المبررات التى من أجلها يحب كل منهما الآخر. وفى جميع الصداقات التى يكون فيها الأصدقاء نظراء أو أندادا، فإن الحب لا بد أن يكون متناسبا مع جدارة الطرفين، لأنه كلما كان الأفضل يُحب أكثر مما يُحب، فإن المساواة فى هذه الحالة وحدها تستعيد وجودها^(٣). والزوج هو - فى الزواج - بفضل تفوقه باستمرار - هو المفيد والشريك الأكثر نفعاً. ويرى واحد من تلاميذ أرسطو فى كتاب «تدبير المنزل» .. *Oeconomica* (الذى كان يظن أنه لأرسطو ثم تبين أنه منحول - يرى أن هناك مبررا واحدا يحتم على الزوجة أن تطيع زوجها وأن تخدمه بمثابرة على الدوام، وهذا المبرر هو أن زوجها قد دفع فيها، فى الواقع، ثمنا باهظا، فضلا عن المشاركة فى حياته وإنجاب الأطفال - أكثر مما يدفع فى

(١) الأخلاق النيقوماخية، الكتاب الخامس، ١١٢٨ ب.

(٢) الأخلاق النيقوماخية، الكتاب الثامن، ١١٦٦ أ.

(٣) الأخلاق النيقوماخية، الكتاب الثامن، ١١٥٨ ب.

الأشياء التي يمكن أن تكون أعظم أو أكثر قداسة»^(١). وليس هناك تأكيد في هذا السياق على واقعة أن حياة المرأة بأسرها، تتحدد على ضوء الوظيفة التي تؤديها للرجل. وهكذا ينتهي أرسطو إلى أنه سوف يكون من السخف، ومن المضحك، بالنسبة للزوجة أن تتوقع أن تعود إليها محبتها وعواطفها بطريقة مماثلة [أي أن يحبها الزوج بطريقة مماثلة] كما أنه سوف يكون من السخف، ومن المضحك أيضا، بالنسبة للرجل أن يتوقع الشيء نفسه. «لأن نور الحاكم هو أن يُحَبَّ [من الآخرين] لأ أن يحب هو. أو بعبارة أخرى أن يحب بطريقة أخرى»^(٢). وليس الزواج أو الصداقة استثناء من المبدأ الأساسي الذي يقول: إن الصداقة لا بد أن تعكس باستمرار، المكانة أو الجدارة، والوظائف المحترمة لأولئك الذين هم أطراف فيها.

والظاهرة الثانية الملفتة في أخلاق أرسطو التطبيق المرن القابل للتغيير للمصطلحات والمعايير. ولم يكن ذلك جديدا على الإطلاق في هذه المرحلة من فكر الإغريق. فكما برهن أ. و. ه. أدكنز A. W. H. Adkins في كتابه الرائع: «الجدارة والمسئولية» فإن الإغريق منذ عصر هوميروس حتى عصر أرسطو - مع استثناء ملحوظ لأفلاطون - لم يكن لديهم تصور لمعيار واحد للأخلاق البشرية أو الامتياز يمكن أن ينطبق على أي شخص بغض النظر عن نوره أو نورها في المجتمع^(٣). ومن هنا فإن هذه الكلمة Arete (امتياز أو فضيلة) التي ابتكروها تشير إلى أقصى حد من الثناء، تحمل في الأصل إطراء لطريقة في الحياة رجولية تماما، فيها نبل ورفاهية. ولأ يمكن أن تطلق الأعلى أولئك الذين لديهم المال الكافي أو الضروري لممارسة هذه الحياة على ضوء نبل المولد، وما يحتاجون إليه من خيرات مادية وخدمات من الآخرين.

وكما سبق أن أشرت في الفصل الأول، فإن فضيلة المرأة كانت حدا نسبيا يتألف من مجموعة من الصفات التي تختلف أتم الاختلاف عن صفات فضيلة الرجل الذي

(١) تدبير المنزل، الكتاب الثالث، ١٤١ .

(٢) الأخلاق إلى إبيدemos، الكتاب الثامن، ١٢٣٨ ب.

يستطيع - وحده - أن يصل إلى الامتياز المطلق ، كان هذا هو الثقل الهائل للتقاليد وللظن اللذين ناضل سقراط في محاورته «مينون» - حيث زعم عدم ملائمة الجنس للفضيلة Arete - وفي محاورته «الجمهورية» حيث ذهب إلى أن الجنس لا يرتبط بالنفس إلا بمقدار ما يرتبط بها «الصلح». وتكمن أهمية هذه الفقرات في أننا ينبغي أن لا نقلل من تقديرنا للتعميم التدريجي للقيم الأخلاقية.

ولقد احتج أرسطو في كتاباته الأخلاقية والسياسية على هذه «الهرطقات السقراطية». ودعمها وبررها بطريقة التفكير التقليدية عند اليونان فبعد أن عرف أرسطو الفضيلة الإنسانية العليا، وذهب إلى أنها العقل، أقام تبريرا وظيفيا كمجتمع يمكن فقط لأولئك المتربعين في قمة الطبقات الاجتماعية أن يشاركوا في هذه الفضيلة العليا - وكما يقول أدكنز: «وهكذا لم يترك أرسطو أى أمل في إقامة معيار للمجتمع ككل»^(١). وحتى الرجال الأحرار الذين اعتبر عملهم يدويا حقيرا قد استبعدوا من إمكان المشاركة في أمور الحياة العليا؛ وتلك هي حالة الصناع، وبالطبع، حالة العبيد، وكذلك بالنسبة للنساء من أى طبقة. ومن الواضح أنه لم ينظر إلى عمل المرأة قط على أنه يتفق مع حياة الامتياز^(٢).

ومن ثم فإن ما فعله أرسطو هو تعريف الخير في كل شىء، ولكل شخص، تبعا لوظيفته، يقول: «فلنفرض أن الخير هو أفضل استعداد أى أفضل حالة أو ملكة لكل فئة من الأشياء لها نفع أو عمل ما...»^(٣). وتمتد أمثلته من: المعطف، إلى السفينة، إلى المنزل إلى النفس. وعلى حين أنه سهل علينا جدا أن نقبل الخصائص الوظيفية في امتياز الصناعات أو المنتجات البشرية وأن نوافق أرسطو على أن «ما هو صحى أو خير عند الناس يختلف عنه عند الأسماك»، فإنه لما يصدم الأذن الحديثة أن تستمع

(٢) الجدارة والمسئولية لأ سيما صفحات ٢٠ - ٣١ و٣٤١ - ٣٤٢ .

(٢.١) السياسة - الكتاب الخامس ١٣١٢ - أ حيث يسوق أرسطو - ب لأ تعليق - مثالا لملك قتل «بدافع الاحتقار» على يد رجل رآه يغزل الصوف بين النساء. ومن عجب أن ذلك لم يكن هو المضمون الفعلى للعمل الذى تقوم به الطبقات المروسة من الشعب التى استشهد بها أرسطو على أنه يجعلها طبقات منحطة بل بالأحرى واقعة أنها أمور تمت بوصاية أو بأمر أناس آخرين - انظر كتاب السياسة، الكتاب الثامن ، ١٣٣٧ ب.

إلى صفات المديح التي اعتادت أن تعتبرها ثابتة ودائمة في معناها، وهي تطبق بطريقة مختلفة على فئات مختلفة من الموجودات البشرية. غير أن للموجودات البشرية عند أرسطو وظائف بالطريقة ذاتها التي للمصنوعات أو المنتجات البشرية: فأولئك الذين يتربعون على عرش الهيراركية هم وحدهم الذين يعرفون من خلال علاقتهم هم أنفسهم بالآخرين. وهناك أساسا نظامان مختلفان للخيرات البشرية: إن خير أولئك هم من لديهم وقت فراغ، والرجال من أصحاب العقل الكامل هو خير مطلق. في حين أن الآخرين جميعا لا يستطيعون الوصول إلا إلى خيرات نسبية وخيرات أدنى. وخيرهم تحدده تماما وظائفهم، وجميع هذه الوظائف هي أدنى من وظائف أولئك الذين يتربعون في القمة. وهكذا نجد أنه على الرغم من أنهم لا يبلغون الصورة العليا من الخير، «وقد تكون امرأة ما خيرة، وكذلك عبد ما، رغم أنه يمكن أن يقال إن المرأة هي موجود أدنى مرتبة، وأن العبد غير جدير بالاعتبار»^(١).

وحتى في حالة المواطن الذكر الحر فإن أداءه الجيد لوظيفته هو الذي يحدد امتيازته^(٢). وسوف يكون لديه - في المدينة الجيدة - نوعان من الخيرات فما دام موجودا في مدينة دستورية فلا بد له - مع زملائه المواطنين - من أن يحكم ويحكم، ومن ثم فلا بد أن يكون لدينا نوع واحد (من الامتياز) يناسبه ليعمل به كحاكم، ونوع آخر من الامتياز يناسبه ليعمل به كمحكوم^(٣). غير أن النساء مع جميع الأشخاص الآخرين الذين هم شروط ضرورية للمدينة، لكنهن لسن أجزاء منها، فإنهن لسن بحاجة إلا إلى نوع واحد من الخير هو الذي يناسبهن كمحكومات لأن خضوعهن هو الدور الطبيعي والأزلى الذي يقمن به.

ومن ثم فإن جميع المعايير الأخلاقية التي تنطبق على النساء تحدد لها وظيفة المرأة بوصفها وعاء حمل لمواطن جديد وحارسة للمنزل - وطالما أن لها وظيفة مختلفة عن وظيفة العبد، فلا بد أن يكون خيرها مختلفا تماما مثلما أن خير العبد يختلف عن خير الصانع. يقول أرسطو:

«لابد أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للفضائل الأخلاقية، فلا بد أن نفترض وجودها عند الجميع، لكن ليس بطريقة واحدة، وإنما على درجات مختلفة حسب ما تقتضيه

(٢) الأخلاق إلى أيديموس ١٢١٨ ب - ١٢١٩ أ.

(١) السياسة، الكتاب الخامس عشر، ١٤٥٤ أ.

(٢) السياسة، الكتاب الثالث، ١٢٧٦ ب.

وظيفة كل منهم والدور الذي يقوم به. وبالتالي فإن الحاكم لابد أن يحوز على أعلى وأكمل فضيلة أخلاقية، لأن مهمته تشبه تماما عمل المهندس البارِع والعقل هنا هو هذا المهندس. أما الآخرون فينبغى عليهم ألا يكون لهم من الفضائل إلا بحسب الوظائف التي يشغلونها...

ومن الواضح إذن أن جميع الأفراد الذين تحدثنا عنهم لهم نصيب من الفضيلة الخلقية، غير أن الاعتدال وضبط النفس عند الرجل غيره عند المرأة، وكذلك الشجاعة عند كليهما، وأيضا العدالة، رغم أن لسقراط كما رأينا رأيا مخالفا، لأن شجاعة الرجل تعتمد على أن يأمر، وشجاعة المرأة تعنى أن تطيع. وقل مثل ذلك فى جميع الفضائل الأخرى.. وأن المرء ليخدع نفسه عندما يقول مقتصرًا على العموميات إن الفضيلة هي «استعداد حسن للنفس»، وممارسة الحكمة أو «السلوك الصواب» أو أى شيء من هذا القبيل. «والأفضل كثيرا من مثل هذه التعريفات العامة هو منهج الإحصاء البسيط الذى يصنّف الصور المختلفة من الفضائل»^(١).

وبالتالى فإن أرسطو يسير فى كل كتاباته على مبدأ تطبيق معايير أخلاقية متميزة على الجنسين، وعلى الفئات المختلفة من البشر فهو يقول، مثلا، عن عبارة سوفكليس «الصمت هو زينة المرأة وتاجها» إنها «حقيقة عامة - لكنها حقيقة لا تنطبق على الرجال»^(٢).

فالامتياز البدنى والخلقى للجنسين يتحدد على نحو مختلف، فبينما هما يحتاجان إلى ضبط النفس، فإن هذه الفضيلة بالنسبة للذكر لابد أن تكملها الشجاعة لكن فى الأنثى تكملها العادات المثابرة المتحررة من الذلة والخنوع^(٣). إذ ما فائدة الشجاعة لإنسانة وظيفتها العناية بالمنزل وإعداد الطعام والملابس لأسرتها...؟. وفضلاً عن ذلك فإن أرسطو يؤكد أنه ليس من المناسب للمرأة على الإطلاق أن تكون قوية أو شجاعة أو ذكية أو بارعة. وينتقد «يوربيدس» لأنه خلق شخصية نسائية لها مثل هذه الصفات غير المناسبة^(٤).

(١) السياسة، الكتاب الأول، ١٢٦٠ - أ.

(٢) السياسة، الكتاب الأول، ١٢٦٠ - أ.

(٣) فن الخطابة، الكتاب الأول، ١٣٦١ - أ.

(٤) فن الشعر، ٧ × ١٤٥٤ - أ.

إن أفراد البشر من الرجال الذين يحكمون غيرهم هم وحدهم الذين يحتاجون إلى حيازة العقل التام، وعلى حين أن الحكمة العملية ضرورية للحكام، فإن الظن الصائب أو «الرأى السديد» هو ما تحتاج إليه النساء والعبيد وغيرهم من أفراد البشر الذين «كُتب عليهم ألا يحكموا أبدا وإنما أن يكونوا محكومين على الدوام»^(١). ومن ثم فهو عندما ينسب إلى الأعضاء المختلفين في الأسرة قدرا متفاوتا من العقل، فإننا لأ نندهش عندما نجد أن كل فرد له بالضبط هذا الجانب من العقلانية التي هي لازمة لوظيفته (أو وظيفتها)، يقول في كتاب «السياسة» :

«من الصواب أن نقول إن جميع هؤلاء الأشخاص يملكون بطريقة مشتركة الأجزاء المختلفة من النفس، لكنهم يملكونها بطرق مختلفة، فليس عند العبيد على الإطلاق ملكة التروى، صحيح أن الأنثى تملكها لكن في صورة تظل غير فعالة، فإذا ما امتلكها الأطفال أيضا فلا يكون ذلك إلا في صورة غير ناضجة»^(٢).

«فلماذا ينبغي على الطبيعة التي لا تفعل شيئا باطلاً أن تعطى للمرأة عقلاً كاملاً. في الوقت الذي لا تحتاج فيه وظيفتها إلى ذلك العقل الكامل؟».

وهكذا أقام أرسطو معايير الامتياز البدني والذهني والأخلاقي عند المرأة طبقاً للوظيفة التي تستطيع أن تنجزها وأن تقوم بها للرجل. فإذا أرادت أن تكون من خيرة النساء، فلا بد أن تكون لها صفات كثيرة مثل الهدوء والسكينة والتواضع... إلخ. وهي فضائل مكروهة إذا ما وجدت عند الرجل. ومن ناحية أخرى ينبغي عليها ألا تحوز صفات كثيرة أخرى مثل: الرجولة أو العزم، أو القوة البدنية أو البراعة، وغير ذلك من الصفات المطلوبة للرجل. وبعد أن ينتهي أرسطو من وضع معايير منفصلة ومتضاربة للفضيلة عند الجنسين، فإنه يواصل السير ليوازن بين الكمال في المرأة في مقابل الكمال في الرجل، وينتهي إلى أن المرأة حتى - ولو كانت أفضل النساء - فهي ناقصة.

(٤) فن الشعر، ٧ x ١٤٥٤ - أ.

(١) السياسة، الكتاب الثالث، ١٢٧٧ - ب.

ويقرر في كتابه «الأخلاق إلى أيديموس». إن حالة الشخصية البشرية المسماة بالخير البشرى (أو الفضيلة البشرية) هي على نوعين: فلنقل إن الرجل هو موجودٌ نو امتياز بالطبيعة. وينتهى إلى أن صورة الخير عند الرجل هي خير على نحو مطلق، في حين أن الموجودات الأخرى التي ليست ممتازة بالطبيعة لا تكون فاضلة أو خيرة إلا على نحو نسبي.. «فقط فاضلة أو خيرة بالنسبة لذلك الشيء...»^(١). والمثالان لتوضيح ذلك هما خيرية الرجل (أو فضيلة الرجل) إذا ما قورنت بخيرية أو «فضيلة المرأة» وفضيلة الرجل الموهوب إذا ما قورنت برجل غبي. وفي كل حالة نجد من الواضح أن الأخير هو في وضع أدنى، ونوع أدنى من الفضيلة. ولقد تكررت هذه الفكرة عدة مرات في كتبه الأخرى، فعلى سبيل المثال في كتابه «فن الخطابة»، يقول: «تكون الأفعال والفضائل أكثر نبلا، عندما تصدر عن أولئك الذين هم بطبيعتهم أكثر قيمة، مثلاً عندما تصدر عن الرجل أكثر مما تصدر عن المرأة»^(٢). وما حدث هو أن أرسطو وصل إلى النتيجة التي تقول إن المرأة أدنى من الرجل بواسطة سلسلة دائرية كاملة من الاستدلال - فهناك إذن نور واضح: فهو قد تصور المرأة أداة أو آلة، من ثم عيّن لها سلماً منفصلاً تماماً من القيم، ثم وازن بينها وبين سلّم القيم عند الرجل فوجدها في مرتبة دنيا، بل إن الدراسة الوظيفية للنساء هي نفسها تقوم على افتراض صحة الهيراركية التصاعدية الأرسطية التي توضع فيها المرأة «بطبيعتها» في مركز أدنى.

بما أن نظرة أرسطو إلى المجتمع هي نظرة هيراركية صارمة أبوية بطرياقية وظيفية - فقد مكّنته من «البرهنة» على أشياء حول طبقاته المختلفة باستنتاج فروض تُفترض سلفاً هي التي يدعى أنه يبرهن عليها. فلو لم يكن من فروضه أن الذكر المترف الحر هو أعلى الموجودات الفانية، لما كان هناك مبررات أو أسس يستخرج منها أن جميع الأعضاء الآخرين في الجنس البشرى، تتحدد بالطبيعة بوظائفها التي ترتبط به. ومن الناحية الموضوعية، فليس هناك شاهد على القضية القائلة بأن النساء تتجه

(٢) السياسة، الكتاب الأول، ١٢٦٠ - أ.

(١) الأخلاق إلى أيديموس، الكتاب السابع، ١٢٣٧ - أ.

بالطبيعة إلى أن تنسل الرجال أكثر من أن يتجه الرجال بالطبيعة إلى إنجاب النساء (على نحو ما قد يجادل أهل الأمازون في نسختهم لو كتبوا «السياسية»).

إن أرسطو يذهب إلى أن المرأة أدنى من الرجل على اعتبار الوظيفة التي تنجزها وصفاتها المناسبة التي تجلت في المجتمع الأثيني. لكن المجتمع الأثيني كان مجتمعاً حرمت فيه المرأة من أى امتياز كما أنها كانت مقهورة تماماً - لأنه مجتمع سيطر عليه الرجل سيطرة كاملة حتى أنه عدو للمرأة ولدورها الذى تلعبه، وأملى عليها الفضائل التي تتحلى بها. إن أرسطو لم يهتم بدراسة خصائص المرأة أو صفاتها بمعزل عن هذا السياق. وهكذا بالرغم من معتقداته التي عبر عنها في قدرة البيئة على تشكيلها وتغيير الشخصية البشرية وقدراتها - لم يعد يهتم بتطبيق هذه المعتقدات على النساء - أكثر من تطبيقها على العبيد. إن أرسطو في الواقع لم يهتم إلا بالرجل الحر المترف. ثم أولئك الذين يحملون بطبيعتهم خصائص أدنى. لكنها تُمكن كل فرد من إنجاز دوره أو وظيفته المناسبة في النظام الاجتماعى الذى يستحسنه ويفضله ويقدم المبررات لتدعيمه.

أما أن أرسطو عامل الغالبية العظمى من البشر على أنهم أنوات ثم حكم عليهم بأنهم بالضرورة في مرتبة أدنى من الموجود البشرى، فقد درسها كثير من الباحثين الذين درسوا مؤلفاته بطرق شتى. وقلة - حتى هذه اللحظة - هم الذين لا يشعرون أنهم مجبرون على اتخاذ موقف معارض للطريقة التي نظر بها إلى النساء، وإلى الغالبية العظمى من البشر. لقد اكتفى هارى جافا Harry Jaffa، مثلاً، بتلخيص ما قاله أرسطو عن النساء، بل إنه سعى، بالفعل، إلى تبرير موقفه القائل بأن هناك عبيداً بالطبيعة^(١). وعلى الطرف النقيض، فإن جون فرجسون John Ferguson في كتاب حديث أصدره عن أرسطو يشير إلى «الخليط غير العادى من الملاحظة العلمية السليمة والفئة الغربية من الأحكام المبتسرة» الناتجة من النتائج الغائية للفيلسوف عن العلاقات داخل المنزل. وفضلاً عن ذلك فإن فرجسون يذهب إلى أن أولئك الذين رفضوا نظرة أرسطو الدونية

(٢) فن الخطابة، الكتاب الأول، ١٣٦٧ - أ.

(١) أرسطو في كتاب «تاريخ الفلسفة السياسية» الذى أشرف عليه ليون شتراوس وجوزيف كروبس ص

فى السىاسة للخدم، وللنساء ، لابد من أن يتأكلوا من أنهم لم يعانوا من الأحكام
المبتسرة المتبقية وهم يقدمون مساواة عملية ونظرية فى أن معا^(١)

غير أن موقف فرجسون هو موقف استثنائى من بين الباحثين الذين درسوا
أرسطو. والحق أن عددا منهم فى السنوات الأخيرة وجد لزاما عليه أن يتحلل من
البراهين التى ساقها لتدعيم الرق. فمثلاً سير ديفيد روس Sir D. Ross يقول: «ما لأ
يمكن أن نحمده لأرسطو هو نظريته.. التى قطع فيها الجنس البشرى بالفأس إلى
قسمين..»^(٢). ويستمر «روس» معترضا ، فيقول: «إننا لأ يمكن أن ندرس أحدا دراسة
مشروعة عندما نعتبره آلة وإنسانا فى أن معا». كما يعترض أيضا على نظرة أرسطو
إلى فئة الصناع على أنهم مجرد وسيلة ليستمر وجود المدينة Polis، وسعادة طبقتها
المتأزة. «فالواقع أن المجتمع لأ يمكن قسمته إلى قسمين: أحدهما يتحول إلى مجرد
وسيلة لراحة الآخر وسعادته. فكل موجود بشرى قادر على أن يمارس ضربا من الحياة
له قيمته فى حد ذاته». ووسط جميع هذه المعارضة - فإن «روس» يتبنى دفاع أرسطو
عن الأسرة ضد أفلاطون. ويشير إلى أن معرفته لها على أنها «امتداد عادى وطبيعى
للشخصية» مصدر للمتعة، وفرصة للنشاط الفاضل...»^(٣) لكنه لم يتحقق فى أى موضع
من كتابه من أن الأسرة عند أرسطو تتضمن معالجة النساء لمجرد وسائل لراحة
الرجال، أو أن «هذا الامتداد العادى والطبيعى». لشخصية الرجل يستلزم إلغاء
شخصية المرأة. إذا ما قارنا بين الفرص المتاحة أمام النساء الحراس عند أفلاطون،
لوجدنا أنه يصعب أن نقول إن المنزل الأرسطى يمكن أن يكون مصدرا للمتعة، وفرصة
للنشاط الفاضل «بالنسبة لأعضاء من النساء» بسبب أحكامه المبتسرة الخاصة، فإن
«ديفيد روس» لم ير أن هذا التقسيم للجنس البشرى إلى قسمين، تبعا للجنس،
لأ يمكن الدفاع عنه كالتفرقة بين السيد والعبد تماما.

وقل مثل ذلك مع د. ج. ألان D. J. Allan - رغم ثنائه على أرسطو لنظريته «الرحبة»
و«إنسانيته» - فإنه يعرف أن تولته المثالية ليست، فيما يبدو، «كاملة» من منظور كل من

ص ٧٤ - ٧٦ .

(١) فرجسون «أرسطو» ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) سير ديفيدروس : «أرسطو» ص ٢٤٢ .

العبد والصانع^(١)». وهو كذلك يجهل جهلاً تاماً حقيقة أن أرسطو هبط بالمرأة إلى وضع مماثل. وثالثهم هو «ج. آر. ليود» الذي انتقد أيضاً أفكار اللامساواة عند أرسطو بصدد العبيد، والعمال، والبرابرة. ويقول إن أرسطو فى هذه المجالات - يصعب أن تقول إنه تقدم عن الآراء المعاصرة له وينتهى إلى أن نتيجة أعماله تقدم بعض التبريرات العقلية لبعض الأفكار المبتسرة المتغلغلة فى أعماق الإغريق. وهو يلخص - بلا تعليق - إيمان أرسطو بالتفوق الطبيعى للرجال على النساء^(٢).

ويصبح قصر النظر عند أولئك الباحثين واضحاً تماماً فى ضوء واقعة لها مغزاها وهى أن جانبا كبيرا من «الفائفة الاجتماعية» الأرسطية، أعنى دراسته الوظيفية لمعظم الناس، لم تعد مما يمكن قبوله. ومع بداية تطور المفاهيم الحديثة للمساواة وحقوق الإنسان فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم يعد مقبولاً ولأ مبرراً أن تحدد مجموعة من الناس على أنهم آلات أو أدوات، بالطبيعة، عند الآخرين. أو أن تضع معايير أخلاقية مختلفة للفئات الاجتماعية المختلفة. ومن ثم فإن أولئك الذين يريدون أن يقيموا فلسفة أرسطو السياسية والأخلاقية ككل مضطرون إما أن يخرجوا عن طريقهم بحجج جديدة لمعالجته للعبيد والعمال، أو أن يتحللوا بصراحة من هذا الجانب من فكره، حتى يحرروا الجانب المتبقى من هذه الوصمة.

وبالمقابل، فإن إدراك ومعالجة النساء بمعايير وظيفية خالصة ما زال منتشراً، حتى إن الباحثين الأذكى لم يشعروا بالحاجة إلى أن يجادل ضد أرسطو واستعداد جنس الأنثى عنده. والواقع، أن من الواضح تماماً أنهم لم يستطيعوا رؤية أن الظلم فى معالجته للنساء والعبيد والعمال هو كله من نوع واحد واستمرار لوجود المعيار المزدوج فى القيم الذى حل محل المعيار الأرسطى المتعدد سمح لهم أن ينظروا إلى معالجته للمرأة على أنها أكثر عقلانية وأن معالجته يمكن الدفاع عنها، أكثر من معالجته للغالبية العظمى من البشر. إن ميلاد مذهب المساواة الحديثة لم يجلب معه على الإطلاق مطلب الدراسة المتساوية للنساء، كما سوف يبرهن تحليلنا القادم لفكر روسو بصدد هذا الموضوع.

(٢) أرسطو ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(١) فلسفة أرسطو ص ١٦١ .

الجزء الثالث

روسو

الفصل الخامس

"روسو" والتراث الأبوي البطريركى الحديث^(١)

أفكار روسو عن النساء: طبيعتهن وتعليمهن، ووضعهن المناسب فى النظام السياسى و الاجتماعى مهمة لثلاثة أسباب:

أولاً: الوضع الذى يذهب إليه يمثل نظرة التراث الغربى كله إلى النساء وهو يؤمن بأفكاره على غير العادة عن وعى كامل ويبررها بصلابة وعناد، رغم أنها تخالف جميع مبادئه الرئيسية فى الأخلاق والنظرية الاجتماعية، وكانت آثارها مأساوية حتى داخل سياق فلسفته الخاصة.

يذهب روسو، ولو أن ذلك بطريقة مبالغ فيها وأحيانا بحماس هستيرى ، إلى تأييد الأفكار التى أصبحت جزءا من الثقافة البطريركية معلنا انفصال واضطهاد النساء طوال تاريخ التراث الغربى . فإذا بدأنا من البداية فهو يذهب إلى أن المرأة تتميز بوضع حاد ووظائف معينة هى طبيعية لبنات جنسها. ومن المهم ما دام روسو يدافع عن الطبيعة بهذا الشكل أن نرى كيف اختلف استدلاله ما هو طبيعى بالنسبة للنساء عما هو طبيعى بالنسبة « للرجل» أن روسو، محافظا على التراث الطويل الذى يرتد إلى أرسطو، يعرف طبيعة المرأة، على خلاف طبيعة الرجل ، من منظور وظيفتها . أعنى الغرض الجنسى والإنجاب فى الحياة فى حين أنه يحدد **طبيعة الرجل من حيث**

(١) باستثناء «خطاب إلى المبير» الذى ترجمه ألان بلوم (كورنل عام ١٩٦٨) - والخطاب الأول والثانى الذى ترجمه روجرد. ويوديث ر. ماستر (نيويورك عام ١٩٦٤) - فإن جميع الإشارات إلى أعمال روسو تشير بصفة عامة إلى الأعمال الكاملة. المجلد ١ - ٤ . طبعة بلياد باريس ١٩٥٩ - ١٩٦٩ . والترجمة من هذه الطبعة هى ترجمتى. وبالإضافة إلى ذلك فقد استخدمت طبعة هاشيت للأعمال الكاملة والرسائل العامة أحيانا. بالنسبة للأعمال التى لم تشملها طبعة بلياد.

قوته اللامحددة على التفكير العقلي، والإبداع وما إلى ذلك. فالمرأة يُنظر إليها من حيث التحديد الوظيفي، من حيث دورها في الإنجاب . كما يدرك قدراتها الفعلية والممكنة من منظور يعوق نموها الطبيعي ويقرّمه باسم المتطلبات التي يحتاج إليها دورها . فوظيفة المرأة تُرى من حيث هي حسية وفزيقية ، في حين أن قدرة الرجل الكامنة من حيث الإبداع والعقلانية ، والفروق القصوى - لعدة قرون بين منهج ومجال التربية للجنسين قد فسر تفسيراً خاطئاً، كما هي الحال عند «روسو» على أنه على حين أن المرأة مزوّدة بمواهب للجزئيات والأمور الثانوية فهي ناقصة أو عاجزة وقاصرة من الناحية التعليمية، كما أنها عاجزة تماماً عن التفكير المجرد^(١).

وكذلك الاحتفاظ بالتراث الذي ابتكر «بانورا Pandora» و«ليث Lilith»^(٢) وحواء ، والسفونية Succubus^(٣) والساحرات وباختصار النساء عند «روسو» هُنَّ المصدر الأول لشُرور العالم . وكما قال مؤرخ حديث للاتجاهات البطريركية: «المرأة بوصفها مصدر الخطر، بوصفها مستودع الشر الخارجي، فهي صورة المرأة على نحو ما تجرى في التاريخ البطريركي^(٤): إننا نستطيع أن نتبين بوضوح في كتابات روسو عن المرأة ، إنها في وعيه المرأة التي توقظ ذلك الجنس الذي يجلب له مشاعر الخوف والإثم معا^(٥) وهي بقدرتها على إيقاظه تصبح خطراً على استقلاله ، وثقته بنفسه وكفايته الذاتية . هي في هذا المجال لها قوة لا حد لها، والنتيجة المستخلصة هي أن المرأة في مجالات أخرى لا بد أن تخضع تماماً لقوة معادلة دع عنك تفوق الرجل.. وطالما أنه تصورهما على أنها مصدر الشر والخطيئة فإن خضوعها هو العقاب الذي تستحقه وهكذا نجد أن «روسو» يُقدّم للمرأة نسخته من العقاب الإلهي لحواء أن تلد الأطفال بالوجع^(٦).

(١) انظر هيجل «أصول فلسفة الحق» فقرة رقم ١٦٦ وملحق ١٠٧ . بالنسبة لنوع نموذجي من الاستدلال

عن قدرات النساء. (وقارن ترجمتنا العربية ص ٦٠٢ من طبعة مدبولي عام ١٩٩٦ (الترجم).

(٢) ليليث - روح شريرة في الميثولوجيا السامية تقيم في الأماكن المهجورة وتهاجم الأطفال. وهي أيضا زوجة آدم الأولى في الأساطير اليهودية. (الترجم).

(٣) الشيطانة التي تذهب الأساطير إلى أنها تجامع الرجال أثناء نومهم (الترجم).

(٤) إيغا إيجز «المواقف الأبوية» ص ٤٢ .

(٥) انظر في هذا الموضوع رونالد جلمسلي «جان جاك روسو» لا سيما الفصل الثالث، ص ١٠٤ -

١٠٥ .

(٦) «إميل» - في «الأعمال الكاملة» ص ٧٠٩ وانظر فيما بعد ص ٢٠٤ .

والمرأة بوصفها موضوعا جنسيا للرجل، لابد أن تكون خاضعة لعواطفها فحسب فهي أيضا لديها قسمة ثنائية أساسية. الرجل بدوافعه الطاغية ورغبته في المتعة يريد من الأنثى أن تكون مغرية ومثيرة وفي الوقت نفسه، بعيدا عن الخوف الجنسي، يطلب منها أن تكون مسئولة عن السيطرة على رغباتها اللامحددة، ومن هنا جاءت الحاجة إليها لأن تكون جنسية محتشمة. فأما الطبقات المختلفة من النساء أو المرأة نفسها فهي بطريقة «دكتور جيكل ومستر هايد» مطلوب منها أن تكون في وقت واحد مرغوبا فيها ومحتشمة وعفيفة. والحل عند «روسو» (الذي كان في رعب مبالغ فيه من مرض الزهري حتى الفترة التي كان يعاني فيها من هذا المرض)^(١). هو أن يقدم لنا نوعين من النساء لتحقيق وظيفتين يتعذر الدفاع عنهما. فهو يعرض مثلا كلاسيكيا للمرأة التي تكون كلها حشمة وتواضعا وخجلا بصدد الجنس، ولكنها في الوقت ذاته مغرية ومثيرة كأحدى حوريات الجنة. أن تكون محتشمة كالتمثال الرخامي، لكنها خلقت للحب ومقتصدة وغير مسرفة بعد الزواج رغم أنها تكون قبله ذات دلال ومرح. وأن تحجم عن أي إشارة فيها غزل أو عبث مع الرجال الآخرين. وأن تكون على الدوام جذابة ومغرية لزوجها. وباختصار أن تكون عذراء وبغيا في آن معاً!

ثانياً : مشكلة الإقرار بالأبوة. وهي مشكلة ذات أهمية خاصة في عدد من الروايات الأخرى حول وضع المرأة - كانت مشكلة تثير الوسواس عند «روسو»، فهو يشير مرارا في مؤلفاته إلى حاجة الرجل إلى أن يكون على يقين مطلق من إخلاص زوجته ليتأكد أن الأولاد هم حقا أطفاله من صلبه. ومن ثم نراه يضع معايير أخلاقية جد مختلفة للجنسين. وعلى هذا الأساس يبين «روسو» الحكم والسيطرة المطلقة للأزواج على زوجاتهم و انحصار النساء في المنزل عقب الزواج والرغبة في فصل الجنسين وانعزالهم حتى داخل المنزل، والتربية الأخلاقية للنساء التي هي الضد التام لما اقترحه من تربية أخلاقية للرجال. علامة امتياز الرجل مسألة معقدة، ولكن الفضيلة الوحيدة المهمة للمرأة هي العفة.

بعد أن عرضنا الخطوط العريضة والاتجاهات العامة في فكر «روسو» لا يدهشنا أن فيلسوف المساواة والحرية، لم يطبق القيم البشرية الأساسية بطريقة واحدة على

(١) انظر «الاعترافات» - الأعمال الكاملة المجلد الأول ص ٣١٧ .

الجنسين. وكما سنرى عندما نعرض لأصول اللامساواة والتفاوت بين البشر أن الرجال حرفياً هم الذين يخضعون لهذا البحث. أما اللامساواة بين الجنسين فقد كانت مفترضة في الماضي، وهي لهذا لا تحتاج إلى بحث، وفشل روسو في تطبيق مثله العليا العزيزة على نفسه على جنس الأنثى سوف نقوم بتحليله في الفصل السابع. والواقع أن نظرية روسو البطريركية عن النساء تمثل تراثاً طويلاً، وإن كان لا يمكن تفسيرها تفسيراً خاطئاً على أنها مجرد تحيز، أو أنها تعبر عن مزاعم العصر وأحكامه المبتسرة التي تنطوي على مفارقة تاريخية، وأن روسو لم يضيف إليها سوى قليل من الفكر، أو لم يكن لها سوى تأثير ضئيل على أعماله الرئيسية، وأنها مع احترامنا الكامل لعبقريته ينبغي تجاهلها. وذلك لعدة أسباب: فكتابه «إميل» الذي عرض فيه بالتفصيل للتربية المثالية للنساء يصفه المؤلف بأنه «أفضل وأهم مؤلفاتي جميعاً»، وهو الكتاب الذي ينبغي أن يبدأ به المرء حتى يستطيع أن يفهم فلسفة روسو كلها^(١). فهو يعتقد أن العناصر الجوهرية في تفكيره قد تضمنها كتابه «إميل» والخطاب الأول والثاني^(٢). فضلاً عن ذلك فالكتاب الخامس من «إميل» يخصص أكثر من نصفه لتربية ورعاية المرأة المثالية صوفى Sophie التي يرى روسو أنه الجزء المحبب لنفسه من الكتاب. وكما قال أحد النقاد عن الكتاب الخامس: «ما يتعلق بصوفى كُتِبَ بحماس وحمية، حتى أن الباقي لا أهمية له»^(٣). والأفكار الهامة عن المرأة عند روسو يكشف عنها ما كتبه إلى أحد النقاد أن الرسالة كلها التي كتبها إلى «دالمبير»، والتي كنا نظن أنها تتعلق بصفة عامة بالمرح، تبرهن على أن النساء هن المسئولات عن فساد المجتمع^(٤).

لم يكن روسو يقينا مطبوعاً على قبول الرأي المعاصر أو الآراء المبتسرة المنتشرة في أيامه^(٥) فليس مما يمكن توكيده أبداً أن مثل هذا الفيلسوف الذي يهدم المعتقدات

(١) الاعترافات ص ٥٧٣ . روسو يحاكم جان جاك - الأعمال الكاملة مجلد ١ ص ٦٨٧ .

(٢) روسو يحاكم جان جاك ص ٩٣٣ .

(٣) بيير بيرجلين: «تربية صوفى»، ١١٣ .

(٤) خطاب إلى م. لينياب ٥٨٣ - المراسلات العامة جان جاك روسو ٤ ص ١١٥ .

(٥) خطاب إلى م. دالمبير ص ٨٢ .

القائمة على التقاليد لا يتخذ موقفا محافظا، بل رجعيا إيجابيا بالنسبة لمسألة وضع المرأة فهو يتحدى بصراحة أولئك الفلاسفة الذين نظروا إلى آرائه عن النساء على أنها قديمة ورجعية ومبتسرة ويؤكدها الرجال الذين يريدون المحافظة على امتيازات المجتمع البطرياركي ، وأخذ على عاتقه أن يبين لهم أن خضوع النساء ليس مجرد نتيجة للعرف أو الأحكام المبتسرة ، بل هو جزء من النظام الطبيعي والضروري للأشياء^(١). وعلى ذلك فعلى حين أن رجلا مستقلا مثل «إميل» لا ينبغي عليه أن يعمل حسابا لآراء أولئك المحيطين به ، وبصدد المسائل الأخرى ، فإن الحكم المبتسر الذي يقول إن الرجل مسئول عن سلوك زوجته السيئ هو حكم فريد وله ما يبرره، لأن النظام كله فى المجتمع يعتمد على تأكيد ذلك^(٢) . والواقع أن روسو يعلن أن اللامساواة بين الجنسين التى انعكست فى القانون والعرف «ليست من صنع الإنسان أو أنها على أية حال ليست نتيجة حكم مبتسر ، بل هي حكم العقل»^(٣).

فى الفترة التى كتب فيها روسو لم يكن ثمة تقصير فى مناقشة موضوع المرأة. فوضع المرأة فى المجتمع، ومسألة خضوعها للرجل، وما إذا كان أمرا طبيعيا ، أم أنه من صنع الأجيال الماضية كان مطروحا للنقاش . ولقد أثار منتسكيو فى «رسائله» بعض الموضوعات الأساسية، مثل التنشئة الاجتماعية للمرأة ، وأهمية إخلاصها من الناحية الجنسية، ومؤسسة الزواج الواحدى ذاتها^(٤). كما أنه ذهب فى كتابه «روح الشرائع» إلى أنه من الطبيعى أن يتميز الرجل بالعقل والقوة، والنساء بالسحر والجانبية، وأن الجراءة الجنسية للرجال والمقاومة والخجل من جانب النساء هى أيضا من وضع الطبيعة^(٥). ومن ناحية أخرى قدم «هلفتيوس» فى كتابه عن «الإنسان والتربية» تفسيرا مختلفا تماما للفروق المعاصرة بين الجنسين. فقد أشار إلى نساء شهيرات مهمات فى مجالات الحياة المختلفة، وقال إنه ليس من الطبيعى أن لا يكون

(١) انظر، مثلا: رسائل أخلاقية، الأعمال الكاملة ٤ ص ص ١٠٩٠ - ١٠٩٢ .

(٢) إميل ص ص ٣٨٠ - ٣٨١ . وإميل وصوفى الأعمال الكاملة ٤ ص ص ٩٠٠ .

(٣) إميل ص ص ٣٢٤ .

(٤) موننتسكيو: «رسائل فارسية» أماكن متفرقة مثلا رسالة ٢٦، ٣٨، ٦٢ .

(٥) موننتسكيو: «الروح القوانين» ١٦٤٩ ص ص ٢٥٢ ، ٢٥٨ .

لهن ميزات إذا ما قورن بالرجال يقول: «لو أن النساء كن عموماً أوفى من الرجال،
فذلك بصفة عامة لأنهن نلنَّ «تربية أسوأ»^(١). لكن أول تطبيق جوهري لنظريات عصر
التنوير عن أهمية دور البيئة والتعليم في حالة النساء إنما يرجع فيه الفضل إلى فصل
«عن النساء» كتبه البارون «هولباخ» في كتابه النظام الاجتماعي فهو يؤكد «أن
الطريقة التي تربت عليها النساء في جميع البلدان كانت، فيما يبدو تربية تستهدف
تحويلهن إلى مخلوقات يتميزن بالخفة والطيش، والهوى والنزوة، محرومات من عقل
الطفولة طوال حياتهن»^(٢). ورفض المجتمع الأوربي المعاصر إعطاءهن التربية المعقولة،
فيما يقول هولباخ: هو مثال آخر للعبودية العامة التي تخضع لها النساء باستمرار.
وهناك كذلك عدة مقالات في «موسوعة الفلاسفة» تحت عنوان «النساء» تعرض فيها
لل قضية وخصائص الأنثى المختلفة الطبيعة وخضوع النساء لسلطة الرجال^(٣).

وفضلاً عن ذلك فلم يكن روسو يكتب عن النساء من فراغ. لكنه هو نفسه كانت له
آراء في حياته المبكرة في هذا الموضوع، تختلف اختلافاً تاماً عن آرائه التي عرضها
في كتبه، فلقد تعاون مع مدام بوبن Dupin في كتاب مقترح عن وضع النساء في
المجتمع لم يبق منه سوى صفحات قليلة، ومن الواضح أنه كان يحتوى على هجوم
ثوري عنيف على الوضع المفروض على النساء^(٤). ومقالاته الموجزتان عن النساء
المؤرختان بتاريخ عام ١٧٣٠ تكشفان كذلك عن أنه كان يعتنق آراء راديكالية، عن
النساء، وبورهن الصحيح، في شبابه أكثر من آرائه في أواسط العمر^(٥). ومن ثمَّ
فآراؤه المتأخرة ليست، للأسباب السابقة، فوق النقاش بالتأكيد بل هي تؤلف موقفاً
«فكرياً واعياً».

(١) هلنتيوس: رسالة عن الإنسان مجلد ١ ص ١٥٦ .

(٢) هولباخ «النظام الاجتماعي» ص ١٢٢ (ترجمتى) !

(٣) الموسوعة أو معجم موجز عن العلوم والفنون والآداب نشره دالمبير وديدر، مجلد ٦ ص ٤٦٩ -
٤٧٧ .

(٤) برجلين في مناقشة تقرير في حولية جان جاك روسو ٢٥ ص ١٢٦ .

(٥) «عن النساء» مقال عن الأحداث المهمة المتعلقة بالنساء والأسباب الخفية، الأعمال الكاملة المجلد الثاني
ص ١٢٥٤ .

ثالثا : والسبب الرئيسى الأخير للاهتمام بحجج روسو عن التربية الصحيحة للمرأة وبورها هي أن نتائج اقتراحاته كانت مأساوية حتى داخل النظرية الاجتماعية، وهي فضلا عن ذلك لم تكن مأساوية بالنسبة للنساء أنفسهن بل لمؤسستين صورهما على أنهما النماذج العليا للتجربة البشرية . وكما سنرى فى الفصل الثامن فإن تنشئة المرأة الاجتماعية بطريقة روسو إذا ما قُبلت وخضعت للقيود التى يراها حقا بالنسبة لها، سوف تدمر الأسرة الواحدية والمجتمع المثالى، وسوف تدمر نفسها أثناء السير.. علينا أن نتتبع فحسب ونفكر فى مصير اثنين من النساء المثاليات التى ابتكرهما روسو وهما «جولى Julie» فى «هلويز الجديدة» و«صوفى Sophie» فى كتابه «اميل» ونتيجتهما التى لم تتم لنرى أن نظريته فى تربية ومعالجة النساء هى فى عملية التطبيق تؤدى إلى نتائج مأساوية . إن معرفة روسو لصراع الولاء الذى تواجهه الموجودات البشرية أدت به إلى نتائج تشاؤمية فيما يتعلق بمصير الرجل، أما نتائجه فيما يتعلق بمصير النموذج الوحيد الذى تصوره للمرأة، فهى أشد سوءا.

الفصل السادس

المرأة الطبيعية ودورها

الحجة الأكثر انتشارا التي يستخدمها روسو لتبرير التفرقة المستمرة بين الجنسين ، وبور الأنثى هي أن هذا الدور طبيعي. فبعيدا عن أن يكون شيئا قد فرض عليها أو تطور إليها عن طريق النظم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فإن السلبية، والخضوع، والاعتماد على الآخر ، والاحتشام ، والخجل، ونقص العقل، والحساسية... إلخ هي كلها خصائص منحتها لها الطبيعة^(١)، ولما كان «روسو» هو النموذج النمطي في الفكر الحديث لهذه الحجة، ولما كان تمجيد الطبيعة هو الموضوع الأثير في كل كتاباته الفلسفية، فمن الأهمية بمكان أن نفحص بعناية ودقة هذه الحجة كما صاغها. جانب مهم من كتابات «روسو» بصفة عامة مخصص لما يمكن أن نسميه تأليه الطبيعة، في الجنس البشري وفي نمط الحياة، ولرفض ، أو على الأقل نقد وتدمير معظم نتائج الحضارة التي اعتبرها معاصروه من مكونات التقدم، والشعار الذي اختاره من كتاب «السياسة» لأرسطو ليفتح به أصل «التفاوت بين البشر» هو «ليس في الأشياء الفاسدة، بل في تلك الأشياء المنظمة تنظيما جيدا وفقا للطبيعة، ينبغى علينا أن نتدبر ما هو طبيعي». ويمكن اعتباره أحد المبادئ الأساسية، وكذلك القول «بأن الطبيعة لا تفعل شيئا باطلا وأنها لا تكذب» هو خيط يسرى في كل كتاباته^(٢) . وكما أن تربية «إميل» قد خطط لها بعناية حتى تمكنه من أن يكون رجلا طبيعيا في

(١) راجع الإشارات المقتبسة في الفصل الخامس.

(٢) مقال حول «أصل التفاوت» الخطاب الأول والثاني ص ص ٧٧ و ١٠٤ و ٢٢٩ . ورسالة إلى ليناب «المراسلات العامة» ٤ ص ١١٤ .

عالم فاسد، فكذلك «صوفى» زوجته المقترحة، خطط لها حتى تكون امرأة طبيعية ، فهو ينصحها بأن تحترم وضعها كامرأة، ويقول لها روسو: «الأمر الجوهرى أن تكونى كما أرادت لك الطبيعة أن تكونى ، إن المرأة تميل دائما أكثر مما ينبغى أن تكون كما يريد لها الرجال أن تكون» (١) ولما كانت تربية «صوفى» هى الضد المباشر لتربية «اميل» كان من الجوهرى أن نرى ما هى المبررات المستخدمة لاكتشاف الرجل الطبيعى وكيف يختلف عن تلك المبررات التى استخدمها لاكتشاف المرأة الطبيعية.

يستخدم «روسو» وسيلتين أساسيتين ليفصل ما هو طبيعى عند الرجل عن الخصائص التى اكتسبها من الحضارة والحياة الاجتماعية. الوسيلة الأولى أن يفصل الخصائص الفطرية للفرد عن تلك الخصائص التى تنتجها البيئة. والغرض الحقيقى «لاميل» أن يبين لنا أن الرجل يمكن تربيته لينشأ مستقلا عن الحكم المبتسر الشائع، ويدعى روسو أنه يطور فى «اميل» تلك الخصائص الفطرية التى تعوق المجتمع والحضارة عادة نموها عن طريق ما يحتويه من نساء حتى أننا لم نعد ندري ماذا يشبه الرجل. والتعارض الحاد الذى وضعه بين هاتين الطريقتين والتميز بين الطبيعة والتنشئة بقصد التفرقة بين الجنسين سوف نناقشها فيما بعد.

المنهج الآخر لاكتشاف الرجل الطبيعى مفترضا «حالة الطبيعة» لم يكن بالطبع عملا ينفرد به روسو إطلاقا، فقد استخدم كثير من الفلاسفة تصور «حالة الطبيعة» ، فى محاولة لانتزاع الأغراض التاريخية، ونتائج الحياة السياسية والاجتماعية، حتى يكتشفوا أن الطبيعة الإنسانية والعلاقات الإنسانية متشابهة فى أساسها العميق. ففلاسفة من أمثال «لوك» استخدموا هذا المفهوم لفحص الإنسان فى الحالة التى يكون فيها بغير قانون . وفى بعض الصور الأخرى مثل روسو كان يستهدف فصل نتائج تربية الموجودات البشرية، والتقدم التكنولوجى، وتقسيم العمل، والملكية الخاصة. وحشد من المؤسسات الاجتماعية والسياسية الأخرى، عن الطبيعة البشرية التى تفسر على أنها سابقة لجميع هذه الإضافات الخارجية منطقيا إن لم يكن زمانيا. وهكذا فإن المنظر السياسى، على الأقل عادة، يستفيد من النتائج التى يصل إليها بهذه الطريقة ليؤكد النظام الاجتماعى والسياسى المبرر والمشروع بالخصائص الإنسانية التى أقرتها الطبيعة.

(١) «اميل» فى الأعمال الكاملة ٤ ص ٦٩٢ وص ٧٣٦ .

هذا هو نوع الاستكشافات الفلسفية التي قام بها روسو في كتابه «أصل التفاوت بين الناس». وكما قال في تصديره لهذا الكتاب وهو يبرر منهجه أننا لا نستطيع أن نكتشف أصل التفاوت بين البشر ما لم نعرف ما هو الإنسان حقا. فإن علينا أن ندرس لا تلك الحالة المشوهة والتي لا يمكن أن نعترف بها التي يقول بها «جلوكس Glaucus» والتي شوهتها كثير من العوامل في تاريخ المجتمع بل ندرس «الإنسان كما شكته الطبيعة في تكوينه الأصلي» وحاجاته الحقّة و«المبادئ الكامنة في واجباته». وها هنا فقط يمكن أن ننجح في أن نفصل «في التكوين الحالى للأشياء بين ما وهبته الإرادة الآلهية لنا، وبين ما يدعى الفن البشرى أنه قدّمه لنا»^(١). وليكن واضحا أنه استبعد ادعاء الدقة التاريخية، لكنه يستهدف توضيح طبيعة الأشياء عن طريق الاستدلال الافتراضى، وهكذا شرع «روسو» فى اكتشاف الحالة الطبيعية للجنس البشرى، ولم يدع أى فيلسوف سابق مثل هذا الاكتشاف ولا نفذ حقا، فيما يرى روسو، فى أغوار الماضى البعيد حتى وصل إلى الإنسان الطبيعى.

وكما لاحظنا من قبل^(٢) فإن كتاب «روسو» لم يسلم بحالة بسيطة فريدة، للطبيعة، بل بسلسلة من المراحل المتميزة المتعاقبة ثقافيا. وهو يقول للقارئ عن هذه المراحل: «سوف تبحث عن العصر الذى ترغب أن يتوقف عنده نوعك»^(٣). ومن المهم أن نلاحظ أن المرحلة التى كان فيها الجنس البشرى حيوانات منعزلة، التى أطلق عليها اسم «حالة الطبيعة» ليست هى المرحلة التى كان يرغب أن يتوقف فيها نوعه البشرى. وأكثر أهمية أنه فى السياق الحاضر أنه يشير فى الماضى إلى مراحل مختلفة مفترضة لكى يؤكد «الحالة الطبيعية» للخصائص المختلفة ولوضع الأمور. ويصدق ذلك بصفة خاصة عن المرأة الطبيعية وعن الوضع الطبيعى للأسرة فى آن معا.

(١) تصدير مقال عن التفاوت ص ص ٩٦ - ٩٧ .

(٢) مثلا أ. لفجوى «نسبية روسو المفترضة حول أصل التفاوت» - مقالات فى تاريخ الأفكار بولتيمور ١٩٤٨ .

(٣) أصل التفاوت ص ١٠٤ .

فى القسم الأول من كتابه «أصل التفاوت» يرسم روسو صورة لما سوف يشير إليه من الآن فصاعدا باسم «الحالة الأصلية للطبيعة». وتلك هى المرحلة التى افترض فيها أن الموجودات البشرية من الجنسين عاشت فيها معزولة وتعيش حياة البدو الرجل متجنبين التعاون تماما اللهم إلا فى اللقاءات المؤقتة العابرة التى تشبع بوافعهما الجنسية: فالذكر والأنثى يتصلان جنسيا نونما أى تفضيل لفرد على آخر؛ إذ لم تكن لديهما القدرة على المقارنة. ثم يذهب كل منهما - الرجل والمرأة كل فى طريقه، ولا يعرف الواحد منهما الآخر لو التقيا مرة أخرى. ولهذا يقال إن الجنس الطبيعى والغريزى يختلف اختلافا جذريا عن الحب الجنسى كتجربة فى المجتمع المتحضر - عن تلك العاطفة المرعبة المتهورة «التي تبدو فى جنونها وكثتها ستتمر الجنس البشرى وهى تستهدف المحافظة عليه»^(١). الجنس فى حالة الطبيعة عبارة عن شهوة حيوانية بسيطة، أشبه بالجوع والعطش والحاجة إلى الراحة وغريزة مخصصة للمحافظة على النوع. وعلى استعداد لأن تشبع إرادة أى عضو فى أحد الجنسين يتصادف مروره. وما يخبره الإنسان الحى ليس إلا الجانب الفيزيقي من الشعور بالحب، كمضاد للجانب الأخلاقى، الذى يلحق بالموضوع المفضل وهو عاطفة مصطنعة أنتجها استخدام المجتمع^(٢).

ما دام لم يتصل أحد فى هذه الحالة الطبيعية الأولى أو لم يبد أى قدر من التعارف، بأى شخص آخر، فإن الإناث من الناحية العملية، هن آباء نسلهن. رغم أنهن لم يمنحن أية غريزة أبوية، وقد ترضع الأنثى الطفل لأول مرة من أجل راحتها هى، ثم بعد ذلك كعادة أصبحت محببة عندها. وما أن يصبح قادرا على أن يقتات بمفرده حتى تتركه أمه. ولا يتعرف أحدهما على الآخر أبدا. ويذهب «روسو» إلى أن الأنثى البشرية مزودة ومجهزة لتغذية طفلها، وتغذية وحماية نفسها أيضا، ما دامت قادرة على حمله بسهولة، نون أن يجعلها تبطنى وهى تغذ السير. والحق أنه سار إلى أعماق بعيدة ليعارض بقوة الاعتراض الخطير الذى قال به لوك ضد الفكرة التى تقول إن الإنسان الطبيعى عاش فى عزلة. والنزاع هو أن اتصال والدين فى الزواج ضرورى لبقاء الجنس البشرى، وأنه من ثم لا توجد حالة للطبيعة يمكن أن تكون افتراضا معقولا، لا يفترض فيها وجود الأسرة النووية^(٣).

(١) أصل التفاوت ص ١٢٤ .

(٢) أصل التفاوت ص ١٣٥ .

(٣) أصل التفاوت ص ص ٢١٣ - ٢٢٠ .

وبدون الدخول فى تفاصيل سواء حجة «لوك» أو حجة روسو المعارضة من المهم أن نشير إلى عدة تأكيدات عند الأخير تتعارض تعارضا جذريا مع مزاعم روسو اللاحقة عن الوضع الطبيعى للأسرة :

أولاً: لقد زعم أنه فى حالة الطبيعة السابقة على التعايش على طريقة الأزواج، فإن الحوامل كنّ قلة والأطفال كانوا معا ، وسرعان ما يستطيعون حماية أنفسهم ، ولذلك فإن الأمهات، من غير المحتمل أن يكون لهن أكثر من طفل واحد يعتمد عليهن فى وقت واحد، قدرات تماما على حماية الطفل دون عون من أحد.

ثانيا : فى الحالة الأولى للطبيعة ما دام الذكر والأنثى ينفصلان عقب الجماع. ولا أحد يعلم أطفال من هؤلاء، فليس هناك سبب منطقى عنده يجعله يساعد الأنثى فى تربية طفلها. وهذا الزعم يأخذ به روسو - وهو كما قال - يدل على فشل «لوك» وليس أقل من فشل «هوبز» فى الذهاب إلى ما وراء قرون المجتمع إلى الحالة الحقيقية للطبيعة التى لم يوجد فيها أى مبرر لأى إنسان للتعايش أو التعاون مع أى شخص آخر.

ثالثا : انتقد روسو حالة الطبيعة عند لوك بطريقة مشوهة منهجيا. فقد هاجم «لوك» على أساس أنه استخدم «براهين أخلاقية» فى حجته على الوجود الطبيعى للأسرة، فأشار إلى الذكر على أنه «ملزم برعاية نسله» ومن ثم فهو «ملزم» بالإبقاء على الأنثى إلى أن يستطيع الأطفال أن يقوتوا أنفسهم بأنفسهم^(١). وأمثال هذه الحجج الأخلاقية يعترض عليها «روسو» : «إذ لم يكن لها قوة كبيرة فى أمور فزيقية . وهى تصلح فقط أن تقدم مبررا لوجود وقائع قائمة أكثر من البرهنة على الوجود الحقيقى لتلك الوقائع»^(٢) . ومن الواضح من عبارته الثانية أنه يفرق بين ما يمكن أن يريد الفيلسوف تبريره على أنه خير، وما يمكن أن يبرهن على أنه ضرورى فى النظام الطبيعى للأشياء. لأنه يقول : «على الرغم من أنه ربما كانت ميزة نافعة للجنس البشرى أن يدوم اتحاد الرجل والمرأة، فإنه لا ينتج من ذلك أن تكون الطبيعة هى التى أقرت هذا الوضع، وإلا لكان من الضرورى أن نقول إن الطبيعة أيضا هى التى أنشأت

(١) أصل التفاوت ص ٢١٥ .

(٢) أصل التفاوت ص ٢١٥ .

المجتمع المدني، والفنون والتجارة ، وكل ما نقول إنه نافع ومفيد للناس»^(١). ومن الواضح أن ذلك يهدم تماما الغرض من تصور حالة الطبيعة، لأن المرء يستطيع أن يدخل فيها أى مؤسسة بشرية يجدها مرغوبة.

لا يوجد حب جنسى إنن في حالة الطبيعة عند روسو بمعزل عن الفريزة التي تتطلب إشباعا متبادلا، ولا يوجد زواج ولا أسرة ، ولا أى علامة أخرى على اعتماد أحد الجنسين على الآخر أو اللامساواة بينهما . وعندما يقول فى كتابه «اميل » الواقع أنه يوجد فى حالة الطبيعة مساواة حقيقية غير قابلة للاختلاف أو التخريب، مادام يستحيل تلك الحالة أن يكون الاختلاف المحض بين رجل ورجل كافيا لأن يجعل أحدهما يعتمد على الآخر»^(٢). فليس لديه مبرر مشروع لأن يستبعد الأنثى وهى نصف الجنس البشرى. والواقع أننا إذا ما عرفنا أن تلك المرأة الطبيعية المنعزلة يُفترض فيها أنها قادرة على إطعام نفسها ونسلها، فى حين أن الرجل يُطعم نفسه فقط ليحافظ على نفسه، فإن من الصعب أن يقال إنها كانت شيئا آخر غير أنها مساوية للرجل^(٣).

لم يكن موقف «روسو» من الحالة الأصلية للطبيعة الرفض الواضح ، وعلى حين أن أهلها كانوا متخلفين بدائيين، فقد كانوا بغير شك أحرارا، مستقلين والاستقلال عنده كان أكثر القيم أهمية . وهو يتساءل «أى نوع من البؤس كان يمكن أن يكون هناك .. أو أن يحقق بالموجود الحر الذى قلبه فى سلام، والذى جسده صحى؟»^(٤) فى حين أن حالة الطبيعة الأصلية لم تكن هى العصر الذى اختاره، لذا يتساءل أننا على الأقل نُعلّق الحكم عليه إلى أن نرى ما الذى يعقبه. وفضلا عن ذلك لقد كانت المنطقة الوحيدة المتحررة من شرور الأنانية تماما كتميز لها عن الدرجة الصحية للحب الذاتى. وحالما يكون هناك أى اتصال مُنظّم بين الأفراد، حتى تبدأ الأنانية تلوث أخلاق الجنس البشرى. إن «روسو» ينظر إلى الماضى لحالة الطبيعة الأصلية، لكى يبرهن على أن الإنسان بطبيعته خير^(٥). وهو خير لأنه لا يحتاج لأى شخص آخر، ولا يقارن نفسه

(١) أصل التفاوت ص ٢١٦ .

(٢) إميل ص ٥٢٤ .

(٣) لا أعنى بذلك أن روسو كان سيوافق على هذه النتيجة. على الرغم من أنها تنبع منطقيا من حججه عن حالة الطبيعة.

(٤) أصل التفاوت ص ١٢٧ .

(٥) أصل التفاوت - انظر : ص ص ١٢٨ - ١٢٢ عن خيرية الإنسان فى حالة الطبيعة الأصلية ولاحظ فى صفحات ١٤٦ - ١٤٩ أن المشاحنات والمعارك والغيرة والشقاق، يفترض أنها بدأت بمجرد أن بدأ الاتصال المنظم بين الأفراد، والتفاضل بين الأسر وأقيمت بنور الملكية الأولى.

بأنى شخص آخر، وليس لديه مبرر للخوف من أن أى شخص سوف يسعى لإيذائه.

الأحداث الحاسمة التى تفصل حالة الطبيعة للجنس البشرى عن بداية المجتمع المدنى فى كتابه «أصل التفاوت»، أقامتها الملكية الخاصة للأرض، وتقسيم العمل بين الزراعة والتعدين. ومن هذه الزاوية يؤكد «روسو» أن بعض الناس بدأوا فى إفساد غيرهم واستعباده، ما دام كل منهم لم يعد مكتفيا بنفسه، فبدأت تظهر كل شرور التفاوت الاجتماعى وتنمو. ومرحلة «روسو» المفضلة فى التاريخ الافتراضى الذى افترضه للإنسان هى الفترة الطويلة الواقعة بين الحالة الأصلية للطبيعة وعهد اللامساواة الذى رأى أنه ينتجه تقسيم العمل - أعنى أن ذلك هو «العصر الذهبى» للأسرة النووية البطريركية، وذلك واضح جدا من أمرين : امتداحه لها فى «أصل التفاوت» ، ومن المحاولات المتعددة التى بذلها لإعادة خلق الموقف فى كتابه «إميل» وفى رواية «هلويز الجديدة» ، وفى وصفه المثالى لأهل الجبل فى سويسرا، أن الإنسان المكتفى بنفسه الواثق من ذاته، الريفى، والأسرة الأبوية هو عند «روسو» على الأقل واحد من نموذجين محتملين لحياة الإنسان، والنموذج الوحيد الممكن فى عصر فاسد، وهو يسميه «الأول الحقيقى للعالم» (١).

وكما يذكرنا «لفجوى» عند روسو باختصار تكمن خيرية الإنسان فى انتقاله من «حال الطبيعة» ، «لكن ليس أكثر مما ينبغى ..» (٢) لكن نطاق الانتقال من الكفاية الذاتية، والاستقلال مطلوبين لإدخال روسو فى الأسرة النووية. كانا عظيمين على نحو ملحوظ بالنسبة للمرأة أكثر من الرجل. إذ فجأة فى فقرة واحدة وبدون تفسير، افترض وجود «ثورة أولى» فيها معا مع الأدوات الأولية والأكواخ الأولى، التى تؤلف معا «نوعا من الملكية» يظهر أول معاشرة فى صورة الأسرة النووية الواحدية.. وفجأة أيضا، وبلا مبرر، أدخل تقسيما كاملا للعمل للجنسين. وعلى حين أن طريقة الحياة

(١) أصل التفاوت ص ١٥١ . «إميل» ص ٨٥٩ وهلويز الجديدة - الأعمال الكاملة ص ٧٩ - ٨٤ وخطاب إلى دالمبير ص ص ٦٠ - ٦٥ .

(٢) «النسبية المفترضة» ص ٣١ .

السابق بين الجنسين كانت متحدة فى هوية واحدة، فقد أصبح النساء الآن أكثر استقراراً ونما عندهن اعتياد رعاية الكوخ والأطفال، فى حين يذهب الرجل للبحث عن القوت المشترك^(١)، وتقسيم العمل، بالطبع، يعنى أن الأنثى هى نصف الجنس لم تعد بعد مكتفية بذاتها، وطالما أن هذا الاكتفاء الذاتى كان ضمان الحرية والمساواة التى تتسم بها حالة الطبيعة الأصلية، فربما توقع المرء أن يجد، رغم أن المرء لن يجد، بعض الشروح تفسر التفاوت وانعدام المساواة التى كانت بذلك قد استقرت. وهذه الأسرة الأولى، من ناحية، توصف بأنها وحدة فقط لروابط «الحب المتبادل والحرية»^(٢). لكن من ناحية أخرى، فقد تخصص الرجل للعمل فقط. ويرى «روسو» أن ذلك نتاج للملكية^(٣)، ومن الواضح تماماً «أن متاع الأسرة ينتمى إلى الأب وحده». متاع الأب الذى هو السيد الحقيقى، هو الروابط التى تجعل الأطفال يعتمدون عليه. وفى استطاعته أن يعطيهم حصة من الميراث بشرط أن يكونوا جديرين بها بإذعانهم المتواصل لرغباته^(٤). وليس ثمة مبرر للزعم - طالما أن المتاع ممتلكاته وحصيلة عمله، أما العمل المخصص لزوجته فلا يُنظر إليه على أنه عمل إنتاجى - بأن الوضع الضرورى للمرأة أقل إذعاناً لزوجها من أطفالها. وكما رأينا فإن الطابع الأبوى الضرورى للعصر الذهبى للأسرة واعتماد النساء الاقتصادى على الرجال تؤكد الكثير من مؤلفات روسو التالية.

والأمر المهم الجدير بالملاحظة فى هذه النقطة هى أن زعم البطريركية لا يشير إليه «روسو» على أنه يشكل اللامساواة بين موجودين بشريين ناضجين. ومن الواضح أن اللامساواة البشرية التى يتحدث الكتاب (أصل التفاوت) عن أصولها هى فقط اللامساواة بين نكر ونكر آخر. وهناك إشارة سريعة إلى ذلك - فى فقرة مبكرة من الكتاب، عندما يُشار إلى النساء بلا وخز للضمير، على أنهن «الجنس الذى ينبغى أن يطيع»^(٥). ومن الواضح أنه حتى الثورة الثانية العظيمة بدأت تظهر ملكية الأرض وتقسيم العمل بين

(١) أصل التفاوت ص ١٤٧ .

(٢) أصل التفاوت ص ١٤٧ .

(٣) أصل التفاوت ص ١٥٤ «من المستحيل تصور فكرة الملكية على أنها تابعة من أى شىء آخر سوى العمل المشترك».

(٤) أصل التفاوت ص ١٦٦ .

(٥) أصل التفاوت ص ١٣٥ .

الرجال، وينظر «روسو» إلى الجنس البشري، بغض النظر عن الطبيعة البطريركية للأسرة، على أنه عاش في حالة من المساواة التامة، وبالتحديد عندما «احتاج رجل واحد أي ذكر لمساعدة رجل آخر، ولاحظنا أنه من المفيد للشخص المفرد (الذكر) أن تكون له الوسائل التي يملكها الاثنان - أن المساواة قد اختفت»^(١).

في جميع أعمال «روسو» التالية يعالج الأسرة النووية على أنها مؤسسة طبيعية وحادية الزواج كالمصير الذي وهبه الله للجنس البشري «أقدم المجتمعات كلها والمجتمع الوحيد الذي يُعدّ طبيعياً هي الأسرة» - كما يقول في بداية «العقد الاجتماعي»^(٢). وهو يصف الرجل في الحالة البدائية في كتاب «اميل» يؤكد «أن الرجل حددت الطبيعة مصيره، أن يكون قانعا بأنثى واحدة! وأن «المعاشرة تؤدي إلى نوع من الرابطة الأخلاقية، نوع من الزواج» «تنتمي فيه الأنثى بالاختيار إلى الذكر الذي وهبته نفسها مع رفضها للآخرين جميعاً بصفة عامة. وروسو في رفضه التام لآراء «لوك» يستخدم هنا حجة أن الأطفال عاجزون لمدة طويلة حتى يستطيعوا أو تستطيع أمهم. «بعناء» أن تعمل بدون محبة الأب، والرعاية التي تنتج عن هذه المحبة»^(٣).

وفضلاً عن ذلك فليست بالضبط الأسرة الواحدة الزوج، بل الأسرة الأبوية هي التي سوف يفترض روسو من الآن فصاعداً وجودها طبقاً لنواميس الطبيعة. إذ ينصح «إميل» بأن «الحياة الريفية البطريركية» هي «أصل حياة الإنسان وهي الأكثر سلاماً، وهي الطبيعة أكثر، والسعيدة أكثر لأولئك الذين لم تفسد قلوبهم بعد»^(٤). ويقال لـ «صوفى» بالمقابل: «عندما يصبح إميل زوجك، فإنه يصبح سيدك. تلك هي إرادة الطبيعة أنه ينبغي عليك طاعته»^(٥). وفي بحث عن «الاقتصاد السياسي»، وفي فقرة مقابلة من مخطوطة جينيف من بحثه عن «العقد الاجتماعي». ويقدم روسو ثلاثة أسباب لضرورة سيطرة الذكر على أسرته:

(١) أصل التفاوت ص ١٥١ .

(٢) العقد الاجتماعي - الأعمال الكاملة مجلد ٢ ص ٢٥٢ .

(٣) إميل ص ٧٩٧ .

(٤) إميل ص ٨٥٩ .

(٥) إميل ص ٨٦٥ .

أولاً: لابد أن تكون هناك سلطة نهائية واحدة تحسم الموضوعات التي تختلف فيها الآراء.

ثانياً: ما دامت النساء يَكُنُّ أحياناً عاجزات وضعيفات بسبب وظائف الإنجاب فإن هذه السلطة النهائية لابد أن تكون في يد الرجل.

ثالثاً: المسألة التي يرد إليها الأمر بوضوح هو أنه لابد أن يكون للرجل سلطة على زوجته، لأن من الجوهرى بالنسبة له أن يعرف أن الأطفال الذي تنجبهم هم أطفاله ، ويتأكد من ذلك^(١). ومن ثمَّ فإن مطلب التأكيد من الأبوة يُرى على أنه المبرر الذي لا مفرَّ منه لخضوع النساء الطبيعي ومن هنا يذهب روسو:

«الواجبات النسبية للجنسين ليست متساوية، ولا يمكن أن تكون متساوية تماماً، وعندما تشكو المرأة من ظلم اللامساواة التي فرضها عليها الرجل تكون مخطئة. فهذه اللامساواة ليست قانوناً بشرياً، أو على الأقل ليست عملاً مبتسراً بل هي حكم العقل: أن يكون أحد الجنسين الذي عهدت إليه الطبيعة بالمحافظة على الأطفال فلا بد أن يكون مسئولاً عنهم لدى الجنس الآخر»^(٢).

ومرة أخرى يقول «روسو» في خطاب إلى «دالمبير» كما لو كانت كل الواجبات القاسية الصارمة للمرأة لم تكن مستمدة من حقيقة واحدة هي أن الطفل لابد له من أب^(٣). «فكيف يمكن لنفس الشريعة الأخلاقية أن تنطبق على الجنسين، عندما تكون العفة لهذا السبب أكثر جوهرية عند المرأة منها عند الرجل؟ فمن المسلم به أن الزوج غير المخلص قاس وظالم لزوجته، لكن المرأة الزانية التي تعرّض نفسها لإمكان الحمل وإنجاب طفل لا يكون لزوجها هي «بالقطع امرأة خائنة وغادرة. إنها تهدم الأسرة، وتمزق روابط الطبيعة»^(٤). وسيكون طفلها المسكين علامة على عدم إخلاصها لزوجها ، وسيكون هو اللص الذي يسرق ملكية أطفاله، فالحاجة إلى أن يعرف الرجل أن أطفاله هم من صلبه ، وأن يعتقد الآخرون أيضاً أنهم كذلك . هي السبب الأساسي الذي جعل «روسو» يفصل فصلاً تاماً الأخلاق والتربية الأخلاقية عند النساء عما وضعه للرجال.

(١) مقال عن «الاقتصاد السياسي»، الأعمال الكاملة مجلد ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ - «العقد الاجتماعي» المسودة الأولى - الأعمال الكاملة مجلد ٣ ص ٢٩٩ . وسوف تناقش هذه الحجج في الفصل السابع فيما بعد.

(٢) إميل ص ٢٩٧ .

(٣) خطاب إلى دالمبير ص ٨٥ .

(٤) إميل ص ٦٩٧ - ٦٩٨ .

من الضروري أن نقوم بشيء من الاستطراد عند هذه النقطة، وأن نعود إلى أفكار «روسو» عن الجنس ولكي نفهم فهما تماما الخصائص التي وضعها للمرأة الطبيعية. يقول في بداية وصفه لتربية «صوفى»: في كل شيء لا يعتمد على الجنس تكون المرأة مثل الرجل ؛ فهي لها نفس الأعضاء، ونفس الحاجات ، ونفس الملكات لكنه يضيف بسرعة لكن «ما أن نتحدث عن الجنس حتى يكون الرجل والمرأة مختلفين من كل جانب». ويكمل بعضهما بعضا. «ترجع صعوبة المقارنة بينهما إلى عجزنا عن اتخاذ قرار في تكوين أي منهما: ما الذي يتعلق بالجنس، وما الذي لا يتعلق به»^(١). وما يظهر على الفور هو أنه في ذهن «روسو» أن كل ما يتعلق بالمرأة هو مسألة الجنس . وهكذا يذهب في ثلاث فقرات قصيرة من عبارته التي يقول فيها :«في كل شيء لا يعتمد على الجنس تكون المرأة رجلا» . إلى النتيجة التي يقول فيها . «المرأة الكاملة والرجل الكامل لا يشبه الواحد منهما الآخر في الروح أكثر من الوجه»^(٢).

طالما أن «روسو» يذهب إلى أن نور المرأة في العملية الجنسية، بالإضافة إلى وظيفتها كأم في الأسرة البطريركية - يعكس مضامين هائلة على شخصيتها بأسرها، والطريقة التي ينبغي أن تربي عليها، فإنه من الضروري أن نرى كيف تغيرت أفكاره عن الجنس من تلك الأفكار التي عرضها في كتابه : «أصل التفاوت». لقد رأى هناك أن المعاشرة الجنسية هي نشاط غريزي يحتاج إلى الإشباع، وينخرط فيه الجنسان بحرية . وأى شكل آخر من الحب الجنسي يُنظر إليه على أنه نتاج للمجتمع. وما رآه أخيرا على أنه خصائص طبيعية للجنسين يقوم على أساس نظريته للعملية الجنسية بوصفها ليست عملية مشاركة متبادلة ، وإنما هي عملية يقوم فيها الذكر بدور المهاجم والأنثى بدور المعتدى عليها. ومن هذه النظرية المنقحة عن الجنس ، نجد أن الجنس في صورته الاجتماعية له هو ذاته صورتان متناقضتان «فروسو» يستنبط كل هذه الخصائص الأنثوية بالضرورة - كالخجل ، والحياء والاحتشام والسلبية، والمقاومة بدلال، والتي تحدد ملامح مسار التربية التي تخضع لها «صوفى».

على الرغم من أنه لم ينكر أبدا أن للنساء والرجال حاجات جنسية متماثلة، فإن «روسو» في أول نسخة معدلة من الجنسية البشرية ، انطوى كلامه على أن الذكر

(١) إميل ص ص ٦٩٢ - ٦٩٣ .

(٢) إميل ص ص ٦٩٢ - ٦٩٣ .

يستتار فقط عندما تعرض الأنثى نفسها أمامه لاسيما على نحو يسره ويرضيه، وتفريه بخجلها وحيائها ودلالها، ومقاومتها بسواء أكانت أصيلة أو مثيرة كلما تقدم نحوها. وهكذا تختفى تماما التبادلية والتلقائية التي كانت قائمة في حالة الطبيعة الأولى والتي تحدث عنها في خطابه إلى «دالمبير» حيث ذهب إلى أن الرجل لابد أن يكون هو بالضرورة المطارد طالما أن إثارته الجنسية تعتمد على الإنجاز الناجح للعملية الجنسية . وإذا لم تُغطَّ النساء رغباتهن بالخجل والحياء أو على الأقل بالمقاومة الواهنة الضعيفة. «فلن تستتار أبدا الانفعالات الطاغية التي أضفتها حرية مملّة»^(١). وبعيدا عن أن يكتب الرجل رغباته «فإن الحشمة تثيرها» ويسبب ما يبدو أنه إيمان مزبوج في الإمكانيات الطبيعية للإثارة الجنسية عند الرجل، ينتهي روسو إلى أنه حيثما لا يكون جوهريا للرجل أن يسر المرأة ، بعيدا عن ممارسة قوته، فإن المرأة من ناحية أخرى «خلقت خصيصا لإسعاد الرجل». طالما أن أفضل طريقة لإثارة الرجل هو مقاومة خطواته كلما تقدم نحوها، والخجل والحياء والحشمة هي عوامل طبيعية مصاحبة لدور المرأة في العمل الجنسي. وذلك، فيما يقول روسو «وعلى الرغم من نظرية الجنسية التلقائية والغريزية فقد افترض في «أصل التفاوت» أنه قانون الطبيعة الذي هو أقدم من الحب ذاته»^(٢). إنها نتيجة محض لمتغيرات معينة ثقافية واجتماعية.

لكن يظهر مصاحبا للطبيعة الجنسية البشرية في كتابه «اميل» نسخة مناقضة تماما، رغم أنها تحتاج كذلك إلى أن تكون المرأة محتشمة وخجولة. وطبقا لهذه النظرة الثانية، المعروضة جنبا إلى جنب مع النظرة الأولى، كما لو لم يكن بين الاثنين أى تناقض. الإمكانيات البشرية للإثارة الجنسية لا حد لها على نحو مخيف. لقد وهب الله الجنسيتين معا انفعالات طاغية لا حد لها «لكنه وهب العقل للرجل» والحشمة للمرأة لكي تكبح جماع هذه الانفعالات. ومن هنا تصبح مقاومة الأنثى جوهريّة، لا لغواية الذكر وإثارته ، بل كشكيمة تكبح بها الرغبات اللامحدودة لكلا الجنسيتين. وبدون هذا الكابح المفروض على المرأة بالضرورة، بسبب النتائج المهولة التي يؤدي إليها فعلها ، وبسبب

(١) خطاب إلى دالمبير ص ٨٤ وانظر رسائل أخلاقية في الأعمال الكاملة مجلد ٤ ص ١١١٠ .

(٢) إميل ص ٦٩٢ .

أيضا قوة الرجل التي تجعله بالطبيعة مهاجما «النتيجة ستكون في الحال تحطيم الاثنين معا، ولا بد أن ينقرض الجنس البشرى بالوسائل التي استهدفت المحافظة عليها»^(١).

هاتان الروايتان المتضاربتان عن الجنسية لهما مغزى عظيم لأنهما من حيث جنورهما ينتميان إلى مطلبين متسارعين يطلبهما روسو من المرأة فلا بد أن تكون، المرأة من ناحية مثيرة مغرية، لكن لا بد لها من ناحية أخرى أن تسيطر على هذه المشاعر وتكبح جماحها . لا بد أن تكون حسية جنسية محبوبة، كما لا بد لها من ناحية أخرى أن تكون خجولة ومحتشمة، والتوتر بين هاتين الوظيفتين «الطبيعيتين» للمرأة يؤدي في النهاية إلى مأساة عند روسو للمثل الأعلى للمرأة عند كل من «صوفي» في «أميل» التي لم تتم نهايتها ، «جولى Julie» في روايته «هلويز الجديدة».

لم يكن روسو راغبا في الاعتراف أن جوانب كثيرة من العلاقة بين الجنسين كما عرضها هي نتائج قرون طويلة من الثقافة الأبوية ومن التبعية الاجتماعية والاقتصادية على الرجال من جانب النساء وأطفالهن ، ولهذا يذهب «روسو» إلى أن نتائج جنسها من المحتم أن تكون أعظم بكثير من نتائج الذكورة عند الرجال «فالذكر لا يكون نكرا إلا في أوقات معينة. أما الأنثى فهي أنثى طوال حياتها أو على الأقل طوال شبابها»^(٢) وعلى الرغم من التسليم بأنها لا تقضى كل حياتها في رعاية أطفالها فمع ذلك «فإن ذلك هو هدفها السليم»^(٣) ومن هنا فلا بد أن تتأسس تربية المرأة على مبادئ «تجعل المرأة تسعد وتخضع للرجل» . «وأنه طبقا للطبيعة فإن على المرأة أن تطيع الرجل»^(٤). ومن الواضح أن الوضع «الطبيعي» لهذه المبادئ يعتمد على صحة مزاعم «روسو» التي تقول إن الأسرة الأبوية، والجنس أمور طبيعية. فما أن تقبل هذه المقدمات حتى يسير منها تعريف المرأة من منظور الوظيفة الجنسية والانجاب فحسب وبين مركزها في المجتمع وتربيتها تبعا لذلك. لقد كتبت «جولى» إلى حبيبها «سانت برو Saint - Preau» مختلفة في الرأي مع نموذج الكمال الوحيد الذي وضعه أفلاطون لكلا الجنسين : «الهجوم والدفاع، جرأة الرجل وجبن المرأة هذه ليست عادات عرفية

(١) إميل ص ٦٩٤ .

(٢) إميل ص ٦٩٧ .

(٣) إميل ص ٦٩٨ .

(٤) إميل ص ٦٩٣ و ص ٧٦٦ .

كما يعتقد فلاسفتك لكن القوانين الطبيعية التي يسهل شرحها، والتي يمكن أن يستنبط منها في الحال كل الاختلافات الأخلاقية الأخرى^(١). وهكذا ليس من الأحكام المبتسرة - فيما يزعم روسو - أو من العرف أن يجعل «لصوفى» تعليماً وتربية تتعارض تماماً مع تربية «اميل» وتعليمه، فهو مخصص تماماً لتشكيها في موضع جنس مثير تماماً لرجلها، بحيث تكون زوجة محتشمة مطيعة لزوجها، وأن تكرر نفسها لخدمة أطفالها. أما إميل فهو على العكس لا بد أن يربي على أن يكون رجلها الوحيد، في حين تُربي صوفى على أن تكون زوجته، طبقاً لقوانين الطبيعة.

ولقد قام روسو، بتلخيص كبير لهذه النظرة عن مكانة المرأة الطبيعية في عالم أبوى - قرب بداية الكتاب الخامس من «اميل» ويمكن أن تسوق الاقتباس التالي:

«لقد خلق الرجل والمرأة كل منهما من أجل الآخر. لكن اعتمادهما المتبادل على بعضهما البعض ليس متساوياً، فالرجال يعتمدون على النساء حسب رغباتهم. أما النساء فيعتمدن على الرجال حسب الرغبات والحاجات في أن معا. ففي استطاعتنا أن نعمل بدونهن على نحو أفضل مما يستطعن بدوننا، وحتى ينلن ما هو ضروري لوضعهن في الحياة لا بد أن نعطيها لهن، لا بد أن نريد إعطائها لهن، لا بد أن نجد أنهن جديرات بها، فهن يعتمدن على مشاعرنا، على الثمن الذي ندفعه لجدارتهن، على أساس تقديرنا لجاذبيتهن وفضائلهن. إن النساء حسب قانون الطبيعة، بالنسبة لأنفسهن كما بالنسبة لأطفالهن، تحت رحمة حكم الرجل^(٢)».

نحن أمام حالة واضحة جداً للاستخدام الانتقائي لمفهوم الطبيعة، يستخدم لتبرير مشروعية ما يخطر في ذهن المؤلف أنه خير ومفيد للجنس البشري. إنه هو نفسه منهج الاستدلال الذي بسببه هاجم روسو «جون لوك» فالطبيعة التي وضعت كأساس للقانون في جميع جوانب اعتماد المرأة على الرجل، من الواضح أنها ليست حالة الطبيعة الأصلية التي كان يندر فيها تمايز الجنسين، فيما يتعلق بأسلوب الحياة أو الأهلية للاكتفاء الذاتي، بل هي بالأحرى حالة «الطبيعة» الأبوية البطريركية، في العصر

(١) هلويز الجديدة ص ١٢٨ .

(٢) اميل ص ٧٠٢ .

الذهبي للأسر المنعزلة، بما فيها من تقسيم جنسى للعمل، وملكيته البدائية التي كان يملكها الذكر أى النقطة التي تُستخدم لتعريف المرأة الطبيعية. وفضلا عن ذلك فإن الانتقال بين المنطقتين قد اكتمل فى ذهن «روسو» بون أدنى اهتمام بالإجابة عن السؤال: لماذا وافقت النساء على مثل هذا التغيير؟ إذا صحَّ حقا أن «كل إنسان يولد حرا، مساويا لغيره، لا يتنازل عن حريته إلا لميزته الخاصة فقط» (١). وربما تساعل المرء بحق: كيف أمكن أصلا أن تظهر الأسرة الأبوية البطريركية إلى الوجود، تلك الأسرة التي تمَّ فيها التضحية بمساواة المرأة وحريتها على منبج حاجة الرجل للتأكد من أبوته لأطفاله. على حين أنه يشعر أنه لا بد من افتراض أصل تعاقدى، لو كان هذا الأصل خداعا، من أجل المجتمع المدنى الأول لكى يرفض فكرة أن «الرجال الشجعان الذين لا ينهزمون» قد اندفعوا نحو العبودية (٢). لم يجد «روسو» نفسه مضطرا أبدا للتساؤل: لماذا النساء الشجيعات واللائى لا ينهزمن لم يفعلوا قط نفس هذا الشئ غير المعقول.

والسؤال كله حول ما إذا كانت الأسرة البطريركية نتيجة للطبيعة أو للعرف هو من ثمَّ نو أهمية فى معالجة روسو لموضوع النساء (٣). ما دامت المؤلفات التي تعرض له تماما «أصل التفاوت» و«أميل» هما كتابان يستهدفان النفاذ إلى ما وراء جميع المؤسسات الثقافية والاجتماعية، ويعملان للعثور على ماذا كان عليه الجنس البشرى فى الأصل أو فى حالة الطبيعة الأولى، والحقيقة التي تقول إنه تجاهل جميع الأنواع الممكنة الأخرى من العادات الجنسية، والعادات الأخرى المتعلقة بالزواج. كل أشكال تعدد الأزواج، وتعدد الزوجات، والمشاعية القبلية، والنظام الأمومى، والمجتمع الذى يقوم على الأم أو يرجع النسب فيه إليها - وينتهى إلى أن الأسرة الأبوية البطريركية

(١) العقد الاجتماعى ص ٢٥٢ .

(٢) أصل التفاوت ص ١٦٣ .

(٣) روجر ماسترز فى كتاب «فلسفة روسو السياسية» ينتهى بعد مناقشة طويلة للموضوع إلى أنه طالما أن «كل إشارة إلى الرجل المتوحش فى حالته الأصلية يمكن أن تمتد إلى الأسرة النووية البدائية.. بون أى تعديل للنتائج الأساسية فى تحليل روسو.. حتى إذا ما كانت الأسرة طبيعية بالنسبة للجنس البشرى، فإن نتائج روسو من تصوره لحالة الطبيعة لن تتغير» (ص ١٢١). غير أنه من الواضح تماما فيما يتعلق بطبيعية الدور الأثنوي للنساء، إنها سوف تتغير تغيراً كبيراً.

النوعية هي أسرة من خلق الطبيعة، وهي صارخة أكثر من أى شىء آخر. وليس هناك اعتراف فى كتب «روسو» . المتأخرة - رغم هجومه على جون لوك لنفس الحكم المبتسر- أن هذا النوع من نظام الأسرة، مع التقسيم الجذرى للعمل بين الجنسين ، ووضع المرأة الذى تعتمد فيه على الرجل ، وتجاوز الاهتمام بالحشمة الأنثوية، له أدنى علاقة بتنظيمات جزئية معينة اجتماعية واقتصادية: كل شىء معروض على أنه من خلق الطبيعة. ومن هنا فعندما يشير روسو إلى رجل الطبيعة، وامرأة الطبيعة فإننا نجد لديه إشارتين لنقطتين متميزتين فى ذهنه. فرجل الطبيعة هو الرجل الذى كان يوجد فى حالة الطبيعة الأصلية، مستقلا تماما عن أقرانه، متجنبا الأنانية، متساويا مع كل شخص آخر، ومنغمسا فى خيراته الطبيعية يشفق من عذاب أى زميل آخر. أما امرأة الطبيعة فهو يعرفها طبقا لدورها فى العصر الذهبى - معتمدة تابعة وخاضعة ، مصبوغة بصبغة الخجل والاحتشام. وهكذا نجد أن نفس الحد الأدنى من الوظائف التى لابد أن تنتج من فسيولوجيا الأنثى تون زعم الأسرة البطريركية أنها قد امتدت إلى حد جعل روسو يقبل نماذج مختلفة من الكمال للنساء عن نماذج الكمال للرجال، وبالتالي يقبل مناهج مختلفة اختلافا جذريا لتنشئة كل جنس من الجنسين.

وعلى قدر علمى فإن «روسو» أبدى قدرا من الشك عن الوضع «الطبيعى» المطلوب لخضوع النساء مرتين فقط الأولى : فى مقاله المبكر جدا وعنوانه «حول النساء» والثانية فى خطابه إلى «دالمبير» حيث ظهر الشك لا على أنه شك المؤلف، وإنما ظهر بالأحرى فى صورة حجة إضافية لإقناع المفكر المتشكك. فى المقال المبكر كتب يقول:

«دعنا أولا نتدبر حرمان النساء من حريتهن عن طريق طغيان الرجال، سادة كل شىء، من أجل العروش، والوظائف ، والمهن، قادة الجيوش كل ما فى أيديهم قد احتكروه منذ اللحظات الأولى بواسطة الحق الطبيعى، ذلك ما لم أكن قادرا على فهمه، والذى ليس هناك أساس آخر أعظم منه قوة»(١).

(١) « عن النساء» المؤلفات الكاملة مجلد ٢ ص ١٢٥٤ .

الطبيعة البطريركية للمجتمع وتقسيم العمل طبقا للجنس يُنظر إليها بغير شك على أنها النظام الطبيعي للأشياء في عبارة الشباب هذه، ومن الواضح أن «روسو» وصل بعد ذلك إلى نتائج مختلفة أتم الاختلاف .

ففي خطابه إلى «دالمبير» قدم نفسه لأولئك الذين رفضوا حصر النساء في الأعمال المنزلية على أنه مجرد حكم مبتسر شائع، وأن الحشمة هي من صنع القوانين الاجتماعية لحماية حقوق الأزواج والآباء، والمحافظة على النظام في الأسرة^(١). وفي البداية يذهب روسو بالتفصيل ، كما سبق، إلى أن فضائل الأنثى وخصائصها ، قد أملت الطبيعة . إذن يخرج عن دائرة الاهتمام القول بأن قضيته غير مقنعة بما فيه الكفاية فهو يبحث عن ملاذ في حجة النفع الاجتماعي:

«حتى لو أننا أنكرنا أن الإحساس الخاص بالاحتشام أمر طبيعي للنساء، ألا يقل عن ذلك صدقا أن نصيبهن في المجتمع ينبغي أن يكون الحياة المنزلية، وأنه ينبغي تنشئتهن على مبادئ تناسب ذلك؟ وإذا كان الجبن، والضعف، والحشمة، والاحتشام، هي الخصال التي تناسب النساء هي ابتكارات اجتماعية، فإن من مصلحة المجتمع أن تكتسب النساء هذه الخصائص . وأن يربيهن عليها، وأي امرأة تترفع عنها وتزديريها ترتكب إثما في حق الأخلاق الطيبة^(٢).

من المستحيل أن نقول إلى أي حد كان من الضروري لروسو أن يعتبر هذه الحجة التكميلية الوقائية أن تكون، لكنها تكشف بوضوح البواعث الكامنة خلف اشتقاقه لرجل الطبيعة وامرأة الطبيعة من المراحل المختلفة لتاريخه الافتراضي للجنس البشري. فالمجتمع يتطلب الأسرة البطريركية ، في رأى روسو، وهكذا يعود القهقري إلى حيث يختار أن ينظر في أمر تعريف «المرأة الطبيعية» والنقطة الهامة الجديدة بالملاحظة هي أن هذا المنهج في الاستدلال، من منفعة المجتمع إلى حقوق الفرد والتزاماته ، يتناقض تناقضا تاما مع المنهج الفلسفي العام عند روسو . فليس ثمة سوى ظرف واحد ذهب فيه بطريقة مماثلة، وكان ذلك عندما نظر في مسألة الرق عند الإغريق^(١). وكما أن

(١) خطاب إلى دالمبير ص ٨٣ .

(٢) خطاب إلى دالمبير ص ٨٧ .

رفضه الفلسفى للرق تغلفه متطلبات الجمهورية المثالية ومواطنوها فكذلك نفس المنفعة الاجتماعية، أكثر من قوانين الطبيعة، هى التى منعت روسو من التسليم بأية نظرية عن الطبيعة البشرية وعن الحقوق الإنسانية أو استقلال الجنس. فلو كان من الضرورى أن يتأسس المجتمع على أسرة يحكمها الذكر، فلا بد أن تكون فى هذه الحالة جميع العقبات المزعجة الناتجة هى بسبب النساء. وتعلقه الثابت بالأسرة الأبوية ظهر فى فلسفته عن المرأة تتناقض مع فلسفته عن الرجل فى جميع جوانبها أو مظاهرها الهامة.

الطريقة الثانية التى سعى بها «روسو» لاكتشاف رجل الطبيعة هى محاولته فصل هذه الخصائص الفطرية فى الفرد عن تلك الخصائص المكتسبة فى مسار التربية والتعليم فها هنا يختلف استدلاله مرة أخرى حول النساء اختلافا جذريا عن استدلاله عن الرجال.

فى مؤلفاته ابتداء من «أصل التفاوت» فصاعدا ، فى استطاعتنا أن نجد العديد من الأمثلة عن إيمان «روسو» القوي فى قدرة البيئة على تغيير الخصائص والملكات البشرية . أن نسبة الأسباب الفزيائية لما يرجع فى الواقع لأسباب أخلاقية ، يقول فى «أميل» ضرب من إساءة استخدام عصرنا للفلسفة (٢) ويشرح هذه النقطة فى «أصل التفاوت» بتفصيل أكثر يقول:

الواقع أنه من السهل أن نرى بين الفروق التى تميز الرجال، بعضهم يرد إلى الطبيعة ما هو من عمل العادة على نحو فريد، وكذلك الأنواع المختلفة من حياة البشر التى تبناها المجتمع. وهكذا فإن المزاج الرقيق والعنيف وما يعتمدان عليه من قوة وضعف، كثيرا ما يتولدان عن الطريقة الجافة الخشنة، أو الأنثوية الناعمة التى يتربى عليها المرء أكثر من تولدها عن التكوين البدائى للأجسام . ويصدق الشئ نفسه على قوة الذهن، فالتربية لا تقيم فروقا فحسب بين الأذهان المثقفة وغير المثقفة ، وإنما تزيد

(١) العقد الاجتماعى ، ص ٤٢١، وانظر فيما بعد الفصل السابع لمناقشة أبعد لهذا الموضوع.

(٢) اميل ص ٤٩٥ .

الاختلاف بين الأذهان الأولى بنسبة ثقافتهم (١).

ومن هنا فإننا نخطئ خطأ جسيماً لو أخذنا الرجل المتحضر كمثال للخصائص الحقيقية للنوع: «لأنه عندما يصبح اجتماعياً أو عبداً فإنه يصبح ضعيفاً خائفاً، ذليلاً، وطريقته الناعمة في الحياة تكمل الوهن والضعف لكل من قوته وشجاعته» (٢). فالأطفال المتحضرين على سبيل المثال هم أضعف ويبلغون الكفاية الذاتية متأخرين عن نظرائهم البدائيين المطلوب منهم الدفاع عن أنفسهم في أسرع وقت ممكن (٣). ومن ناحية أخرى فإن البلوغ والنضج الجنسي تصل إليها الأقوام المتحضرة والمتعلمة في فترة مبكرة عن الأقوام البدائية، ما دامت العوامل الثقافية التي تمس الفرد مساوية وثيقة في الحالات السابقة تثير تطوره المبكر النضج (٤). ويمكن أن نرى البيئة وهي تتغلب على الطبع أو المزاج في حالات لا حصر لها فيما يرى روسو.

وربما كان المثل الصارخ لإيمان «روسو» بقوة العوامل البيئية وأثرها في حجة **ضد الرق**. فهو يؤكد أن الرق كان وضعاً طبيعياً لبعض الناس، فإنه يذهب إلى أن «أرسطو» أخطأ في فهم آثار الرق على القضية. «فإذا كان هناك رقيق بالطبيعة، فإن السبب أنه كان هناك رق ضد الطبيعة. فالقوة هي التي أنتجت أول العبيد، وجبنهم هو الذي جعل هذا الوضع يدوم» (٥). إن البيئة التي يتربى فيها المرء لاسيما إذا كانت بيئة تتمايز وتختلف عن البيئات من حوله، هي ملزمة بتطوير بعض خصائصه الفطرية، على حساب قمع بل وتشويه بعضها الآخر. وهكذا فإن المرء يقينا لا يستطيع أن يخبر في الناس المستعبدين، الذين يعتبرهم العالم المتحضر كذلك بدرجة كبيرة أو صغيرة، ما هي الإمكانيات الطبيعية للإنسان، فنحن لا نعرف سوى نقطة البداية، في ضعف الطفولة وجهلها، إننا لا نستطيع أن نعرف جميع الغايات الممكنة التي يمكن أن يحققها الإنسان. ولقد جعل روسو هذه الفكرة واضحة جداً في فترة مبكرة في «اميل» لست أعرف حتى الآن فيلسوفاً كان متهوراً لدرجة أن يقول: ها هنا الحد الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان، لكنه لا يستطيع أن يذهب أبعد منه. إننا لا نعرف ما الذي يمكن أن تسمح لنا طبيعتنا بأن نكونه، فلا أحد منا قد قاس المسافة الممكنة بين

(١) أصل التفاوت ص ١٢٨ .

(٢) أصل التفاوت ص ١١١ .

(٣) أصل التفاوت ص ٢١٨ (ملاحظات روسو) .

(٤) اميل ص ٤٩٥ .

(٥) العقد الاجتماعي ص ٢٥٢ .

الإنسان وغيره من البشر» (١) . وعلى ذلك ليس لنا بديل عن الاعتراف بأن حدود إمكانيات الإنسان مجهولة.

لم يكن الهدف من «إميل» وضع منهج تربوي بأى معنى وضعى أو عملى، وإنما هو بالأحرى يشكل نقدا جنريا للحضارة المعاصرة وأساليب التنشئة الاجتماعية وما فعلته بإنسان الطبيعة. فإميل سيصبح إنسان الطبيعة، لا بمعنى أن يربى على التوحش، بل بمعنى أن يربى بطريقة متحررة من الأحكام المبتسرة، والآراء التى انتشرت فى أى زمان معين ومكان محدد. «والمنهج المتبع» «لا شيء سوى مسار الطبيعة» (٢) . وفى بداية كتابه يوجه «روسو» لقوة التربية العظيمة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة: الناس تشكلهم التربية، كما تشكل التربة النباتات فنحن نولد ضعافا ونحتاج إلى القوة، نولد ينقصنا كل شيء، نحتاج إلى عون . نولد حمقى، ونحتاج إلى الحكم السديد. كل شيء لم يكن لدينا عند الميلاد ونحتاج إليه عندما نصل إلى سن الرشد تقدمه لنا التربية (٣) . على افتراض المسئولية التامة عن الطفل والسلطة عليه، فإن مهمة المعلم عزله عن أحكام العالم من حوله المشوهة والمضللة، يستخدم ميوله الطبيعية، لاسيما حب استطلاعهم لتنمى فيه قوى الحكم المستقل.

أحد المبادئ الأساسية فى تربية «إميل» إذن أن الطفل ينبغى أن لا يقال له أبدا أشياء عن السلطة، بل على العكس علينا أن نساعد فى إبعادها عنه. ذلك لأن العقل ليس لديه القوة والخاصية الإنسانية الطبيعية التى يمكن أن تنبثق راجعة إلى الوراء بعد كبتها بل إمكانية رقيقة تغذى لو أريد لها أن تزدهر. «والإنسان بطبيعته لا يفكر إلا قليلا. فالتفكير فن عليه أن يتعلمه مثل بقية الفنون الأخرى، وحتى فى هذه الحالة فهو يتعلمه بعناء كبير. وأنا لا أعلم فى كلا الجنسين سوى فئتين متميزتين حقا: الناس الذين يفكرون ، والناس الذين لا يفكرون ، والفرق يرجع فى الأعم الأغلب إلى التربية» (٤). وعن طريق توجيه انتباه الطفل بعيدا عن الأحكام المبتسرة الشائعة والاهتمامات القافية سيكون المعلم قادرا على تطوير قواه العقلية ومنعه من أن يعتمد على آراء الآخرين . «إذ لو أنك استبدلت سلطة العقل فى ذهنه، فلن يستخدم عقله بعد

(١) إميل ص ٢٨١ .

(٢) إميل ص ٢٤٢ (التصدير) .

(٣) إميل ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٤) إميل ص ٧٦٧ .

ذلك، بل سيصبح ببساطة العوبة لآراء الآخرين»^(١) وعزلة إميل بعناية، والتكريس لكل جانب من جوانب تربيته يستهدف قبل كل شيء تطوير استقلاله في الحكم، وتنمية ملكاته العقلية.

وتشديد «روسو» على أهمية التربية هو أيضا ظاهر بوضوح في نصيحته للحكام، الذين يلقى عليهم مسئولية كبيرة في تحديد شخصية الشعب الذي يحكمونه. «ومن ثم اصنعوا الرجال إذا أردتم قيادتهم» هكذا ينصح الذين يريدون المحافظة على الجمهورية، والطريق الوحيد لصناعة المواطنين هو تربيتهم وهم أطفال . «إذ سيكون متأخرا جدا تغيير ميولنا الطبيعية عندما تنمو بداخلها، وعندما تتدعم الأناية عن طريق العادة»^(٢). والمجتمع الذي يوجه التنشئة الاجتماعية يصممه روسو للأطفال المهذبين المصقولين، وهي ستكون فعالة إذا ما طبعنا في نفوسهم الفضائل وطرق التفكير، حتى أنهم بعد هذه التربية - نادرا ما تكون هناك ضرورة للقوانين الصارمة لنجعلهم يفعلون ما هو في صالح بلادهم ككل^(٣).

لم يكن لدى روسو سوى شعور ضئيل، بل احتقار للرجال في عصره، لكن لم تكن ملكاتهم الفطرية هي التي ينكرها عليهم، بل إنه بالأحرى نظر إلى التربية التي يقدمونها، والبيئة التي يعيشون فيها، على أنها مصدر فشلهم. ولقد عزا «روسو» نقص الرجولة في الرجال بصفة خاصة، ونقص الإبداع عندهم إلى النساء - الذي يرجعه لسيطرتهن الجنسية على الرجال - اللاتي يوجهن البيئة التي يعشن فيها. كيف يمكن للرجال المعاصرين أن ينجزوا أعمالا عظيمة ونبيلة كما فعل القدماء إذا كانوا منخرطين بهذا الشكل في أعمال تافهة لتسلية النساء؟! لقد كان الأثر المعنوي للنساء هو الذي جعل الرجال شبابا أنيقا مخنثا، محروما من التدريبات الرياضية، والإثارة الذهنية، عاجزين عن دعم أنفسهم ضد المجال الملائم لأشخاصهم. فهم يقضون معظم أوقاتهم في مجتمع نسائي، حتى بدا الرجال من حول روسو، وكأنهم سينقلبون إلى سلالة كلاب صغيرة. يقول : «وإذا ما أعطيت لهم هذه العادات الصبيانية، فإلى أي عمل عظيم يمكن أن ترتفع بأنفسنا..؟ مواهبنا وكتاباتها تتلون بلون أعمالنا الطائشة، وهو

(١) إميل ص ٤٣٠ .

(٢) «مقال عن الاقتصاد السياسي» ص ٢٥١ وص ٢٦٠ .

(٣) «تأملات حول حكومة بولندا» الأعمال الكاملة مجلد ٣ ص ٩٦٥ - ٩٦٦ والفصل الرابع في أماكن متفرقة.

يتحسر «الرجال في عصرى تحولوا إلى كلاب صيد» وتربيتهم هي التي جعلتهم كذلك^(١).

وهكذا، ويون أن يذهب بعيداً كما فعل هلفتيوس «التربية قادرة على كل شيء» ، يعتقد روسو أن التربية بالمعنى الواسع للكلمة مسئولة عن معظم خصائص الذكر الناضج، وعن الاختلاف بين الشعوب في العصور والأماكن المختلفة. وخصائص التيار المنتشر ومواهب النساء بالنظر إلى المقابل الطبيعي، انحدر ليطبق نظرياته بنفس الطريقة. ولا شك أن الفقرة التي اقتبسناها فيما سبق^(٢) لا تتسق مع ما قاله عن مواهب النساء. فكما أنه رفض البحث في الماضي البعيد، في الزمن البدائي عن امرأة الطبيعة، فكذلك فعل بالنسبة لرجل الطبيعة، فهو لم يعترف للفتيات بنفس الدرجة كالأولاد، لأن سلوكهن وملكاتهن ومنجزاتهن، هي وظيفة للبيئة التي نشأن فيها تماماً.

خصائص الأنثى: ويتدبر «روسو» بالتفصيل «قائمة الخصائص الأنثوية» ليرى أنها فطرية في النساء بما لا يقبل الشك، فالخجل، والاحتشام، وحب الملابس والحلى والبهرجة، والتزين، والرغبة في أن تحب، والشراسة الماهرة التي تميل نحو النفاق - جميع هذه الخصال يعرضها «روسو» على «أنها فطرية وغريزية في جنس النساء»^(٣).

أما بالنسبة للكيف الذي يجعل المرأة تخضع للظلم والجور والأخطار التي ترتكب ضدها «فهي بدورها تعود إلى اللطف الطبيعي لجنسها عندما لا يفسد». أما الأولاد فلم يتعودوا قط على مثل هذه المعاملة فمشاعرهم الداخلية تنور وتتمرد ضد الظلم «فلم تخلقهم الطبيعة ليكونوا قادرين على تحمله أو الصبر عليه»^(٤). ولم يكن «روسو» قادراً على إدراك الصلة الوثيقة بين الاعتراض الذي قدمه ضد نظرية أرسطو عن الرق الطبيعي وبين نظريته التي تقول إن العبودية أمر طبيعي في جميع النساء. وهو يصر على هذا الانقياد الأعمى على الرغم من الحقيقة التي تقول إن روسو يجعل واضحاً جداً في فقرات كثيرة أن النساء ما لم يملكن جميع هذه الخصائص التي يراها فطرية أو طبيعية في جنس الأنثى ، فإنها لن تصيب نجاحاً أو ربما لن تبقى، مع أنها لا بد أن تعيش في ثقافة - يسيطر عليها الذكر . والواقع أن «روسو» يذهب أحياناً بطريقة غائبة إلى أن خصائص مثل النفاق، وتحمل الظلم هي خصال فطرية في المرأة بسبب وضعها

(١) خطاب إلى دالمبير ص ١٠٣ وص ١١٢ .

(٢) انظر الصفحات السابقة.

(٣) إميل ص ٧٠٣ - ٧٠٧ ، وص ٧١٩ وص ٧٢٣ - ٧٢٤ .

(٤) إميل ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

الثانوى فى الحياة فكانت الخصال تستهدف ذلك على نحو طبيعى. فما دامت المرأة فى الحب، مثلا، لها نفس الرغبات التى للرجل، لكن ليس لها نفس الحق فى التعبير عنها، فلا بد أن تكون مزودة بلغة بديلة هى لغة الخداع حتى تجعل مشاعرها تظهر وتُعرف بطريقة غير مباشرة. وبالمثل ما دامت «المرأة مخلوقة لتخضع للرجل، بل حتى ولتتحمل ظلمه وتصبر على جوره فإنه من المفيد لها أن يكون لها أهلية فطرية للأنس واللفظ لكى تتحمل هذه المعاملة»^(١).

وفى تناقض مباشر مع تأكيده على الطبيعة وأسلوب الحياة، وكى يفسر لماذا الرجال فى عصره، والشباب الصغير ساروا فى الطريق الذى يسرون فيه - مال روسو لقبول الكثير من خلق النساء المعاصرات والفتيات الصغيرات على أنه حقيقة ثابتة لا تتغير. وهكذا نجد أنه على الرغم من اعترافه بأن المرأة فى اسبرطة كانت قوية وسليمة من الناحية الصحية بسبب التربية الفيزيائية التى تخضع لها، ونتيجة لذلك فإن جسم المرأة لا بد أن يكون مختلفا تماما عن جسم السيدة الفرنسية فى القرن الثامن عشر - فإنه تجاهل هذه الإمكانية عندما ذهب إلى أن المرأة عاجزة عن الانخراط فى عمل خارج الأعمال المنزلية. وبدلا من ذلك نراه يرسم صورة غير معقولة لامرأة «لم تخضع قط للمشى، ويندر أن تعرف كيف تمشى بعد خمسين سنة من التراخى والكسل»^(٢) محاولة أن تشكل نفسها بين يوم وليلة وتتحول من أم مرضعة إلى جندي.

وبنفس الطريقة، فإن تنوق الجنسين للعب والتسلية يُعامل على أنه فطرى وليس مشروطاً بالظروف أو البيئة المحيطة «الأولاد يبحثون عن الحركة والضجيج» بينما «الدمية هى لعبة الفتاة المفضلة. فها هنا نراها تتحدد بوضوح عن طريق غرضها فى الحياة». «تقريبا منذ أن تولد الفتاة وهى تحب الزينة. وما أن تفهم ما يقوله الناس، حتى يحكمها ما يريد الناس وما يفكرون فيه. لكن إذا ما حاول أى إنسان يحمل قدرا من الغباء أن يمارس هذه الأساليب فى السيطرة على صبي صغير، فسوف يفشل فشلا ذريعا. فبالإضافة إلى أن الطفل يولد حرا مستمتعا بذاته فإنه لا يكثر كثيرا بما يقوله الآخرون عنه»^(٣). ويبدو من الصعب جدا أن يتسق هذا التمييز بين الجنسين مع واقعة أن قدرا كبيرا من الرعاية مخصص لعزلة «إميل» من التأثر بالأراء،

(١) إميل ص ص ٧٢٤ - ٧٢٥ و ٧٥٠ .

(٢) إميل ص ٦٩٩ .

(٣) إميل ص ص ٧٠٣ - ٧٠٤ .

وفضلا عن ذلك فهو لا يبرهن على شيء إطلاقا فيما يتعلق بالخصائص الفطرية للأولاد والبنات، وإنما يستشهد فحسب بأن البنات الصغيرات يدركن مبكرا جدا أنهن عندما يكن جميلات سوف يلفتن الأنظار. فذلك لا يؤدي إلى أية نتائج حول كيفية سلوكهن إذا ما عوملن نفس المعاملة، وكان لهن نفس الحرية، وفرصة الاستمتاع بأنفسهن مثل الأولاد. إن الأساس المزوج لنتائج «روسو» عن الاختلاف الفطري بين الجنسين توضحه واقعة أنه عندما يدعو القارئ لملاحظة ولد وبنت «ولدا للتو» ليرى الاختلاف في تعاملهما في موقف ما، فإن هذه الأمثلة تتحول ليصبح عمرها لا يقل عن ست سنوات^(١). ومن الواضح أن تأثيرات البيئة حتى سن ست سنوات، يُنظر إليها في هذا السياق، وإن لم يكن في سياقات أخرى، على أنها تافهة .

ويعالج «روسو» القدرات العقلية بمثل هذا المنظور فهو يؤكد على أهمية التربية والبيئة، لكنه لا يطبق ذلك على النساء، رغم تأكيد المنعزل أن القدرة على التفكير عند الجنسين هي تقريبا نتيجة للتربية. وفي حاشية على نفس الفقرة التي نُسب فيها نقص الإنجاز العقلي عند الرجال المعاصرين إلى أسلوب حياتهم، فلا يشغل ذهنهم سوى توافه الأمور - يقول على نحو قاطع: «إن النساء، بصفة عامة، لا يحبن أي فن، ولا يعرفن شيئا عن أي فن، ولا يملكن أية عبقرية^(٢). وهُنَّ يستطعن النجاح في أعمال قليلة - لا تتطلب سوى لمحة سريعة، ونوق، وأحيانا شذرات قليلة من الفلسفة والاستدلال». (من خطابه إلى دالمبير) لكن ليس لديهن على الإطلاق «شعلة العبقرية السماوية» وحتى إذا كان لا زال من الممكن تطبيق نظرية البيئة على نساء عصره غير المتعلمات، فإن «روسو» لا يستطيع أن يرى سوى النقص في الإنتاج أو الإنجاز على أنه حقيقة ثابتة.

غير أن «روسو» لم يؤكد في البداية أن المرأة أدنى من الرجل في القدرة العقلية، ثم يستنتج نتائج من هذه المقدمة عن وظيفتها المناسبة ومركزها في المجتمع. بل كان منهجه، على العكس، يبدأ من الزعم بأن نور المرأة هو أن تكون موضوعا جنسيا للرجل مرغوبا فيه ومُخلصا له، أن تكون زوجته وأم أولاده . ثم يستنتج بعد ذلك نتائج عن كيف ينبغي أن تكون قدراتها العقلية لتناسب وظيفتها الخاصة. ومن المحتمل جدا فيما

(١) إميل ص ٧١١ .

(٢) خطاب إلى دالمبير ص ١٠٣ .

يبدو، لأسباب عدة، أن روسو لم يكن مقتنعا تماما أن النساء هن بالضرورة وبالفطرة أدنى عقليا من الرجال.

أولا: من المهم أن نلاحظ أن روسو في مقالاته الأولى المبكرة عن النساء عبّر عن أفكار عن قدرات المرأة تختلف أتم الاختلاف عن تلك الأفكار التي عرضها فيما بعد. فقد ذهب إلى أن التاريخ لو لم يكتب بمثل هذا التحيز للذكور لما كان هناك مثل هذا التفوق في عدد الأبطال عن عدد البطلات كما يروى في كل صفحة من صفحاته، وكان التوازن بينهما أمرا محتملا. فعلى الرغم من أن عدد الرجال ، في ظل الظروف السائدة، الممتازين سيظل متفوقا «فسوف نرى في الجنس الآخر نماذج للفضيلة المدنية والأخلاقية، كاملة من كل وجه» (١) وفضلا عن ذلك فإنّ التفرقة التي تظل باقية يمكن تفسيرها من منظور أن الفرص التي تعرض على المرأة أقل من المتاحة للرجل. وذلك يبرهن على شجاعتهم وبطولتهم في مناصب القيادة. أما أولئك الذين كان لهم شرف الوصول إلى تلك المناصب فإنهم يتميزون بطريقة رائعة . وهكذا ينتهي روسو إلى أن يقول : «أنا أكرر أن المرأة إذا سمحت ظروفها ، سوف تُبدى نماذج عالية من عظمة الروح، وحب الفضيلة، وبأعداد غفيرة أكثر مما فعل الرجال . إذا لم يذهب ظلمنا بحريتهم كل الفرص التي يمكن أن يظهرن فيها في أعين العالم» (٢). وهو يشير بالإضافة إلى ذلك إلى وجود عدد من الكتاب النساء الموهوبات ليبرهن على أنه من إعطاء النساء فرصا أعظم تظهر إمكانياتهن العقلية الحقيقية. ففي هذه المرحلة، إنن ، من فكر روسو كان من الواضح أن نقص الفرصة هو الذي يفسر الاختلاف والتفاوت بين إنجازات الرجال وإنجازات النساء طوال التاريخ.

ثانيا: على خلاف لوك (٣) لم يذكر «روسو» الملكات الدنيا للنساء ليبرر سيطرة الرجل المطلقة على الأسرة، لكنه بدلا من ذلك يؤكد أنه لا بد أن يكون هناك مصدر واحد للسلطة ، وأن النساء أحيانا ينفرن من وظيفة الإنجاب، وينتهي من ذلك إلى أن الرجل ينبغي أن يسيطر لأنه «عندما يكون التوازن تاما، فإن قشة ضئيلة كفيلا بأن تقلب الميزان» (٤). وسيكون غريبا أن ننظر إلى الميزان على أنه معقول على هذا النحو، يقينا لو أنه اعتقد أن النساء كن دائما أدنى من ناحية العقل، فطريا، من الرجال.

(١) مقال حول النساء ص ٧٢ .

(٢) مقال حول النساء ص ٧٣ .

(٣) جون لوك «الدراسة الثانية من الحكومة المدنية» الفصل السابع، ٨٢ .

(٤) مقال عن الاقتصاد السياسي ص ٢٤٢ .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة فإن «روسو» سواء في «إميل» أو خطابه إلى «دالمبير» متفقاً مع تراث طويل في الماضي على الأقل حتى أرسطو، ولا يزال حياً^(١)، يرى أن لدى النساء ضرباً من الاختلاف العقلي عن الرجال وأدنى منهم، ونقص القدرة على الاستدلال العقلي والإبداع «العقل الموجود عند المرأة هو العقل العملي، الذي يمكنهن بسهولة من اكتشاف كيف يصلن إلى نتيجة معينة، لكنه لا يمكنهن من الوصول إلى النتائج نفسها^(٢). فليس في استطاعة النساء أن يكتشفن المبادئ كما يستطيع الرجال، لكنهن بالأحرى يجمعن التفاصيل. لكن كما سيتضح من الفقرة المقتبسة القادمة، فإن مفارقة الفكر عند روسو عن قدرات النساء يمكن تفسيرها جزئياً من ناحية بواقعة أنه كان أقل اهتماماً بما يستطعن إنجازه أكثر مما ينبغي عليهن إنجازه. «البحث عن الحقائق النظرية والمجردة، ومن المبادئ، والبديهيات في العلم، كل شيء ينطوي على تعميم للأفكار ليس داخل نطاق المرأة. فدراستها ينبغي أن تهتم بالأمور العملية. فمهمتهن تطبيق المبادئ التي يكتشفها الرجل. ويترك لهن أن يعملن الملاحظات التي تؤدي بالرجل إلى اكتشاف هذه المبادئ^(٣)».

وهنا مرة أخرى عندما يقال لنا «إن فن التفكير غريب عن المرأة، لكن ينبغي عليهن فحسب أن يتصفحن ظاهر علم الاستدلال»^(٤)، فعلياً أن نكون على يقين من أن إمكانات المرأة، في الجانب الرئيسي من مؤلفات روسو هي في الواقع غير مناسبة للموضوع. وما هو أكثر أهمية أنه ينبغي عليها، من حيث الجسد والروح معاً، ما يريد لها الرجل أن تكون: مساعدته في العمل بقدر ما تكون محظيته. وإنه لمن المؤكد أنها لن تستفيد شيئاً إن هي حاولت أن تكون شيئاً آخر. فـ «جولي» تكتب إلى حبيبها «سان - برو» وهي بالقطع تعبر عن رأي روسو حين تردد هذه الوظيفة بدلاً من أن تحصى

(١) ويظهر مثل حديث صارخ لهذا في عبارة جين موريس الكاتبة التي عانت حديثاً من تغيير الجنس «لقد كنت أخشى أن يكون تغيير الجنس معناه أن أفقد موهبتي في الكتابة» وتقول «يبدو أن ذلك لم يمس.. فلم أشعر أن أغير كتاب، يهتم أكثر بالتفصيلات وبالناس أكثر من اهتمامه بالاندفاع القوي مع الأشياء. فاعتقدت أنني فقدت شيئاً من عجرة الذكر» (مجلة نيوزويك عام ١٩٧٤). فحتى الشخص الذي كان عضواً في الجنسين لديه انطباع بأن قدرتهما الذهنية مختلفة! حتى أن أي شخص يعتقد أنه - أو أنها - أجرت جراحة في المخ.

(٢) إميل ص ٧٢٠ .

(٣) إميل ص ٧٣٦ (التشديد من عندي).

(٤) إميل ص ٧٩١ .

خصائص النساء من الناحية الوصفية ويرفض بشدة حجة أفلاطون ما دامت الاختلافات بين الرجل والمرأة تصل إلى حدها الأدنى فلا بد لهن من تربية مختلفة. لكن «جولى» ترى أنه من الواضح أن «غرض الطبيعة» و«مقاصد الخالق» أن لا يكون الجنسان متشابهين . فطالما أن غرض الطبيعة والخالق يستهدف جعل المرأة زوجة، ومربية للأطفال، ومشرفة على الأعمال المنزلية، كما يستهدف تخصيص الرجال للعمل والسعى على الرزق فى العالم الخارجى . «فهذه المحاكاة العابثة من جنس لجنس آخر هى قمة حماقة التى تجعل الرجل الحكيم يسخر منها كما أنها تطرد الحب. إنَّ الرجل الكامل والمرأة الكاملة ينبغى أن لا يشبه كل منهما الآخر فى الروح أكثر من الوجه»^(١).

من الواضح أن «روسو» لم يهتم، فى نضجه، باكتشاف أن الإمكانيات الطبيعية للمرأة قد تمكنها من الإنجاز، وإنما اهتم ببساطة الى توجيهها إلى نورها كمساعد ومعين للرجل ومكمل له فى الأسرة الأبوية البطريركية ، ولم يتجاوز «روسو» هذه النظرة الضيقة لإمكانيات المرأة. ولقد أكد «روسو» عدة مرات أن عقل الفتيات الصغيرات مبكر النضج عن عقل الأولاد الصغار، والتفسير الذى يقدمه لذلك هو تفسير وظيفى خالص، فهن جميعا عليهن أن يصن الجوهرة الثمينة للبكارة، حتى أن الفتاة يُعهد بها إلى وصى أو حارس. وكما توضح «جولى» ذلك بقولها: «إذا كان العقل فى العادة أكثر ضعفا ووهنا عند النساء فهو يتشكل كذلك، وينضج عندهن مبكرا على نحو ما تنمو زناجيل عبّاد الشمس وتموت قبل ثمار البلوط. إننا نجد أنفسنا منذ لحظة البداية يعهد إلينا بهذا الكنز الخطير الذى يضعف حكما العناية بالمحافظة عليه»^(٢). وما أن يتطور عقل المرأة على نحو كاف بحيث تستطيع أن تعرف كيف تحافظ على بكارتها وتحقق من ضرورتها وأنه من الجوهري بالنسبة لها أن تفعل ذلك، مهما كلفها، حتى يكون فى استطاعتنا أن نستنتج أنها ستكون ساكنة إلا بمقدار ما يُطلب منها أن تكون زوجة فاضلة وأما جيدة . ومن ناحية أخرى عندما يطرح السؤال: «أيمكن للنساء أن يكون لهن عقل جاف؟ سوف تتبعه فى الحال الإجابة: «إنَّ من الجوهري بالنسبة لهن تهذيبه. أ تكون هذه الثقافة للوظائف المفروضة على النساء، أهى تتعارض مع البساطة التى تناسبهن؟»^(٣). وإذا كانت النساء قادرات على العقل، فمن

(١) هلويز الجديدة ص ١٢٨ .

(٢) هلويز الجديدة ص ٥٥ .

(٣) اميل ص ٧٣٠ .

الواضح أنه ينبغي تدريبهن للاستدلال فحسب لو كان يساعدهن في إنجاز وظائفهن المناسبة على نحو أفضل ولا يجعلهن أقل إسعاداً للرجال.

ولقد رأى روسو الخصائص المناسبة للجنسين في المجالين الأخلاقي والعقلي على أنها يكمل بعضها بعضاً بالضرورة ، فهي منفردة ناقصة، وغير كاملة، وهما معا يشكلان كلا واحداً في موجود متناغم، فمن حيث العقل «النساء لديهن الدهاء والفتنة أكثر في حين أن الرجال أكثر عبقرية. فالمرأة تلاحظ بينما الرجل يستدل، وينتج من هذا التعاون الاستنارة ، ومعرفة تامة أكثر مما يستطيع العقل البشرى أن ينجزه»^(١) . وليس ذلك أقل صدقاً في ميدان الأخلاق «فالعلاقة الاجتماعية بين الجنسين هي شيء رائع . وينتج عن هذا الارتباط شخص أخلاقي تكون فيه المرأة هي العين والرجل هو الذراع، لكن في مثل هذا الاعتماد من أحدهما على الآخر، الرجل يعلم المرأة ما ينبغي عليها أن تراه، وتعلم المرأة الرجل ما ينبغي عليه أن يعمل»^(٢) وبالمثل في الزواج المفترض بين «جولى» و«بولبير» تقول جولى إنه ليس للثنتين سوى عقل واحد، وفيه «يكون هو الفهم وأكون أنا الإرادة»^(٣). فجولى تشعر ، وتثير، وتلهم الناس في حين أن «بولبير» ، يستدل ويتخذ القرارات . وكما أشارت «جوديت شكار» فإنه على حين أن «روسو» يتحاشى استخدام تراث العصور الوسطى مجاز «الجسد السياسى» في المجال السياسى، فإنه يطبقه بصورة معدلة قليلاً في مجال الأسرة، ليصف التكامل الطبيعى بين الجنسين أثناء الزواج^(٤): فإذا لم يكن الرجل والمرأة متكاملين بالطبيعة فإن مؤسسة الزواج، فيما يقول روسو ، ستكون في خطر، ومعها الأساس الذى يقوم عليه الاستقرار الاجتماعى. لأنه إذا كان الرجل والمرأة مزودين بمواهب تامة وكاملة لكل منهما بدلاً من الاعتماد المتبادل بينهما «فإنهما سيعيشان فى شقاق ونزاع لاينتهيان ، وسوف تكون العلاقات بينهما مستحيلة»^(٥).

ومن ثم فإن السبب الذى جعل «روسو» يرفض تطبيق معتقداته عن الأثر الهائل لعوامل البيئة، على النساء كما فعل فى الرجال، وينتهى إلى أن إمكاناتهن لم تكتشف كذلك، هو إقناعه القوى بفضائل الأسرة البطريركية، فهو الذى جعله ينفر من اعتبار النساء شخصيات مستقلة أو يَكُنْ شخصيات فى أى سياق آخر غير الأسرة . ويؤكد روسو أن الحجج عن المساواة أو اللامساواة بين الجنسين، ليست ببساطة سوى مناقشات عابثة،

(١) إميل ص ٧٢٧ .

(٢) إميل ص ٧٢٠ .

(٣) هلويز الجديدة ص ٢٧٤ .

(٤) «الرجل والمواطن» ص ١٩٩ .

لاسيما إذا ما أدرك المرء ما الذى ينبغى أن تكون عليه المرأة لكي تحقق وظيفتها الطبيعية والجنسية ووظيفة الأم^(١).

وعلى حين أن روسو يشترط نظامين متميزين ومختلفين جدا للأولاد، يعتمدان على ما إذا كان القصد جعلهم مواطنين أو رجالا مستقلين طبيعيين، فإنه لم يضع سوى نوع واحد فقط من التربية يتناسب مع النساء وهو نظام، كما سوف نرى ، لا يناسب المرأة كمواطنة، بالمعنى الذى يستخدم فيه روسو هذه الكلمة، فإنه بالقطع لا يناسبها كشخص مستقل. وما يسمى بتربية المرأة الطبيعية هو تدريبها على الاحتشام والبساطة والانصياع والأعمال المنزلية، والخضوع التام للرأى السائد، وتربية «صوفى» ، هى فشل تام على نحو ما يظهر لنا، وتلك هى النتيجة المنطقية للدور الضيق الذى اعتقد روسو أنه الدور الوحيد المشروع للمرأة.

وكما سبق أن قلنا، فإن كتاب «اميل» هو نقد، ليس بالضبط للتطبيق العملى للتربية المعاصرة، بل لكل ما أنتجته الحضارة «لرجل الطبيعة» .«كل شىء خير إذا ما ترك بين يدي خالقه ، لكنه ينحط إذا ما ترك للإنسان .. فهو يجذم كلبه، وحصانه وعبده.. وهو لا يريد أن يترك شيئا على نحو ما صنعته الطبيعة، ولا حتى الإنسان. فهو يروضه كما يروض الحصان بحيث يجعله متفقا مع نوقه كالشجرة فى حديقته»^(٢) أما إميل فهو استثناء، إنه طفل ذكر سليم الصحة، ينبغى أن يُربى على أساس أن يكون متحررا من الأحكام المبتسرة المنتشرة فى العالم من حوله - ذلك العالم الذى لا بد أن يجرده من خيريته وأمانته الطبيعية ليشكله فى أنواق وحاجات الحضارة الفاسدة . إن الطريق الوحيد لاكتشاف القوى الكامنة فى الإنسان ، هى النظر فى أصوله ، وطفولته، وتشجيعه لتطوير جميع إمكاناته الطبيعية على نحو ما تتجلى هى ذاتها. هكذا كان تعريف روسو لرجل الطبيعة هو تعريف ممتد لا ينتهى، فهو لا بد أن يتحرر ليصبح على نحو ما يستطيع، وما يريد أن يكون.

أما المرأة فهى بالمقابل تعرفُ تعريفا غائيا تماما، من منظور ما يرى أنه غرضها فى الحياة، ومن ثم كان تعليمها يمليه عليها تماما وظيفتها والخصائص التى تعتبر

(١) إميل ص ٦٩٢ - ٦٩٨ لا سيما ص ٦٩٢ .

(٢) إميل ص ٢٤٥ .

جوهرية فى حياتها، إذا أريد لها أن تحققها على نحو مناسب . وطالما أنه يذهب إلى أن الأسرة جوهرية للمجتمع، ويزعم أن مركز المرأة الثانوى يمليه ضرورة أن الأبوة ليست موضع شك، فإن «روسو» ينتهى إلى أن الخطوط العريضة لتربية الأنثى تنبع من ذلك على نحو مباشر. وكما اعترف كثير من الباحثين فى «روسو» ، فإن التربية المقترحة للنساء تقوم بالتالى على مبادئ تتعارض مباشرة، وبشكل أساسى مع مبادئ التربية المقترحة للرجال^(١) هذا التقابل بين تربية «اميل» المبنية على قدرات الرجل المجهولة ، وتربية «صوفى» المؤسسة على تربيتها الأنثوية المحددة بشكل ضيق، تلخصها بوضوح الفقرة التالية، التى ينبغى مقارنتها بالكتب الأربعة الأولى من «إميل»:

لا بد أن تكون تربية النساء مرتبطة تماما بالرجال ، لإسعادهم ولتكون نافعة لهم ، ومحبوبة ومحترمة منهم ، وتربيتهم عندما يكونوا صغارا والعناية بهم عندما يشبون ، وتبذل لهم النصيح وتجعل حياتهم سعيدة وجذابة - تلك هى واجبات النساء فى كل العصور ، ويجب أن يتعلمنها منذ الطفولة . وطالما أننا نرفض العودة إلى هذا المبدأ، فإننا سوف نضل هدفنا ونحرف بكل ما نعطيه للمرأة ما لم تكن نتيجته إسعادنا^(٢).

وبعد أن درس عدم إمكان إعطاء المرأة أية تربية عقلية على الإطلاق بل أن نحصر تدريبها فى «أعمال جنسها فحسب»، انتهى روسو إلى أن هذا الحل لن يكون كافيا أو مقنعا إلا لحياة بسيطة منعزلة غير فاسدة . فالواقع أن واجبات المرأة بسيطة للغاية فخضوعها لسلطة زوجها المطلقة وتكريسها لنفسها لخدمة أطفالها هى نتائج طبيعية لمركزها فى الحياة الذى لا يحتاج إلى فكر وروية من جانبها لتعرف هذه الواجبات . ومن هنا كانت المرأة فى البيئة الريفية الأخلاقية يمكن أن تترك فى جهل عميق نون خوف على فضيلتها. لكن فى عالم المدينة الفاسد الذى لا يمل من إغرائها، ويحيط بها الكثير من الأحكام المدمرة المخربة تقودها إلى الضلال والانحراف ، فإنها سوف تحتاج إلى قدر من التربية المتقدمة التى تعمل على تطوير ضميرها ومعرفة تامة بنسق القيم السائد حولها فى آن معا. وطالما أنها سوف تحافظ بالضرورة على جميع

(١) انظر مثلاً : بير برخلين «مدخل إلى إميل» P. Cxxii و«تربية صوفى» ص ١١٤ . وماسترز الفلسفة

السياسية عند روسو ص ٢١ .

(٢) إميل ص ٧٠٣ .

الممتلكات التي يعتمد عليها شرف زوجها ، فلا بد من تربيتهما حدَّ المستوى الذي تستطيع فيه مصالحة أوامر ضميرها مع متطلبات الرأي العام، ناظرة إلى جميع الأحكام المبتسرة نظرة جادة، رافضة إياها عندما يكون ضميرها في صراع معها. ولا يمكن أن تتم المعرفة الصعبة بون تهذيب ذهنها وعقلها^(١). وفضلا عن ذلك، على نحو ما سنرى في الفصل الثامن، فإن مصير عملية التوفيق والمصالحة التي اقترحها روسو للنظريتين : الضمير والرأي العام، كان في الواقع مهمة مستحيلة.

أما بالنسبة للسؤال عن المركز المناسب المخصص للمرأة وأسلوبها في الحياة . فقد كان روسو على يقين أن اليونان (وإن كان في هذه الحالة يستبعد الأسبرطيين) كان عندهم وحدهم الإجابة الصحيحة عنها^(٢). لاسيما بعد الزواج «ليس ثمة أخلاق طيبة للنساء بعيدا عن الحياة المنزلية والانطواء على الجنس»!^(٣)

وهو يستشهد باستحسان بشعار بيركليس الذي يقول فيه إن «المرأة الصالحة ينبغي أن لا تتعلم أبدا»، ويقتبس آراء أرسطو عن النساء في فقرات من «اميل» حذفت بعد ذلك. وكما قال الفيلسوف القديم على حين أن المرأة وحدها ينبغي أن تُنظم المنزل، فإنها ينبغي أن تنحصر بداخله، وينبغي أن تظل تحت سيطرة القانون المطلق لزوجها^(٤). ويعتقد روسو أن النموذج اليوناني في العزلة الكاملة والأعمال المنزلية «هو أسلوب الحياة الذي تفرضه الطبيعة ويحتمه العقل لجنس الأنثى»^(٥).

وعند روسو أن الطبيعة لا تُملئ فقط تربية مختلفة ونظاما للحياة يختلف أتم الاختلاف بين الجنسين، بل تفرض أيضا أن يعيشا في الأعم الأغلب منفصلين أحدهما عن الآخر . كما قال في خطابه إلى «دالمبير»: دعنا نتبع ميول الطبيعة دعنا نراعي صالح المجتمع، وسوف نجد أن الجنسين ينبغي أن يتصلا أحيانا على أن يكون الأمر المعتاد هو عيشهما منفصلين^(٦). وكان ذلك أيضا هو النظام المفضل عند القدماء. وهو كذلك السبب الذي جعل روسو يمتدح نوادي «جينيف» ، لأنها تشكل طريقة يستطيع

(١) إميل ص ٧٣٢ .

(٢) إميل ص ٧٠٤ - ٧٠٥ وخطاب إلى دالمبير ص ٨٨ - ٨٩ .

(٣) خطاب إلى دالمبير ص ٨٢ .

(٤) «شذرات من أجل إميل» الأعمال الكاملة مجلد ٤ ص ٨٧٢ . مقتبس من «تدبير المنزل» الكتاب الثالث،

ويعتقد الآن أنه بقلم واحد وأكثر من تلاميذ أرسطو.

(٥) إميل ص ٧٠٥ .

(٦) خطاب إلى دالمبير ص ١٠٠ .

فيها الرجال أن يتحرروا من قيود المطالب وثرثرة نسائهن، ويتحدثون في أمور أكثر أهمية . بينما تستمتع النساء بأحاديث القيل والقال التي يحتمل أن تكون سيئة لكنها أخف ضررا من الأعمال البديلة التي يمكن لهن أن يكرسن أنفسهن لها. وهنا كذلك، في رأى روسو، نجد أن الارتباط الزائد جدا بين الجنسين لا يؤدي إلى انهيار الأخلاق فحسب، بل يؤدي أيضا إلى ضياع هيبة الرجال: «فما دمنا نعجز عن أن نجعل من أنفسنا رجالا ، فسوف تصنع منا النساء نساء»^(١). وعندما اعترض ناقد على النوادي كان رد «روسو» ، يقول له: «ابحث عن طريقة أخرى يستطيع فيها الرجال أن يعيشوا منفصلين عن النساء، وسوف أتخلى عن تلك الطريقة»^(٢).

«هذا المبدأ الذي تعتمد عليه كل أخلاق جيدة»^(٣). تطور في «هلويز الجديدة» بتفصيل أعظم: فعلى الرغم من أن «جولى» وزوجها يعيشان معا، فإنهما لا يفعلان أبدا نفس الشيء أو شيئا واحدا. طالما أن الميول التي وهبتها لهما الطبيعة مختلفة باختلاف الوظائف التي فرضتها عليهما^(٤) ومن هنا فإن «فولمار» و«جولى» يتفقان على أن هذا الانفصال في أسلوب الحياة، والتقسيم الكامل للعمل، هو أفضل طريقة طبيعية للحياة، سواء بالنسبة للحب أو انسجام الزواج . فضلا عن ذلك فإن الخدم، فيما عدا بالنسبة لوجبات الطعام ، وبعض الاحتفالات التي تخضع للرقابة ، يعيشون منقسمين تماما تبعا للجنس حتى يضمنوا عفتهم واحتشامهم وهما أساس الأخلاق كلها. والنظام المنفصل الذي يحكم في كلارنس (مدينتهما) : «يشهد على صحة أنه في البيت المنظم تنظيما جيدا ينبغي أن لا يكون بين الرجال والنساء سوى ارتباط ضئيل »^(٥).

(١) خطاب إلى دالمبير ص ١٠٠ .

(٢) خطاب إلى م. لينياب المراسلات العامة ٤، ص ١١٤ .

(٣) خطاب إلى دالمبير ص ١٠٧ حاشية.

(٤) هلويز الجديدة ص ٤٥٠ .

(٥) ويعتقد روسو أن مثل هذا المبدأ الذي ينص على الانفصال الاجتماعي بين الجنسين لا يصلح إلا بين هؤلاء الناس الذين لم يفسدوا بعد. وهو مطلب حققته أسرة فولمار، والمواطنون من أهل جينيف لكنه لا يصلح إلا بقدر ضئيل جداً للعالم الواقعي. فانعزال الجنسين في المجتمعات الفاسدة ينبغي أن لانحاول القيام به. وكل ما يمكن أن نأمله بالنسبة لهذه المجتمعات «أن نهبط من جديد، إذا كان ذلك ممكناً إلى النقطة التي نكون عندها قد فسدنا فحسب» (خطاب إلى دالمبير ص ١١٠).

ومن المهم أن نلاحظ أن «سان برو» وهو يمتدح نموذج الحياة المفضلة عند آل فولمار، يذهب إلى أنه باستثناء الفرنسيين وأولئك الذين يحاكونهم ، فتلك في الواقع هي العادة المتبعة بصفة عامة بين سكان العالم. ويختتم كلامه «ذلك هو النظام العام الشامل الذي يظهر أنه طبيعي، حتى في الأقاليم التي انقلبت لا زلنا نشهد بقاياها»^(١) . وهذه الحجة تتعارض تعارضا صارخا مع خصائص روسو الذي كان من جوانب كثيرة محطما للعادات والتقاليد ليس معتادا ، بالطبع، أن يذهب إلى أن التطبيقات والممارسات المعاصرة في العالم تجسد ما هو طبيعي وضروري للجنس البشري. وكما قال في السابق عن دعوى «لوك» ، الأسرة طبيعية . فكذلك أيضا حجته هذه التي سوف تؤدي إلى إقرار أن «الطبيعة تنشئ المجتمع المدني أيضا. كما تنشئ الفنون والتجارة ، وكل ما ادعى أنه نافع للإنسان»^(٢) .

لقد فشل «روسو» أن يطبق في حالة النساء أنواع الحجة التي استخدمها في تعريف «رجل الطبيعة»، وبدلا من ذلك وجد أن وضعهن الطبيعي هو دورها المساعد في الأسرة الأبوية، وقد وهبتها الطبيعة تلك الصفات الضرورية اللازمة للقيام بهذا الدور. وهو هنا يهدم حجته الخاصة عما هو طبيعي مرة أخرى، ليستخدما ما هو منتشر في ممارسات العالم كمعين ودعم لأسلوب الحياة المنفصل عنده الذي يفصل بين الجنسين. ولما كان قد اقترح شكلا من أشكال التربية للنساء، يجعلهن موضوعات جنسية محببة، وزوجات خاضعات، فإن روسو يواجه مأزقا حرجا هو أن النساء اللاتي يربين على هذا النحو غير صالحات ليكن رفيقات كل يوم لنوع الرجال الذي يعتقد أن المجتمع بحاجة إليه. وحله الوحيد هو أن ينتهي إلى أن يقول إن ذلك ليس نافعا اجتماعيا فحسب، وإنما هو أن الطبيعة التي تجعل الجنسين في أغلب الأحيان، منفصلين الواحد منهما عن الآخر.

(١) هلويز الجديد ص ٤٥٠ .

(٢) أصل التفاوت ص ٢١٦ .

الفصل السابع

المساواة والحرية بين الرجال

القيمتان اللتان تنتشران أكثر من غيرهما وتتعايشان في فلسفة روسو الاجتماعية والسياسية ، هما: المساواة والحرية. وعلى حين أنه يرى أن هذه الصفات جوهرية للرجال، فإنه ينكر أنها تناسب النساء ، وهذا التقابل في النظرة هو موضوع الفصل الحالي.

لقد كان عدم المساواة أو التفاوت واحدا من أعظم اهتمامات «روسو» وهو ذلك التفاوت السائد من حوله. ومن أكثر الموضوعات شيوعا في فلسفته ، ألا وهو اكتشاف مبادئ النظام السياسي التي يمكن أن تقلل التفاوت بين الناس إلى الحد الأدنى^(١). ولقد نشأت كراهيته العميقة لعدم المساواة من خبرته الشخصية. وكما قالت جودت شكلا «لقد كانت اللامساواة عنده باستمرار تجربة شخصية عميقة، وممارسته للقسوة من جانب ، وللعبودية والخوف من جانب آخر»^(٢). فصدمة المصلحة تقتضي منه أن يكون أولا صبيا تحت التمرين ، ثم خادما خصوصا، بعد طفولة يقول عنها : «إنه اعتاد أن يعيش فيها على أساس المساواة التامة مع الراشدين » جعلته ينتهي بسرعة إلى النتيجة إلى أن يقول: إن أي ارتباط فيه عدم مساواة فيه على الدوام إساءة للجانب

(١) يقول روسو : «في النماذج الأولى للمجتمعات السياسية ، كان الزعيم يشكّل صورة الأب بينما يتخذ الشعب وضع الأبناء. والفرق بينها وبين الأسرة هو أن الأب في الأسرة يبذل حبه لأولاده بما يقوم به من رعاية وعناية بهم، في حين أن شهوة القيادة في النبوة تقوم مقام هذا الحب الذي لا يكتفه الزعيم لشعبه .. » العقد الاجتماعي ص ٣٦ - ٣٧ (المترجم).

(٢) شكلا «الرجل والمواطن» ص ١٩ وانظر ص ٢٠ وانظر أيضاً: جين ستارونبسكي - «الفكر السياسي عند جان جاك روسو» ، في كتاب بود بوفي «جان جاك روسو» ص ٨٤ - ٨٥ .

الضعيف^(١). فهو يشعر أنه يعرف الجانب المظلم من اللامساواة معرفة حميمة، وهذا الجانب هو الذى طرقه.

وكتاب روسو «أصل التفاوت» هو نتيجة تأملاته حول المساواة الطبيعية المقررة بين البشر، وتأملاته حول التفاوت أو اللامساواة التى خلقوها. (أصل التفاوت ص ٧٨). ولاشك أن هناك اختلافات وفروقا طبيعية بين الأفراد، اختلافات جسمية، وفى القوة الذهنية والمواهب ومن ثم فى قدراتهم على الإنتاج والتحصيل. لكن العلاقات السياسية المختلفة التى استقرت بين الناس إما أن تبالغ أو تقلل وتعوض هذه اللامساواة الأصلية.

وكما لاحظنا من قبل فإن العصر الذهبى، عصر الاستقلال، ومن ثم الأسر الأبوية البطريركية المتساوية - نظر إليه روسو على أنه «أسعد حقبة وأعظمها نواما. وأفضل حقبة للإنسان. وهو يعتقد أنه كانت هناك بعض الأحداث القاتلة، التى أخرجت الإنسان من حالة المساواة الحقيقية»^(٢). والأحداث القاتلة التى أدت إلى حالة اللامساواة المتزايدة بين أعضاء جنس الذكور، كانت هى التى أسست الملكية الخاصة، وتقسيم العمل، وتبادل السلع. وكان من نتيجة هذه التطورات أن بعض الناس امتلكوا وبعضهم احتاجوا، ومن ثم اغتنى البعض على حساب البعض الآخر. والخطوة من هنا إلى اللامساواة السياسية يفسرها الجزء الثانى من «أصل التفاوت»، على أنها نشأت من غواية الغنى للفقير بعقد زائف. والفقير الذى أسرع إلى الأصفاد، فى حين أن الفقراء معتقدين أنهم حققوا حريتهم لم ينجحوا إلا فى مشروعية إفساد أنفسهم بواسطة الأغنياء. وينتهى روسو:

«كان ذلك، أو ينبغى أن يكون، أصل المجتمع والقوانين التى أضافت قيودا جديدة للضعفاء، وقوى جديدة للأغنياء، وممرت الحرية البشرية لكل العصور، وأقامت إلى الأبد قانون الملكية وعدم المساواة. فحولت الاغتصاب الماهر إلى حق لا يُنقض، ولصالح قلة من الطموحين، يخضع الجنس البشرى كله للعمل والعبودية والبؤس»^(٣).

والنتيجة هى أن جميع الحكومات القائمة. رغم دعواها المختلفة للمشروعية، تقوم على الغش. «وعلى الرغم من المساواة العابثة الخيالية للحق^(٤)» التى تدعيها

(١) الاعترافات - الأعمال الكاملة، مجلد ١ ص ٣١ و ص ٥١٤ .

(٢) اميل، المؤلفات الكاملة مجلد ٤ ص ٥٢٤

(٣) أصل التفاوت ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٤) اميل ص ٥٢٤ .

المجتمعات المتدينة، لكنها مساواة غير مضمونة للعصر الذهبي، والواقع أن قوة المجتمع قد اختارها الأقوياء لكي تمكنهم من قهر الضعفاء بعنف أكثر وبطريقة شبه مشروعة : وهكذا نجد أن «الأكثرية سوف تضحى دائما من أجل القلة ، كما حولت الصالح العام إلى مصالح خاصة. تلك الكلمات النفيسة والعدالة والطاعة سوف تصلح دائما كأدوات للعنف وأسلحة للظلم، وهكذا ينتج أن الطبقات العليا التي تزعم أنها نافعة لبقية المجتمع لا تصلح في الواقع إلا لخدمة نفسها على حساب الآخرين»^(١).

ويذهب روسو إلى أنه كلما ازدادت القوة أو الثروة، فإنه لا يمكن أبدا خلق الحق المشروع . «إن الخضوع للقوة هو عمل من أعمال الضرورة لا الإرادة ، وعلى الأغلب هو عمل من أعمال الحرص. فبأي معنى يمكن أن يُعدَّ واجبا؟^(٢) وعلى ذلك فلما لم يكن لإنسان بالطبيعة حق السيطرة على إنسان آخر، ولا يمكن للسلطة أن تستمد من القوة، فإنه ينتهي إلى أن الحل الوحيد المشروع لمشكلة السلطة السياسية هو العقد الاجتماعي فهو الحق الذي يجعل من إرادة الناس ذات سيادة^(٣) . وبدون هذا الأساس التعاقدى فإن تعهدات النظام السياسي لا يمكن أن تكون سوى «خلف لا معقول ، وطغيان خاضع لأعظم قدر من سوء الاستخدام» (اميل : ص ٨٤١) (العقد الاجتماعي ص ٥٤) وعلى العكس فهو يقول في كتابه «العقد الاجتماعي».

«بدلا من تدمير المساواة الطبيعية، الاتفاق الأساسي، تُستبدل المساواة الأخلاقية المشروعة باللامساواة البدنية التي أقرتها الطبيعة بين البشر - والتي رغم أنهم قد لا يكونون متساوين من حيث القوة والذكاء، تجعلهم جميعا متساوين عن طريق التعاقد والحق» (العقد الاجتماعي ص ٣٦٧ و ص ٦٠) ^(٤).

وعن طريق إعطاء كل نصيبا متساويا في القوة المشروعة، فإن النظام السياسي الذي يُبنى على نحو جيد يستطيع أن يجعل المجتمع المدني حالة من المساواة أعظم من الحالة الموجودة بينهم على نحو طبيعي.

(١) إميل ص ٥٢٤ .

(٢) العقد الاجتماعي ص ٣٩ .

(٣) حيث إنه ليس لإنسان سلطة طبيعية على أقرانه ، إن القوة لا تنتج أي حق، فإن الاتفاقات تبقى إذ هي الأساس لكل سلطة شرعية بين الناس (العقد الاجتماعي ص ٤١) (الترجم).

(٤) وهو يقول في تعليقه في حاشية هذه الفقرة: «ليست هذه المساواة في ظل الحكومات السيئة سوى ظاهرة وهمية، لا تفيد إلا في إبقاء الفقير في بؤسه والغني في اختصابه. والواقع أن سن القوانين مفيد لأولئك الذين يملكون، ضار لأولئك الذين لا يملكون شيئا» (العقد الاجتماعي حاشية ص ٦٠) (الترجم).

وواضح من نصيحته للقادة البولنديين حول نقص تمثيل جماهير شعبهم الذين لا يزالون أقنانا في التشريع، إنَّ روسو ينظر إلى اللامساواة السياسية على أنها ليست مشروعة أبداً، إنها يمكن تحملها مؤقتاً فحسب. في حين أنه يعترف أن التحرر ليس من السهل إنجازها، يقول:

«قانون الطبيعة، وهو قانون مقدس لا يجوز انتهاكه، لا يسمح لنا بحصر السلطة الشرعية بمثل هذه الطريقة، وأن نجعل القوانين الملزمة لأي شخص لم يُدَلِّ بصوته فيها بشخصه أو على الأقل من طريق ممثليه..»^(١).

وهو يقول للنبلاء «لما كان الأقتان هم أيضاً بشر، في يدهم صناعة كل شيء تكونونه في المستقبل». فلا بد من تحريرهم أولاً في الروح قبل الجسد، والارتفاع بهم إلى مستوى المساواة السياسية التامة.

وفي ضوء المبادئ المقررة فيما سبق ليس من الضروري أن نذكر أن «روسو» ينظر إلى العبودية على أنها عمل غير مشروع تماماً (أصل التفاوت ص ١٦٧، والعقد الاجتماعي ص ٣٥٥ - ٣٥٨، وامليل ص ٨٢٩) إنها حط من ماهية الإنسان، وإهانة للطبيعة والعقل. أن يتنازل المرء عن حياته وحرية، وحقه في نفسه لشخص آخر. إنَّ الطبيعة التي جعلت أول واجبات الإنسان المحافظة على نفسه، وضميره المسئولة عن تنظيم سلوكه طبقاً لقواعد الأخلاق، لا يمكن أن تغفر تخليه المتطرف عن نفسه وعن استقلاله الذاتي. إنَّ الرق الموجود لا يمكن أن يكون قائماً على شيء آخر سوى القوة التي دعمتها العادة.

غير أن روسو، كما لاحظنا مرارا من قبل^(٢)، فإن الجمهورية المفضلة والأثيرة عنده هي بولة اليونان، بكل ما فيها من مساواة مدنية قد تأسست على استبعاد عدد كبير من الناس. وفضلاً عن ذلك فعندما واجه هو نفسه هذه الحقيقة واعترف بأنه طالما أن المجتمع المدني، مثله مثل أي انفصال عن الطبيعة، لا بد أن يكون له مساوئه، فربما كان لسوء الطالع، حالة الاستمتاع بالحكم الذاتي الحقيقي عن طريق تأكيد استبعاد الآخرين. يقول «هناك بعض الظروف السيئة التي لا يستطيع الناس فيها الاحتفاظ بحريتهم إلا على حساب حرية البعض الآخر. حيث لا يستطيع المواطن أن يكون حراً

(١) تأملات حول الحكومة البولندية - الأعمال الكاملة مجلد ٣ ص ٩٧٣ - ٩٧٤ .

(٢) انظر مثلاً «ماسترز» الفلسفة السياسية عند روسو ص ٤٢٤ وشكلار «الرجل والمواطن» ص ١٨ .

حرية تامة ما لم يكن العبد عبدا تماما. (العقد الاجتماعي ص ٤٣١) فإذا ما عدنا إلى معالجة روسو للنساء، ووجدنا أن مبدأ المساواة الذي يؤمن به بإصرار لا يطبقه عليهن أبدا. فإن من المهم أن نتذكر هذه النتيجة. إذ يبدو أنه كما أن الحرية والمساواة بين المواطنين الاسبرطيين. يعتمدان على استبعاد جذرى للهوس Helos (أى العبيد) فإن المثل الأعلى عند روسو لدولة رؤساء الأسر البطرياركية الأحرار المتساوين، لا بد أن تُبنى بالضرورة على استبعاد النساء من الحقل السياسى وقهر كامل لهن، وحصرهن فى أمور الحمل والولادة.

ويعتقد روسو أن مبدأ المساواة جنبا إلى جنب مع نتيجته، هو رفض حق الأقوى وشرعية الحكومات التى تقوم فقط على أساس الإرادة العامة، وتلك مسائل فى غاية الأهمية بالنسبة للرجال . لكنه ينتهك على الدوام كل مبدأ من هذه المبادئ بالنسبة للنساء وبلا تفسير.

أولا : لقد انتهك روسو بخصوص النساء نبذه لحق القوة. فإذا لم تصبح النساء موضوعات جنسية للرجال كما يريدون لهن «كلما كانوا أقل قدرة فى السيطرة عليهن، عندئذ سيكون الرجال ، هم السادة بحق» (اميل ص ٧٠١) . ليس للمرأة سوى سحرها وجاذبيتها لتعوض بها عن ضعفها، وقدرتها الأقل على المحافظة على نفسها وهى الخصال اللازمة للاستقلال فى البناء الاقتصادى والاجتماعى . غير أن «روسو» لم يقترح قط بالنسبة للرجال الذين يكونون أضعف من غيرهم، أنهم يحتاجون إلى مواهب طبيعية خاصة تعوضهم عن هذا الضعف، لأن مهمة العقد الاجتماعى أن يستبدل المساواة المدنية بالمساواة الطبيعية بين الرجال و. أى تفوق فى القوة تكون الطبيعة قد وهبته للرجال على النساء ، من الواضح أن له غرضا ما، ولا ينظر إليه روسو كمطلب من أى نوع للتعويض أو التخفيف.

أما أن الرجال أقوى من النساء، وهن يعتمدن عليهم فى قوتهن، فتلك ببساطة، حقائق الحياة التى ينبغى أن تتعلمها النساء.

ومن الواضح أن «روسو» لم ينظر قط إلى النساء على أنهن مواطنات ينبغى أن يُمنحن حق الاقتراع، بحيث تسهم أصواتهن فى تشكيل الإرادة العامة. وعلى الرغم من أنه قال «النساء فى جينيف الفاضلات المحبوبات» إن مصيرهن أن يحكمن أنفسهن، فإنه يتضح مما يتلو هذه العبارة أنه لم ير سوى طريقة واحدة فقط لمشروعة لهن

لاستخدام تأثيرهن وهي من خلال قوة ووساطة أزواجهن. فعند «روسو» لا يوجد رجل متمدين يقاوم نُصح زوجته الرقيقة. ومن هنا فإن «قوة المطاردة عند النساء ينبغي أن تمارس فقط في اتحاد الزواج». حيث ينبغي عليهم «مواصلة استغلال كل فرصة متاحة حقوق القلب، وحقوق الطبيعة لصالح الواجب والفضيلة. ولجد الدولة وسعادة الجمهورية : (أصل التفاوت بين الناس) فمن خلال تأثيرها المنزلي على زوجها تستخدم استخداما كاملا مشاعره من أجلها، وتلك هي القوة التي يمكن أن تملكها النساء في جمهورية «روسو» فليست هناك مساواة ممنوحة للمرأة، مبنية على العقد الاجتماعي تحل محل اللامساواة الطبيعة. والمرأة على خلاف الأقدان البولنديين ليس لها الحق بفضل إنسانيتها للمشاركة السياسية. وقانون الطبيعة «المقدس الذي لا يجوز مخالفته» الذي يقضى بالمشاركة، أو على الأقل بالتمثيل، لكل من يلتزم بطاعة القوانين، ومن الواضح أن روسو لا يرى له تطبيقا على أى عضو من جنس الأنثى.

وأخيرا: داخل نطاق الأسرة كان روسو واضحا وأكثر صراحة في إنكار أن تكون النساء شريكات للرجال بالتساوي. وهو مثل أرسطو، ولوك، وهيغل، إن أردنا ذكر ثلاثة نماذج واضحة، أقام تمييزا واضحا بين الأسرة والدولة. وبغض النظر عن الأمثلة التي درسناها فيما سبق والتي أنكر فيها الوضع الطبيعي للأسرة، فإنه في مؤلفاته يشير إلى الأسرة باتساق، على أنها مؤسسة طبيعية، تقوم على المشاعر ومن ثم فهي تفتقر عن جميع الارتباطات السياسية الأوسع التي تقوم على التعاقد والحقوق والواجبات المتبادلة. وأولئك الذين زعموا، مثل «فلمر» أن السلطة السياسية تقوم على السلطة السابقة للأب في الأسرة على أبنائه، يرتكبون بذلك غلطة حقيقية، ومغالطة خطيرة في محاولتهم إضفاء المشروعية على الحكومة المطلقة.

ولهذا نراه يزعم أن سلطة الأزواج على زوجاتهم هو نظام طبيعي ولا يمكن أبدا مقارنته بمتطلبات المساواة في النظام السياسي. ذلك لأن قانون الطبيعة يلزم المرأة أن تطيع الرجل، وأنه لابد للزوجة «أن تحافظ على شخصها دائما تحت قانون زوجها المطلق» (اميل) - «وأية قوة تستخدمها المرأة ببراعة داخل الأسرة لابد لها من اكتسابها من مناوراتها البارعة مع زوجها لكي تفعل ما تريد أن تفعله، وأن تستغل وضعها كوسيط لمتعته ومسرته» (اميل ص ٨٦٥). عندما أحصى «روسو» الأسباب الثلاثة

لهذه المخالفة الضخمة لمبدأ المساواة، فإننا نستطيع أن نرى بوضوح - أنها ترجع إلى المجتمع الأبوي القائم على الملكية أكثر مما ترجع إلى حالة الأمر الواقع الذي يمكن استنتاجه من الطبيعة^(١).

لا يمكن للسلطة في الأسرة أن تنقسم بين الأب والأم إذ أن أي انقسام في الرأي فيما يرى روسو، لابد أن تكون هناك إرادة واحدة تحسمه. وربما توقع المرء أن يكون صاحب مفهوم الإرادة العامة هو آخر فلاسفة السياسة الذين يقررون حكماً مطلقاً داخل الأسرة، جماعة حميمة جداً، من الناس يميزها روسو نفسه عن المجتمع الكبير من واقعة أنه تربطها المحبة والاهتمام المتبادل - كان يمكن أن تكون سياقاً نموذجياً يُطبق فيه مبدأ سيادة الإرادة العامة، ولا شك أن الأسرة النووية ينبغي أن تكون قادرة على إقامة ما فيه مصلحة الجميع، ما دامت الجمهورية المؤلفة من عدة آلاف من البشر تستطيع ذلك؛ لكن لا أحد سوى الرجل ينبغي أن يحكم.

والسبب الثاني الذي يقدمه للبطرياركية الأسرية هو أن للنساء نورات من الكسل وعدم النشاط بسبب وظيفتهن في الإنجاب. وعلى الرغم من أن تلك الحجة قد تكون ضعيفة ف، كما يقول روسو: «فإنها سبب كاف لاستبعاد النساء من السلطة» ووضع السلطة الدائمة للأسرة في يد الزوج. ولا حاجة بنا إلى أن نقول: إن روسو لم يلجأ إلى استدلال مماثل لكي يستبعد مجموعات معينة من الرجال الذين ربما كانوا غير مناسبين بسبب العرج مثلاً أو الذين يعيشون بعيداً جداً عن الاجتماعات أو صنع القرار. وعلى أية حال فالحجة حمقاء بلهاء، فيما عدا حالة القرارات التي لا بد أن تتخذ إبان الفترات الأخيرة من ميلاد الطفل. وفي استطاعتنا أن ننتهي إلى أن العملية الفعلية للحكم الذاتي التي هي بالغة الأهمية عند روسو للرجال فقط، قد نظر إليها على أنها بغير قيمة تُذكر للنساء.

ولا شك أن السبب الثالث هو أهمها جميعاً طالما أن «روسو» يعود إلى هذا الموضوع مراراً. (قارن اميل ص ٦٩٧ - ٦٩٨، وخطابه إلى دالمبير). لا بد أن يكون الزوج قادراً على مراقبة سلوك زوجته. لأنه من الجوهرى بالنسبة له أن يتأكد من أن

(١) الفقرات الثلاث التالية مأخوذة من مقال - في «الاقتصاد السياسي» الأعمال الكاملة مجلد ٣ . ص ٢٤١ - ٢٤٢ ومن المسودة الأولى «للعقد الاجتماعي» ص ٢٩٧ - ٣٠٠ .

الأطفال عندما يضطر إلى الاعتراف بهم أنهم حقا من صلبه ولا ينتمون لأي شخص آخر سواه. «فروسو لا يعترف يقينا بالأبوة كما يصفها نوع معين من المجتمع بمؤسساته المقدسة للملكية الخاصة والوارثة». (خطاب إلى دالمبير ص ٨٣) وقد ألحق بها أهمية بالغة ليستبعد النساء من أية حقوق لا يمكن انتهاكها في المساواة والحكم الذاتي. غير أنه لا سلوك «اميل» بالنسبة لأسرته، ولا سلوك والد «جولى» ولا سلوك روسو نفسه ، يشكل أى دليل على مزاعم روسو التى تقول إنه ليس الأطفال فقط فى مرحلة الاعتماد، بل الزوجة أيضا طوال حياتها، يمكن أن يثقوا بأمان فى السلطة المطلقة للأب بسبب مشاعر الأسرة الطبيعية. لا يمكن أن يقال عن «إميل» إنه يبرهن على المحبة الأبوية بعد أن هجر ابنه، كما هجر زوجته الأثمة، فهو يقول إنه أهون عليه أن يرى ابنه يموت ، من أن يرى «صوفى» وهى حامل من شخص آخر. ورواية والد صوفى عن اعتياده الزنا، واندفاعه التالى نحو زوجته (التي يصاحبها - كما يقال لنا- خيانتها لزوجته) وعنفه مع ابنته كاف لأن يؤدي إلى إكراهها على الزواج ضد رغبتها، والزمع بأنه سوف يقتلها لو عرف أنها فقدت بكارتها - فتلك كلها أمور ليست مشجعة: وسواء قام روسو كما يروى بإدخال أطفاله من «تريز لافسير» «ضد رغبتها» إلى ملجأ للقطاء أم لم يفعل. فإنه لا ينظر إلى هذا الفعل، رغم ما فيه من إثم، على أنه مثل من أمثلة الاستبداد نحو الأطفال ولا نحو أمهم.

وكما أن هناك مصالح متضاربة داخل المجتمع المدنى كان روسو يعرفها تمام المعرفة ، فكذلك فى أية مجموعة من الأفراد، ولا نستثنى من ذلك الأسرة، فلا بد أن يأتى وقت ، بالطبع ، تكون فيه المصالح متضاربة تضاربا جذريا . والواقع أن «روسو» يشير إلى أنه لم يقع فى وهمه إساءة استخدام السلطة الأبوية ، التى كان يرتكبها المجتمع فى أيامه نون وخز من ضمير. أما فيما يتعلق بالتفاوت السياسى فهو يعترف أنه « بصفة عامة سوف يكون من الحمق البالغ أن نتوقع أن يفضل أولئك الذين هم فى الواقع سادة أية مصلحة أخرى غير مصالحهم الخاصة..» وأن الطغيان لابد أن يوجد بالضرورة «حيثما كان للشعب وللحكومة مصالح مختلفة، وبالتالي إرادات متعارضة» ولقد رفض أن يعترف حتى فى ضوء أمثله الشخصية المختلفة، أن تضارب المصالح هذا ، وما يتبعه من طغيان واستبداد ، يتطلب إصلاحا جذريا للأسرة

مثل الإصلاح الذى دافع عنه للدولة . على العكس فإن تغلب الحاجة للمشاركة يستبعد أية فكرة يمكن أن تكون لديه تقول إن العدالة والمساواة وثيقة الصلة بهذا السياق أيضا . هناك مؤشرات كثيرة فى مؤلفات «روسو» على أنه كان لديه سبب إضافى، لرفضه تطبيق مبدأ المساواة على النساء. وكان ذلك السبب هو خوفه الشديد من أن النساء لو لم يكن خاضعات للرجال بطرق مهمة معينة، فسوف يسيطرن عليهم تماما فهو يعتقد أنه طالما أن المرأة لديها القدرة لاستثارة رغبات الرجل الجنسية إلى حد أن هذه الرغبات لا تشبع تماما أبدا، وما دامت الطبيعة جعلتها قوية بما فيه الكفاية لمقاومته خطواته نحوها عندما يحلو لها أن تفعل ذلك، فإنه ينتج من ذلك أنه ، فيما يتعلق بحاجات الرجل الجنسية: «فإن الرجل بقانون الطبيعة الذى لا يتغير» يعتمد على الإرادة الطيبة للمرأة .(اميل ص ٦٩٥)(١) ، وكما يقول فى خطابه إلى دالمبير «الحب هو مملكة النساء، فهن اللائى يعطين بالضرورة قانونه» لأنه طبقا لنظام الطبيعة فإن المقاومة تنتمى إليهن. وليس فى استطاعة الرجال هزيمة هذه المقاومة إلا على حساب حريتهم . وهكذا يصبح من الواضح أن المرأة كما رآها روسو ، تحت إمرة مناطق حساسة فى حياة الرجل. هذه القوة الجنسية المهزلة التى تسيطر على الرجل هى التى تجعله يتمسك بعناد أنه ينبغى «أن لا تغتصب النساء حقوق الرجال» . أو بعبارة أخرى يجعلن أنفسهن مساويات للرجال فى تلك المجالات التى اعتاد الرجال أن يحتفظوا بها لأنفسهم. «لأننا عندما نترك لها تفوقنا فى جميع الخصال التى تناسب جنسها، وعندما نجعل منها مساوية لنا فى بقية المجالات، فكيف يختلف ذلك عن تحويلنا الأولوية للزوجة التى وهبتها الطبيعة لزوجها..؟»(اميل ص ٧٣١).

فالخوف من قوة النساء وما يرتبط بذلك من اعتقاد بأن جنس الأنثى هو المصدر الرئيسى لجميع شرور العالم المتمدين ليس أمرا يقتصر على روسو وحده بالطبع، وإنما هو أمر واضح جدا فى مؤلفاته فى قصيدة عنوانها «عن النساء» يوجهها إلى المرأة بوصفها . «الموجود المعنوى الميت الذى أعبدته وأبغضه» ويواصل حديثه قائلاً: إنها تجعل الرجل عبدا.. وتسخر منه عندما يشكو .. وتغلبه وتهزمه عندما يخشاها.. وتعاقبه عندما يتحداها .. وتثير العواصف التى تمزق الجنس البشرى» . ومن المهم أن نلاحظ

(١) لعرض ممتع لروسو المعارض لحقوق المرأة وتفسير ذلك بأنه يعود أساساً إلى خوفه من النساء انظر فكتور ف . وكسلر «مخلوقة لمتعة الرجل: روسو عدواً للمرأة».

فى هذا السياق - مثل هزىود فى عصره الذهبى الذى خلا من النساء - ومثل أفلاطون فى محاورتى «السىاسى» و«طىماوس» يذكرنا بجنة عدن قبل خلق حواء، وىنظر روسو إلى الماضى على أنه حالة أصىلة للطبىعة . رعم أنها لم تكن تخلو من المرأة - كانت فترة كان فىها أسلوب الحىاة المنعزلة يعنى أنه لىس ثمة علاقة اجتماعىة بىن الجنسىن ولم يكن الرجال فقط متحررىن من اعتماد بعضهم على بعض، وإنما هم كذلك، بطرىقة ذات مغزى، مستقلىن عن النساء ، أو على الأقل عن أىة امرأة معىنة طالما أن إلحاحهم الجنسى ىشبع تلقائىا من أى أنثى عابرة.

هذه الصورة البسىطة العاطفىة للجنس، وصلت إلى نهایة مفاجئة بظهور الأسرة الواحدىة فى العصر الذهبى . ومما له مغزاه أن اعتماد المرأة الاقتصادىة على الرجل دخل متانیا مع اعتماد الرجل على المرأة لإشباع رغباته الجنسىة. والقوة التى اكتسبته بالتالى علىه من الواضح أنها قلبت التوازن . وعلى الرغم من أن «روسو» لم يفترض مثما فعل المانوىون فترة خنثوىة سادت فىها براءة الجنس البشرى، ثم انبثقت فى نهایتها جمىع شرور الجنس، عندما انقسم البشر إلى ذكر وأنثى ، فقد رأى أن الحالة الأصلىة للطبىعة بوصفها فترة صراع حر للفرىزة الجنسىة. فقط بعد ذلك عندما استقرت نماذج الحىاة ، ومقارنة الرجل لنفسه بالآخرىن ، ومقارنة المرأة لنفسها بالأخرىات، والهجوم التالى للأنانىة ، حتى بدأ الارتباط بىن الجنسىن والحب الفردى . ولقد كان ذلك هو الارتباط القاتل الذى نتجت عنه الغىرة. والصراع «المبارزات، والقتل وجرائم أسوأ من ذلك». (أصل التفاوت ص ١٣٧) ومن ثم فإن روسو، فى اتفاق مع الخط الذى سار فىه القدىس أوغسطين، يفترض وجود حادثة فى التاريخ مرادفة لحادثة السقوط، شكّت المشاعر الجنسىة والسلوك الجنسى من وسىلة بسىطة خالىة من الصراع لإنجاب الأطفال إلى انفعال طاغ عنىف ىرتبط بكل إثم، وحسد، وخوف ، وخطىئة. وما ىشیر إليه بوصفه عنصرا أخلاقىا فى معارضة العنصر الفزىقى البسىط للحب، كان إلى حد ما النىجة المحتومة للانتقال من العزلة البوىة لحىاة الاستقراء فى المجتمع. لكن النساء هن اللائى اتهمن بأنهن قمن بتغذىة الجانب الانفعالى للحب وزىادة أهمىته، وذلك لكى يقمن بالسىطرة على الرجال (أصل التفاوت ص ١٣٥) ولقد وقع اللوم على جنس الأنثى للإثم والخوف بالمرور بتجربة تتعلق بالجنس، بوصفها هى التى أثارت هذه الانفعالات الطاغىة.

وهكذا فإن الأثر الهائل للنساء فى المجتمع مستمد من سىطرتهن الجنسىة على الرجال تلك حقىقة مستقلة عن الزمان والمكان. وإن كان اتجاهها الخاص - ونتائجها

ليست كذلك. ولقد اعتقد «روسو» أن سيادة النساء الوقحات المتحررات ، فى فرنسا المعاصرة، ليست مسئولة فقط عن الجانب الضعيف للإنجازات العقلية والفنية فى ذلك العصر، بل تضرب بجنورها العميقة فى أسباب جميع الشرور الاجتماعية. وهذا الأثر الشرير للنساء هو الموضوع الرئيسى فى خطابه إلى «دالمبير» فبسبب أن العالم الواقعى لا يقدم أية نماذج للنساء الفاضلات، كانت نماذج الشخصيات التى تظهر على المسرح بالغة الخطورة . لأنها تغوى الرجال بالاعتقاد برومانسية الشئ وبراعته وهى فى الواقع تؤدى بهم إلى الخطيئة المميتة.. فسوف تكون معجزة أن نجد فى لندن أو باريس فى العالم الفعلى امرأة واحدة ظاهرة حقا، فيما يقول بالتفصيل خطاب «سان - برو» من العاصمة الفرنسية. رغم أن النساء فى المجتمع الباريسى مثقفات وذكيات فقد طردن منه بسبب وقاحتهم وعدم احتشامهن . ولما كن يشبهن الرجال كثيرا فربما كن صديقات جيدات لكنهن لا يصلحن أبدا زوجات (اميل ص ٧٣١) وتعليق «روسو» الوحيد على هذا الحكم أنه من الصعب كذلك إرضاء السيدات أنفسهن. طالما يمنحهن خصالا يحتقرنها ، كما أنهن ينكرن تلك الخصال التى تُلهم أيضا. وطالما أنه يعتقد أن «الرجال من نوى الأخلاق السليمة هم أولئك الذين يعبدون النساء فعلا. والنساء هن القضاة الطبيعيون على جدارة الرجل واستحقاقه» (اميل ص ٦٦٨ و ٧٤٢) فقد اعتبر «روسو» لحرمان النساء (من الكنيسة) من حوله نتائج رهيبة. والطريقة الوحيدة للمحافظة على أخلاق المراهقة عند إميل «هى من ثم عزله عن النساء المتزوجات والبغايا اللائى يُجمعن فى قائمة الفسق والفجور . ما دامت كل النساء الأخريات فى المجتمع الفرنسى يوصفن بأنهن حشد من العاهرات ، فإن النساء الوحيديات اللائى يمكن أن يتصل بهن اتصالا آمنا هن العذارى من الوصيفات». (اميل ص ٦٥٩).

غير أن روسو يتأرجح بين لوم النساء أنفسهن على الأخطاء والأثر السىء الذى ينسبه إليهن، فإنه يعترف فى خط واحد مع استدلاله عن الرجال المعاصرين ، أن الظروف الاجتماعية والقانونية هى السبب إلى حد كبير. فهو من ناحية فى خطابه إلى «دالمبير»، وفى خطاب نال «لمسيو لينياب» يتضح أن النساء وحدهن هن الملومات. وعندما علق لينياب نقده لموقف روسو فى العمل السابق قائلا: إنه ربما لم تكن غلطة النساء ، وإنما غلطة الرجال أجاب روسو «لقد أخذ كتابى كله على عاتقه أن يظهر أنها

غلطتهن، وفي ظني أنه لا يمكن الردُّ على ذلك « وعلى هذا الأساس فقد أساعت النساء استخدام قدراتهن حتى يُفسدن الرجال ويُدمرن أخلاقيات المجتمع . أما في «اميل» فازواج العاطفة عند روسو بين لوم النساء أو لوم الظروف والمؤسسات المحيطة بهن مسألة واضحة حتى أنه يفعل الاثنين معا أحيانا في عبارة واحدة يقول : «إن حياة المرأة الطيبة في مؤسساتنا المتبلدة هي كفاح دائم ضد نفسها: فمن الصواب أن يشارك جنسها بنصيب في ألم الشرور التي سببتها لنا» (اميل ص ٧٠٩) فهنا تصور النساء على أنهن شخصية. لكن من المشروع أن يَكُنَّ كذلك فالمرأة هي بالضبط «حواء» المطرودة، والساحرة المشعوذة التي كان من الصواب حرقها.

ومن ناحية أخرى، من المرجح أنه شعر بتعاطف مع بطلته «جولي» في أزمته اليائسة، كان روسو أبعد ما يكون عن الاعتراف في «هلويز الجديدة» بأنه إذا كانت النساء قد ابتعدن كثيرا عن مثله الأعلى، فذلك يرجع إلى حد بعيد، إلى إساءة استعمال السلطات المفروضة عليهن لاسيما من آبائهن. فإجبارهن على الدخول في زواج سييء بسبب الملكية أو الغطرسية ، يعنى أن القوانين والعادات تحرمهن مما تميل إليهن قلوبهن ومن الأشخاص الذين يملن إليهم - فذلك إلى حد كبير هو الملام على سوء السلوك التالي.

لورد بومستون الذي كان يعمل أميناً للسر عند «سان - برو» وأحيانا كنوع من الجوقة اليونانية ، احتج بشدة على حق الآباء في تزويج بناتهن ضد إرادتهن . وانتهى إلى أنه «لا أحد يعلم إلى أي حد تشارك القوانين في استعباد النساء في هذه البلاد، وليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة إن انتقمن لأنفسهن بقسوة عن طريق أخلاقهن. (هلويز الجديدة ص ١٩٤) والتأكيد على أن هذه هي آراء المؤلف يمكن أن يوجد في التصدير الثاني من الكتاب وهو تصدير له قيمة لا تُقدر في توضيح بعض الأخلاقيات الرئيسية والرسائل التي توجد في الرواية . لقد اتفق روسو مع نقاده على أن أخلاقيات المرأة المتزوجة فضيحة يقول في رده على لينياب : «كن منصفاً في حق النساء . إن السبب في سوء سلوكهن لا يكمن فيهن بقدر ما يكمن في مؤسساتنا الشريرة » (هلويز الجديدة التصدير الثاني ص ٢٤) ويستطرد قائلاً: إنَّ المشاعر الطبيعية قد خنقها التطرف في اللامساواة في المجتمع، كما أن استبداد الآباء هو الذي أدى إلى خطايا وشقاء أطفالهم ، وبناء على ذلك فإن السلوك السيء للنساء المعاصرات، وما

ينتج عنه من آثار شريرة يمارسها على المجتمع ككل، ستظل ثابتة ولن تتغير حتى يمكن ردها إلى أسباب محددة.

وهكذا نجد أنه على الرغم من أنه لا أمل في الفرار من تأثير النساء، فليس ثمة ما يدعو أن يكون هذا التأثير سيئا. بل على العكس كما يؤكد «روسو» في حديث عن العلوم والفنون «أنا أبعد ما أكون عن الظن بأن هذه الهيمنة للنساء هي في حد ذاتها شر. بل هي منحة وهبتها لهن الطبيعة من أجل سعادة الجنس البشرى. فإذا ما وجهت توجيهها حسنا لكان من الممكن أن تنتج من الخير قدر ما تنتجها اليوم من الضرر». لقد كانت النساء مقدرات محترمت في كل أمة فاضلة، والعصر الذي فقدت فيه هذه المكانة، ولم يعد فيه الرجال يأخذون بأحكامهن: «سوف يكون آخر عصور الانحطاط». فأي أشياء عظيمة يمكن أن ينجزها تأثيرهن لو أنه وجه توجيهها سليما سواء على الفرد أو على المستويات القومية! فالإلهام الذي يحدثه أن تكون محبوبا من امرأة طيبة يراه «روسو» قادرا على صنع المعجزات في الرجل يقول: «من المؤكد أن النساء وحدهن يمكن أن يعدن لنا الاستقامة والأمانة والفضيلة» (اميل ص ٧٤٢).

لكن من الواضح أن «روسو» لم ير سوى طريق واحد فقط يمكن أن تمارس فيه النساء تأثيرا هائلا من أجل الخير: هو أن يكرسن أنفسهن تماما كزوجات وأمهات. ويمارسن سيطرتهم النافعة على الرجال، واستعادة الفضيلة إلى المجتمع. والنساء عند روسو محكومات تماما بالحياة المنزلية، ومستبعدات تماما من الحياة الدينية، يكن مساعدات دائما للرجال. لأن الجنس، عند فيلسوف المساواة، هو الأساس الوحيد المشروع للمعالجة الدائمة غير المتساوية لأي شخص.

لقد ارتبطت أهمية الحرية ارتباطا وثيقا بالمثل الأعلى للمساواة في كتابات روسو، فهو يشدد باستمرار على قيمة التحرر من الاعتماد على الأشخاص الآخرين أو على آرائهم وأحكامهم المبتسرة. يقول «بين الشعب الحر وحده تظهر قيمة الرجل، فالحرية هي أنبل قدرات الإنسان.» ونبذ الحرية معناه نبذ الإنسان، والتخلي عن الحقوق الإنسانية وحتى واجباتها. وهذا النبذ يتعارض مع طبيعة الإنسان، إن تجريده من

حرية الرادة يعنى حرمان أفعاله من كل أخلاق (أصل التفاوت ١٦٧ ، والعقد الاجتماعى ٢٥٦) ففي حالة الطبيعة المفترضة فى الجزء الأول من «أصل التفاوت» ، وفى نظام التربية الذى عرضه فى كتاب «أميل» كان من الواضح أن الاستقلال عن الآخرين وعن آرائهم نو قيمة مركزية والحرية - مثل المساواة - مثل أعلى شخصى عند روسو . وهو يعبر عن نفوره فى «الاعترافات» و«نشوة العزلة» من تبعية المرء لأى شخص، أو اضطراره لفعل أى شىء حتى لو كان النشاط المطلوب نفسه هو فى ذاته إسعاد للمرء. (الاعترافات ٢٧٩ - ٢٨٠) وهو ينتهى إلى أن نقص الاستقلال عند المرء، يجعله فى الواقع غير صالح تماما لحاجات المجتمع المدنى . طالما كنتُ أعمل بحرية ، فإننى إنسان صالح ولستُ شيئاً آخر سوى إنسان صالح. لكن ما أن أشعر بالنير فوق كتفى، سواء نير الضرورة أو الناس، حتى أصبح متمرداً أو حروناً شرساً ثم لا أصلح لشىء... (نشوة العزلة ص ١٠٥٠).

على الرغم من أن «روسو» حاول فى نظريته السياسية أن يوفق بين حاجة الإنسان والطبيعة إلى الاستقلال، وبين متطلبات الحياة فى الحالة الاجتماعية، فإن حالة الطبيعة الأصلية عنده هى إضفاء الصبغة المثالية على الاستقلال التام. فهى مخصصة للبرهنة على أن الإنسان خيرٌ بطبيعته حين يعيش فى عزلة عن أقرانه وفى استقلال عنهم، وأن تطور المجتمع ومضاعفة حاجاته وصراعات الاهتمامات التى تجعل الناس يعتمد بعضهم على بعض غدتُ الأنانية وسببت أضراراً لكل شخص .

ويؤكد «روسو»: «لا بد لكل شخص أن يعلم أنه ما دامت روابط العبودية لم تتشكل إلا من الاعتماد المتبادل بين الناس، والحاجات المتبادلة التى توحد بينهم، فمن المستحيل استعباد الإنسان ما لم يوضع أولاً فى موضع العاجز الذى لا يستطيع أن يفعل شيئاً بدون الآخر . وهو موقف لم يكن موجوداً فى حالة الطبيعة، ولهذا كان كل فرد فى هذه الحالة متحرراً من النير كما يجعل قانون الأقوى قانوناً عابثاً. (أصل التفاوت ص ١٤٠).

لكن لما كان مقدرًا لحالة الطبيعة أن تصل إلى نهاية، وبمجرد أن احتاج المرء إلى غيره «ظهر البؤس والعبودية» (أصل التفاوت ١٥١).

إن فلسفة روسو السياسية تهتم اهتماماً أساسياً باستعادة الإنسان لحرية داخل المجتمع المدنى . إذ بينما أى قيود تلقى على عاتق إرادة الشخص من جانب شخص

آخر، تجعل الأول لم يعد حراً، فإن الانسجام الاجتماعي، يحتاج بالضرورة إلى قيود من نوع ما . والحل الوحيد لهذه المشكلة الاجتماعية الكبرى مشكلة اعتماد شخص على شخص آخر التي تسبب عند «روسو» جميع أنواع الرذائل وتحرم كلا من السيد والعبد. (اميل ص ٢١١) هي إحلال حكم القانون محل إرادة الفرد ، لأنه عندما تسود الإرادة العامة «فإن كل إنسان عندما يطيع هذه السيادة فإنه يطيع نفسه، ويكون أكثر تحملاً تحت الاتفاق الاجتماعي منه في حالة الطبيعة» (اميل ص ٨٤١) ، وأي فرد داخل المجتمع المدني يضع جانباً القانون الذي يتفق مع الإرادة العامة، ويزعم أنه يخضع لإرادة أي شخص آخر، فإنه بذلك يعيد نفسه والشخص الآخر إلى حالة الطبيعة الخالصة التي لا يوجد فيها أي التزام من الآخر لطاعته، وحالة الحرب تنتشر بينهم (العقد الاجتماعي ٢٥٦) ومن ثم فإن الحكم الشخصي المطلق والتبعية لا مكان لهما في نظرية روسو السياسية.

كما أن «روسو» يبغض الاعتماد الشخصي، أي اعتماد شخص على شخص آخر، فإنه يكره أيضاً الاعتماد على آراء الآخرين وأحكامهم المبتسرة في أي زمان ومكان. ولقد وجد أخيراً أن من الضرورة العودة القهقري من جميع التعاقدات الشخصية تقريباً ، إلى مجال الطبيعة، حتى يحرر نفسه من «نير الآراء». وكذلك في «أصل التفاوت» أكثر ما يؤسف عليه هو نهاية العصر الذهبي التي جلبت معها الحاجة إلى قهر الآخرين مما أدى إلى الغش والخداع، وجميع الرذائل التي تلت ذلك. (أصل التفاوت ١٥٥) ومنذ ذلك الحين تحدد مصيرنا. وتعتمد حكمتنا كلها على أحكام العبودية المبتسرة، وليست جميع عاداتنا سوى خضوع، وإكراه، وقهر، فالإنسان المدني يولد عبداً ويموت عبداً (اميل ص ٣٨ وص ٢٥٣).

والأنوار التي ينبغي أن يقوم بها الناس في المجتمع المعاصر، ينظر إليها «روسو» على أنها صورة شخصية من الاستبداد. وما نقره أكثر من الممثلين هو متاجراتهم بالمواهب عن طريق عبوديتهم للأنوار حتى يصبحوا ألعوبة في يد المتفرجين، وهو عمل يحط بالإنسان جداً، ولا يجعله رجلاً نبيلاً. (خطاب إلى دالمبير) وكل ما ينفر منه من مجتمع باريس هو عبوديته للآراء السائدة والنوق القائم في لحظة ما، أما

العادات فى المدينة المعاصرة فهى مخجلة، وقد تمت ممارستها إلى حد أن المرء لم تعد قادرا على التمييز بين الأصيل منها والزائف . والنتيجة الحتمية هى أنه لم تعد هناك صداقة حقيقية ، ولا تقدير حقيقى ولا ثقة حقة « (أصل التفاوت ص ٣٧ - ٣٨) . والانهيـار الواضح للأخلاق الذى رآه «روسو» من حوله، عزاه إلى حد كبير إلى هذه العبودية القائلة للرأى، والرياء الذى انتشر فى المجتمع، إنه عن طريق ترك المدن وراعنا، وامبراطورية الرأى ، والحياة فى عزلة ريفية، كما فعل هو نفسه - وكما فعلت أسرة «فولمار» المثالية ، وكما حدث «اميل» و«صوفى» أن يفعلا - يمكن للمرء أن يأمل فى سعادة حقيقية. وهكذا يستطيع المرء أن يرفض فى حرية التصور الزائف للشرف والفضيلة اللتين تقومان على الرأى المبتسر، ويكشف ويكرس نفسه لمبادئ الأخلاق الحقيقية الأبدية. «فما هو الخير فى البحث عن سعادتنا فى آراء الآخرين إذا كان فى استطاعتنا أن نجدها فى أنفسنا ؟..»

ولهذا فإن تربية إميل مخصصة لجعله رجلا مستقلا فى مجتمع فاسد، ولا ينطوى هذا القول على مفارقة كما قد يبدو ما دام روسو يعتقد «أن الحرية لا توجد فى أى شكل من أشكال الحكم. بل فى قلب الإنسان الحر الذى يحملها معه فى كل مكان» (اميل ص ٨٢٧) . والمفروض أن يصبح اميل مثل هذا الرجل:

أولا: على الرغم من الوسائل المستقلة. لابد له أن يكتفى بنفسه بطريقة شخصية أكثر، إذ ينبغى له أن لا يعتمد أبدا من الناحية الاقتصادية على أى فرد ولا على أية ظروف، ولهذا عليه أن يتدرب على حرفة مفيدة هى حرفة النجارة.

ثانيا : وبمغزى أشد عمقا ينبغى عليه أن يربى «اميل» بطريقة لا يشعر فيها أبدا بخضوعه لسلطة شخص آخر. ونتيجة ذلك هى أنه عندما يجىء وقت تبدأ فيه تربيته العقلية، فإن روسو يخبرنا أن الصبى أصبح لديه استقلال فهو لا يتبع أية قاعدة ، ولا يستسلم لأية سلطة، ولا لأى نموذج، ويسلك ويتكلم على نحو ما يشاء فحسب. ألم يتعلم أنه باستمرار سيد نفسه فحسب؟ (اميل ص ص ٤٢٠ - ٤٢٢).

والواقع - كما يشهد الكتاب الثانى - أن الصبى كان محكوما بطرق عدة بمعلمه طوال طفولته. لكن هذه السيطرة كانت تمارس بطريقة تخفى بها حقيقة أنها تنبعث

من شخص آخر. وحتى نحميه من الاعتماد على آراء الآخرين أو سلطتهم، فإنه لا يقال له ينبغي عليك أن تفعل كذا أو لا ينبغي عليك أن تفعل كيت. ولا يتأثر بما يظنه الناس أو يعتقدونه فيه أو بالأحكام المنتشرة المبتسرة (اميل ص ٣٦٧ - ٣٦٨) وبدلاً من ذلك فإن معلّمه يعالج الظروف بطريقة تجعل «اميل» يتعلم كيف يسلك ويستجيب للنتائج الحسنة والسيئة لأفعاله. ولا ينبغي للأطفال أن يوقع عليهم عقاب، هكذا يُعلّمنا روسو، فالضرر الذي يحيق بهم ينبغي باستمرار أن يظهر على أنه نتيجة طبيعية لأخطائهم، وعلى ذلك فعلى حين أن المعلم يسيطر تماماً على تدريب «اميل» فإن الطفل لا يدرك ذلك. ولا تعاني أحكامه من خضوعه للنتائج التي تبدو «النير الثقيل للضرورة الذي ينبغي أن ينحني له كل موجود أخلاقي، أكثر من طاعته لهوى الرجل ونزواته». (اميل ص ٣٢٠) وبسبب أنه حُفظ، بطريقة صناعية من تأثير السلطة والحكم المبتسر، فإن «اميل» تمكن من تطوير قواه الاستدلالية وأصبح قادراً على أن يميّز نفسه بين الخير والشر. ومع وجود هذه الخلفية فإنه عندما يأتي الوقت الذي يرد فيه على المجتمع من حوله طالما أنه «قد تحرر من نير الحكم المبتسر، ولم يعد يحكمه سوى قانون الحكمة» - فإنه لن يكثرث إلا بآراء الناس المحترمين الشرفاء الذين هم أمثاله. (اميل ص ٧٨٢ وانظر أيضاً ٦٧١) وسوف يكون رجلاً مستقلاً بقدر ما تسمح الظروف.

ويؤكد روسو أنه في المجتمع يؤدي الجنس حتماً إلى اعتماد عميق من كل جنس على الآخر «في كل بلد، وفي كل إقليم، وفي كل طبقة يكون بين الجنسين علاقة قوية وطبيعية حتى أن أخلاقيات كل جنس يحددها دائماً أخلاقيات الجنس الآخر» (خطاب إلى دالمبير ص ٨١)، لكن في حالة كل من «إميل» و«صوفى» بصفة عامة، فإن روسو أقل ميلاً للتشديد على نتائج وأخلاقيات اعتماد النساء على الرجال، من تأثيرات ونتائج اعتماد الرجال على النساء، فالاعتماد يكون ضخماً بالطبع عن طريق الفوارق الاجتماعية والاقتصادية، في المجتمع الأبوي - فلم يهتم به على الإطلاق. فهو يعترف بذلك في فقرات عديدة كما لو كان أمراً مسلماً به، فقط ليؤكد ضرورته، وليس ليناقش صحته أو آثاره الاجتماعية. وهو في مرات عديدة يهدد النساء بأنهن لن يصبحن سوى عبيداً للرجال، ما لم يفترضن نورا جنسياً محددًا مطلوباً منهن. فبدون قوة الدهاء

عندها التي تعوضها عن نقص قوتها البدنية «فإن المرأة لن تكون سوى عبدة للرجل، وليست شريكته، فهي تجد كل شيء ضدها، ملكاتنا، وضعفها وجبنها. وجمالها وظرفها هما كل ما تملك» وطالما أن الجمال لا بد أن يذبل، فإن كل ما يبقى من ذخيرتها هو ظرفها. «والطريقة الوحيدة لكي تسيطر على الرجل هي أن تتلاعب بنا، وتستغل قوتنا» (اميل ص ٧١٣). ومن هنا فإن الطريقة الوحيدة التي تملكها المرأة للسيطرة هي أن تستغل قدرتها الجنسية. على الرجل لكي تغويه، وتتحايل عليه، وتتملقه، وتداهنه حتى يقرر في النهاية ما تريد.

وقل مثل ذلك عندما ينصح «روسو» الأمهات أن يتأكدن أن يجعلن بناتهن نساء اجتماعيات، نون تحد للطبيعة أو أن يجعلهن مثل الرجال. يقول: «كوني على يقين من أن ذلك سيكون أفضل لها ولنا» (اميل ٧٠١) ومن الواضح جدا أنه يذهب إلى أن النساء لسن في موقف يسمح لهن بتدبر أي شيء أفضل لأنفسهن، ما لم يكن أيضا ما يريده النساء منهن، لأن النساء يعتمدن اعتمادا كاملا على استحسان الرجال. وهو يقول في تكتم إن شيئا لا يمنع النساء من أن يريين بناتهن كما يردن، وإن الرجال غير مسئولين عن واقعة أن البنات لم يتعلمن سوى التوافه من الأمور. فإن روسو يتقدم بعد ذلك ليعترف أن النساء لن يستطعن ممارسة قوتهن إلا عن طريق الاستغلال الناجح لسحرهن الأنثوي. وهكذا نجد أن الفيلسوف الذي كره القوة، وحكم الرأي العام على الفرد، يستطيع أن يعترف نون أدنى علامة على الامتناع أنه ما لم تعلم المرأة نفسها، وتبنى شخصيتها، وتنظم حياتها تماما، طبقا لما يحب الرجل، فلا بد لها أن لا تتوقع سوى عبودية خصمها الأقوى.

ولا شك أن خوف روسو من النساء وتأثيرهن يزودنا بجانب مهم من التفسير لهذه المفارقة. لقد كان مقتنعا تماما بالحد الذي يعتمد فيه الرجل على المرأة من الناحية الجنسية والعاطفية، حتى أنه شعر أنه ما لم يكن هناك قهر لها في مجالات أخرى، فإن هذه السيطرة الطبيعية المزعومة لن تعود إلى الرجل. وهكذا نجد أنه في معارضة مباشرة لتأكيديه أن الحاجة المركزية للرجل هي أن يكون حرا، يذهب روسو إلى أن المرأة بتكوينها الطبيعي خلقت لكي تكون معتمدة على غيرها ولنوضح لها الكوابح (اميل ص ٧١٠ وص ٧٤١).

وطالما أنه يصور حياتها على أنها محكومة بالثروة بمطالب الأب، فإن الأسرة هي المكان الوحيد الذي لم يطبق فيه وقفته المبدئية ضد السلطة الشخصية والتبعية ومن الواضح أنه لن تكون هناك امرأة قادرة على أن تعيش حياتها الخاصة كما تعلم «اميل» أن يعيش حياته الخاصة - بل على العكس إنها لن تجد سعادتها إلا من خلال سعادة رجل طيب. ومن ثم فلا بد لها أن توجه كل طاقتها نحو إسعاده وأن تكون محترمة من جانبه . فلا بد لها بالضرورة أن تخضع لحكمه، وحاجته ولا يسمح لها أن تكون فوق هذه الأحكام. واللفظ أول صفات المرأة وأهمها، والمرأة لما كانت قد خلقت لا طاعة مخلوق كالرجل ناقص أيضا، مفعم بالمعائب غالبا ، مملوء بالشوائب دائما ويجب أن تتعلم مبكرا أن تصبر حتى على الظلم والجور، وأن تحتل خطأ الزوج من غير شكوى أو تذمر ، وليس عليها أن تكون لطيفة من أجله، بل من أجل نفسها. ولا تؤدي شراسة النساء وعنادهن إلا إلى زيادة آلام النساء، وسوء معاملتهن من أزواجهن. فالأزواج يشعرون أنه لا ينبغي لهن أن يغلبنهم بهذه الأسلحة. ولم يخلقهن الرب فانتات مقنعات ليكن مشاكسات . ولم يصنعهن ضعيفات ليكن متجبرات. ولم ينعم عليهن بصوت بالغ العنوبة لينطقن بالشتائم، ولم يجعل لهن تلك الملامح الرقيقة ليشوهنها بالغضب (اميل ص ٦٨٢).

ومن ثم فأول وأهم صفة في المرأة هي الرقة، فقد خلقت لتطيع مخلوقا ناقصا مثل الرجل، كثير الرذائل ملىء دائما بالأخطاء، ولا بد لها أن تتعلم منذ طفولتها أن تعاني الظلم، وأن تتحمل أخطاء زوجها بلا شكوى أو تذمر، (اميل ٧١٠-٧١١ وانظر أيضا: ص ٧٤٥ - ص ٧٥٥) فالمعارضة أو العناد أو المشاكسة لن تجدى، ولن تؤدي إلا إلى أمور أشد سوءا . وعلى حين أن «روسو» رأى أن كثيرا من الصفات المطلوبة لهذا الدور فطرية في النساء، فقد رأى أن تتجه تربية «صوفى» بأسرها لتدعيمها، وقبل كل شيء لضمان أنها ستحقق المطلوب وأنها لن ترغب أبدا في قلب هيراركية الأسرة الأبوية البطريركية.

والمرأة المثالية عند روسو، أبعد ما تكون عن الشخص المستقل ذاتيا، أو حتى الشخص المتميز. بل إنها لا تكون قوية إلا لكي تلد أطفالا أقوياء . ولا تكون عاقلة إلا إلى الحد المطلوب منها لتحافظ على عفتها، ولكي تناقش زوجها وتربي أطفالها بحكمة، ولا تكون جذابة إلا إلى الحد الذي تثير رغبة زوجها الجنسية، لكن بشرط أن لا تهدد سكينه ذهنه.

ويجب أن تهدف جميع تأملات النساء ، فى كل ما لا يتعلق بواجباتهن مباشرة، إلى دراسة الرجال، والمعارف اللطيفة التى ليس لها هدف سوى تكوين النوق (اميل ص ٧١٦).

إن تفكير المرأة، أو استخدامها لعقلها فى أى غرض آخر غير هذه الأغراض السابقة ليس غير ضرورى فحسب ، وإنما هو بغيض بالنسبة لها «ذكاء الأنثى هو طاعون بالنسبة لزوجها، وأطفالها وأصدقائها وخدمها ولكل إنسان . فهى من قمة عبقريتها سوف تحتقر واجباتها كامرأة، وسوف تشرع دائما لكى تجعل من نفسها رجلا» (اميل ص ٧٦٨) وهكذا نجد أنه ينبغى على النساء أن يتعلمن أشياء كثيرة، لكن بشرط أن تكون تلك الأشياء مناسبة.

ومن هنا فقد تعلمت «صوفى» إلى الحد الذى تكون فيه مقبولة من «اميل» ، بحيث تناقشه لئن أن يكون هناك أى خطر يتهدده منها. «ذهنها محبوب لكنه ليس لامعا، ومصقولا، لئن أن يكون عميقا، ذهن لا يوحى بأى تعليق، لأنها لا تبدو أبدا ألمع ولا أغبى من ذهن المرء». «وهى تُترك عن عمد بثغرات كثيرة فى معلوماتها ، وسوف يسعد اميل زوجها بعلاجها» (اميل ص ٧٦٨). ولما كانت معدة فحسب كزوجة ومحظية للرجل، فإن أية امرأة لا تُعد مرغوبة طبقا لهذه المعايير، فإن يحكم عليها «روسو» بأنها لا تساوى شيئا. مثل هذه المرأة تتحدى الطبيعة بإرادتها، وتحاول أن تكون رجلا. (اميل ٧٤٩).^(١)

مرة واحدة فى كتاباته الناضجة درس «روسو» اقتراحات أفلاطون الراديكالية عن التربية المتساوية للنساء بطريقة إيجابية، ومن الجدير بالذكر فى هذه المناسبة أن اهتمامه كله قد انصب على المضامين التى تقول: إن مثل هذا التغيير سيكون للرجال. وربما افترض فى حاشية على «حديث من الفنون والعلوم» أنه: «ما دام الرجال سيكونون محبوبين من النساء» فسوف يتم عن طريق تربية النساء الاعتراف وتقدير

(١) على حين أن تربية جولى - التى لم يعطنا عرضاً نسقياً لها - كان أكثر دقة وأكثر عقلانية من تربية «صوفى» (انظر مثلاً هلويز الجديدة ص ٥٩) - فقد كانت «جولى» فريدة فى تصور روسو للمرأة المثالية نفسه تحت قناع الفيلسوف «سانت برو». ومن المناسب - فيما يبدو - النظر إلى تربية صوفى على أنها الرفيق أو الزوجة لرجل طبيعي عادي، كما أنها النوع النمطي الذى وصفه روسو لتربية النساء.

عظمة الروح والفضيلة، حتى أن هذه الصفات القديمة يمكن أن يعود غرسها في الرجال . وهكذا فإن روسو حتى في اقتراحه أن فكر أفلاطون في الموضوع ينبغي تطويره على نحو أبعد، فإنه يعتمد على المبدأ الأساسي عنده القائل بأن النساء وتربيتهن ينبغي أن تكون مفيدة وصالحة لوظيفتهن المناسبة في الثقافة الأبوية.

ولما كان مركز المرأة الطبيعي في الحياة مُقدراً سلفاً، كانت العفة أهم صفة أخلاقية لا بد أن تتحلى بها المرأة . وعلى حين أن كرامة الرجل تعتمد على حرّيته، فإن كرامة المرأة تعتمد على الاحتشام والخجل، والحياء. وهي خصال لا يمكن أن تنفصل عن رقتهن والمرأة التي تفقد شرفها لا بد أن يُنظر إليها بعد ذلك على أنها فقدت تماماً الأخلاق من أي نوع (اميل ص ٧٣٢) وعلى الرغم من أن الفضيلة مفهوم لا يكاد يذكر في تربية «اميل» طالما أنه يعنى في نظر «روسو» النضال ضد الذات وتهديدا للحرية ، فإنه قيمة مركزية في تربية صوفى (اميل ص ٧٥٠) إنه من خلال النضال الناجح ضد الذات أو على الأقل الجانب العاطفى من الذات يمكن أن تأمل فيه المرأة بالمحافظة على كنزها الثمين إلا وهو عفتها ، لكي تحصل على زواج وتحفظ به. إن حب الفضيلة هو «مجد المرأة وفخرها» . وهو الطريق الوحيد للسعادة الحقة.. «وهي لا ترى سوى الفاقة والشقاء والوحدة والجوع في حياة امرأة غير لائقة» (اميل ص ٧٥١) والواقع أن مصير «صوفى» النهائى يمثل أوضح تناقض ممكن لهذا الاعتقاد.

ولروسو سببان يبرران أن من الجوهرى أنه لا بد أن تكون القاعدة الأخلاقية للمرأة ليست مختلفة فقط في مضمونها، بل أيضا أن تقوم على مبدأ مختلف تماما عن المبدأ الذى يطبق على الرجال :

أولاً: كما أنها تستطيع أن تحقق إشباعا في الحياة إلى الحد الذى يقول فيه الآخرون، لاسيما الرجال بصفة خاصة ، أنها محبوبة.

ثانياً: لا ينبغي أن تكون عفيفة فحسب، بل إن طهارتها أو عفتها ينبغي أن لا تكون موضع شك، لا من زوجها ولا من أى إنسان آخر. لأن أقل فضيحة سوف تكون «وصمة عار لا تُمحي» فى أخلاقها، ويعتمد شرف الرجل على سلوك زوجته الفاضلة أقل مما يقوله الناس عنها، فـينبغي أن لا تساوم على سمعتها بأية طريقة مهما تكن. وهكذا فبالنسبة للنساء:

« لا يكفي للمرأة أن يكون من الممكن تقديرها بل أن تُقدَّر بالفعل ، ولا يكفي أن تكون جميلة ، بل لابد أن تكون محبوبة، ولا يكفي أن تكون صالحة ، بل أن يعترف الآخرون أنها كذلك ، فلا يكمن شرفها في سلوكها وحده، بل في سمعتها ، ومن المستحيل للمرأة الفاضلة حقا أن تسمح لنفسها أن يظن الناس أنها وضيعة. وعندما يسلك الرجل سلوكا سليما، والرجل هو سيدها ففي استطاعته أن يتحدى الرأي العام، لكن المرأة عندما تسلك سلوكا سليما فإن ذلك هو نصف مهمتها فقط، وما يعتقده الناس في أمورها هو النصف الآخر، فهو يوازى ما هي عليه بالفعل . وينتج من ذلك أن المبدأ الذي تقوم عليه تربيتها لابد من هذه الناحية أن يكون عكس ما تعارفنا عليه، فالرأي العام هو مقسرة الفضيلة بالنسبة للمرأة، وهو عرش المرأة وتاجها (اميل ص ص ٧٠٢ - ٧٠٣).

وهكذا فإن روسو على خلاف سقراط وأفلاطون ، وعلى اتساق مع بقية العالم اليونانى، (ص ١٦٤) ينظر بوضوح إلى أخلاق الأنثى وأخلاق الذكر على أنهما مختلفان اختلافا جوهريا. والمسألة : هنا ليست مسألة «المعيار المزوج» المؤلف ، فما رآه ضروريا ليس هو وجود معيارين فى سلّم أخلاقى واحد، بل رأى وجود سلمين مختلفين اختلافا جذريا . ولما كان قد نظر إلى المرأة من زاوية وظيفتها التى تقوم بها فى ثقافة ذكورية، فإن معيار خيريتها يحدده تماما متطلبات تلك الثقافة وأحكامها المبتسرة، فى حين أن خير الرجل الذى لا ينظر إليه من زاوية وظيفته، يحدده على نحو مستقل الأحكام المبتسرة لذلك المجتمع. وعلى حين أنه توجد طرق عدة مرادفة، إن قليلا أو كثيرا، يثبت بها الرجل أخلاقه وجدارته فإن محافظة المرأة على عفتها وطهارتها هو هدفها الأخلاقى الأول والأكثر أهمية.

ونتيجة لذلك فإن تربية «صوفى» الأخلاقية هى عكس تربية اميل و الواقع أنه لو لم يكن موقف «روسو» واضحا من النساء على هذا النحو - سواء فى كتاب «اميل» أو فى كتبه الأخرى - لمال المرء إلى تفسير وصفه لتربيتها على أنه تعليق هجائى على الثقافة المعاصرة، وطرق التربية السائدة التى يوجه ضدها الكتاب كله.

وهكذا نجد أن كل ما تفعله «صوفى» وتشجع على عمله هو من أجل المظهر، فالفتاة على خلاف «اميل» الحر تهتم اهتماما لا حد له بزینتها (حتى تحقق «النظرة الطبيعية»). فهي تتعلم العزف لكي تظهر يدها البيضاء في مقابل ظلام المفاتيح، وكل شيء تقوله مُقدَّر ومقاس، لا طبقا لمعناه ونفعه، على نحو ما يحكم على مناقشات اميل، بل طبقا لتأثيره على السامع. وعلى الرغم من أنها تعوزها الأصالة : « فإنها تقول دائما ما يسر الناس الذين يتحدثون معها» (اميل ص ٧٤٩) فتربيتها الأخلاقية مكرسة لتدعيم ميولها الفطرية في أن تكون خاضعة ومشكومة، وهي تتعلم لتحقيق بالضبط ما يتوقعه المجتمع منها، لأن البنات، في مقابل البنين:

«لابد من شكمنهن من الصغر. . ولا بد أن يخضعن طوال حياتهن لقيود قاسية ومستمرة ، فلا بد أن توضع عليهن قيود منذ البداية ، حتى لا تشعر بثقلها أبدا، فإنما الخضوع من شأن النساء بحكم الطبيعة، حتى ليشعر الفتيات إنما خلُقن والطاعة أول واجباتهن. وإذن فلا حرج على المربي في إكرامهن وقمع حريتهن، ولا جناح عليه إذا عاقبهن. وأن من نتائج هذا القمع ما نرى في النساء من مرونة هن في حاجة إليها في حياتهن . فهن دائما في قوامة رجل وهن دائما طوع حكم الرجال ، وليس لهن أن يضعن أنفسهن فوق حكم الرجال..» (اميل ص ص ٧٠٩ - ٧١٠).

وترجع إحدى المفارقات الكبرى في تربية «صوفى» إلى المطلب الذي يقول أنه على حين أنها لابد أن تسلك بأقصى قدر من ضبط النفس سواء قبل الزواج ونحو جميع الرجال، إلا زوجها بعد الزواج، فلا بد أن تكون متمرسه جيدا في جميع فنون الإغراء والجاذبية لتؤكد استمتاع زوجها الجنسي بها. ويلوم «روسو» تعاليم الكنيسة بسبب واقعة أن النساء كثيرا ما يفقدن جاذبيتهن ويسببن عدم اكتراث أزواجهن بهن، ولحل هذه المشكلة يقول : « تهذبُ الشابة الإنجليزية من مواهبها، بعناية، لتروق لزوج المستقبل، كما تهذبُ الشابة الألمانية مواهبها من أجل دائرة الحريم. ولا شك أن هذه الرغبة تضيف السعادة إلى حياة زوجها ، وتمنعه، بعد أن يترك عمله وهمومه بدلا ، من أن يبحث عن المتع خارج البيت (اميل ص ص ٦٩٠ ، ٧١٦) ولهذا فتحقيقا لهذه الرغبة فإن تربية المرأة المثالية تشمل نصيحة لها كيف تتقدم وترفع من المتعة الجنسية لزوج

المستقبل، جنباً إلى جنب مع التحريمات الدقيقة ضد أى شكل آخر من أشكال التعبير الجنسي . والواقع أن «صوفى» تُربى لتكون محظية وراغبة فى أن معا.

ومن جميع الوجوه يذهب روسو إلى أن القيود المفروضة على النساء لابد أن تكون أشد بعد الزواج، وهو يؤكد أن النساء المتزوجات هن وحدهن اللائى يُسمح لهن بحرية أكثر من الفتيات الشابات فى مجتمع فاسد ، وبين أناس فاسدين. أما اللائى يحتفظن بأخلاقهن فيتبع معهن التطبيق المضاد. وتصف «جولى» الوضع الصحيح للمرأة المتزوجة وهى تتحدث عن ابنة عمها «كلير» فنقول :

«كانت حرة قبل أن تتزوج، فهى وحدها فقط المسئولة عن سلوكها. أما الآن فقد تغير كل شىء، فلا بد أن تعمل حساباً للآخرين فى سلوكها: بل إنها تنازلت عن حريرتها .. إن المرأة الفاضلة لا تستحق فقط تقدير زوجها، بل لابد أن تحصل عليه. فإذا لامها، فإنها تستحق اللوم، وإذا ما سلكت ببراءة ، فإنها سرعان ما تكون آثمة إذا ما وُضعت موضع ريب . فحتى المحافظة على المظاهر هو جزء من واجبها». (هلويز الجديدة ص ٢٥٧) (١).

وهكذا نجد أن المرأة عند «روسو» عند الزواج «تتكشف كائتى» بالنسبة للأخلاق وبالنسبة للإحساس القانونى، وعندها تفقد كل استقلال لإرادتها الذاتية سواء بالنسبة للحكم أو الضمير.

والحد الأقصى الذى مدَّ إليه «روسو» إنكاره للاستقلال الشخصى للنساء هو رفضه السماح للمرأة أن تصوغ معتقداتها الدينية فعلى حين أن «اميل» عندما شبَّ بقدر كاف، يشجع على التفكير لنفسه فى المسائل الدينية : « كما أن سلوك المرأة يخضع للرأى العام ، فكذلك يخضع إيمانها للسلطة » (اميل ص ٦٩٦ وص ٧٢١) فالابنة ينبغى، بغير نقاش، أن تعتنق دين أمها (الذى هو بالطبع دين والدها أيضاً) كما تعتنق الزوجة بيانة زوجها . ويؤكد روسو لقرائه أنه لا توجد امرأة، تجعلنا نعانى من ذلك. ولو أن هذا الدين الذى تعتنقه كان لغوا ، فإن خضوع الأم والأسرة طائعين لحكم الطبيعة يحو ما فى الخطأ من ننب عند الله. (اميل ص ٦٩٧ ص ٧٢١).

(١) من المهم أن نلاحظ أنه عندما توفي زوج «كلير» فى هذه اللحظة فقط شعرت أنها شابة وجذابة من جديد.

فمن الواضح أن الإيمان والعقيدة ليس لها أهمية كبيرة بالنسبة للمرأة، فهي تستعبد لها من خلال الخضوع والاستسلام و هذا الإعلان يشبه عقيدة الإسلام التي ترى أن المرأة لا روح لها (١) .

وعلى الرغم من أن «روسو» لم يستطع أن يتصور أى بديل للقاعدة الصارمة المبتسرة التي تقوم عليها الأخلاق التي وضعها للنساء، كما أنه لم يكن مرتاحاً لهذا البديل. وبعد أن وضع «روسو» نموذجاً لسلوك «صوفى» يتفق تماماً، مع الأحكام الاجتماعية المبتسرة. منتهكاً كل مبدأ من مبادئ تربية اميل الذي يصرح بإيجاز بالصورة التي يريد أن تتشكل فيها المرأة:

«ومن المحتمل أن أكون قد أفضتُ في الحديث أكثر مما ينبغى حتى الآن. ما الذي يمكن أن ترتد إليه النساء لو لم يكن لديهن قانون سوى الأحكام العامة المبتسرة؟ دعنا لا نهبط بالجنس الذي يحكمنا إلى هذا المستوى، ذلك الذي يشرفنا إذا لم تزدريه .. ويوجد لكل النوع البشرى قانون أساسى أقدم من رأى العام.. وهذا القانون الأساسى هو ضميرنا الداخلى». (اميل ص ٧٠٦ - ٧٠٧ وكذلك ص ٧٣٠)

طالما أن رأى المجتمع ينبغى أن لا يطاع إلا عندما يتفق مع أوامر الضمير، فإن «روسو» ينتهى إلى أنه على حين أنه ينبغى على النساء أن يبذلن أقصى ما فى استطاعتهن للتوفيق بين الاثنين (أى قوانين المجتمع من ناحية، وقوانين الضمير من ناحية أخرى) . فإذا لم يستطعن ذلك ، فإن عليهن اتباع ضمائرهن، وهو يصرح بأنه «إذا لم يتفق هذان القانونان فى تربية النساء ، كانت هذه التربية ناقصة ومعيبة» فلا الضمير بدون الرأى العام يعطيهن طاقة الروح، ولا الرأى العام بدون الضمير يؤدى إلى شىء سوى إنتاج نساء فاسدات» (اميل ص ٧٠٧) وعندما يعرف المرء أن الصراع بين الصواب والخطأ والأحكام المبتسرة للرأى الفاسد هو الذى يدور حوله كتاب «اميل» ببقية مؤلفات «روسو» فإنه يستطيع أن يحدس نتائج تربية «صوفى» إذ يظهر أنه لا يوجد سوى أمل ضئيل فى اتفاق الرأى العام مع الضمير، مع أن «روسو»

(١) هذا جهل صارخ بالإسلام الذى يرى أن الله خلق الرجل والمرأة من نفس واحدة وأنها مساوية للرجل فى كل شىء وإن كان للرجل فى الأسرة . درجة عليها بما ينفق من ماله، وبما يحمله من مسئولية (المترجم).

يعتقد أنه لا بد أن يحدث ذلك إذا ما أردنا أن تكون تربية النساء ناجحة. وإذا ما تدبرنا محصلة قصص «اميل» و«صوفى»، و«جولى»، ونتائج نوع تربية النساء التي يدافع عنها «روسو» بوصفها النوع الوحيد الصالح والمناسب من التربية، لانتبهنا إلى نتيجة مؤداها أن مشكلة النساء عنده تظل إخراجا منطقيا لا حل له.

الفصل الثامن

مصير بطلات روسو

كان روسو على وعى تام - ربما أكثر من أى فيلسوف سياسى آخر - بصراع الولاءات فى حياة الشعوب، وبالاحتاجات المتضاربة التى تخلقها العلاقات الشخصية والجماعية المختلفة التى يشارك فيها الناس. والدرجة المتواضعة من حب الذات وحب الآخر، وحب الفرد لأسرته، وحب المواطن لأخواته فى الوطن، وفى الإنسانية ككل - ذلك كله أدرك روسو أنه ليس من السهل على الإطلاق التوفيق بينه. غير أنه أضفى أهمية عليها جميعا بطريقتها الخاصة، ولقد كان مقتنعا اقتناعا مطلقا بتعارضها وتنافرها، وذلك ما أدى به إلى نتائج تشاؤمية عميقة جدا. ويعد أن قمت بتلخيص الحلول التى قدمها فى «إميل» و«المتوحد» (التي لم تكتمل نهايته)، و«هلويز الجديدة» سوف أتجه نحو دراسة مصير شخصيات روسو، لاستجلاء صدى أفكاره ونتائجها على النساء فى المطالب المتضاربة بالفعل للوضع البشرى كما أدركه روسو.

اتفاقا مع خطته التعليمية، فقد رفض «إميل» عندما بلغ مرحلة المراهقة جميع الحكومات القائمة واختار أن يعيش مستقلا^(١). فكل ما يريده - فيما يقول - هو زوجة وقطعة من الأرض يملكها ملكية خاصة. والقيد الوحيد الذى يفخر دائما بارتدائه هو ارتباطه «بصوفى». غير أن روسو يشير إلى أنه ليس من السهل أن يكون رجلا مستقلا، طالما أنه على الرغم أنه يدرك أن حاجته إلى رفيق وصاحب مسألة طبيعية، عندما يصبح رب أسرة، فإنه يصبح بالضرورة مواطنا فى نولة^(٢). وبمجرد ما يحتاج

(١) «إميل» المؤلفات الكاملة، المجلد الرابع، ص ٨٢٥، ٨٥٥ - ٨٥٧ .

(٢) «إميل» ص ٨٢٣ .

المرء إلى رفيق فإنه لا يعود كائنا منعزلاً، ولم يعد قلبه وحيداً، فجميع علاقاته بالنوع الإنساني، وجميع انفعالات نفسه موجودة في هذا الشخص. وأول انفعالاته الطاغية سرعان ما يجعل الانفعالات الأخرى تتطور...»^(١). وفضلاً عن ذلك فإن المواطنة في الدولة لا تعالج، حتى في حالة اميل، على أنها شر ضروري؛ لقد أقنع روسو اميل أنه مدين بالكثير لقوانين البلاد التي يقيم فيها، بالغا ما بلغ قصورها عن القانون الأصلي الذي نشأ في العقد الاجتماعي والسيادة الشعبية. وهو مدين لهذه القوانين لا بسبب الحماية فحسب، بل أيضاً بسبب ما هو ثمين عند الإنسان: أخلاقية السلوك وحب الفضيلة...»^(٢). وعلى الرغم من أن الرجل في أغوار الغابة يمكن أن يعيش أكثر بسعادة، وأكثر حرية: «لا شيء أمامه يصارعه لكي يعيش متبعاً ميوله ورغباته.. وإلا لما كان فاضلاً». أما في المجتمع المدني، من ناحية أخرى، فإن الإنسان يمكن أن تحركه نوافع المصلحة المشتركة أو الصالح العام «فيتعلم أن يصارع نفسه، وأن يظفر وأن يضحي بمصلحته الخاصة من أجل مصلحة الجميع»^(٣). والقوانين لا تمنع المرء من أن يكون حراً بل هي بالأحرى تعلمه أن يحكم نفسه.

بهذه المقدمة عن الفضيلة والواجب المدني كمثال عليا «لاميل» - لا مجرد ضروريات - فإن المرء يعجب ما الذي حدث للرجل الطبيعي الذي شرع «روسو» في تربيته. في الجزء الأخير من الكتاب الخامس، يبدو أنه يحاول أن يفعل ما قال أنه مستحيل - ليجعل من «اميل» رجلاً طبيعياً ومواطناً في وقت واحد. لقد تقرر أن يعيش «اميل» في المكان الذي يستطيع فيه أن يخدم إخوانه على نحو أفضل، وليس ذلك بأن تستغرقه حياة المدنية في هذا العالم الفاسد، وإنما بأن يقدم مثلاً على بساطة الريف^(٤). والنقطة المهمة هي أن حياة الريف لم تقرر ببساطة بسبب أنها ليست هي الأفضل لشخص «اميل» وصوفي نفسها، بل بسبب النموذج الذي سوف تقدمه للآخرين. وفضلاً عن ذلك فبينما أنه من غير المحتمل أن يُستدعى لخدمة الدولة، طالما أن العالم الفاسد ليس

(١) «اميل» ص ٤٩٣ .

(٢) «اميل» ص ٨٥٩ .

(٣) «اميل» ص ٨٥٨ وانظر أيضاً ص ٨١٨ .

(٤) «اميل» ص ٨٥٨ - ٨٥٩ .

بحاجة إلى مثل هذا الرجل، فإذا ما تمّ استدعاؤه، فإن عليه مثل «سينسيناتوس Cin-cinnatus...»^(١) أن يترك محراثه ويذهب^(٢). وهكذا حاول «روسو» بوضوح أن يجعل من اميل مواطنا كما يجعله طبيعياً ومستقلاً سواء بسواء.

واستحالة هذه المطالب - أن الرجل المتعلم من الطبيعي أن يشغل كذلك نور الزوج والأب والمواطن - أمر يؤكد «روسو» بوضوح في رسالتيهما كل ما أكمل به «المتوحد». وسرعان ما أصبح واضحاً أنه من خلال السلطة الخفية للمعلم وحدها وتلاعبه المستمر بالبيئة يتأكد نجاح إميل كرجل طبيعي في المجتمع. والواقع أن «اميل» الراشد لا يزال يعتمد في يأس على معلمه، وعندما يتركه المعلم لكي يقود حياته يفشل كزوج، وكأب، وكمواطن. ولا يشعر بأنه حر إلا عندما يخلع من نفسه جميع هذه الارتباطات والمسئوليات ويصبح منعزلاً عاطفياً. والنتيجة التي يستخلصها في النهاية من تجربته هي التصديق الكامل لعدم التوفيق بين القسمة الثنائية: الرجل المواطن يقول: «عن طريق تحطيم الروابط التي تربطني ببلدي. فإنني أمد هذه الروابط عبر الأرض كلها، وأصبح إنساناً أكثر كلما توقفتُ عن أن أكون مواطناً...»^(٣). وكما لاحظت جوديث شكلار «ما هو مستحيل بالنسبة لاميل الذي تربي تربية كاملة، الذي يحوز على كل فضيلة ما عدا الصفة التي يضبط بها الناس والأحداث ليست، بالقطع، ممكنة لأناس أقل منه»^(٤). ولا يمكن أن تكون نتائج روسو عن الإنسان والمواطن أشد وضوحاً من ذلك.

غير أن تربية إميل هي نجاح وفشل في آن معاً: لقد فشل في أن يجعله رجلاً طبيعياً ومواطناً في آن معاً، غير أن روسو قد أخبرنا بالفعل في بداية الكتاب أن ذلك مستحيل^(٥). وكما يعترف اميل نفسه فإنه لا يستطيع أن يقوم بواجباته كزوج وأب دون مساعدة مستمرة من المعلم فهو لا يصلح للتقارب العاطفي أو الاعتماد، ولا للولاء الذي

(١) لوسيوس كونتوس سينستانتوس (٥١٩ - ٤٣٩ ق.م) قائد روماني، ورجل دولة، وكتاتور ٤٥٨ - ٤٣٩ (المترجم).

(٢) «اميل» ص ٨٦٠ .

(٣) «اميل» وصوفي - الأعمال الكاملة، المجلد الرابع ٩١٤ .

(٤) الناس والمواطنون ص ١٥٠ .

(٥) «اميل» ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

يكون للوطني كلما أصبح هجره لأسرته ووطنه واضحا. ومن ناحية أخرى فإن نهاية قصته تُبين أن تربيته قد نجحت في تكوين الرجل الحر داخليا - بمعنى تكوين استقلال الإرادة. وعندما يصبح مستعبدا، بالمعنى الحرفي، فمن المهم أهمية قصوى بالنسبة له - رغم أن عمله ويديه يمكن بيعهم من سيد إلى سيد آخر، - فإن إرادته، وعقله، وماهيته الحققة لا يمكن أن تنتهك، أو تمس حرمتها^(١). وابتهج لأنه نال حرية الداخلية - بسبب تربيته الفريدة - كما كان يقصد «روسو» التي يستطيع أحد أن يحرمه منها. إن استقلاله الشخصي والأخلاقي جعله حرا أساسا، حتى إذا ما كان جسده مستعبدا، ولقد فشلت تربيته في صنع المستحيل، وإن كان روسو ينتهي إلى أنها قد نجحت في تشكيل «اميل» في صورة رجل كلى يتكيف مع أي موقف، متحرر من جميع الارتباطات التي تقيدته.

لكن ماذا عن صوفى؟ إن تربيته الأنثوية المثالية، كما رأينا، مخصصة لأن يهبها تلك التركيبة المؤلفة من السحر الجذاب والتواضع المحتشم التي تتناسب مع الأب البطرياركي. وهي - مثل «اميل» - ليس لها سوى الخير الطبيعي للنفس العادية. وإذا كانت من جميع الجوانب هي أفضل من النساء الأخريات، فإن ذلك يرجع إلى تربيته^(٢). والمحصلة النهائية ذكرها في «المتوحد» وهي شهادة لا يمكن إنكارها على فشل المثل الأعلى للتربية الأنثوية، بمقدار ما هي شهادة على فشل محاولة جعل الرجل الطبيعي يتناسب مع الحياة الاجتماعية.

أولا: كيف يمكن لـ صوفى التي لم تكن تربيته مثل اميل أن تقبل الشرور الضرورية، ولهذا فإن حالها ينقلب رأسا على عقب عند وفاة ابنتها؛ فيضطر «اميل» أن يصحبها إلى باريس كل يذهب عنها حزنها. ولا بد أن تبرهن باريس التي هي حمأة الحضارة على سقوطهما. فيحطم اميل، الذي أفسدته المدنية، بأن يتهاوى في حبه وإخلاصه لصوفى. أما هي التي تربت على أن تدور حياتها كلها حول الحب، والتي يعتمد تقديرها لنفسها كله على ما إذا كانت محبوبة عند الرجال، لا تستطيع أن تتحمل

(١) «اميل وصوفى» ص ٩١٨ .

(٢) «اميل» ص ٧٦٣ .

مشاعر الرفض فتقترب جريمة الزنا، وتجد نفسها مع طفل من رجل آخر. ومع ذلك فقد كان اميل مقتنعا بإخلاصها وندمها حتى أن قلب صوفى ظل نقياً على الدوام. كما أنه كان على وعى بأن الإغراءات التي واجهتها كانت أعظم من أية إغراءات توقعت مقاومتها. ولم يجد بديلاً عن أن يتركها مع طفلها الذي ظل على قيد الحياة. ولم يكن من المتصور أن تستطيع قبول اعتذاره الذي كان عليه أن يقدمه، ووجدت نفسها بعد عملية الزنا إنسانة لا يمكن علاجها. لقد سقطت في عيون نفسها، وعيون اميل، وعيون روسو - في وقت واحد، من قاعدة تمثال المادونا (مريم العذراء) إلى حماة البغي. وما دامت قد سقطت مرة وفقدت عفتها، فليس هناك ضمان ممكن يمنعها من أن لا تفعل ذلك مرة أخرى، فلم يعد لها فضيلة تحافظ عليها: «فالخطوة الأولى نحو الرذيلة هي وحدها الخطوة المؤلمة»، وكان اميل يتدبر نفسه أهو حقا الرجل المستقل، كان عليه أن يتجاهل ذلك التعصب الاجتماعي الذي يتمسك بحرية الزوجة ضد شرف زوجها.

وينتهي إلى أنه في الواقع تعصب معقول يستحق الانتباه. لأن أي جريمة من هذا القبيل هي غلطة زوجها إما بسبب اختياره السيء للزوجة أو لأنه حكمها بطريقة سيئة. وهكذا يعترف اميل أنه الشخص الملام، إلى حد كبير، فيقرر أنه يستحيل عليه أن يعيد صوفى زوجة له مرة أخرى. ويتخذ القرار النهائي عندما يفكر في الرعب في أن تكون أما لطفل من رجل آخر لأن مشاركة طفلين عواطفها ابنه والابن المغتصب، فلا بد لها بالمثل أن تقسم مشاعرها بين اثنين من الآباء. ومشاعر الاشمئزاز عنده، ضد هذا الموقف، هي التي جعلته يصرخ: «إنني أتمنى أن أرى ابني ميتاً قبل أن أرى صوفى أما لطفل من رجل آخر»^(١).

نحن هنا أمام حالة واضحة غاية الوضوح نرى فيها مشاعر الرجل الطبيعي ومصالح أسرته ووطنه في صراع مباشر. وعندما تسود مشاعره فإن اميل بالطبع لا يكون في وضع يمكنه من تحمل نتائج انهيار أسرته أكثر من صوفى، مع مسئولية طفلين تابعين له، ولما كان حزيناً ومكتئباً لما رأى أنه خسارة لا تعوض أن يفقد المرأة التي يحبها، فإنه يترك أسرته ووطنه ويرحل، مستقلاً، ومكتفياً بنفسه، ليكون «متوحداً

(١) «اميل وصوفى» ص ٩٠٤ .

حقيقيا. وسرعان ما يمرح فى استقلاله الجديد الذى وجده، فلا يدين لأحد بشىء فيجد نفسه فى بيته، يدعم ذاته أينما ذهب ويروى لمعلمه «قلتُ لنفسي حيثما أعيش، وفى أى موقف أجد نفسي فيه، سوف أجد مهمتى التى أقوم بها كرجل باستمرار، ولا أحد يحتاج إلى غيره لو أن كل إنسان عاش لنفسه بطريقة سائغة». «لقد شربت من مياه النسيان، فانمحي الماضى من ذاكرتى...»^(١). غير أن صوفى لم تكن فى وضع يسمح لها أن تنسى الماضى، فلها طفلان سرعان ما توفى أحدهما، وليس ثمة وضع فى المجتمع ولا وسائل محترمة لمساعدتها سوى أن تعتمد على اميل. وبقينا لا احترامها لنفسها ولا العار الذى تشعر به. ولا افتقاره الواضح للمسئولية يجعل ذلك حلا ممكنا. ولم يكن أمامها بديل سوى الموت الذى تقبلته بطريقة لطيفة سعيدة بالنهاية^(٢).

وتنشأ أهمية هذا الحل الخيالى للعقدة، بالطبع، من واقعة أن كتاب «اميل» وعاقبته ليسا مجرد رواية قصصية، وإنما كشف عن مصير رجل وامرأة تعلمنا ليكونا مثالا يحتذى لجنسيهما. إلا أن زنا «صوفى» - مع رد فعل «اميل» الضرورى نحوه. دمرا هذه الأسرة المثالية، ولهذا أهمية قصوى لأن عدم ارتكاب الزنا هو الهدف الأساسى من تربيتها بأسرها. وكما يعترف اميل: «لو أن صوفى دنست فضيلتها، فمن من النساء تجرؤ أن تثق فى فضائلها؟!»^(٣).

«إن فشل صوفى مؤثر على فشل المجتمع فى عصر روسو، عن أفضل تربية ممكنة يمكن للمرأة، فى رأيه، أن تتلقاها؛ وهى مهينة لأن تكون على وعى كامل بمفاتها " تستهلكها حاجة مفردة للحب»^(٤) ويحكمها حكم الرأى العام. وكما أشارت «برجلين» أن «يوخارس .. Eucharis» حورية الماء الفاتنة - التى وحدث «صوفى» نفسها معها عندما كانت تتخيل «تليماخوس»، وليس الزوجة العفيفة «أنتيوب Atiope»^(٥). ونحن لن نندهش

(١) «اميل» ص ٩١١ - ٩١٢ .

(٢) «اميل» ص ٨٨٤ . ويروى «اميل» أن آخر يوم فى عمرها كشف لي عن (ألوان من السحر) لم أكن أعرفها عنها.

(٣) «اميل» ص ٨٨٧ .

(٤) «اميل» ص ٧٥١ .

(٥) تربية صوفى ص ١٢٦ - ١٢٧ وانظر اميل ص ٢٦٢ . [أنتيوب حورية فى الأساطير اليونانية أحبها زيوس كبير الآلهة فتخفى فى هيئة «ساتير» وجامعها أثناء نومها. وخافت أن ينكشف عارها فهربت إلى مملكة مجاورة... الخ المترجم].

إذن من أن صوفى عندما أهملها زوجها فى مدينة صاخبة أن تسلك تبعا لقاعدتها الأخلاقية المستهترّة. إن ضيق ما يسمى بدائرتها المناسبة، والآمال المتضاربة المفروضة عليها. بحيث تجعل واحدة، هو على الأقل أن تسلك كالمحظيات مع زوجها وكالراهبات مع غيره من الرجال. هذا الضيق يجعل من المحتم عليها أن «تسقط» على نحو ما حدث. ومن المؤكد أن المدينة الفاسدة مزجت مشكلات التى نتجت من تربية «صوفى»، غير أن فحص مصير جولى Julie التى لم تترك أبدا جو الريف الشاعرى، يكشف عن أن المسألة أكثر تعقيدا من ذلك.

و«جولى» هى المرأة المثالية عند روسو، هى ذلك الطراز من الناس الذى كان هو نفسه سيحبه^(١) فهى حساسة إلى أقصى حد، عاطفية إلى أقصى حد، وهى تزخر بصفات مثل: التواضع، الرومانسية، الجاذبية الجنسية - التى يعتبر روسو المرأة التى لا تملكها بغير قيمة. والموضوع الرئيسى لـ «هلويز الجديدة» هو الصراع بين مشاعرها وواجبها، الذى يعتقد «روسو» أن أية امرأة حساسة لابد أن تواجهه. فقد تمزقت «جولى» بين مشاعرها العاطفية نحو معلمها سان بيرو Saint - Preux وبين إحساسها القوى بالواجب نحو أمها ونحو أب مستحيل ليس لديه شىء يعمله مع عامة الناس، ويريد أن يزوّج ابنته إلى صديق من عائلة نبيلة^(٢). وعندما قهر حب جولى العنيف لسان - بيرو وتغلبت على واجبها فى الاحتفاظ ببيكارتها، فقد شعرت - كما يتوقع المرء من مثل هذه الشخصية العاطفية - أنها دُمّرت تماما. وفى رسالة يائسة إلى ابنة عمها وكاتمة أسرارها كتبت تقول: «دون أن أعرف ما الذى أفعله اخترت أن أقوم بتدمير نفسى؛ فقد نسيت كل شىء ولم أتذكر سوى حبي فحسب. وهكذا فى لحظة عارمة تحطمت إلى الأبد فقط سقطت فى أعماق العار التى لا يمكن لفتاة أن تشفى نفسها منه، ولو أننى عشتُ فسوف أكون أشدُّ بؤسا...»^(٣). فبعد أن فقدت بكارتها شعرت أنها

(١) الاعترافات - المؤلفات الكاملة - المجلد الأول ص ٤٣٠ .

(٢) مما له مغزاه أن النساء فى روايات «روسو» يظهرن وليس لهن سوى أحد الوالدين، ومن ثم فإن عليهن مواجهة الصراع الكامن للواجبات الأسرية مع مشاعرهن وضمائرهن الخاصة.

(٣) هلويز الجديدة - الأعمال الكاملة - المجلد الثانى ص ٩٦ .

لم يعد لها قيمة كشخص بعد الآن وغمرها الإحساس بالألم فصرخت على معلمها: «كن وجودى كله، فأنا الآن لا شىء...»^(١).

يعترف «روسو» من خلال جولى - التى رغم تقواها المبالغ فيها أبعد ما تكون عن الشخصية الذكية الحقيقية أكثر من صوفى - يعترف إلى القارئ أن محنتها محنة مرعبة ، لم يستطع إنسان قط أن يتحملها. وتكتب جولى إلى حبيبها قائلة:

«تأمل وضع جنسى وجنسك فى تعاستنا المشتركة، ثم احكم من منا مدعاة أكثر للشفقة؟ أن تضع انعدام الإحساس وسط اضطراب الانفعالات العنيفة: لكى تبدو مرحة راضيا فى حين أنك فريسة آلاف من الأحزان، والتظاهر بأنك هادئ فى حين أن نفسك حزينة جزعة. تقوم باستمرار ما لا تفكر فيه، وأن تخفى مشاعرك، وأن تضطر أن تكون زائفا، وأن تكذب أثناء التواضع - ذلك هو موقف جميع البنات فى مثل سنى. وهكذا انقضت أجمل سنوات عمرنا تحت طغيان السلوك اللائق والاحتشام الذى يضاف فى النهاية إلى طغيان الوالدين الذى يجبرنا على زواج غير مناسب. غير أن محاولاتهم كبت مشاعرنا تضيع أدراج الرياح: فالقلب لا يعمل إلا وفقا لقوانينه الخاصة ويهرب من العبودية، ويهب نفسه تبعا لإرادته»^(٢).

وبغض النظر عن الزواج بالإكراه فإن روسو يرى كل هذه التعاسة نتيجة حتمية لكونها ولدت أنثى. وعلى حين أن «سان - بيرو» قد تأثر كثيرا بانفصالهما الإجبارى، فإنه لم يهبط العار بمكانته - مثل جولى - ولم يضطره إلى إخفاء مشاعره: فهو لم يضطر إلى الزواج من امرأة لم يحبها بل يستطيع على العكس أن يقوم ببعض الرحلات والاستثمارات، وأن يستمتع بوجوده المستقل بقدر ما يستطيع بدون المرأة التى يحبها. ولما كانت «جولى» لم تكن متزوجة عندما ارتكبت جريمتها البشعة، كما أن الطفل الذى حملت فيه أجهض، فإن الأمل الذى لا يزال قائما هو التكفير الأخلاقى. أيا ما كان السلوك الذى تختاره فإنها هى نفسها لا يمكن أن تكون سعيدة ولم يوضع

(١) هلويز الجديدة ص ١٠٣ .

(٢) هلويز الجديدة ص ٢١٢ .

الاختيار قط في المنظور الذي أرادته هي، وإنما هي باستمرار كنزاع بين ثلاث إرادات لثلاثة رجال حولها - حبيبها، ووالدها، وأخيرا زوجها. وتتساءل «من الذي أفضله بعيدا عن حبيبي ووالدي؟» وهي تحاول أن تقرر هل تفر من البيت أم تتزوج الرجل الذي اختاره والدها؟». أيا ما كان الطريق الذي اختاره فلا بد أن أموت بائسة وأثمة»^(١). ومن ناحية أخرى فعلى حين أنها لا تستطيع أن تتزوج سان بيرو Saint - Preux دون موافقة والدها، فقد وعدت حبيبها أنها لن تتزوج شخصا آخر دون موافقته^(٢) وبمناسبة زواجها غير المرغوب فيه، تصف «جولى» مصيرها في هذا العالم الذي تعيش فيه ويحكمه الرجال. «مقيدة بأصفا لا يمكن فكها بمصير الزوج أو بالأحرى بإرادة الأب، لقد دخلت إلى طريق جديد في الحياة الذي لا بد أن ينتهى بالموت فحسب»^(٣).

وعندما تضع «جولى» واجب والدها قبل حبيبها «لسان - بيرو» وتتزوج الرجل الذي أجبرها عليه والدها، فإنها - فى نظر روسو - قد كفرت عن ذنبها واستردت نفسها. غير أن القصة كلها تعتمد على عدم انتهاء الصراع ضد مشاعرها، ومحاولاتها المتكررة لإقناع نفسها أنها تغلب على عواطفها. وشيئا فشيئا تستعيد شرفها وفضيلتها فى دور الزوجة والأم «ارتقى يا نفسى وساعدينى ضد تأنيب الضمير الناتج عن حالتى الأخرى...»^(٤). ومع ذلك فهى لم تكن من جانبها سعيدة رغم أن زوجها «فولمار - mar..» المحترم كان يعاملها كطفلة مدللة، ورغم أطفالها الأصحاء، ودينها، واتحادها الجديد (على مستوى غير مادى تماما) مع سان بيرو. رغم أن الوضع المنزلى الريفى الذى تعيش فيه، قد وصف بأنه أسعد حياة ممكنة على الأرض^(٥). وأن جولى نفسها وصفت بأنها الأم الكاملة، وربة منزل حسنة الذوق، فإنها تعترف لسان - بيرو قرب نهاية حياتها بتعاستها التى لا تفسير لها. رغم أنها رأت فحسب مبررات للسعادة من

(١) هلويز الجديدة ص ٢٠١ .

(٢) هلويز الجديدة ص ٢٢٦، ٢٢٧ .

(٣) هلويز الجديدة ص ٢٤٠ .

(٤) هلويز الجديدة ص ٤٠١ .

(٥) هلويز الجديدة ص ٥٢٨ .

حولها، تقول: «أنا لستُ راضية» وعندئذ «فأنا فى منتهى السعادة، بل إن السعادة تغمرنى». ولما كان «الندم الخفى يمزقها فإنها تندب حظها» «روحى الفارغة تشتاق إلى شىء يملؤها»^(١). والحل النهائى هو موت جولى، فيما يشبه الحادثة^(٢). وجاء اعترافها بعد الوفاة أنها لا تزال غير قادرة على قهر عاطفتها تجاه «سان - بيرو»، يمكن أن ترى فقط كتعليق مأساوى على إحساسها المضلل بانتصارها على مشاعرها^(٣). «فهى أخيراً قد تحققت من أن العواطف العظيمة يمكن أن تختنق، ومن النادر أن يكون من الممكن إزالتها»^(٤).

لقد تصرفت «جولى» كما كان ينبغى عليها أن تفعل، منذ خطيبتها الكبرى الأولى: فاحتفظت بفضيلتها بون أن تمس طوال زواجها، رغم أنها انخدعت فى اعتقادها أنها شفيت من حبها. ومن ثم فعندما تحققت من أنها كانت على الدوام، ولا تزال، فى خطر الخضوع للغواية، فقد كان موتها هو الطريق الوحيد للخروج من المأزق أو الإحراج المنطقى. فأى اتحاد جديد بينها وبين «سان - بيرو» سوف يكون من هذه الزاوية بالغ الخطورة حتى أنه سوف يأخذ الموضوع من أيديهم. ولقد فقدت جولى إرادة الحياة عندما مرضت بعد انتشار ابنها من الفرق. وهكذا نجد أن عاطفتها هربت من تحطيم أسرة «فلمار» المثالية لكن عن طريق تدمير نفسها بدلاً منها فحسب.

(١) هلويز الجديدة ص ٦٩٤ .

(٢) تنتهى الرواية نهاية مأساوية إذ تخرج «جولى» مع أهلها للنزهة على شاطئ البحيرة، وفيما يجرى ولدها يسقط فى الماء، فتلقى بنفسها وراءه، وتتمكن من إنقاذه، لكنها مرضت على أثر ذلك وتلازم الفراش غير أن الحمى التى أصابتها وهى تنقذ ابنها من الفرق، تشتد عليها وتموت - وهذا معنى قول المؤلفة أنها ماتت فيما يشبه الحادثة» (المترجم).

(٣) كتبت «جولى» وهى على فراش الموت إلى حبيبها سان بيرو خطاباً غير مفلق، تعترف له فيه أنه كان على الدوام حبها الوحيد، وهكذا لطمت زوجها لكمة عنيفة، وقابلت وفاءه وثقتة بها، بهذا الرفض القاسى وهى على فراش الموت - وهذا معنى قول المؤلفة «الاعتراف الذى جاء بعد الموت» (المترجم).

(٤) هلويز الجديدة ص ٦٦٤ .

وكما أكدت «جوديث شكالر» فإن جولي بوصفها ضحية بشرية هي أشبه بشخصية المسيح^(١). طالما أنها المرأة المثالية، التي تُحب وتُحَب، اللطيفة، الجديرة بالاحترام، التي تكافح باستمرار لكي تكون فاضلة، وواقعة أنها ضحية لها مضامين عميقة في نظرية روسو كلها عن النساء. و«جولي» هي البطلة عند روسو، ولا بد لنا أن نعترف أنها رغم صرامتها وتربيتها المكبوتة، وحبها للفضيلة فهي عاطفية جدا فهي مثل هلويز الأصلية «مخلوقة للحب». ولما كانت لها هذه الشخصية فقد كُتِبَ عليها أن تقضى حياتها الناضجة كلها تصارع مشاعرها الطبيعية، من أجل عفتها البالغة الأهمية. واجبها نحو والديها وأن تطيع الأحكام المبتسرة في عالم يحكمه التفاوت وعدم المساواة. ويؤكد روسو في كتابه «إميل»: «إنه في أوضاعنا التي لا معنى لها فإن حياة المرأة الصالحة هي صراع دائم مع نفسها»^(٢). غير أن أفكاره الخاصة عن تربية النساء ووضعهن المناسب في المجتمع، إذا ما أخذت مع معتقداته عن الحب والزواج، تجعل من الواضح أنه في أي وضع يجد نفسه على استعداد أن يتصور أو يتخيل، فإن طراز المرأة التي يقدسها ليست فقط المرأة المحكوم عليها بالصراع الدائم، بل التي يكون مطلوبا منها أيضا (لا في جو المدينة الفاسد فحسب، بل حتى في جو الريف النقي أيضا) أن تضحي بحياتها من أجل الفضيلة. المطالب القديمة المزدوجة المطلوبة من المرأة - أن تكون في آن معا ملهمة الحب الرومانسي والجنسي، والحارس المخلص للزواج - موجودة بشكلها المتساوي عند روسو.

هناك ثلاث مجموعات مهمة من المزايم المتضاربة عن الفرد البشري يناقشها روسو في مؤلفاته. ولا بد من النظر إليها في ضوء نظرياته عن النساء والأمثلة التي ابتكرها عن المرأة المثالية.

أولا: الصراع بين نواضع الفرد ومطالب الدولة الجمهورية. ويقول روسو: إن الرجال لابد من تربيتهم كأفراد أو مواطنين. غير أن تربيته للنساء لا تناسب أن يكن لا هذا ولا ذاك.

(١) الرجل والمواطن ص ١٢٠ ويقول رينييه سكيرر أيضاً أن جولي لعبت أيضاً دور المخلص «جان جاك روسو والأسرة الكبيرة» في كتاب Baud - Bovy ص ١٩٩ .

(٢) إميل ص ٧٠٩ .

ثانياً: الصراع بين الالتزام المستغرق بعلاقة الحب الثنائى وحاجات المجتمع الأوسع - سواء أكان الأسرة أم الدولة أو الجنس البشرى ككل.

ثالثاً: المجموعة الثالثة من المزايم التى درسها روسو، لكنه لم يعترف تماماً أنها فى صراع، تعتمد على مطالب الأسرة ومطالب الجمهورية المثالية. وما أجادل فيه هو أنه أيا ما كانت صراعات الولاء فى المجموعة الثانية والثالثة إشكالية بالنسبة للرجل، فإن المرأة التى تربت وتحدت كما أراد لها «روسو» - هى التى يختارها لتكون أقل قيمة فى كل زوج من الالتزامات البديلة، والتى سيكون ميلها الضرورى نحو تقويض كل من مؤسساته المثالية، والأسرة الأبوية، والجمهورية الوطنية الديمقراطية.

إن الموضوع الرئيسى فى النظرية الاجتماعية عند «روسو» هو الصراع بين المثل الأعلى للرجل الطبيعى المستقل، والمثل الأعلى للرجل الذى هو جزء من كل أوسع: أى وطنه، بين الإنسان والمواطن. وهو فى بداية كتاب «اميل» يضع صراحة المأزق أو الإحراج المنطقى الذى هو بالنسبة له نقطة البدء الضرورية لأية نظرية اجتماعية أمينة: لا يمكن لأى شخص أن يكون إنساناً ومواطناً: «الرجل الطبيعى هو دائماً لنفسه فهو وحدة، كل مطلق، ليس له علاقة بأى شخص آخر إلا بذاته وبأولئك الذين يشبهونه»^(١) والشئ الجوهري فى تربية الرجل الطبيعى هو أن نترك الطبيعة تأخذ مجراها «التربية كلها تعتمد على أن لا تفسد الرجل الطبيعى بأن تجعله يتوافق مع المجتمع...»^(٢).

لكن التربية المفروضة للمواطن تختلف عن ذلك أتم الاختلاف. ولقد تصور «روسو» أنه برهن من خلال بنائه للحالة المفترضة للطبيعة، إن الميل الطبيعى للإنسان هو نحو الخير، بمعنى وجد أنه مما يسعده أن يكون كريماً مع رفاقه، طالما أنهم لم يحبطوا حاجاته أو رغباته. لكن مطلوب من المواطن أن يكون نسيجا أخلاقياً أكثر من ذلك: أن يعيش فى تقارب وثيق مع الآخرين وفى اعتماد متبادل معهم، وسيكون مطلوباً أن يؤدى واجباته التى ربما كانت غير مقبولة عنده، وأن يقوم بتوضيحات لها اعتبارها. وهكذا

(١) اميل ص ٢٤٩ .

(٢) هلويز الجديدة ص ٦١٢ واميل ص ٢٥١ .

نجد أنه بالنسبة له لا يكفي أن يعتمد على ميوله الطبيعية ليكون كريما ورفيقا، لأنه لكي يشعر بالسعادة لأبد له باختصار أن يتعلم أن يكون فاضلا:

«ليس المواطن سوى صورة الكسر أو البسط الذي ينتمي إلى مقام، والذي تكمن قيمته في علاقته بالكل - الجسم الاجتماعي، والمؤسسات الاجتماعية الجيدة هي تلك التي تعرف كيف تُفسد الصفات الطبيعية، أن تنزع عنه وجوده المطلق وتعطيه وجودا نسبيا، وأن تُدخل الذات الفردية في الجماعة، بحيث لا يعود كل فرد يفكر في نفسه على أنه واحد، بل كجزء من كل، وتصبح مشاعره هي فحسب مشاعر عضو في هذا الكل»^(١).

إن تربية المواطن الحقيقي، مثل في نظر أرسطو تربية الأسبرطيين والرومان، تنطوي، على أقل تقدير على تدمير معظم الميول الطبيعية عند الإنسان وتغيير شكل شخصيته. وهو يسوق أمثلة: بروتس Brutus الذي حكم على أبنائه بالموت لأنهم خانوا الجمهورية «بيدارتس Pedaretes»^(٢) الذي رُفض من عضوية «المجلس الاسبرطي»، وابتيهج عندما علم أن هناك ثلثمائة مواطن هم أكفأ منه. والأم الاسبرطية التي جرت إلى المعبد لكي تشكر الآلهة لانتصار اسبرطة رغم أن أبنائها الخمسة قتلوا لكي يبلغ الوطن هذا النصر^(٣). «إن المواطن صاحب النشأة الاجتماعية الذي يدافع عنه روسو لابد أن يعيش لوطنه: فلا هو يفكر في نفسه كفرد ولا هو يفكر في الإنسانية ككل. بل يفكر في رفاقه في الوطن فحسب: فهو لابد أن يكون وطنيا وعن طريق الميل مع العاطفة بالضرورة...»^(٤).

كان روسو يعتبر جمهورية أفلاطون المثل الرائع للتربية العامة الحقيقية، ولدينا في «مقال عن الاقتصاد السياسي» و«ملاحظات حول حكومة بولندا» معالجته لهذا الموضوع. وهو يؤكد في «خطاب إلى دالمبير» أن الطريقة الوحيدة للبرهنة على أن

(١) اميل ص ٢٤٩ .

(٢) أحد الاسبرطيين تقدم كي يقبل في مجلس الثلثمائة فيرفض وينصرف مسرورا لوجود ثلثمائة رجل في اسبرطة أفضل منه (المترجم).

(٣) اميل ص ٢٤٩ .

(٤) ملاحظات حول حكومة بولندا - المؤلفات الكاملة ص ٣ ص ٩٦٦ . وانظر الفصل الرابع - وانظر أيضاً خطاب ١١ دالمبير ص ١٢٥٩ - ١٢٦٠ .

التربية قد تحسنت هو أن نبين أنها أنتجت مواطنين أفضل. غير أنه يقرر في «اميل» أنه لا يوجد وطن ولا مواطنون في عصره، ويذهب إلى أنه لا يمكن أن يكون هناك من ثم - تربية عامة؛ وأنه سوف يناقش البدائل الأخرى: التربية الخاصة والتربية المنزلية^(١). والنقطة الجوهرية عنده هي أن الخيار لابد أن يُتخذ، ولابد لعملية التنشئة الاجتماعية لابد أن تكافح إما المجتمع، لكي تصنع الرجل الطبيعي، وإما الطبيعة لكي تصنع المواطن الحقيقي:

«إن من يرغب في الاحتفاظ بصدارة المشاعر الطبيعية في الحياة المدنية لا يعرف ما الذي يريده. إنه دائما يتناقض مع نفسه، إنه يتأرجح باستمرار بين ميوله وواجباته، وهو لن يكون أبدا لا رجلا ولا مواطنا، ولن يكون صالحا لنفسه ولا لغيره...»^(٢).

وعند هذه النقطة من حجته يطرح «روسو» مشكلة كيف يمكن للإنسان أن يربي نفسه، كما ربي هو «اميل»، ويعتاد أن يعيش مع الآخرين. يقول: «ربما إننا اقترح هدفا مزوجا أن يعاد توحيدده في هدف واحد بالتخلص من تناقضات الإنسان لاستطاع إزاحة عقبة رئيسية من طريق سعادته»^(٣).

وإنكار «روسو» لإمكان عودة مثل هذه الوحدة بين الهدفين يعبر عنه بما أصبحه «اميل»، لأن تربية اميل لم تكن تستهدف على الإطلاق أن يكون منعزلا بل بالأحرى: «أن يكون إنسانا طبيعيا يعيش في مجتمعه المتوحش الذي يربي ليعيش في مدينة»^(٤). فلا بد أن يعرف كيف يعيش إن لم يكن مثل غيره من السكان، فعلى الأقل أن يعيش معهم واختياره أن يكون زوجا وأبا يعنى أن عليه أن يتقيد بالتزامات المواطن^(٥). وفشل «اميل» في القيام بهذه الأنوار الثلاثة دليل على صراع لا يمكن حله بين الرجولة والمواطنة. لقد جعلته تربته صالحا لأن يكون هذا الرجل المعين، لا أن يتحمل أية ارتباطات شخصية أو وطنية. وحل العقدة في قصة «اميل» هو ببساطة تصديق على ما سبق إقراره في بداية الكتاب الأول - على المرء أن يختار أن يربي كإنسان أو كمواطن لكن ليس الاثنين معا.

(١) ،٢) اميل ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) اميل ص ٢٥١ (والتشديد من عندي) .

(٤) ، (٥) اميل ص ٤٨٣ - ٤٨٤ ، وانظر ص ٦٥٤ «كعضو في مجتمع فإن عليه أن يؤدي واجباته» .

هناك منهج واحد ممكن فحسب لتربية المرأة عند روسو: فهي ليست مثل «اميل» تربي لكي تكون شخصا ذا حكم مستقل، وكفاية اقتصادية ذاتية، وقدرة مكتسبة لقبول الضرورة، والتكيف مع أى موقف تجد نفسها فيه؛ فلا هي مثل الأطفال البولنديين لتكون المواطنة الأولى فى وطنها، بحيث تنشأ اجتماعيا وهي تفكر فى الوطن الأم فى كل لحظة وتجعل رغباتها تابعة دائما للصالح العام. وليس ثمة ذكر للبدائل من أمثال تربية «صوفى» و«جولى». لقد تربوا بدلا من ذلك ليكونوا ذيو لا إضافية للرجال - بنات وزوجات وأمهات خاضعات ومطيعات - لرجال سوف يعتمدن عليهم فى معيشتهم وحتى يكون لهن احترام ذاتى. والعلاقات اللائى تم إعدادهن لها هي علاقات شخصية تماما، لأن وسائلهن الوحيدة المناسبة للسلطة والتأثير هي من خلال الرجال القريبين منهن. وقد تعلمن استغلالهن لأغراضهن الخاصة.

ومن ثم يبدو من غير المألوف أن يتوقع «روسو» من «نساء جنيف» أن يستفدن من وسيلتهن الوحيدة للسلطة فى العالم أن يعجلن من إيجاد الفضيلة المدنية والمصلحة العامة؛ بالنسبة لهن أو أى نساء أخريات تعلمن بالطريقة التى يعتبرها مناسبة - لم يتلقين أية تنشئة اجتماعية، ولم يشاركن فى أية حقوق أو واجبات للوطن - أن يضعن المصلحة العامة قبل مصلحتهن الخاصة أو مصلحة الأشخاص القريبين منهن، لابد بالقطع أن تكون ملحوظة تبعا لاستدلال «روسو». وفى كتابه «العقد الاجتماعى» ينسب اقتناعه بأن من واجبه دراسة الحكومات والمسائل العامة، إلى واقعة أنه ولد مواطنا فى دولة حرة وعضوا له حق التصويت فى السيادة^(١). ولا يمكن له أن يتصور امرأة تحركها مثل هذه الدوافع؛ ولا شىء فى التربية التى فرضها على الفتيات تؤدى إلى توقع أن يكون للولاء الوطنى مكان الصدارة على الولاءات الشخصية أو الأنانية.

وصراع الولاءات الثانى الذى واجهته النظرية الاجتماعية عند روسو هو الصراع بين خصوصية الحب الحميم وخير العالم الخارجى - سواء أكان هذا العالم الخارجى هو: الأسرة، أو الوطن، أو الإنسانية - وعلى الرغم من إعجابه بالحب الرومانسى الذى

(١) العقد الاجتماعى - المؤلفات الكاملة المجلد الثالث ص ٣٥١ .

يتوق إليه، ويصوره على أنه يتأسس على وهم محض^(١). فهو يخلق موضوعات حبه بأن يغطي هذه الموضوعات في العالم الواقعي بغلالة من الخيال. وكما تقول جولي: «إننا غارقون في الحب بالصورة التي نستحضرها أكثر من الموضوع الذي نلحق به. فإذا ما رأينا موضوع حبنا على نحو ما هو بالضبط، فلن يكون هناك حب بعد ذلك في العالم»^(٢)؛ وفي المرة التي وقع فيها روسو نفسه في حب «مدام دوتو»، كان ذلك نتيجة لأنه ألبسها صفات «جولي» التي ابتكرها. وبالمثل فإن «اميل» كان يُعدّ مقدما للقائه مع زوجته المقبلة بأن تكون لديه «صوفى» المثالية حاضرة بالتفصيل في خياله. لكننا نلاحظ أنه لم يقع في غرامها في اللقاء الأول، بل عندما سمع اسمها، وتحقق أن هذه الفتاة هي بالفعل التي تجسد خيالاته^(٣). ولما كان هذا الحب مؤسساً على وهم فلا بد بالضرورة أن يكون عابراً سريع الزوال. وكما كتبت «جولي» إلى «سان - بيرو»: على الرغم من أن المرء قد يشعر بالحب بعنف حتى يبدو أنه لا يفنى. فإنه لا مندوحة له عن الذبول، والملل والضجر، ثم تأتي التخمة. الحب «يبلى مع الشباب، ويذبل مع الجمال، ويموت مع برودة الشيخوخة طالما أنه في بداية العالم لم ير أحد أبداً حبيبين بشعر أبيض يتنهد الواحد منهما من أجل الآخر»^(٤). (وليس حب جولي و«سان - بيرو»، بالطبع، استثناء من ذلك، وما دام قد بدأ في مرحلة مبكرة فلا يمكن أن يكون هناك تساؤل عن التخمة. والواقع أن نعمة الرسائل بينهما توحى بقوة أن عاطفتها ظلت حية عن طريق إحباطها).

إذا استمر الحب فإن روسو لا يسأل عن شدته: إما إلى أي حد ينظر «روسو» إلى خصوصية علاقة الحب بين اثنين، وكيف أنه يستهلك الاثنين، فذلك ما يعبر عنه

(١) اميل ص ٤٩٣ - ٤٩٤ . و«الاعترافات» ص ٤١٤ . وبالنسبة لمناقشتين حديثتين وممتعتين عن فلسفة

الحب عند «روسو» انظر جون شارفت: «المشكلة الاجتماعية في فلسفة روسو» ص ١١٤ - ١١٧ . وكذلك

اليزابيث رابابورت «حول مستقبل الحب: روسو والمناصرون الراديكاليون للمرأة» ص ١٨٥ - ٢٠٥ .

(٢) راجع التصدير الثاني لـ «هلويز الجديدة» ص ١٥ - ١٦ والنص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٣) اميل ص ٧٧٥ - ٧٧٦ .

(٤) هلويز الجديدة ص ٣٧٢ .

صراحة فى كتاب «الاعترافات» - كما يعبر عنه «فى كتاباته الأخرى»^(١). «ويشار إلى أفلاطون على أنه فيلسوف المحبين الحقيقي، لاقتناعه أنه من خلال العاطفة لا يكون لديهما أبداً شىء آخر...»^(٢). والمثل الواضح للطبيعة الخصوصية للحب هو الثورة المثيرة «لسان - بيرو» الذى عاش لعاطفته وحدها. فبعد أن احتال - هو وجولى - أخيراً لقضاء الليلة معا. كتب إليها يقول: «أه! فلنمت يا حبيبتي! فلنمت يا حبيبة قلبي! ما الذى يمكن لنا أن نفعله من الآن فصاعداً بشباب لا طعم له، لقد استنفدنا الآن جميع مباحجه...»^(٣) لقد وضع نفسه وإرادته تماماً تحت تصرف «جولى»، مسقطاً من حسابه أية علاقة إلا علاقته بها. وعندما انفصل عن حبه استنجد بابنة عمها «كلير»: «أه: ماذا تكون حياة الأم، وماذا تكون حياتي الخاصة، وحياتك وحتى حياتهن، ماذا يكون وجود العالم بأسره بعد المشاعر الجميلة التى تربطنا؟!»^(٤). ولقد أشار «لورد بومستون» الصديق الحميم لسان - بيرو إلى الميول الفوضوية للحب الخصوصية، المقصور على شخص واحد، عندما نتحدث عن الرابطة التى تربط بين العاشقين فقال: «جميع القوانين التى تمنعه هى قوانين ظالمة، والآباء الذين يصدرون هذه القوانين أو يحطمون هذا الحب هم طغاة. فهذه الرابطة العفيفة الطبيعية لا تخضع لقوة السيادة ولا سلطة الآباء، وإنما لسلطة الأب المشترك وحده الذى يحكم القلوب...»^(٥). ويرى «بومستون» أن حقوق الأسرة والدولة ليس لها الصدارة على حقوق الحب.

إن المطالب المطلقة التى يفرضها الحب، كما يتصوره روسو، وكما وصفها «بومستون»، والمتجسدة فى استسلام سان - بيرو بالكامل، الذى قاده إلى أن يرى الحب على أنه تهديد للولاءات الأخرى المطلوبة منا؛ إن قيمة الرجل الذى يتحدث بالطريقة التى يتحدث بها سان - بيرو واقتبسناها فيما سبق، بوصفه عضواً فى عائلة،

(١) انظر، مثلاً، الاعترافات ص ٤٢٤ .

(٢) هلويز الجديدة ص ٢٢٣ .

(٣) هلويز الجديدة ص ١٤٧ .

(٤) هلويز الجديدة ص ٥٦ وص ٣١٢ .

(٥) هلويز الجديدة ص ١٩٤ .

ووطن أو حتى عضوا في الجنس البشري، هي يقينا لا يمكن الشك فيها. وكل ما يستطيع التفكير فيه هو عاطفته نحو جولي. لكن على الرغم من أن روسو يتصور أن الحب الجنسي - الرومانسى على هذا النحو يذبل وينوى، فإنه يبدو أن النتيجة التي انتهى إليها هي أن الحب، مثل جميع العواطف الأخرى، يكون جميلا لو أننا سيطرنا عليه ولم نتركه يسيطر علينا. وهو يخبر «اميل» أن الرجل لا يكون أثما إن هو أحب امرأة جاره، طالما أنه يسيطر على عواطفه ويؤدى واجبه، لكنه يكون أثما لو أنه أحب زوجته لدرجة أن يضحى بكل شيء آخر في سبيل ذلك الحب^(١). وفي أحد الخطابات يُلخّص أفكاره على النحو التالي:

«إننا نُعاقب، بحق، على تلك الارتباطات الخاصة التي تعمينا وتجعلنا ظالمين، وتحد من عالمنا ليصبح هو عالم الأشخاص الذين نحبهم فحسب. وكل تفضيل للأصدقاء هو سرقة ترتكب في حق الجنس البشري، والوطن. فالناس جميعا هم إخوة لنا وينبغى أن يكونوا جميعا أصدقاءنا»^(٢).

وإذا كانت الصداقة سرقة، إذن سيكون الحب والولاءات الأوسع عرضة للتصادم. حيثما تكون هناك فرصة لأن يكرس المرء نفسه للجماعة، وأن يخرج من دائرة الخصوصية الضيقة إلى الوطن الأم أو الإنسانية، إذن الحب المقصور على اثنين، لا بد من تجنبه بوصفه تهديدا للولاء المدنى والإنسانى. وهذا هو السبب الذى جعل «روسو» يرفض تقديم الحب الرومانسى على المسرح فى «جنييف»، ما دام «يعتقد أن المدينة لديها قدر من الأخلاق والمشاعر المدنية، وأن هذا القدر يهبط برعايتها للخصوصية الجنسية والشخصية...»^(٣). إذ على الرغم من أنه من الأفضل كثيرا أن تحب سيدة من أن تحب نفسك وحدها فى العالم كله.. وأفضل من ذلك من يوزع عواطفه بالتساوى مع ما يملك من رقة...»^(٤).

(١) اميل ص ٨١٩ .

(٢) مراسلات عامة، المجلد الرابع ص ٨٢٧ .

(٣) خطاب إلى دالمبير ص ١١٨ .

(٤) خطاب إلى دالمبير ص ١١٧ .

ولما كان يدرك الحب الرومانسى على أنه أمر خاص تماما، ما يدرك الزواج على أنه المؤسسة الاجتماعية الجوهرية، فإن روسو لم يكن متأكدا مطلقا أن استمرار العاطفة الشديدة يتنافى مع الزواج؛ ومن المؤكد أنه يعبر أحيانا عن رغبته فى أن يكونوا على هذا النحو؛ وهو يأسف أسفا شديدا على واقعة أنه على الرغم من أنه إذا ما طالت سعادة الحب أثناء الزواج لكان لدينا جنة على الأرض، فإن ذلك لم ير أبدا أنه قد حدث. ولسوء الطالع: «على الرغم من جميع الاحتياطات، فإن الامتلاك يقضى على سعادتنا، وعلى الحب قبل أى شىء آخر»^(١). وهو ينصح «صوفى» بإحباط ذبول علاقة «اميل» الغرامية بها، بقدر المستطاع، بأن تواصل الإغراء والفتنة وأن تمنحه عطاياها الجنسية باقتصاد شديد. لكن رغم ذلك سيأتى الوقت بالضرورة، كما هى الحال فى أى زواج، الذى سوف تبرد فيه حرارة الزوج الملتهبة. وهكذا فإن المشاعر التى أقيم عليها الزواج لابد فى النهاية أن تصبح رقيقة، وموضع ثقة وتقدير متبادل، وفضيلة، وتلاؤم بين الوالدين، تدعمه وتقويه الرابطة الهامة إلى أقصى حد، الرابطة التى يشكلها الأطفال بين الوالدين -: «وهى رابطة كثيرا ما تكون أقوى من الحب ذاته»^(٢).

غير أن روسو فى «هلويز الجديدة» يجعل «جولى» تناقش لا فقط أن الحب الرومانسى لا يمكن أن يستمر أثناء الزواج، بل إنه لا مكان له فى الزواج الجيد كما كتب:

«يصاحب الحب قلق متواصل بسبب الغيرة أو الحرمان، وقليل منه يتلاءم مع الزواج الذى هو حال من الفرح والسلام؛ فالناس لا يتزوجون لكى يفكر كل واحد منهم فى الآخر فحسب، وإنما لكى يحققوا معا واجبات الحياة المدنية، أن يسيطروا على بيوتهم بحكمة، وأن يربوا أولادهم تربية جيدة، أما المحبون فهم لا يرون أبدا سوى أنفسهم، ولا يهتم الواحد منهم إلا بالآخر فحسب. والشىء الوحيد الذى يستطيعون عمله هو أن يحب الواحد منهم الآخر. وليس ذلك كافيا بالنسبة للمتزوجين، الذين لديهم العديد من الاهتمامات التى لابد أن ينتبهوا إليها»^(٣).

(١) اميل ص ٨٦٦ .

(٢) اميل ص ٨٦٦ .

(٣) هلويز الجديدة ص ٢٧٢ .

الزواج، إذن، هو مؤسسة اجتماعية جادة لا يمكن لها أن تنجح بسهولة، ولا بد له أن يقوم على أساس الشرف، والفضيلة، والملازمة، وهو فى الواقع يكون أفضل إذا لم تزعجه الانفعالات الطاغية. وعلى حين أن «سان - بيرو» كان مثلاً أعلى للمحب العاشق، فإن «جولى» كانت تشك فى إمكان أن يكون زوجها صالحاً؛ لأن روسو كان يعتقد أن الجمع بينهما بالغ الذرة^(١). ولم يكن بين جولى وزوجها «فولمار» - وهو رجل بلا انفعالات تماماً - ذلك الوهم الذى يدعم تلك الحالة من التوتر الحاد بينها وبين «سان - بيرو». وفضلاً عن ذلك فقد كان «فولمار» هو الذى صنّف على أنه زوج وأب، ورب منزل مثالى. كما أن زواج «فولمار» يوصف بأنه منظم وجدير بالإعجاب، وأن الأسرة التى كونها هى نموذج يحتذى الآخرون. غير أن إنجاز هذا النموذج يتأسس على الأغلب على الحب شديد الانفعال، الذى يستلزم التضحية بمشاعر «جولى»، وفى النهاية التضحية بحياتها.

وهكذا فإنه على حين أن وضوح جولى المستحيل ربما كان من الممكن تخفيفه من ناحية - لو أن القوانين والعادات التى تعطى الآباء مثل هذه السلطة على بناتهم - مختلفة؛ وبذلك لا يمكن حل الصراع الذى يقوم بين الحب والزواج. ولقد كان يمكن «لجولى» أن تتزوج حبيبها لو لم يكن هناك استبداد الآباء، ومتطلبات نظام الملكية. لكننا لا يكون لدينا انطباع بأن مثل هذا الحل كان سيصبح إما حلاً سعيداً أو حلاً اجتماعياً مفيداً. ولقد كان ما يفكران فيه - وهما فى ذروة الانفعال - هو أن اللحظة الحاسمة فى العلاقة بينهما أن يموتا معا - أكثر من أن يعيشا معا.

ولقد كان «روسو» يشك كثيراً فى مصير هذا الحب بينهما، لو أنه خضع للتجارب والتحرر من وهم عدد من سنين الحياة اليومية؛ ويصبح واضحاً جداً لنا أنه على الرغم من أن سان - بيرو الذى كانت «جولى» تحبه على الدوام حبا شديداً للانفعال، فإن «فولمار» كان بغير شك أفضل رجل ليكون زوجها لها، وأباً لأطفالها. والواقع أن المرأة المثالية البديلة الوحيدة عند روسو - من أجل الفضيلة والواجبات الاجتماعية - هى المرأة التى تفعل بالضبط حتى دون إكراه من والدها؛ فلا بد لها أن تتزوج، بدون حب، من

(١) هلويز الجديدة ص ٢٧٢ .

رجل يخلو من الانفعالات العنيفة، رجل البيت منظما وسعيدا له ولأطفاله، ومع ذلك فقد كانت طوال الوقت تتعذب، وفي النهاية، كانت وسيلتها الوحيدة للانتصار على الحب هي الموت

غير أن «جولى» كانت قدوة استثنائية فى الفضيلة أشبه بشخصية المسيح. وهذا هو السبب فى أنها - رغم أنه لا بد من تدميرها - قادرة على أن تضع واجباتها نحو الأسرة والمجتمع، فوق مشاعر حبها. كما أن صوفى، من ناحية أخرى، رغم أنها تلقت تربية مثالية بالنسبة لجنسها، استسلمت لغواية حب لا حد له بعد الزواج ولذلك قضت على نفسها وعلى أسرتها. إن محاولة خلق امرأة فى صورة الحورية المغوية «يوخاريس»، Eucharis على أن يكون لها بعد ذلك سلوك الزوجة الفاضلة «أنتيوب» هو محاولة فاشلة، مثلها مثل محاولة تحويل الرجل الطبيعى إلى مواطن.. إن الحاجة إلى المرأة الفاضلة التى تُسعد وتُحب على الدوام واستحسان اعتمادها على الرجل لتقديرها لنفسها، وعلى رأى العام بالنسبة للقانون الأخلاقى، جعلتها فى النهاية تكون على يقين أن الحب الجنىسى - فى ظروف الضغط - سوف ينتشر فوق مطلب الزواج الواحدى، الذى هو أساس النظام الاجتماعى كله. طالما أن «الحب هو مملكة النساء»^(١). وفى النهاية يمكن أن نتوقع مبالغتهن فى أهمية وسيلتهن الوحيدة للسيطرة سواء على حساب العواطف الهادئة، التى ينبغى أن يبنى الزواج عليها. أو بالنسبة إلى الإساءة إلى أسرهن، وإلى رفاقهن فى الوطن أو رفاقهن فى الإنسانية.

اقتناع «روسو» بأن العلاقات الثنائية الحميمة تهدد المجتمع الأكبر، أكده كثير من القادة الآخرين أو المنظرين للجماعات التى تطلب من أعضائها ولاء غير مزدوج. وفى الدراسات الاجتماعية الحديثة التى قام بها «لويس كوزر L. Coser» للوثائق، فقد تم إدراك الانطواء النفسى الجنىسى على أنه انسحاب من الجماعات والنحل المترابطة جيدا مثل الكنيسة وتنظيماتها الدينية، والبلاشفة Bolsheviks^(٢) المبكرين، وعدد كبير من

(١) خطاب إلى دالمبير ص ٤٧ .

(٢) أعضاء الجناح المتطرف من الحزب الشيوعى، وكانت تطلق حتى عام ١٩١٧ على المتطرفين فى الحزب الديمقراطى، ومنذ عام ١٩١٨ على أى عضو فى الحزب الشيوعى (المترجم).

اليوتوبيات الأمريكية المبكرة. وحتى يتم منع سحب الطاقات والعواطف من الغرض العام، فإن أمثال هذه الجماعات اتجهت إلى أن تطلب من أعضائها إما العزوبة أو العريضة الجنسية، التي كما أشار «كوزر»: «رغم أنها ضد معارضة الممارسة الجنسية فإنها تحقق وظائف اجتماعية مماثلة تماما»^(١). ويشير «كوزر» أيضا - مقتبسا المزيد من الدلائل على هذا النوع من الاستدلال من كتابات منظري الجماعات الثلاث المذكورة فيما سبق - إلا أنه اكتشف أن جميع هذه الجماعات فيما عدا واحدة من اليوتوبيات الأمريكية الناجحة في القرن التاسع عشر، مارست إما الجنس الحر أو العزوبة في فترة ما من فترات تاريخها، غير أن هناك إحدى وعشرين جماعة فاشلة خمس منها فقط هي التي فعلت ذلك، وأربع منها سمحت بالاقتران إذا ما رغب الحبيبان^(٢). وهكذا بالنسبة لنوع المجتمع الذي يُنظر فيه إلى الولاء الكامل للأعضاء على أنه مسألة جوهرية، يبدو أن هناك مبررا قويا لوضع ضوابط على العلاقات الثنائية.

ولا يعطى روسو مثل هذه الممارسات سوى مساحة ضيقة، فهناك انفصال جنسى فى منزل «فولمار» فى «كلارتر»؛ السادة المعينون تماما بأن يُخدموا خدمة جيدة من الخدم لابد أن يدركوا «أن العلاقات الحميمة للغاية بين الجنسين لم تقدم أبدا أى شىء سوى الشر» ومن ثم «فإن الرجال والنساء فى منزل منظم تنظيما جيدا ليس بين بعضهم البعض سوى علاقة ضعيفة...»^(٣). وهو يحذرنا من أن دمار الأسر الغنية قد نشأ من وجود علاقات غرامية سرية بين رجال ونساء الخدمة، ومن هناك كان الانفصال بين الجنسين بالإضافة إلى الاحتفاظ بعفة الخادمت من النساء، فإن ذلك سوف يضمن أن الخدم من الجنسين معا يقومون بواجباتهم المنزلية بإخلاص وبنون تشوش. وعلى مستوى الدولة فإن التنظيمات مثل تنظيم نوادي «جنيف» تؤدى نفس الوظيفة فى منع تشويش العلاقات الجنسية الحميمة من الإضرار بالحياة المدنية الأوسع.

(١) مؤسسات نهمة ص ١٣٩ .

(٢) «مؤسسات نهمة» ص ١٤٠ نقلاً عن ر. كانتر «الالتزام والمجتمع» كمبردج عام ١٩٧٢ ص ٨٧ .

(٣) هلويز الجديدة ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

ومن المهم أن نلاحظ - عند هذه النقطة - أن هذه المجتمعات «النهمة» التي قام «كوزر» بتحليلها ليست معارضة تماما للحب الجنسي الحميم لكنها أيضا من ألد أعداء الأسرة. فالكهانة الكاثوليكية، والميليشيات البولشفية الأولى، واليوتوبيات الناجحة في أمريكا، إما أنها محظورة بطريقة فظة، أو أنها على الأقل محبطة بقوة. فمحظور على أعضائها أن يلزموا أنفسهم بمطالب الأسرة. عدد من مبتكرى مجتمع اليوتوبيات الفلسفية ذكروا هذه التوصيات نفسها: أفلاطون في «الجمهورية»، كميانيليا في «مدينة الشمس»^(١). وفورييه^(٢) في مشروعه الذي أطلق عليه اسم «فلانستير» وهم جميعا يمدون تحذيراتهم من العلاقات الحميمة في الأسرة^(٣). وعلى ضوء هذه الحقيقة عالج روسو الصراع الممكن بين الأسرة والدولة، وانتهى إلى أنه لا بد من المحافظة على الأسرة بوصفها أساس المجتمع، وهى فى الواقع دراسة ممتعة. ولقد كان روسو، تقريبا، هو الوحيد من بين مبتكرى يوتوبيات المجتمعات الوثيقة الترابط الذى كان بعيدا عن العدل للأسرة التى تصورها بطريقة مثالية.

وعلى الرغم من هذه التفرقة بين الأساس الطبيعى للأسرة، والأساس الأعراف الاجتماعية فى المجتمع السياسى تصور روسو مثله الأعلى، جمهورية ديمقراطية صغيرة تشبه - فى كثير من الجوانب - أسرة كبيرة. وهو مثلا فى «خطاب إلى دالمبير» يشير إلى الحفلات العامة التى يراها مفيدة للراحة والسلام والاحتفاظ بالجمهورية «لا على أنها حفلات تسلية عامة بقدر ما هى .. تجمعٌ لأسرة كبيرة..»^(٤). وهو، من ناحية

(١) توماس كامبانيللا (١٥٦٨ - ١٦٢٩) فيلسوف إيطالى واشتراكى خيالى - وضع جمهورية فاضلة، ووصفها على أنها مجتمع لاهوتى يحكمه رجال حكما وقساوسة (المترجم).

(٢) فرانسوا فورييه (١٧٧٢ - ١٨٢٧) اشتراكى خيالى فرنسى رسم مجتمعات خيالية كان يطلق عليها اسم «فلانستيرى» (المشرك) وهى مشتقة من كلمة يونانية معناها فيلق أو كتبية (المترجم).

(٣) راجع «كوزر» الفصول السابع، والثامن، والتاسع والعاشر. وأفلاطون «الجمهورية» الكتاب الخامس. وكامبانيللا «مدينة الشمس» ص ٢٨٢ - ٢٩٢. وكذلك فورييه: «الرؤية اليوتوبية لشارل فورييه» الأجزاء: ٥ و ٦ و ٧.

(٤) خطاب إلى دالمبير ص ١٢١.

أخرى، يوصى البولنديين أن تكون الجمهوريات من الصغر بحيث يستطيع الحكام مراقبة مواطنيهم، وهي في وصفه أقرب جدا إلى الأسرة منها إلى المجتمع السياسي^(١). وأخيرا في عبارة واحدة جديرة بالملاحظة في «مقال عن الاقتصاد والسياسي» يشير إلى الدولة على أنها الأم المحبة المغذية، كما يشير إلى مواطنيها عندما يكونون أطفالا على أنهم «إخوة يعتز كل واحد منهم بالآخر بالتبادل»، وعندما يبلغون سن الرشد يصبحون آباءً ومدافعين عن بلدهم^(٢). وعلى الرغم من أن المجاز متكلف إلى حد ما فإن مضمونه لا تخطئه العين العابرة. إن منهج التنشئة الاجتماعية الموجه توجيهها عاليا والمنظم لمواطنين في دولة مثالية كان يميل إلى إنتاج أسرة. وإخوة، أكثر من إنتاج مجموعة من الأفراد.

عندما يناقش «روسو» المأزق أو الإحراج المنطقي، وهو أن أحدا لا يستطيع أن يكون إنسانا ومواطننا في آن معا، فإنه يقدم ملاحظة سوسولوجية، ومن المحتمل جدا أن يضع نفس الحجج مفكرون آخرون من أصحاب اليوتوبيا، عن وظيفة الجماعات وميلها إلى مطالبة جميع أعضائها بالولاءات والعواطف، يقول: «كل مجتمع حزبي عندما يكون مترابطا ومتحدا اتحادا جيدا، يعبر هو نفسه عن المجتمع الأكبر. وكل وطني يكون قاسيا مع الأجانب فهم في نظره مجرد بشر وليسوا أكثر من ذلك.. والمهم أن تكون خيرا وصالحا مع المواطنين الذين تعيش بين ظهرانيهم»^(٣). وكما أن الولاء الوطني انتقاص من حب المرء للإنسانية ككل، فإن روسو يعترف بأن عضوية المرء وولاءه للجماعات الفرعية داخل الوطن الواحد يحتتمل أن تكون انتقاصا من الولاء الوطني المطلوب للمواطن الحق. وهكذا فإنه ما دام نفس القرار يمكن أن يكون مفيدا للمجتمع الصغير وضارا أبلغ الضرر للمجتمع الكبير «.. فإنه ينتج من ذلك أنه يمكن أن يكون قسا ورعا، وجنديا شجاعا، غيورا على مهنته، وفي الوقت ذاته مواطنا سيئا»^(٤). ومن ثم ففي كتاب «العقد الاجتماعي» ما دام الهدف تطوير المواطن الحقيقي

(١) قارن ملاحظات حول حكومة بولنده ص ٩٧٠ - ٩٧١ مع . «مقال عن الاقتصاد السياسي» المؤلفات الكاملة المجلد الثالث ص ٤١ .

(٢) «مقال عن الاقتصاد السياسي» ص ٢٦١ .

(٣) أميل ص ٨٤٨ - ٨٤٩ .

(٤) «مقال عن الاقتصاد السياسي» ص ٢٤٦ .

الذى ينضم إلى «هيئة اجتماعية وأخلاقية واحدة...»^(١). مع إرادة عامة والارتفاع بالمصالح الجزئية الخاصة لتكون أعلى من المصلحة العامة هو الخطر الحاضر، واستنكار لوجود جماعات حزبية. «عندما تبدأ المصالح الحزبية فى تثبيت أقدامها وفرض نفسها، وتبدأ الجماعات الصغيرة فى التأثير فى الجماعات الكبيرة، وتتغير المصلحة المشتركة ونجد معارضين، ولا يعود إجماع الرأى يسود التصويت، فإن الإرادة العامة لن تكون فى هذه الحالة هى إرادة الجميع...». مع نمو المصالح الجزئية ومصالح الجماعات، كل منهما سيصل إلى التركيز على منافعه الجزئية الخاصة، وسوف يهمل انهيار الرخاء العام^(٢).

وقد يبدو واضحا للغاية أن واحدا من تطبيقات نظرية صراع المصالح هذه لابد أن يكون خاصا بالأسرة؛ فهذه جماعة تتطلب من أعضائها، يقينا، أن يكون لديهم ولاء قوى جدا لحاجاتها ورغباتها التى قد تتعارض مع مصالح المجتمع الأكبر. يقول روسو: «طالما أن الهدف الأساسى» للأسرة هو أن تحافظ وتُبنى تركة الأب، لعلّه يقوم يوما ما بتوزيعها بين أطفاله دون إفقارهم وطالما أنه ينظر إلى الملكية الخاصة والميراث على أنها أكثر الحقوق قدسية بالنسبة للمواطن^(٣)، فمن الواضح أنه لابد أن تكون هناك مناسبات كثيرة سوف تتعارض فيها مصالح الأسر الفردية مع حاجات الوطن ككل. وأية ظروف تتطلب فرض ضرائب غياب عائل الأسرة بالنسبة للخدمات العامة، أو تنظيم الملكية الخاصة للمصالح العام، مثلا، يُحمل أكثر أن تسبب صراعا بين الأسرة والولاء الوطنى. لكن على الرغم من واقعة أن نظرية صراع المصالح عند روسو طُبقت على مستوى المشاعر الوطنية ضد المشاعر الإنسانية وعلى بعض الجماعات الحزبية داخل الجمهورية، فقد رفض صراحة أنه يمكن تطبيقها على التوتر بين مطالب المجتمع الأكبر ومطالب الأسرة.

(١) العقد الاجتماعى ص ٣٦١ .

(٢) العقد الاجتماعى ص ٤٣٨ .

(٣) «مقال عن الاقتصاد السياسى» ص ٢٨٦، ٢٦٣ - ٢٦٤ .

ومن المهم أن نشير - عند هذه المرحلة - إلى مناسبتين في كتاباته عندما اقترب روسو جدا من الاعتراف بصراع المصالح الكامن بين المؤسستين المثاليتين عنده - الجمهورية الديمقراطية والملكية الخاصة للأسرة الأبوية البطريركية:

أولاً: أكثر الأمثلة التي يقتبسها إثارة هما نموذج الولاء الوطني الاسبرطى والرومانى، حيث نجد أن المواطنين فيهما يخضعون لمشاعر الأسرة لمطالب الوطن. وعلى الرغم من أن «بروتس» و«الأسرة الإسبرطية» لا بد أن يكونا قد حزنا حزناً خاصة لموت أطفالهما، فلا شك أنهما مواطنان قيل أن يكونا أبوين. وهذان المواطنان الحقيقيان قادران بما فيه الكفاية على تجريد أنفسهما من مشاعر الأسرة واعتبار الدولة باستمرار عزيزة عليهما أكثر من الأسرة؛ إلا أن صراع المصالح والولاء كان حاضرا في الحالتين على نحو لا يمكن إنكاره.

ثانياً: ومما له مغزى أكثر أن روسو لم ينظر إلى الأسرة على أنها محل جدير بالثقة للتربية التي يحتاج إليها المواطنون فى الجمهورية. فقد نظر إلى التنشئة الاجتماعية من أقدم العصور الممكنة على أنها: «واحد من أعظم المبادئ الأساسية للحكم الشعبى والشعبى»^(١). وشباب المواطنين، بهذه الطريقة، سوف يتطورون بتلك الطريقة التي تجعلهم يتجاوزون تلك الفردية التي تهدد الإرادة العامة. وفضلا عن ذلك فإن «روسو» فى مسودة «مقال عن الاقتصاد السياسى» كان أشد وضوحا منه فى النسخة النهائية بالنسبة للسؤال: لماذا كان هذا النوع من التنشئة الاجتماعية لا يمكن أن نعهد به إلى الأسرة. والمبررات التي قدمها فى المسودة النهائية هي: كما أن الواجبات المدنية لا تترك للفرد ليقررها، كذلك تربية الأطفال لا ينبغي أن تترك لأفكار الأب وأحكامه المبتسرة، طالما أن ينتجها أكثر أهمية بالنسبة للدولة عنها بالنسبة للأب. فالأب سوف يموت وكثيرا ما لا يخبر ثمار عمله، فى حين أن الدولة سوف تدوم إلى الأبد، ونتائج تربية مواطنيها هو قوام حياتها^(٢). غير أن المبرر ذا الدلالة لم يكن متضمنا فى النسخة الأخيرة، بل مكتوب، وبالتالي حذف، فى النسخة الأولى، وهو أننا لا يمكن أن نعهد إلى الآباء بمهمة التربية فى الجمهورية بسبب أنهم يستطيعون أن يجعلوا أطفالهم أولاداً صالحين للغاية ومواطنين سيئين للغاية أيضاً...»^(٣).

(١) المؤلفات الكاملة المجلد الثالث ص ١٤٠ (حاشية على «مقال عن الاقتصاد السياسى» ص ٢٦١).

(٢) «مقال عن الاقتصاد السياسى» ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٣) «مقال عن الاقتصاد السياسى» ص ١٤٠٠ .

كان روسو إذن - فى هذين النموذجين - على اتفاق مع أصحاب اليوتوبيات الأخرى الذين يدركون تهديد الأسرة لتلاحم المجتمع الكبير. غير أن نظريته بصفة عامة فى العلاقات بين الأسرة والدولة تتعارض تعارضا مباشرا مع هذا الاتجاه. فهو يشير إلى الزواج على أنه «بالتأكيد أول وأقدس روابط المجتمع جميعا...» فهو مؤسسة «لها آثار مدنية لا يمكن أن تقوم للمجتمع قائمة بدونها...»^(١). وهكذا لا يمكن لنا أن نتصور أن تترك الدولة لبإكليروس وحده مهمة تنظيم الزواج^(٢). وإيمان روسو بوجود مكانة مركزية للأسرة فى المجتمع هى التى جعلته يشمئز من عقد المسرحية اليونانية، فمسرحية «أوديب» وغيرها تصور زنا المحارم وقتل أحد الأبوين، ربما هى التى أفسدت خيال المشاهد «بجرائم ترتعد منها الطبيعة». ولقد كانت كوميديا «مولبير» بالمثل عملا يرثى له، بسبب سخريتها المريرة من العلاقات المقدسة. فهو عن طريق السخرية من حقوق الأب - التى يجب احترامها - على أبنائه، وحقوق الزوج على زوجته «يهز نظام المجتمع بأسره»^(٣).

وروسو - فى الكتاب الأول من «اميل» - يجعل من الواضح أنه ينظر إلى الأسرة على أنها الوحدة الاجتماعية الرئيسية فى المحافظة على النظام الاجتماعى. ولا بد للمرء أن يبدأ من الأمهات «حتى يعيد الرجال جميعا إلى واجباتهم الأصلية». عندما تختصر النساء حضانة أطفالهن «فلا بد أن تنصلح الأخلاق. وسوف تنتعش الأخلاق الطبيعية فى كل قلب. وسوف يعاد تأهيل الدولة، وهذه الخطوة الأولى وحدها سوف تعيد وحدة كل مواطن». وهو يؤكد مرارا أن «أفضل وجه مقابل للأخلاق السيئة هو جاذبية الحياة المنزلية...»^(٤). وعندما تكرر الأمهات أنفسهن لأطفالهن من جديد، فسوف يصبح الرجال صالحين فى القيام بوظائفهم كأزواج وآباء وتلك مسألة حاسمة. لأن الأب عندما ينجب الأطفال ويزودهم بالغذاء، فإنه لا ينجز سوى ثلث مهمته فحسب. فهو مدين

(١) خطاب إلى دالمبير ص ١٢٨ . «العقد الاجتماعى» ص ٤٦٩ (حاشية بقلم روسو).

(٢) العقد الاجتماعى ص ٤٦٩ (حاشية).

(٣) خطاب إلى دالمبير ص ٣٤ - ٣٥ .

(٤) اميل ص ٥٨ . وهلويز الجديدة ص ٤٦٩ (حاشية بقلم روسو).

الرجال للنوع، والرجال الاجتماعيين للمجتمع، والمواطنين للدولة^(١). ويرى سان - بيرو - متفقا مع هذه الفكرة - أن الواجب الرئيسي للرجل في المجتمع، هو رعاية أطفاله رعاية جيدة وأن يزودهم بنموذج جيد. ولا شك في أن أسرة «فولمار» هي نموذج من هذه الزاوية، واضعا تأكيدا كبيرا على تربية صغارها.

هذا المنحى الفكرى كله الذى يبدو متناقضا مع إصرار «روسو» على أن المرء ينبغي عليه أن يختار تربية الطفل لكى يكون إما رجلا أو مواطنا، مع الاعتراف أن تربيته لىكون عضوا مخلصا فى أسرة، لا يمكن أبدا أن تتفق مع جعله مواطنا مخلصا، يصل إلى ذروته فى هجومه فى الكتاب الخامس من «اميل» على اقتراح أفلاطون إلغاء الأسرة، فهذا اقتراح فى رأى روسو قابل لأن يعترض عليه بأنه عمد إلى:

«تخريب المشاعر الطبيعية الرقيقة والتضحية بها فى سبيل شعور مصطنع لا يمكن أن يوجد بدونها، كما لو لم يكن ثمة حاجة للمرء للارتباط الطبيعى حتى تشكل روابط للعرف. كما لو كان الحب الموجود عند المرء لأقربائه ليس هو الأساس لذلك الحب الذى يدين به للدولة. كما لو لم يكن أن القلب يرتبط بالوطن الأكبر من خلال الوطن الأصغر أى الأسرة. كما لو كان الابن الصالح والزوج الصالح والأب الصالح ليسوا هم الذين يشكّلون المواطن الصالح»^(٢).

ها هنا لا نرى أنه يوجد توتر بين مصلحة الأسرة، ومصلحة الجمهورية، وأن تنظيم التربية العامة قد تمّ تقويضه بالكامل فيما يبدو. فإذا تذكرنا اعتقاد «روسو» بأنه لا بد من تشويه الطبيعة البشرية لكى تحيل الرجال إلى مواطنين، ودعوته للمشاعر الطبيعية لكى تساعد فى تطوير المشاعر الوطنية الاصطناعية لوجدنا أن الأمر محير للغاية. فالفرد يُربى فى جو خصوصى إلى أقصى حد، مع عواطف وولاء لعدد قليل من الناس يصعب أن ينمو شعور بأن جميع مواطنيه أو أبناء جلدته هم أشقاؤه على حد سواء؛ وأن الدولة هي أمه، وأن جميع أعضاء الحكومة هم أبأؤه.

(١) اميل ص ٢٦٢ .

(٢) اميل ص ٧٠٠ .

فإذا كان الرجال الذين هم أعضاء في الأسر النووية سيجدون صعوبة في أن يصبحوا من نوع المواطنين الذين يحتاج إليهم روسو في جمهوريته، فلا بد أن يكون الصراع من أجل النساء، كما تصورهن، أمرا أشد سوءا. فمادام ينظر إلى الأسرة على أنها مجالهن المناسب فحسب، وأنهن لم يتلقين أى أعداد للمشاركة المدنية، فليس من المعقول أن نتوقع منهن أن يستخدمن قدراتهن على أزواجهن لتنمية أى شىء سوى المصالح الضيقة - تلك التى تتعلق مباشرة بالمنزل وطالما أنه يُنظر إلى الأطفال صراحة على أنهم حلقة حيّة بالزوج الذى ربما مالت عواطفه باتجاه آخر. فإن من المحتمل أن يضحوا بمصالح هؤلاء الأطفال - دع عنك حياتهم - من أجل الجمهورية التى لا يكون لها سوى وجود حقيقى ضئيل فى حياتهم المنزلية الخالصة. فليس ثمة امرأة تعلّمت وانحصرت مثل «جولى» و«صوفى» فى استطاعتها أن تتصرف مثل الأم الإمبرطية التى أعجب «روسو» كثيرا بوطنيتها.

وهكذا نجد أن النساء عند «روسو» عرضة أكثر من الرجال لصراع الولاءات الذى كان على وعى تام بوجوده فى الوضع البشرى. وفضلا عن ذلك فهم مضطرون لأن يقدموا مساعداتهم للجانب الذى يعتبره مرغوبا أقل من غيره. إذ على الرغم من توفقه إلى العزلة والاستقلال، فإنه كان يؤمن أن المرء كلما اتسعت دائرة عواطفه كان أفضل من حيث هو شخص. وهو يؤكد أن: «أعظم الناس فسادا مَنْ ينعزل عن ذاته، وأعظمهم هو أعظمهم تركيزا فى ذاته» وأفضلهم مَنْ يشارك الجنس البشرى كله بالتساوى»^(١). غير أن النساء يتحولن اجتماعيا بطريقة محددة يراها مناسبة لهن، ويوضعن فى المكان الوحيد الذى يعتقد أنه مناسب لهن. ليس لديهن مبرر لاختيار بلدهن قبل أسرهن، ولديهن حمايات قليلة تجعلهن قادرات على تفضيل أية دائرة من الولاء، أوسع من دائرة الحب الجنسى الذى يمدهن بوسيلتهن الوحيدة للسلطة والقوة. وهكذا نجد أنه بالإضافة إلى أن القواعد التى وضعها «روسو» للنساء تتناقض تناقضا صارخا مع قيم مثل: الحرية والمساواة، التى يرى أنها حاسمة بالنسبة للإنسانية. وليست النساء اللاتى تصورهن مدمرات لأنفسهن فحسب بل أيضا مخربات لأعظم مؤسستين مثالييتين عنده وهما: الأسرة الأبوية والجمهورية الديمقراطية الصغيرة.

(١) خطاب إلى دالمبير ص ١١٧ .

ولم تكن فلسفة روسو كلها فلسفة تفاؤلية على الإطلاق. فما يؤكدده هو استحالة حل المأزق أو الإحراج المنطقي لوجود الرجل في المجتمع؛ غير أنه يبني في الجمهورية رجالاً نُزعت عنهم الطبيعة فتحولوا إلى مواطنين مخلصين، ونيته أنه ينبغي ألا ينظر إلى ذلك ببساطة على أنها مباراة عقلية تبدو واضحة في كتاباته عن «كورسيكا»، و«بولندا». ومن ناحية أخرى فإن نهاية قصة «إميل» ليست تشاؤمية تماماً كذلك. «إميل» يبقى على قيد الحياة في محاولة مجهدة ليتحول إلى زوج، وأب، ومواطن. ويصبح ما يقصده دائماً أن يكون: رجلاً طبيعياً مستقلاً الإرادة. غير أن مصير نساء «روسو» يمكن أن يكون أكثر مأساوية. على الرغم من المثل العليا لجنسهن إذ لا يمكن أن يُسمح لهن بالعيش في مجتمع أبوي، طالما أنه لا يوجد طريق يستطعن من خلاله تحقيق توقعات متناقضة تماماً موضوعة على عاتقهن. وأخيراً فإن روسو يسمح بأن يكون الرجل إما فرداً أو مواطناً، لكنه لا يسمح للمرأة أن تكون أيّاً منهما .

الجزء الرابع

ملء

الفصل التاسع

جون استيوارت مل : النصير الليبرالى

لم تكن الممارسات التى تؤكد معتقدات عامة بخصوص البشر: حقوقهم وحاجاتهم. وإنكار إمكان تطبيقها على قطاع عريض من الجنس البشرى، لم تكن هذه الممارسات على الإطلاق محصورة فى نطاق القدماء وحدهم ، فروسو كما سبق أن رأينا ، يقرر معظم مبادئه الأساسية بأفاظة كلية عامة ثم يتقدم ليستبعد النساء من مجال هذه المبادئ ، وما هو مذهل أكثر أنه على الرغم من أن التوجه الفردى للفكر الليبرالى ، فإن جون ستوارت مل هو الفيلسوف السياسى الليبرالى الوحيد الذى شرع ، صراحة ، فى تطبيق مبادئ الليبرالية على النساء وقبل أن نبدأ بمناقشة مناصرة جون استوارت مل للمرأة سوف يكون المفيد أن نلقى الضوء على الطريقة التى أخذ بها بعض المنظرين الليبراليين المبكرين يتخلصون من النصف الأنثوى للجنس البشرى^(١). وسوف يكون هوبز ، ولوك ، وجيمس مل - النماذج التى سوف ندرسها بالرغم من أن كانط أو هيغل - فيما عدا أن الزعم بأن هيغل ليبرالى قد يكون إلى حد ما موضع شك - سوف يخدمان غرضنا الحالى جيدا أيضا.

تقوم فلسفة هوبز السياسية بأسرها على حجة تقول إن: الموجودات البشرية متساوية بالطبيعة. ولما كانت هذه الموجودات متساوية فإنها بالمثل قادرة على أن يقتل

(١) أود أن أعبر عن تقديرى لما حصلت عليه من مساعدة وإلهام فى التفكير فى هذا الموضوع من كتابات «مارى ل . شانلى» من كلية فسار بجامعة سدنى. وكذلك تيرزا برينان من جامعة ماكورى ولقد ساعدتني مناقشاتى مع الدكتورة شانلى لتوضيح أفكارى فى موضوع النساء، والتراث الليبرالى . انظر كتاب شانلى : «الفرد ، والأسرة ، والنولة» وعقد الزواج فى الفكر السياسى فى القرن السابع عشر. وبرينانت «مجرد إضافات إلى الدولة : النساء وأصول الليبرالية».

بعضها بعضاً. وهذا هو السبب في أن الطبيعة لا تزودنا بأي أساس للتفاوت أو انعدام المساواة في الحقوق والميزات. وبالتالي فإن أية سلطة لا بد أن تقوم على أساس الرضا والقبول^(١) ويُدْرَج هوبز النساء صراحة في حجة المساواة هذه في كل كتبه بما في ذلك التين Leviathan وهو ينكر الدعوى التي تقول إن السيطرة على الأطفال في حالة الطبيعة تكون للأب « بوصفه الجنس الأكثر امتيازاً » - وهو يطبق حجته في المساواة في القدرة على القتل : « ليس هناك باستمرار مثل هذا الاختلاف في القوة ، أو الفطنة بين الرجل والمرأة ، كما أن الحقوق لا يمكن حسمها بدون حرب ». وفضلاً عن ذلك كان هوبز في جملة كتاباته يعترف أنه ما دام الميلاد يلي البطن فإن الأم هي السيد الأصلي لأطفالها في حالة الطبيعة^(٢) وعندما يواجه بالحاجة إلى تبرير سيطرة الآباء المنتشرة على أسرهم داخل الدول ، فإنه يفسرها من منظور العرضية : « لأن الجانب الأعظم من الدول قد أنشأه آباء الأسر لا الأمهات...»^(٣).

ومن الواضح أن هناك شيئاً مفقوداً في استدلال هوبز ، ذلك لأن تفسيره لا يجيب عن السؤال الإشكالي : لماذا حدث أن نصف البشر - وهم جميعاً متساوون بالمعنى الذي يراه هوبز بالغ الأهمية - قد وصلوا إلى وضع تتأسس فيه نولة يسيطر فيها أعضاء النصف الآخر على الجميع. وبعبارة أخرى : لو كانت السيادة الأصلية للنساء على الأطفال ، فكيف حدث أن أصبح الرجال آباءً (بطرياقية) بينما لا يزالون في حالة الطبيعة ؟ في كتابيه « في المواطن De Cive » و « التين Leviathan » بعد بضع كلمات عن النفاق الكاذب للفكرة التي تقول إن الأم أو الأب يمكن أن يكون منطقياً ، وهو السيد في الأسرة^(٤) إننا نجد الأسرة الأبوية - من هذه النقطة فصاعداً - هي الوحدة السياسية والاجتماعية الأولى التي اهتم بها هوبز ، فالأم بسيادتها الأصلية - على نفسها وعلى أطفالها في وقت واحد ولا مبرر مقبول لنبذها معاً - قد اختفت من القصص. والمرة الوحيدة التي نسمع فيها عنها من جديد من هوبز هي عندما ظهرت ، باختصار في « حوار حول القانون العام ». فهو يؤكد أنه ليست الأسرة وحدها ، وإنما

(1) Leviathan XIII PP 101 - 102 . also De corpore politico, 1, c , and De cive 1 ,3 .

(2) De Cive , 1X 3 .

(٣) التين ، الفصل العشرون ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٤) التين ص ١٧٢ . وأيضاً « في المواطن » الفصل التاسع ، ١٠ .

الأسرة الأبوية البطريركية، هي أساسا مؤسسة طبيعية. و « أن الأب في الأسرة بحسب قانون الطبيعة ، هو السيد المطلق على زوجته وأطفاله »^(١). وهذا الحل للمأزق أو الإحراج المطلق لا يتسق مع أن تمسكه بمسألة السيادة بين الجنسين لا يمكن حسمها بدون إمكان حرب متصلة ، ولا مع المبدأ الأساسى للنظرية السياسية – ولا مع المبدأ الأساسى لنظريته السياسية – فالسلطة ليست طبيعية وإنما هي تنشأ عن طريق التراضى والموافقة.

والمشكلة التي تؤدي إلى كل هذا التناقض تنشأ من واقعة أن هوبز ليس مستعدا لحسم موضوع المساواة بين الجنسين بطريقة أو بأخرى. فإذا ما أراد ترسيخ فرديته فإنه بحاجة إلى أن يقول إن النساء فرادى متساويات مع الرجال فرادى تماما مثلما أن الرجال الضعاف متساوون مع الرجال الأقوياء. أما زعمه بضرورة سيطرة الذكور في كلن من الأسرة والمجتمع على نطاق واسع ، فقد جعله عاجزا عن أن يدع هذه الحجة تسير إلى نتائجها المنطقية.

فإذا ما اتخذنا الخطوة القائلة بالسماح للنساء بتلك المساواة الإنسانية الأساسية التي بنى عليها مذهبه في السياسة ، الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها هبز تبرير استبعادهن من الحياة السياسية وانعدام المساواة الواضحة في المجتمع المعاصر هو استبدال رأس الأسرة الذكر بفرد كموضوع أولى^(٢). غير أن هذا الحل ينطوى على مفارقة وهذا أقل شيء ، طالما أن التراث الذي كان هوبز مؤسسا له يعرف – فرضا – تأسيس السياسة على خصائص وحقوق الموجودات البشرية الفردية والذرية ، ونبذ التصاعيدية أو الهريراركية الطبيعية أو الجماعات ، بوصفها الكائنات الأساسية التي تعالجها السياسة ، غير أنه أسوأ من المفارقة الحل المفترض الذي هو في الواقع ليس حلا ، فإذا أخذنا مقدماته المبدئية : المساواة البشرية ومذهب الزنا Egoism فلن نجد ثمة طريق يصل منه هوبز منطقيا إلى مؤسسة الأسرة الأبوية البطريركية التي تقوم

(١) حوار بين فيلسوف ودارس القانون العام في انجلترا ص ١٥٩ .

(٢) بالنسبة لاستخدام هوبز للأسرة كوحدة أساسية للسياسة عنده راجع جوردن شويشت : «توماس هوبز عن الأسرة وحالة الطبيعة» ومذهب البطريركية في الفكر السياسى «ريتشارد آلن شايمان» التين بصورة مصغرة: توماس هوبز والأسرة».

عليها البنية الأساسية، إذ أن هذه المؤسسة تعتمد على افتراض انعدام المساواة الجذري بالنسبة للنساء.

والمأزق - أو الإحراج المنطقي - عند « جون لوك » شيء مماثل ، فهو كذلك يعرض النساء على أنهن متساويات مع الرجال لأغراض معينة ، لكنه تراجع عن هذا الالتزام، فجون لوك لكى يفند حجة « فلمر » فى الحكومة الأبدية يذهب إلى أن الأبوين الذكر والأنثى هما « اسمان متساويان » فى سيطرتهم على الأطفال ^(١) وإذا كان فى استطاعته أن يفرض الأساس الأسرى للحكم الأبوى بالتشديد على أن الأبوين لهما نصيب متساو عزاه « فلمر » إلى الأب وحده. فقد سار بعيدا فى سبيل تدمير أسس النظام الملكى المطلق. والواقع أن جو لوك يستخدم « اللقب المتساوى » للأم على أنه « قياس خُلف » لدحض اشتقاق السلطة السياسية من السلطة الأبوية ، فلو مات الأب فمن الطبيعى أن يطيع الأطفال الأم وحدها، ويتسائل « لوك » : « هل يقول أى لسان أنه كانت للأم سلطة شرعية على أطفالها ؟ ». عندما تسهم فى قضيته ضد الحكم المطلق عندئذ يعالج لوك الأزواج والزوجات على أنه متساوون ^(٢).

ويبدو الامتداد المنطقي لمثل هذا الاستدلال متضمنا نبذاً للبطرياركية « النظام الأبوى » داخل الأسرة ، والاعتراف بحقوق النساء فى وقت واحد إلا أن لوك لا يعرف عنه أنه نصير مبكر للمرأة والسبب لا يخفى : فعلى الرغم من أنه يستخدم مساواة الأبوية لمحاربة السيادة المطلقة فى المجال السياسى ، فإنه ينتهى فى فقرات أخرى ، على نحو قاطع ونهائى ، أن هناك « أساسا فى الطبيعة » لخضوع الزوجات المشروع والمألوف لأزواجهن ؛ وعلى الرغم من أن الحقوق الطبيعية للأفراد تتحول إلى سيادة مطلقة غير مشروعة فى نطاق الحكومة ، فإنه بمقدار ما يتعلق بحكم الأسرة له ما يبرره تماما ، حيث إنه بمقدار ما يتعلق الأمر « بالأشياء ذات المصلحة العامة

(١) «بحثان فى الحكومة» ص ص ١١ ، ٥٢ - ٥٣ ، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢) «بحثان فى الحكومة» ص ص ١١ ، ٦٥ ، ص ص ٢٥٢ .

والملكية العامة « فإن لوك يذهب إلى أنه إذا ما اختلف الزوج والزوجة « فمن الطبيعي أن يكون الحكم من نصيب الرجل فوصفه الأقدَر والأقوى » (١).

وهكذا حيثما لايناسب الأمر قضيته أو الأحكام المبتسرة في عصره لتنمية مساواة النساء مع الرجال. فإن لوك يلجأ إلى الطبيعة ليبرر خضوعهن المشروع للرجال. وهكذا مع استعادة الأسرة الأبوية البطريركية وضعها السابق فإن استبعاد الحقوق السياسية للنساء يبرره بوضوح الافتراض القائل أن الأب وحده - بوصفه رأس الأسرة - هو الذى يستطيع أن يمثل مصالحها فى المجتمع الكبير ، وإذن مثلما كان الأمر عند « هوبز » تماما، فإن الموضوع الأساسى فى فلسفة لوك السياسية ليس هو - كما يبدو للوهلة الأولى - الفرد البشرى الراشد وإنما الذكر رأس الأسرة.

كانت مقالة جيمس مل عن « الحكومة » مؤثرة كنسخة مقروءة نسبيا من قضية بنتام « لمد حق الاقتراع - الذى يقوم على المذهب الفردى - على أقل تقدير - عند « هوبز » و « لوك » مع القضية النفعية أن غرض الحكومة هو أن تزيد اللذات إلى أقصى حد وأن تنقص من الآلام إلى أقصى حد - التى يسببها الناس لبعضهم البعض وأساس قضية مل الخاصة بالحكومة النيابية هو التأكيد الذى عرضه على أنه « القانون العظيم الذى يحكم الطبيعة البشرية » وأن جميع الموجودات البشرية ترغب فى ممارسة السلطة على رفاقها من البشر ، وأنه إذا ما أعطيت لهم الوسائل ليفعلوا ذلك ، فإنهم سوف يستخدمونها بون ندم أو شعور بوخر الضمير لزيادة لذاتهم الخاصة (٢). وينتهى من هاتين المقدمتين إلى أنه ما لم تُختر الهيئة النيابية بواسطة ذلك القسم من المجتمع الذى لا تعارض لمصالحه مع مصالح المجتمع. فإن مصلحة المجتمع سوف يضحى بها لا محالة على مذبح مصالح الحكام (٣).

وبعد أن وضع « مل » هذه القضية شرع فى رؤية ما إذا كان يمكن وضع بعض القيود على حق الانتخاب ، بل حتى على بعض الامتيازات، فقال :

(١) بحثان فى الحكومة : ١ ، ٤٧ ، ص ٢١٠ و ١١ ، ٨٢ ص ٣٦٤ .

(٢) الحكومة ص ٩ .

(٣) الحكومة ص ٢٨ .

« شىء واحد واضح تماما هو أن جميع أولئك الأفراد الذين تندرج مصالحهم بلا جدال ، فى مصالح غيرهم من الأفراد يمكن حذفهم دون انزعاج ، وبناءً على هذه القاعدة فإننا نستطيع أن ننظر إلى جميع الأطفال حتى سن معينة الذين تندرج مصالحهم فى مصالح والديهم ..»

« وبناءً على هذه القاعدة أيضا ، فإن السناء يمكن أن يُنظر إليهن على أن معظم مصالحن تندرج إما فى مصالح الآباء أو ضمن مصالح أزواجهن»^(١).

وبعد أن يقيم قضيته بأسرها الخاصة بالحكومة النيابية على اهتمام الرجل الذى لا مندوحة عنه ، ومن أجل مصالحة الأنانية الخاصة ، تجاهل «مل» تماما مذهب اللذة الأنانى عنده لكى يدرج « مصالح النساء » بطريقة مناسبة فى مصالح الرجال.

وهنا - كما هو الحال عند هوبز ولوك - نجد أن المضامين الفردية للمذهب الليبرالى قد أجهضت بقسوة عن طريق الزعم بوجود مشروع لامندوحة عنه للأسرة الأبوية البطريركية ، فهناك إذن تضارب أساسى ينتشر ليس فقط فى كتابة هولاء الفلاسفة الثلاثة ، وإنما معظم الفكر الليبرالى. فعلى حين أن التراث الليبرالى يبدو أنه يتحدث عن الأفراد بوصفهم يكونون النظم السياسية ، فإنه فى الواقع يتحدث عن « الذكر» رأس العائلة.

وعلى حين أن مصالح الذكر فى عالم السياسة تُدرك على أنها منفصلة ، وكثيرا ما تكون متصارعة ، فإن مصالح أعضاء الأسرة عند كل أب تدرك على أنها تتفق تماما مع مصالحة هو الخاصة. وبالتالي تختفى النساء من موضوع السياسة. وعلى نحو ما سنرى فى الفصل القادم فإن جون ستوارت مل لم يؤيد أو يناصر « الحل» الليبرالى السابق بالنسبة لمسألة حقوق ومصالح النساء.

وعلى الرغم من أن وجون استيوارت مل لم يكن فيلسوفا تجريديا من طراز أفلاطون؛ فقد كان فيلسوفا يعنى بالمسائل الواسعة والعميقة المؤثرة فى الحياة البشرية فى المجتمع السياسى ، ومن ثم كانت القيم التى يهتم بها هى الحرية والعدالة

(١) الحكومة ص ٢١ .

والفردية والديمقراطية. وفي جنور فلسفته كان يمكن اقتناعه بأن الهدف النفعي ، وهو تحقيق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس ، هذا الهدف لا يمكن تحقيقه بون تقدم عقلي وأخلاقي كبيرين للجنس البشرى. وهكذا نجد أنه عند مل - على خلاف بنتام وجيمس مل - فإن أحد الأغراض الرئيسية للمؤسسات الاجتماعية والسياسية لابد أن يكون تطوير الإمكانيات البشرية إلى أقصى حد ممكن. وأحد الأمور المحيرة بالنسبة لكتابات المناصرة لقضية المرأة هي أنها تطبيق واضح لمبادئه الأثيرة لديه على قضية خاصة أدرك أنه قد تم تجاهلها بطريقة فاضحة^(١) فلم يكن تأييده لقضية المرأة بالتأكيد خطأ ثانويًا. بل كان على العكس بالنسبة لدراسي مل فرصة ثمينة لكي يروا كيف طبق أفكاره المركزية.. لم يكن تحرير النساء إلى حد المساواة مع الرجال بالنسبة للهدف فقط زيادة سعادة النساء أنفسهن رغم أن ذلك يشكل جانباً مهماً من هذا الهدف، بل كان مطلباً بالغ الأهمية لتحسين أحوال البشر.

ومعارضة مل للمعتقدات والأحكام المبتسرة التي أبقت النساء في مركز ثانوي في جميع جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية - كانت تقوم على قناعات تشكلت في فترة مبكرة من شبابه. ثم عبر عنها في عديد من كتاباته عن الموضوعات السياسية والأخلاقية. يقول في كتابه « استعباد النساء » الخضوع المشروع من أحد الجنسين للآخر. هو خطأ في حد ذاته وهو الآن أحد العقبات الرئيسية أمام تحسين أحوال البشر - وتلك فكرة أعتنقتها منذ حداثة سنّي. منذ اليوم الذي بدأت أكون فيه أفكاراً عن المسائل السياسية والاجتماعية، ثم نمت باستمرار وقويت كلما تقدم التفكير وكثرت تجارب الحياة^(٢). ولقد أبرز كُتّاب سيرة حياته مدى اهتمام المستمر بوضع النساء

(١) تذهب «جرترود هملفارب» في كتاب حديث لها عن «الحرية والمذهب الليبرالي» إلى أن كتابات جون ستوارت مل المناصرة لقضية المرأة ليست تطبيقاً لمبادئه الأكثر عمومية ، بل هي بالأحرى تطبيق لحججه في كتابه «عن الحرية» مفسرة على نحو واسع من منظور انشغاله باستعباد النساء، وحاجتهن إلى التحرر وطالما أن انشغالي ليس بمسألة «الحرية» والبواعث الكامنة وراءها فليس هنا مجال مناقشة «هملفارب» بشأن أصولها. غير أنه يبدو لي أنها سارت في طريق جميل جداً عندما قالت «إن مقالاته عن النساء لم تكن تطبيقاً لكتاب الحرية على مشكلة جزئية» وأيضاً أن «كتابه عن الحرية هو قضية النساء وقد كتبت بشكل واسع» ص ١٨١ .

(٢) استعباد النساء ص ٤٢٧ - وراجع ترجمتنا لهذا الكتاب ص ٣٥ مكتبة مدبولي عام ١٩٩٦ (الترجم).

وهناك شواهد أيضا على ذلك من رسائله " فهو كثيرا ما يحكم على الناس والمذهب الفلسفية. وفترات التاريخ طبقا لمواقفهم من النساء وبورهن في المجتمع^(١) ولا يكفي أن نحصر المناقشة المثالية في كتابة « استعباد النساء » وهذه ، طالما أن هناك مجموعة أخرى من كتبه المنشور ورسائله تعالج بشكل كامل أفكارا مشاهت للأفكار التي لخصها ذلك الكتاب فمثلا لكي يحافظ على سمعته هو الشخصية وسمعة « هاريت تايلور »^(٢) الشخصية ، ولكي يتجنب تعريض الحركة الأولى لحقوق النساء للخطر ، فإنه هون - أو حذف - أفكاره الراديكالية عن الطلاق وتحديد لنسل^(٣). وعندما يحدث ذلك فإنني سوف أشير إلى مناقشاته التفصيلية لهذه الموضوعات كما سوف أشير أيضا الى نماذج كانت فيها أفكار « هاريت تايلور » - على نحو ما عبرت عنها في كتاباتها في موضوع النساء - تختلف اختلافا ذا مغزى عن أفكار زوجها جون ستورات مل^(٤).

على الرغم من أن أفكار « مل » الراديكالية عن النساء كانت غريبة في منتصف القرن التاسع عشر عن جو الأفكار بصفة عامة فمن السهل أن نجد لها مثيرة لتطور قناعاته المؤيدة لقضية المرأة ضمن جماعات متعددة من المفكرين الذين كان على اتصال بهم إبان سنوات تكوينه ؛ فالنفعيون الذين تربى بينهم كانوا بغير شك مهمتين

(١) راجع مثلاً مشيل بيك « حياة جون ستورات مل » ص ٩٠ وص ٢٩٤ - ٢٩٥ . وأيضاً ق . أ هايك . « جون ستورات مل و هاريت تايلور » ص ٢٠٨ - ٢٤٨ . هملفارب : « عن الحرية و هاريت تايلور » ص ١٧٠ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ . و « استعباد النساء » ص ٤٥١ .

(٢) هاريت تايلور (١٨٠٧ - ١٨٥٨) أحبها مل أكثر من واحد وعشرين عاماً قبل أن يتزوجها عام ١٨٥١ (بعد وفاة زوجها في يوليو ١٨٤٩) ولم يستمر زواجه منها سوى سبع سنوات فقد ماتت عام ١٨٥٨ (الترجم).

(٣) رسالة إلى جون نيكول في ١٨ أغسطس عام ١٨٨٩. انظر « الخطابات الأخيرة » المؤلفات الكاملة المجلد الرابع عشر ص ١٦٢ .

(٤) مقالان عن الزواج والطلاق كتبهما مل « و هاريت » في عام ١٨٢٢ أعيد نشرهما في كتاب « هايك » : « جون ستورات مل و هاريت تايلور » - وكذلك في طبعة أليس روسي . بمقالاتها عن المساواة بين الجنسين ويعتقد أن مقال « منح حق الانتخاب للنساء » يحتمل - وإن كان ذلك مؤكداً - أن تكون هاريت قد كتبه.

بالقضية. فبنتام مثلاً على الرغم من أنه كان يعتقد أنه من السابق لأوانه السماح لموضوع حق النساء في الاقتراع والتصويت أن يشغل الانتباه أو يعرض أغراضه الأوسع للخطر - كان يُسَلَّم بأن النقاط الحاسمة الموجودة في الفروق بين الجنسين ليست ، بالتأكيد ، فطرية ، كما أنها ليست ضرورية أو لامندوحة عنها ^(١). وتبعاً لمبدأ المنفعة فإن النساء لابد أن يكون لهن حق التصويت على نفس الأسس التي للرجال ، أما جون ستورات مل فهو - مثل والده - في كتابه « سيرة حياتي » يتطلع.. إلى زيادة ملحوظة للحرية في العلاقات بين الجنسين دون أن ندعى تحديداً - بالضبط ما هو على وجه الدقة أو ما الذي ينبغي أن تكون عليه - شروط الحرية هذه ^(٢) ، غير أن جيمس مل في موضوع حق النساء في الاقتراع والتصويت - في كتابه « مقال عن الحكومة » قد أهان الأفكار الفلسفية الثورية الأخرى باقتراحه استبعاد النساء من حق التصويت دون أن يترتب على ذلك أية نتائج سيئة ، طالما أن مصالحن مدرجة في مصالح رجال أسرهن. ولقد أدى إلى مجادلات عنيفة في حلقات المذهب النفعي ، فهذه العبارة لا يمكن قبولها من « مل » الشاب الذي يخبرنا أنه وأنصاره - بما في ذلك بنتام - « عارضوها معارضة تامة » ^(٣). ومن الواضح من استخدامه للجملة في كتبه التالية عن المرأة أن مل اندهش من المبالغة في هذه العبارة في الهجوم النقدي « لماكولي » لكتاب « مقال عن الحكومة » أن مصالح النساء لم تعد بعد متحدة مع مصالح أزواجهن أكثر من اتحاد مصالح الرعايا مع ملوكهم ^(٤) ولابد أن تكون المناظرة كلها قد استتارت اهتمام « جون ستورات مل » - بقضية المرأة وبالإضافة إلى ذلك فإن جريدة « وستمنستر » الناطقة بلسان المذهب النفعي قد نصبت نفسها كنصير ومدافع مبكر لقضية حقوق المرأة. وفي فترة مبكرة (عام ١٨٢٤) نشر مل نفسه مقالا في هذه الجريدة هاجم فيه

(١) جرمي بنتام «خطة للإصلاح البرلماني» ص ٤٦٣-٤٦٤. والقانون الدستوري ص ١٠٧-١٠٩ انظر

مريام وليفورد «بنتام وحقوق المرأة» .

(٢) «سيرة حياتي» ص ١٠٧ .

(٣) «سيرة حياتي» ص ١٠٤ .

(٤) انظر «باك» «حياة جون ستورات مل» ص ٩٠ .

العادة المنتشرة ، وهي عادة النظر إلى الخصائص الأخلاقية والشخصية في أضواء تختلف أتم الاختلاف بالإشارة إلى الجنسين^(١).

إن مناصرة « مل » هي الأخرى استمدت إلهامها كذلك من الاشتراكيين الفرنسيين والإنجليز المبكرين ، فهو يذكر لقاءً مع « وليم طومسون » أحد أتباع « أوين »^(٢) الذي نشر بحثاً مطولاً في عشرينيات القرن التاسع عشر تأييداً للمساواة بين الجنسين. يقول إنه يراه : « الشرف البارز لمذهب أوين » ، والمذاهب الاشتراكية الأخرى ، أنها وافقت على حقوق النساء متساوية مع الرجال ، ومن جميع الجوانب ، مع ذلك الجنس الذي لا يزال مسيطراً حتى الآن^(٣).. ونحن نعرف كذلك من خطباته أنه كان مهتماً جداً بأفكار « انفانتين *Enfantin* » وغيره من أتباع سان سيمون - الذين وصلوا إلى لندن في أوائل ١٨٢٠^(٤) ولما كان معتدلاً في تفكيره فقد واصل إعجابه - رغم وساوسه التي تلت ذلك وكان لها ما يبررها في تعصبهم ودجلهم - واصل الاعتراف بدينه لهم في قضية المساواة بين الجنسين كتب في سيرته الذاتية، يقول : « إن إعلان المساواة التامة بين الرجال والنساء ، ونظام جديد تماماً للأشياء بالنسبة لعلاقتهم الواحد بالآخر فإن أتباع سان سيمون ، بالاشتراك مع أوين وفوريه ، قد تأهلوا لذكرى عطرة من أجيال المستقبل »^(٥).

هناك عامل آخر يميل إلى تأكيد اقتناع «مل» الراسخ والموجود بالفعل لمناصرة قضية المرأة وهو ارتباطه ب. و. ج. فوكس *W.J.Fox* والمجلة الشهيرة النفعية المسماة وفي وقت مبكر من عام ١٨٢٣ عندما أسهمت هاربت تايلور في *Monthly Repository* موضوع المساواة في تربية وتعليم النساء ولاسيما في عام ١٨٢٠ - عندما كان

(١) جريدة وستمنستر المجلد الأول العدد الثاني ابريل عام ١٨٢٤ .

(٢) روبرت أوين *R. Owen* (١٧٧١ - ١٨٥٨) اشتراكي إنجليزي وجه انتقادات ضد الملكية الخاصة والذين كان يعتقد أن النظام الاجتماعي يمثل تأثيراً حاسماً على الإنسان (المترجم).

(٣) مبادئ الاقتصاد السياسي - المؤلفات الكاملة - المجلد الثاني ص ٢٠٩ .

(٤) انظر . ر . ك . ب . بانكهرست «أتباع سان سيمون ، مل، وكارليل» ص ٣ - ٤ و ص ١٠٨ - ١٠٩

(٥) «السيرة الذاتية» ص ١٦٧ - ١٦٨ - وانظر أيضاً خطابات إلى هاربت تايلور ١٩ فبراير ١٨٤٩ ، ١٨ يناير ١٨٥٥ . «الخطابات الأخيرة في مجموعة المؤلفات الكاملة» المجلد الرابع عشر ص ٩ - ١٠ و ص ٢٩ .

« فوكس » رئيسا للتحريير - نشرت هذه المجلة عدة مقالات دفاعا عن حق النساء في الاقتراع والتصويت ، وموقفا عقلا نيا أكثر تجاه الطلاق ، وتصحيح عدد آخر لاحتصر له من الأحكام الظالمة في معالجة النساء. وفي تاريخ كتابته للمجلة يقول فرانسيس ميكا « رن سجلات المجلة في تحريير النساء هي سجلات مشرفة على نحو متميز فمنذ أن بدأت فقد سارت بعيدا عن الرأي العام الشائع ، ولن تجد مجلة دورية معاصرة قد دافعت باتساق عن خطة مستنيرة على هذا النحو »^(١) ولقد كتب مل لهذه المجلة في أوائل ووسط ثلاثينيات القرن التاسع عشر ومراسلاته المتكررة مع « فوكس » طوال هذه السنوات تبين لنا أن الأخير كان مهمازا واضحا لمبادئه التي تناصر المساواة بين الجنسين^(٢).

وأخيرا فإننا لانستطيع أن نتجاهل التأثير المباشر على أفكار «مل» عن النساء الذي مارسه عليه الحلقات الثقافية التي كانت يشترك فيها. ونساء موهبات وذكيات ومثقفات ومنتجات ، من أمثال « هاربت مارتينو » ، و « سارة أوستن » و « هاربت جروت » ، و « جيني كارليل » أو « اليزا وساره فلور » - لا يمكن أن يفشلن في التأثير على أفكار بصدد جنسهن ، والطريقة التي ينظر بها المجتمع المعاصر إليهن ، ولقد كانت « هاربت تايلور » أعظم النساء أهمية من هذه الزاوية.

لقد كانت هناك مجالات طويلة حول مدى الأثر الذي تركته هاربت تايلور على «مل» ومدى أصالة إسهامها في مؤلفاته^(٣) ولقد نشأت هذه المجادلات من الخلاف بين

(١) انظر مقال فرانسيس ميكا « انشقاق المنشق » ص ٢٩٦

(٢) الرسائل المبكرة - المؤلفات الكاملة المجلد الثاني في أماكن متفرقة انظر مثلاً ص ١٦٠ و ص ٢٢٩ .

(٣) حتى ستينيات القرن العشرين ، كان كُتاب سيرة حياة «مل» - من أمثال « روث بوشار » ، « وهايك ويك » يميلون إلى قبول تقدير «مل» لمدى التأثير العقلي العظيم الذي تركته فيه هاربت تايلور . وكان ذلك صحيحاً بصفة خاصة بالنسبة لـ « بيك » الذي كان يرى أن هاربت كتبت كل شيء ما عدا كتاب مل عن « المنطق » (حياة جون ستوارت مل ص ٢١٧) لكن كان هناك رد فعل في السنوات الأخيرة ضد هذه النظرة من « جاك ستيلجنر » الذي نشر المسودات الأولى لكتاب مل « سيرة حياتي » و « هـ . أ . باب » في كتابة « جون ستوارت مل وهاربت تايلور » . و « جون م . = رويسن » إصلاح الجنس البشري » ولم يجادل واحد من هذين الكاتبين في أن « هاربت تايلور » كانت جزءاً بالغ الأهمية في حياة «مل» ، وأن من المؤكد أنها زودته بالسعادة العاطفية والرفقة العقلية وبيوتهما كان سيقبل إنتاجه بلا ريب . وما يختلفان فيه مع النقاد المبكرين . ومع مل نفسه هو أن أفكاره الرئيسية في مؤلفاته هي أفكارها وليست أفكاره . ويذهب أحدث باحث « هاملفارب » إلى أن هاربت تايلور كانت مؤثرة بدرجة هائلة - لاسيما خلال حياتهما الزوجية ، لكن بطريقة يعتقد الكاتب أنها أدت بـ «مل» إلى أن يضل بعيداً عن أفكاره ذات القيمة . أما بالنسبة لنظرة حديثة أكثر اتزاناً عن تأثير هاربت انظر ، « فريجينيا هلد » . « العدالة وهاربت تايلور » .

عبارات «مل» المفتونة بعبقريتها التي لاحد لها ، من ناحية ، ومزاعمه بأن قدرا كبيرا من مؤلفاته يقوم في الواقع على أفكارها هي ^(١). ومن ناحية أخرى الانطباع السيئ الذي أحدثته عامدة في نفوس معاصريها ونوعية الكتابات الخاصة التي تركتها لنا. وأنا أميل الى الاتفاق مع « هـ. أ. باب » الذي انتهى من فحصة للدلائل والشواهد إلى القول بأن الانطباع المشوش لم عن قدراتها هو وحده الذي يوحى بأنها عبقرية رائعة غير أنه ليس من الضروري في سياق عرض أفكار «مل» المؤيدة لقضية المرأة أن نخوض بعمق في هذه المجادلات لسببين :

أولاً : لقد تركنا مل مع إفادة بالغة الوضوح عن تأثير زوجته على معتقداته المؤيدة لقضية المرأة لقد شدد على أنها ليست هي مصدر قناعاته عن حاجتنا إلى المساواة بين الرجال والنساء وهذه الإفادة أقرتها عدة خطابات وعدة نشرات في موضوع يؤرخ له قبل أول لقاء بينهما. وهو في الواقع يقول إنه ربما كانت آراؤه القوية في الموضوع هي التي جذبتها في البداية إليه. غير أنه يضيف أنها في مجرى علاقتهما الطويلة التي انتهت بالزواج لعبت دورا في تشكيل ما قد كان : « أكثر قليلا من مبدأ مجرى » في تقدير حقيقي للآثار اليومية العملية لامرأة تنقصها الحقوق والفرص. وهو يقول أيضا إنها جعلته يدرك « النمط الذي فيه تغزل نتائج الوضع المتدنى للنساء مع كل شرور المجتمع القائم ومع كل عقبات الإصلاح البشرى » ^(٢) على الرغم من أن «مل كان واحدا من الذين يؤيدون قضية المرأة

(١) خطاب من جون ستوارت مل إلى هاريت تايلور ص ١٨٥ . وأمثلة أخرى على تقدير «مل» العالى لها وإطراؤه عليها. انظر مثلاً مقدمته إلى «حق الاقتراع والتصويت للنساء» «سيرته الذاتية» في أماكن متفرقة. والنقش التذكاري الذي وضعه على قبرها - كتاب «هايك» ص ٣٤، وانظر أيضاً إهداءه «كتاب الحرية» إلى نكري حبيبتي التي تبعث في نفس الحسرة والشجن ... الخ» من ترجمتنا العربية «أسس الليبرالية السياسية» ص ١١٥ . (الترجم).

(٢) سيرة حياتي ص ٢٤٤ (حاشية) وقارن أيضاً خطاب إلى بولينا رايت ديفز في ١١ ديسمبر ١٨٦٨ الخطابات المتأخرة ، مجموعة المؤلفات الكاملة المجلد السابع عشر ص ١٦٧٠ - ١٦٧١ .

فى استقلال عن تأثير « هاريت تايلور» ولابد أن تكون الظروف الصعبة لعلاقتها قد عملت على زيادة قوة قناعاته ، وعزمه وتصميمة على أن يفعل ما يستطيع فى سبيل علاج ألوان العجز الخطير عند النساء .»

ثانياً : من المستحيل أن نقول إن الأفكار التى عبّر عنها «مل» و «هاربت» عن موضوع النساء أيها نشأ أصلا فى ذهنه وأيها نشأ فى ذهنها ، مع إمكان استثناء تلك الأفكار التى عبّر عنها كل منهما للآخر فى مقالين قصيرين عن الزواج والطلاق ، فى فترة مبكرة جدا من علاقتهما ، وتلك الأفكار التى ظهرت فى مقالين مبكرين « حق النساء فى التصويت والاقتراع » و « استعباد النساء » تبناهما «مل» بعد وفاه «هاريت تايلور». ويمكن للمرء أن يستمد من هذا الشاهد انطبعا متميزا هو أن أفكارها كانت إلى حد ما أكثر راديكالية من أفكاره، فهى مثلا تقترح أنه ما أن تحصل النساء على حقوقهن السياسية والمدينة كاملة ، حتى تلغى كل قوانين الزواج دون أى نتائج ضارة ، فى حين أن «مل» كانت يقف إلى جانب التخفيف الملحوظ لقوانين الطلاق ، ولم يقترح أبدا إلغاء الأساس الأساسى التعاقدى للزواج. غير أن أفكارهما قد أصبحت فيما يبدو قد وقعت فى شرك هذا الموضوع الذى كان مهما بالنسبة لهما معا ، فكثير من الحجج التى اشتمل عليها كتابه « استعباد النساء » قد ظهرت أولا فى مقال « حق النساء فى التصويت والاقتراع » غير أن ذلك لايكفى شاهدا ودليلا على أنها كانت كلها فى الأصل أفكارها طالما أنه على الرغم من أن المقالة المنشورة باسمها قد أشار إليها مل نفسه ذات مرة بأنه كتبها بنفسه ، وربما كان ذلك لتجنب أحكام الناشر المبتسرة. ومن المرجح أنهما عملا معا فيها طويلا ، أو على الأقل كانا على اتصال مستمر بصدد الأفكار التى تتضمنها. وكما يقول مل نفسه إنها أتت من « ذخيرة الفكر التى كانت مشتركة بيننا ، عن طريق محادثاتنا ومناقشاتنا التى لا نهاية لها فى موضوع يظل يشغل هذه المساحة الواسعة فى أذهاننا » (١).

(١) سيرة حياتى ص ٢٦٦ وسوف أزعم فيما بعد أن تلك الأفكار الراديكالية التى عبّر عنها مل فى «حق النساء فى التصويت والاقتراع» -والتي لم يكررها فى كتابه «استعباد النساء» هى أفكار هاريت تايلور.

وهكذا فإن قناعات مل المناصرة لقضية المرأة التي اعتنقها في فترة مبكرة من حياته قد أضافت المؤثرات لعدد من جماعات المفكرين الذين اختلط بهم أو على الأقل كان على اتصال ملحوظ بهم، من أمثال : أصحاب مذهب المنفعة العامة ، والنقابات الاشتراكية المبكرة ، وأتباع سان سيمون ، وأتباع فورييه ، والراديكاليين النفعيين. كما كان على اتصال بعدد من السناء الذين تتناقض قدراتهم بقوة مع الأنماط الرتيبة من النساء المعاصرات كما كانت له علاقة حميمة وطويلة مع امرأة عانت على نحو مباشر من نتائج التفرقة والتمييز لجنسها لاسيما في صورة قوانين الزواج ، وحجب فرص التربية والتعليم فلا يدهشنا إذن أن يقرر استخدام معظم مبادئه الأساسية في معركة تحرير النساء.

وفي كتابه عن « الحرية » يتجنب « مل » أي لجوء إلى « الحق المجرد كشيء مستقل عن المنفعة ». وهو يشعر في « استعباد النساء » أيضا أنه مضطر للرد على أولئك الذين ربما اتهموه بالدفاع عن « ثورة اجتماعية باسم الحق المجرد »^(١). وفي بعض الأحيان على الرغم من احتجاجه على الحقوق الطبيعية ، فإنه يقترب جدا ليصبح أشبه بمنظر لهذه الحقوق ، بدلا من أن يكون فيلسوفاً نفعياً بسيطاً ، فهو مثلاً يشير إلى أنه ليس من الإنصاف ولا من الأخلاق أن ننكر حق النساء في المساواة مع باقي الموجودات البشرية في اختيار العمل الذين يقمن به (مالم يكن فيه إضرار بالآخرين تبعا لما يفضلنه على مسئوليتهن)^(٢).

وعلى الرغم من « زلات » بعض الفلاسفة غير النفعيين - كهذه - فإن الحجج الأساسية في « استعباد النساء » وكذلك في كتابه « عن الحرية » قد صيغت باسم المنفعة ، أو بدقة باسم صورة المنفعة عند جون ستوارت مل. فالالتجاء في « استعباد

(٢) الحرية ص ١٦ - واستعباد النساء ص ٥٢١ .

(٣) استعباد النساء ص ٤٨٧ (وفي ترجمتنا العربية ص ١٠٢ المترجم).

النساء « هو أيضا للمنفعة بالمعنى الواسع ، المؤسس على المصلح الدائمة للإنسان كموجود تقدمي (١) .

يرفض مل «بقوة» التصور البنتمى الضيق للطبيعة البشرية ، صراحة في مقال عن بنتام (٢) كما أنه يرفضه ، ضمنا في كل كتبه الأخرى، يقول عن كتابه عن الحرية : « الطبيعة البشرية ليست آلة تُبنى على غرار نموذج معين.. وإنما هي شجرة تحتاج إلى أن تنمو وتطور نفسها من جميع الجوانب طبقا لمنحى القوى الداخلية التي تجعلها موجودا حيا» (٣) وسواء أكان تصور «مل» غير الآلى تماما ، للطبيعة البشرية ، يعنى أننا لانستطيع أن ننظر إليه كفيلسوف نفعى حقيقى ، فذلك موضع نزاع وجدال كبيرين. فقد ذهب البعض إلى أن التشديد الذى وضعة على تطور الملكات البشرية ، بدلا من اللذات أو المباهج التى يخبرها عدد من الناس قد أخذته بعيدا عن المبدأ الشهير « أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس » فلم يعد يمكن النظر إليه على أنه فيلسوف نفعى لمعنى البنتمى.

ومن المؤكد أنه لم يكن يؤمن أن « الدبوس عريض الرأس ليس جيدا مثل الشعر » غير أنه لم يتنازل قط عن مبدأ أعظم قدر من السعادة. والمبرر الأساسى لذلك هو أن «مل» كان مقتنعا بأن التقدم العقلى والأخلاقى للجنس البشرى سوف يؤدي إلى سعادة أعظم من اللذات الدنيا للحواس (٤) ، وأنها تؤدي بالتالى إلى الأناية ، وذلك سبب رئيسى يجعل الحياة غير مقنعة هو نقص التثقيف الذهنى.. (٥) إنه يستطيع فقط أن ينتهى إلى أن الوسائل الجوهرية المؤدية لأعظم قدر من السعادة هى التى تكشف لكل

(١) عن الحرية ص ١٦ .

(٢) بنتام فى كتابه «مذهب المنفعة العامة» ص ٩٧ .

(٣) عن الحرية ص ٧٣ .

(٤) يوجد البرهان الشهير على كيف أن اللذات أبدية الفصل الثانى من كتاب «مذهب المنفعة العامة» ص ٢٥٨ - ٢٦٢ (وفى ترجمتنا العربية ص ٤٢ - ٤٨ المترجم) إذا أخذناها ببساطة كما هى معروضة هناك بدون المقدمة التى لم يذكرها مل .وهى أنه أخذ طبيعته الفعلية الخاصة العالمية كنموذج للطبيعة البشرية لا أقل من استخدام بنتام «لطبيعته هو الخاصة - لوجدنا أن البرهان غير مقنع تماما». ومن المؤكد أن مل فشل فى إقناعنا أن سقراط كان يعرف حقاً. ماذا يعنى الخنزير السعيد أكثر مما كان «مل» نفسه يعرف ذلك.

(٥) مذهب المنفعة العامة ص ٢٦٥ .

إنسان عن متع الشعور. وعن اللذات العليا الأخرى. إن التطور الأخلاقي للبشرية لا بد أن يؤدي هو الآخر إلى سعادة أعظم ، ذلك لأن الفضيلة الأخلاقية ليست مجرد وسيلة للسلوك الجيد، بل إلى شعور يؤدي إلى سعادته - أوسعادتها الخاصة^(١) وكذلك بسبب أن انهيار الأتانية لا بد أن يعنى أن الناس لا بد أن يصبحوا متحدين في هدف الوصول إلى أعظم قدر من السعادة للجميع، ومن هنا فمن المؤكد أن مذهب المنفعة العامة عند مل يختلف عن مذهب المنفعة عند بنتام من حيث أن مل لم يكن يأمل أن يجد جوابا على السؤال : « هل خير الناس ، حاليا هو مبدأ أعظم قدرا من السعادة ؟ » ببساطة عن طريق سؤال كل فرد : ما شعوره ؟ كما أنه أوضح بصفة خاصة في القرة الخاصة « بسقراط والخنزير »^(٢) لم ير على الإطلاق أن الناس قادرين على معرفة ماذا يمكن أن تكون السعادة العظيمة والعميقة لو أن امكاناتهم العقلية والخلقية قد تطورت تطورا كاملا.

ولاشك أن هناك شعورا نخبويا (بأنه ينتمى إلى النخبة أو الصفوة) عقليا قويا يجرى فى فكر «مل» وعلى حين أنه انتقد بنتام لأنه أقام تصوره للطبيعة البشرية على شخصه الضيق غير المتخيل ، فإن «مل» تقدم ليستدل على برهانه بنفس الطريقة. ولقد افترض نموذج البشرية هو الزاهد العقلانى المحب للجمال الذى يتجسد فى شخصه هو.. وما أن نعترف بهذا التحيز ، فإنه لا يمكن أن نؤكد زنه رفض مبدأ أعظم قدر من السعادة لصالح مبدأ أعظم نور من التطور البشرى. والمهم أن كان مقتنعا تماما بأن المثقف هو وحده الذى يتسطيع أن يصل إلى أعظم قدر من السعادة المتاحة للجنس البشرى.

إن الغرض من هذا الاستطراد فى موضوع النساء هو أن نستكشف أهمية صورة مذهب المنفعة الخاصة بـ «مل» وتصوره للإنسان بوصفه موجودا تقديما قابلا

(١) مذهب المنفعة ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) كان المعارضون لمذهب المنفعة الذى يقول إن غايته هى اللذة يقولون إن هذا المبدأ لا يليق إلا بالخنزير ، ويذهبون إلى أن الإنسان العاقل لا بد أن يتمنى أن يكون مثل سقراط الفيلسوف التعس الشقى عن أن يكون خنزيراً سعيداً انظر ترجمتنا ص ٤٤ - ٤٥ وما بعدها .(الترجم).

للتحسن من الناحية العقلية والأخلاقية. ففي كتابه « استبعاد النساء » ، وفي تلك الأجزاء من مؤلفاته الأخرى التي ناقش فيها الحاجة إلى تحرر النساء ، يتكرر موضوع التقدم البشري كبيراً. ولقد لخص هذا التشديد في فقرة من « مبادئ الاقتصاد السياسي » يقول فيها: « الأفكار والمؤسسات التي جعلتها مصادفة الجنس ، القاعدة الأساسية لتفاوت الحقوق المشروعة ، وانعدام التشابه في الوظائف الاجتماعية ، لا بد أن تُدرك معنى أنها كانت من قبل ولفترة طويلة العقبة الكبرى أمام الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي حتى العقلي^(١). وهناك مبدآن آخران يظهران بوضوح كامل في كتابه « استبعاد النساء ». وعباراته الأخرى المؤيدة لحقوق النساء عن الحرية ، أو فرص التحديد - الذاتي ، والعدالة ، بمعنى المساواة وعدم التحيز ، وهذان المبدآن الآخران يرتبطان صراحة بالتقدم الأخلاقي والعقلي للجنس البشري. يقدر ارتباطهما بسعادة النساء أنفسهن.

ولقد كان « مل » مهموماً بعمق - كما يتضح من كتابه عن « الحرية » بقيمة الحرية الفردية ، ناظراً إليها على أنها وسيلة مهمة للسعادة ، وللتطور الذاتي ، وأنه يمكن التضحية بها على نحو له ما يبرره فقط إلى الحد الذي كان ضرورياً ، على نحو مطلق لصيانة الأمن والتعاون الاجتماعي ، فهو يؤكد « أن الحرية هي أتمن وأقوى حاجات الطبيعة البشرية بعد الضرورات الأولية من غذاء وكساء »^(٢). وهو يسترجع المتع التي تنبثق من إرشادات الطفولة إلى مسئولية النضج في سن الرشد كمؤشر على الشعور بالحيوية الذي يمكن أن يزودنا به التحديد الذاتي ، وهكذا نجد أن الحرية جوهرية كجزء من السعادة البشرية حتى أن مل ينتهي إلى أن الغرض الوحيد الذي تُستخدم فيه السلطة بطريقة مشروعة ضد الفرد أو العضو في مجتمع متمدين أعني ضد إرادته ، هو أن نمنعه من الإضرار بالآخرين^(٣).

(١) مبادئ الاقتصاد السياسي - المؤلفات الكاملة المجلد الثالث ص ٧٦٥ - وانظر أيضاً المجلد الثاني ص

٢٧٣ - والخطابات الأخيرة المؤلفات الكاملة المجلد السابع عشر ١٨٠١٠١٥٢٥ .

(٢) استبعاد النساء ص ٥٤٢ (وفي ترجمتنا العربية ص ١٦٣ - المترجم).

(٣) عن الحرية ص ١٥ (وفي ترجمتنا العربية ص ١٢٧ - المترجم).

لم يكن لدى مل أية شكوك - على خلاف روسو بتصوره البطريراركي الصارم للحرية - في وجود مجالات كثيرة لتطبيق هذه القيمة التي يعتنقها ، بقوة ، بالنسبة للوضع الاجتماعي والقانوني ، المعاصر للنساء. إن الحرية والتحديد الذاتي والموضوعات المتكررة في براهين « مل » ضد التفاوت الفظيع في قوانين الزواج والتفرقة والتمييز الحاد الذي يعاني منه النساء في مجالات التعليم وفرص العمل. وهو يقرر أن المنفعة المباشرة التي يرى أنها تنتج من تحرير النساء سوف تكون إضافة السعادة إلى النساء أنفسهن نتيجة للفرق بين « حياة خضوع الإرادة للآخرين وحياة الحرية العقلية »^(١). على حين أن المرأة في الوقت الذي كان يكتب فيه لم يكن لها فرصة - من الناحية العملية - لشغل أية وظيفة، الزوجة في علاقة زوجية هي مضطرة فيها ، قانونا ، أن تطيع زوجها ، وليس لها حقوق في الملكية الخاصة. ولقد كان واضحا لمل أن سعادة لاتقدر من السعادة سوف تنتج من إعطاء المرأة اختياراً حقيقياً للطريقة التي تعيش بها. كما كان مقتنعاً أنه « إذا كان هناك شيء بالغ الأهمية بالنسبة لسعادة الموجودات البشرية ، فهو أن يتقبلوا برضاً عملهم المألوف »^(٢). وهكذا يكون من الضروري أن تكون جميع أبواب العمل المتاحة للرجال مفتوحة - بالتساوي - أمام النساء ، فقط عندما يكون اختيار الزواج أو عدمه له معنى ، بدلا من أن يكون الوسيلة الوحيدة للفرار من التبعية المحترقة للعنوسة.

ومن الأمور المهمة أيضاً أن أولئك الذين يختارون الزواج لابد أن يُسلموا بنصيب متساو من الحقوق القانونية والمسئولية المشروعة في هذه العلاقة. وعلى الرغم من أنه لم يُعبّر صراحة عن أفكاره الأكثر راديكالية في موضوع الزواج في كتابه « استعباد النساء » فإنه يقول في مكان آخر إنه ينبغي أن يكون تعاقداً حراً بمعنى أن ينحل بناء على رغبة الأطراف المتعاقدة شريطة أن يعنى بالأطفال عناية تامة - إذا أثمر هذا الزواج عن وجود أطفال.. ولقد عارض النظرة المعاصرة له والتي ترى الطبيعة الملزمة لعقد الزواج - ولقد لخص هذه المعارضة في عبارة، تقول : « من المؤكد أنه خطأ ، خطأ من كل وجه.. أن يكون هناك دافع للزواج سوى السعادة لشخصين يحب كل منهما

(١) استعباد النساء ص ٥٤٢ (وفي ترجمتنا العربية ص ١٦٢ - المترجم).

(٢) استعباد النساء ص ٥٤٧ (وفي ترجمتنا العربية ص ١٦٨ - المترجم).

الآخر ، ويشعران أن وجودهما يكمن في هذه الارتباط..»^(١). وأى إنكار للحرية التي لم تكن من أجل حماية طرف ثالث من الأذى فلعنة الله عليه.

ولم يكن دفاع « مل » عن إعطاء المزيد من الحرية للنساء ولاختيار الطريقة التي يعشن بها يعود إلى رغبته في إضافة السعادة للنساء أنفسهن ، وإنما يعود كذلك إلى « رغبته في تقدم المجتمع ككل ». وكما يقول في كتابه عن « الحرية » : « المصدر الدائم المؤكد للإصلاح هو الحرية طالما أنه يوجد - عن طريقها - عدة مراكز دائمة ممكنة للإصلاح بقدر ما هنالك من أفراد »^(٢) إن مدّ التعليم إلى « النساء وفتح مجال العمل أمامهن ، وتحريرهن من عبودية الخدمة المنزلية الإجبارية ، سوف يكون له كذلك نتائج مفيدة » في مضاعفة مجموعة الملكات العقلية المتاحة لخدمة البشرية خدمات رفيعة »^(٣).

وبالإضافة إلى هذه الزيادة الهائلة من المواهب المتاحة ، فإن « مل » يرى أن تحرير النساء بحيث يصبحن متعلمات ، يعملن في وظائف - سيكون له نتائج قيمة جدا بالنسبة للرجال فاستثارة التنافس النسائي ، وصحبة شريك متعلم بالمثل سوف يؤدي كذلك إلى تطور عقلي أعظم عند الرجال أيضا. ولقد تأثر « مل » بقوة من واقعة أنه مادام الرجال يصبحون أقل التزاماً بالمهام خارج المنزل ، وفيما ينظر إليه على أنه نشاط رجالي تحديدا. فإن حياتهم المنزلية ستكون أكثر أهمية ، وسوف يزداد بالتالي تأثير زوجاتهم بصفة مستمرة. فإذا أخذنا على العكس ، بوجهة النظر التشاؤمية القائلة بأن أى مجتمع أو أى فرد لا يتحسن فإنه يتدهور ، فإنه يشدد على النتائج الضارة التي يمكن أن تحدثها الصحبة المثمرة لزوجة غير متعلمة طائشة وتافهة على الرجل ، حتى ولو كانت له في السابق اهتمامات عقلية جادة.

وهو يتساءل : ماذا يمكن لهذا الرجل أن يكون مفسداً لتطور الإنسان لانحصار نسبة كبيرة من حياته مع شريك بلغ من الغباء حدا جعله يركز ذهنه في التوافه. شريك يجهل تماماً المسائل التي تكون على أعلى مستوى من الأهتمام ، وهي مضطرة نظراً

(١) مقال مبكر عن الزواج والطلاق في مقالات حول المساواة بين الجنسين ص ٧٢ .

(٢) عن الحرية ص ٨٧ .

(٣) استعباد النساء ص ٥٢٥ (وترجمتنا العربية ص ١٤٧ . المترجم).

لتعليمها المحدود إلى النظر إلى الاهتمامات المادية المباشرة لأسرتها على أنها على جانب عظيم من الأهمية أكثر من أى تطلعات عقلية أو روحية عامة كان على زوجها أن يسعى إليها ويتساعل مل: « مع مثل هذا التأثير فى أى أسرة ، أيمكن لنا أن نعجب أن الشعب بصفة عامة قد انحط إلى هذه الوسطية من الاحترام التى أصبحت سمة من سمات العصور الحديثة ؟ »^(١) لقد كان الحل الذى اقترحه روسو لما اعتبره تأثيراً غير مقبول للنساء المعاصرات التفرقة بين الجنسين فى العالم الواسع ، وحتى داخل المنزل - ولسنا بحاجة إلى القول أنه كان بغيضاً تماماً بالنسبة لمل. بلرغم من أن النساء فى حالتهم السائدة من الاستعباد وانعدام الفرص ، كن يعملن فى نظر مل ، كقوة مستمرة تعوق التقدم ، فقد كان مقتنعاً بأن تحررهن سوف يعكس تأثير هذه القوة.

ثانياً : بالنسبة للحرية وحدها بالحجج المقدمة فى كتابه « استبعاد النساء » هى مبدأ العدالة. وينظر إلى مثل هذه المعالجة على أنها جوهرية فى أن معاً بالنسبة لظروف تقدم البشرية. ومناقشة « مل » الشاملة للعدالة إنما توجد فى الفصل الأخير^(٢) من كتابه « مذهب المنفعة العامة » حيث يعالج المفهوم الأساسى للنزاهة أو عدم التحيز أى ضرورة معالجة الحالات المتشابهة بطريقة واحدة ، ثم يستطرد ليبين لنا السبب فى أن المجتمعات المختلفة كان لديها تصورات مختلفة عما يشكل الدراسة العادلة هو أنهم اعتبروا أن هنا كىفيات مختلفة هى التى تشكل أسس التحيز أو الابتعاد عن النزاهة. وكما قلنا فى الفصل الرابع - فيما سبق عند مناقشتنا لنظرية أرسطو فى العدالة - إن المواطنين ، والنساء والحرفيين والعبيد تكون لهم معالجة مختلفة أتم الاختلاف تبعاً لما اعتقد أرسطو أنه الخصائص الداخلية الذاتية لهم ولوظائفهم. بينما يكون أمراً حاسماً لفكرة العدالة.. فيما يقول مل: « فجميع الأشخاص يعتقدون أن لهم حقاً فى المساواة فى المعاملة إلا عندما تقتضى الضرورة الاجتماعية غير ذلك^(٣).

(١) استبعاد النساء ص ٥٣٦ وانظر أيضاً ص ٥٤٠ .

(٢) هو الفصل الخامس بعنوان «حول ارتباط العدالة بالمنفعة» - انظر ترجمتنا العربية فى كتاب أسس الليبرالية السياسية ص ٨٥ وما بعدها مكتبة مديولى عام ١٩٩٦ (الترجم).

(٣) مذهب المنفعة العامة ص ٢٢٠ (وترجمتنا العربية ص ١١٠ - المترجم).

وهناك تصورات مختلفة مما يشكل المصلحة الاجتماعية تبحث عن قبول بعض المجتمعات لنظام الرق ، ونظام الطبقات المغلقة ، وغيرها من التنظيمات التي لا تنطوي على مساواة ، ويُنظر إليها الآن على أنها ظالمة تماماً. وأن تبريرها هو متطلبات الظروف. فقط عندما يتوقف التفاوت الاجتماعي عن أن يكون نافعا.. وعندما ينظر إليه ليس فقط على أنه غير نافع ، بل على أنه ظالم أيضاً لدرجة أن الناس لا بد أن يعجبوا كيف كان بإمكانهم تحمل هذا التفاوت ، ولكنهم ينسون أنهم ربما تحملوا ألواناً أخرى من التفاوت بسبب فكرة خاطئة مماثلة عن النفع^(١) والحالة النموذجية لذلك هي استبعاد النساء. « روسو » بالطبع هو مثال كامل لمثل هذا التفكير ، رغم أن التفاوت بين الجنسين « فلن يشعر أحد أن يتضارب مع الحضارة الحديثة إلا بالقدر الذي كان الأغريق يشعرون معه أن فكرة « رقيق المنزل كانت تتضارب مع فكرتهم عن أنفسهم كشعب حر.. »^(٢) ويرى مل أن العبودية مثال منعزل شاذ في عالم مبلوّه الرائد هو المساواة البشرية، وهو يؤكد « أن الزواج هو بالفعل العبودية الوحيدة التي يعرفها القانون عندنا ، فلم يعد هناك عبيد من الناحية القانونية سوى ربة كل منزل »^(٣).

وكما كان التفاوت في الماضي محصناً فقد نُظر إلى وضع النساء الذي يخلو من المساواة على « أنه طبيعي ». ويتساءل « مل » : « هل كانت هناك سيطرة في أي وقت من الأوقات لاتبدو طبيعية في نظر من يقومون بها ؟ »^(٤) إن أكثر العقول ثقافة في العالم القديم بمن فيهم أرسطو كانوا على يقين من أن الرق مسألة طبيعية ، ولقد ادعى منظرُو الحكم الملكي المطلق - أنه الصورة الطبيعية الوحيدة لنظام الحكم. وإعطاء الأجناس الغازية حق الأقوياء الذي كان طبيعياً ؛ والنبلاء في عهد الأقتان ، وسيطرتهم على الأقتان - كانت طبيعية. وطالما أن استبعاد النساء من جانب الرجال كان عادة كلية عادة ، فإننا لاندهش من شعور المجتمع بأنه على يقين أنها طبيعية لقد كان إدراك « مل » للمدى الذي تُستخدم فيه كلمة الطبيعة لجعل العرف مشروعاً كان مدهشاً، فهو يقول معلقاً : « ومن ثم فقد كان تعبير "من غير الطبيعي" يعنى من غير المألوف

(١) مذهب المنفعة العامة ص ٣٢٠ (وترجمتنا العربية ص ١١٠ - المترجم).

(٢) استبعاد النساء ص ٤٣٤ (وترجمتنا العربية ص ٤١ - المترجم).

(٣) استبعاد النساء ص ٥٢٢ (وترجمتنا العربية ص ١٤٤ - المترجم).

(٤) استبعاد النساء ص ٤٤٠ (وترجمتنا العربية ص ٤٨ - المترجم).

أو المعتاد ، أى أن كل ما هو مألوف أو معتاد هو أمر طبيعى «^(١) وطالما أنه يعتقد كما يقول مراراً أن المجتمع فى أعلى صورة هو مجتمع الأنداد أو النظراء : فقد كان من المهم بالنسبة له منازلة الإدعاءات المنتشرة عن « طبيعية » التفاوت الصارخ بين الجنسين ، وقد كان يتطلع لرؤية اليوم الذى تتبع فيه التميزات على أساس الجنس ما حدث لمميزات النبلاء على أساس المولد من التجاهل والنسيان.

ولقد كان مل يعتقد أنه لكى يبنى قضيته الخاصة بمساواة المرأة على أساس مبدأ المعاملة العادلة؛ فإن عليه أن يبرهن على أمرين :

أولاً : عليه أن يعارض الزعم القائل بأن النساء أدنى بالفطرة - يقول الاعتراض الذى نلتقى به الآن بصفة أساسية هو « أن النساء لايناسبهن ، أو غير قادرات على هذا أو ذاك من الإنجازات العقلية »^(٢) وبالتالي فقد صمم على أن يبين فى معارضة قوة الرأى المعاصر القوية - أن المبررات - التى كثيراً ما تذكر كأساس لمعالجة النساء على نحو مختلف عن الرجال - أنهن أدنى من حيث (الطبيعة) ناقصات عقل ، وأشد عاطفة ، لاتقوم على أدلة مقنعة وربما كانت كلها زائفة.

ثانياً : وحتى عندما برهن على ذلك إلى الحد الذى يستطيعه أى إنسان فى ذلك الوقت ، فإن مل رأى من الجوهرى ، بوصفه فيلسوفاً نفعياً ، أن يبين أن التخلص من المعاملة غير المتساوية سيكون نافعاً بمعنى أنه سوف يسهم فى الرخاء العام للمجتمع.

لقد كان على مل - وهو يناقش الادعاء الأول من هذين الادعاين - لافقط أن يفقد الرأى المبتسر الشائع ، بل أيضاً ردة الفعل العنيفة التى عبّر عنها عدد كبير من المثقفين فى منتصف القرن التاسع عشر ضد مذهب البيئة. فلقد رأى كثير من معاصرى مل أن المنظرين التربويين الفرنسيين فى عصر التنوير من أمثال «هلفيتيوس» و « هولباخ » قد نسبوا لعوامل البيئة أهمية مبالغاً فيها فى تكوين الشخصية الإنسانية والمقدرة العقلية. وكان مل يرى على العكس أن من المؤكد أن معظم ، ومن المحتمل أن

(١) استعباد النساء ص ٤٤١ (وترجمتنا العربية ص ٤٩ - المترجم).

(٢) رسالة إلى ألكسندر بين فى ١٤ يوليو عام ١٨٦٩ . انظر مجموعة المؤلفات الكاملة المجلد السابع عشر ص ١٦٢٢ .

كل الفروق الموجودة في الشخصية وفي العقل بين الرجال والنساء ترجع إلى مواقف مختلفة تماماً في المجتمع نحو أعضاء الجنسين ابتداءً من طفولتهم المبكرة ، والأنواع المختلفة بشكل هائل ، وصفات التربية التي قدمت لهم. ولقد أنكر مل بشدة في شذرة عن الزواج كتبها عام ١٨٢٢ أى تفاوت فطري بين الجنسين بمعزل عن القوة البدنية وحتى ذلك مشكوك فيه أيضاً - فيما يقول ^(١) ولقد عارض المذهب الدجماطيقى بقوة حتى أنه عدل موقفه فيما بعد من الإدعاء بأنه لا يوجد شيء من الفروق المزعومة بين القدرات الذهنية الأخلاقية بين الجنسين قد تمت البرهنة عليها على أنها نتيجة ضرورية للعوامل الفطرية على الرغم من أن بعضها يمكن أن يكون كذلك بالفعل ^(٢) ، والتأكيد الوحيد الدجماطيقى هو أنه لا شيء حتى الآن معروفاً على سبيل اليقين في هذا الموضوع : « وإذا قيل إن مبدأ المساواة بين الجنسين لا يقوم إلا على النظرية فحسب ، فلا بد لنا أن نتذكر أن المبدأ المصاد لا يقوم أيضاً إلا على النظرية وحدها فحسب » ^(٣).

وما اعتقد فيه المبدأ المصاد لعدة آلاف من السنين هو - في الواقع - سلسلة من التأكيدات المتعلقة بطبيعة النساء وصفاتهن الطبيعية. ويشير مل إلى أن هذه التصورات عن المرأة الطبيعية كثيراً ما تختلف اختلاف تاماً من ثقافة إلى أخرى. فالمرأة في الشرق شهوانية « بالطبيعة » ، وفي إنجلترا باردة « بالطبيعة » ، أما في فرنسا فهي « متقلبة » بالطبيعة ^(٤).

وإذا كانت مستقرة في إنجلترا. وهذا وحده كاف لأن يجعل المرء يتشكك في هذا المعتقد. فمن الواضح أن المرأة قد تحدد لها نسخ مختلفة من الدور النسائي في هذه الثقافات المختلفة ، وتتحدد « طبيعتها » بالتالي تبعاً لهذه الثقافات. ومن هنا فإن مل يذهب إلى أن المرء لا يستطيع في أى مكان أن يقول في « برهان عقلي » إن طبيعة كلا الجنسين تجعله يتكيف مع وظيفته ، ومركزه الراهن ، وتجعل هذه الأمور مناسبة

(١) مقالات عن المساواة بين الجنسين ص ٧٣ .

(٢) في خطاب إلى « جورج كروم روبرتسن » في ١٨ أغسطس ١٨٦٩ يقول مل « ليس من المؤكد أن الفروق التي تحدثت عنها ليست طبيعية على الأقل في جانب منها » الخطابات المتأخرة مجموعة المؤلفات الكاملة المجلد السابع عشر ص ١٦٣٥ .

(٣) استعباد النساء ص ٤٥٠ (وترجمتنا العربية ص ٦١ - المترجم).

(٤) استعباد النساء ص ١٢٣ (من ترجمتنا العربية - المترجم) .

له..»^(١) وهو يؤكد في حسم « أنا أنكر - معتمداً على أساس من الحس المشترك ، وعلى تكوين العقل البشرى - أن يكون فى استطاعة أى شخص أن يعرف طبيعة الجنسين. طالما أنه لم يراها إلا فى علاقتهما الراهنة فحسب ، فلو أن الرجال وجدوا فى مجتمع ما بغير نساء أو كان هناك مجتمع بلا رجال أو مجتمع من الرجال والنساء، لم تكن النساء فيه خاضعات لسيطرة الرجال - فربما كنا قد عرفنا شيئاً مؤكداً عن الاختلافات العقلية والمعنوية التى قد تكون متأصلة فى طبيعة كل جنس منهما.. »^(٢).

وحتى توجد شروط المساواة فلا يستطيع أحد أن يحدد الاختلافات أو الفروق الطبيعية بين النساء والرجال ، إذ لا يمكن اكتشاف ما هو طبيعى بين الجنسين إلا بالسماح لهما معاً بالنمو والتطور واستخدام ما لديهما من ملكات بحرية. ومن هنا فقد رفض رفضاً جذرياً التعريف الوظيفى بطبيعة النساء الذى سبق أن رأينا أنه كان منتشراً فى مؤلفات أرسطو وروسو.

ولكى يحلل مل أثر البيئة على النساء فى المجتمع المعاصر ، عاد إلى المجاز عن الطبيعة البشرية بوصفها « شجرة تحتاج إلى أن تنمو وتطور نفسها من جميع الجوانب » ، إن ما يسمى « طبيعة المرأة » هو أبعد ما يكون عن أن يكون نتيجة لتطور حر شبيه بشجرة ينمو نصفها فى حمام بخار ونصفها الآخر فى الثلج. « إنه ليس شيئاً فطرياً » بل هو شىء مصطنع وهو ثمرة الكبت فى بعض الاتجاهات وإثارة غير طبيعية فى اتجاهات أخرى^(٣).

إن ما جعل النساء موجودات بشرية نصفهن معاق النمو ، ونصفهن مفرط فى نموه ، هو أن النمو يهدف إلى إرضاء وإسعاد الرجال. ويرى مل أن إنساناً يأخذ على عاتقه مشقة البحث فى الطرق المختلفة غاية الاختلاف التى يتعلم بواسطتها البنون والبنات المعاصرون ، وتحديد المهام المختلفة لكل منهما فى حياة النضج يستطيع بسهولة أن يفسر قدراً كبيراً من انعدام القدرات العقلية والكيفيات الأدبية الخاصة

(١) استعباد النساء ص ٥٠٥ - ٥٠٦ .

(٢) استعباد النساء ص ٤٥١ (وترجمتنا العربية ص ٦١ - المترجم).

(٣) استعباد النساء ص ٤٥١ (وفى ترجمتنا العربية ص ٦١ - المترجم)

المنسوبة إلى النساء على أنها خصائص طبيعية لجنسهن. إن أولئك الفلاسفة من أمثال روسو الذين حددوا هذه الخصائص بإيجاز على أنها عملية ، و«حسية» بطريقة طبيعية ، وعلى أنها قادرة بقدر ضئيل على شئون الحياة اليومية ، لكن تنقصها القدرة على الفكر العقلي - عليهم فقط أن ينظروا إلى الطريقة التي تتدرب بها الفتيات على مواجهة الأعمال المنزلية التافهة ، بينما البنون يتعلمون الآداب الكلاسيكية والعلوم. ومن هنا كانت أخطاء المرأة هي أخطاء الشخص الذي يعلم نفسه بنفسه الذي يدرك عوامل الموقف بالحس المشترك وربما استبعد بعضها التنظير ، لكن من المرجح أنها تعاني من نقص في معرفة المبادئ العامة ، وفي القدرة على إدراك الجوانب المجردة التصورية للمشكلة^(١) ولا يحتاج المرء إلا إلى النظر أبعد من ذلك إلى بينات الجنسين المختلفة اختلافًا واسعًا لكي تفسر ما يزعمون أنه ثابت لا يتغير من الفروق الفطرية بينهما من حيث القدرات العقلية.

ولم يكن مل على استعداد أن يقبل السمة المميزة التي يقال لصالح شخصية المرأة على أنها فطرية أكثر من قبوله ضعفها الطبيعي المزعوم. فقد رأى أن الدعوى المنتشرة في القرن التاسع عشر ، والتي تقول إن المرأة بطبيعتها أسمى من الرجل - رأى أنها تبلغ حدًا من الخُلف والعبث يساوي القول بأنها أدنى منه بطبيعتها^(٢). فالنساء كالعبيد من الزوج. فيما يقول ، لم تتح لهن الفرصة لارتكاب الجرائم.. فليس شيئًا ملفقًا بصفة خاصة أنهن لم يكن مجرمات في كثير من الأحيان ، طالما أنه كان يعتقد أن الامتياز الأخلاقي هو باستمرار « ثمرة للتربية والثقافة » التي يخضع لها الجنسان على قدر المساواة ، ومن ثم فهو يرى أن جميع هذه الصفات « الأنثوية » محل عدم الأنانية ، وكبح الجماح الخلقى. وينتهي في ذلك إلى أن يقول : لست أعرف علامة على العمى الذي أصاب العالم - بما في ذلك هذا القطيع من الرجال المولع بالدراسة -

(١) استعباد النساء ص ٤٩٥.

(٢) استعباد النساء ص ٤١٨ - ٤١٩.

فجلعه يتجاهل مرَّ الكرام على أثر الظروف الاجتماعية - أكثر من حطمهم الغبي للقدرات العقلية الطبيعية للمرأة والارتفاع بالطبيعة الأخلاقية عندها (١).

ولقد اعترض مل أيضاً على الحكمة السائدة التي نراها في كتابات « أرسطو » ، و « روسو » التي تقول إن الخصائص الأخلاقية المطلوبة من المرأة تختلف عن الخصائص العقلية المطلوبة من الرجل ؛ فلقد هاجم في المقال الذي كتبه في " مجلة وستمنستر " في سن الثامنة عشرة تطبيق معايير أخلاقية تختلف باختلاف جنس الشخص الذي نحكم عليه. ويذهب إلى أن الرجال لكي يجعلوا أزواجهن يعتمدن عليهم تماماً ، ويخصصن أنفسهن لهم بطريق مستسلمة ، فقد وضعوا للزوجة مجموعة من القيم تختلف كل الاختلاف عن قيمهم. وهكذا :

نجد أن مما هو جدير بالثناء في الرجل أن يكون مستقلاً وأن يكتفى بنفسه ، وأن لا يكون في حالة تلمذة مستمرة ، أما الصفة الأساسية الجديرة بالثناء في المرأة فهي أن تكون عاجزة ، ذهنياً وبدناً ، مغلوبة على أمرها ، ومالم يكن هناك تشجيع للرجل فذلك يعنى ازدراءه ، أما المرأة فمن الصفات المحبوبة فيها أن تكون جبانة.. فإذا ما اعتمدت المرأة على زوجها اعتماداً تاماً في كل متعة، وفي الابتعاد عن كل ألم ، وإذا ما كانت لا تشعر بالأمان إلا في حمايته ، وإذا ما شعرت بالعجز عن تكوين أى فكرة ، أو اتخاذ أى قرار بدون نصحه ومساعدته ، فتلك هي الصفات المحبوبة في الأنثى ومن تنتهك أية خاصية من التي يتميز بها الرجل ، ويشعر أنها خاصة به ، وكل من تكون نافعة أو مفيدة سواء لنفسها أو للعالم. بحيث لا تكون عبداً ذليلاً لزوجها تسمى مسترجلة ، وأسماء أخرى تعبر عن الاستهجان (٢).

في مقابل هذه الفكرة الكلية عن الخصائص المناسبة لكل من الرجل والمرأة - يذهب مل في خطاب إلى « توماس كارليل » إلى أفضل الناس من الجنسين - من تجربته الخاصة- هم من اجتمعت لديهم أعلى خصائص ما يسمى « بالرجولة » مع أعلى خصائص ما يسمى « بالأنوثة » ويتساءل : « أهنالك حقاً تفرقة بين أعلى حالات الرجولة وأعلى حالات الأنوثة في الشخصية الإنسانية ؟ وقد لا يبدو ملحوظاً أن تصور مل للأخلاق وللامتياز يضطرد

(١) استعباد النساء ص ٥١٩ .

(٢) مجلة «وستمنستر» المجلد الأول، العدد الثاني أبريل عام ١٨٢٤ ص ٥٢٦ .

مع الجنسين - حتى يتحقق المرء من الوزن الهائل للفكرة التاريخية التي أكدت العكس^١ ولقد كان مل هو أول فيلسوف كبير منذ أفلاطون يذهب إلى أن الخير واحد بالنسبة للمرأة أو الرجل. ولقد شعر مل أن تخلف علم النفس يعوقه في محاولته لدحض الفكرة التي تقول إن المرأة أدنى في قدراتها من الرجل بفطرتها وبطريقة لا علاج لها: فالأشغال المعاصرة كانت مع العلوم البيولوجية. وكان هناك نقص مؤسف في الالتفاف إلى تأثير البيئة في تكوين الشخصية البشرية^(١). ولقد أدى ذلك إلى خلافات أعظم كثيرا من دعوى «هلفنيوس» «التربية يمكن أن تكون للجميع» لدرجة افتراض أن الخصائص العضوية قادرة على تفسير كل شيء. وكان العدو اللدود «مل» في معركة انتزاع اعتراف بأهمية عوامل البيئة في تشكيل الشخصية الإنسانية للمرأة هو «أوجست كونت» وتحمل الرسائل المتبادلة بين الاثنين إبان عام ١٨٤٣ جانبا هاما من تفكير «مل» حول هذا الجانب من قضية تحرير النساء^(٢).

ولقد كانت وجهة نظر كونت انعكاسا واضحا للثقة بأن العلوم الفزيائية ليست قادرة بإمكاناتها على حل مشكلات الإنسان، وما أن تطبق نتائجها على العلوم الاجتماعية، حتى نعثر بالفعل على جميع الإجابات المهمة عمليا.

فقد كان كونت على يقين من أن البيولوجيا قد أصبحت بالفعل «قادرة على إقامة ترتيب تصاعدي للجنسين بالبرهنة من الناحية التشريحية الفسيولوجية معا - أنه في كل مملكة الحيوان تقريبا لاسيما في النوع البشري - فإن جنس الأنثى يتشكل من أجل وضع أساس للطفولة. مما يجعله بالضرورة أدنى من جنس الذكر المناظر له»^(٣) وبالثقة في النوع البشري الذي سبق دارون - كتب مؤكدا أن الحالة العضوية لا بد يقينا

(١) استعباد النساء ص ص ٤٥١ - ٤٥٢ (المؤلفة) ويقول مل: «إن عدم اهتمام البشر وجهلهم الفاحش فيما يتعلق بالمؤثرات التي تشكل الشخصية الإنسانية هما من أكبر العقبات التي تعوق تقدم الفكر، وتكوين الآراء السلمية المؤسسة تأسيساً جيداً عن الحياة والتنظيمات الاجتماعية» «استعباد النساء» ص ٦٢ من الترجمة العربية (المترجم).

(٢) الخطابات المبكرة، المؤلفات الكاملة المجلد الثالث عشر ص ص ٥٩٠ - ٦١١ وأوجست كونت «خطابات أوجست كونت إلى جون ستوارت مل» ص ص ١٧٥ - ٢١٢ .

(٣) الرسائل ص ١٧٥ (ولقد قمتُ بالترجمة).

أن تنتشر- طالما أن الكائن الحي وليس البيئة هو الذى يجعلنا بشرا بدلا من القرده أو الكلاب وهو الذى يحدد نوعنا الإنسانى الخاص بدرجة أكثر بكثير مما كان يُعتقد (١) وهكذا ليس ببساطة من أجل المنفعة الاجتماعية أن النساء لابد أن يكن خاضعات وتابعات للرجال ، بل أى تنظيم آخر لابد أن يكون خلفا محالا من الناحية البيولوجية. إن أسباب الخصائص الذهنية كلها إنما توجد فى مخ الكائن الفزيقى، والنساء بتكوينهن الأضعف فزيقيا - لابد أن يكن من ثم - أدنى ، من الناحية العقلية من الرجال ويذهب كونت - مشكورا إلى أن الطبيعة ، قد عوضتهن إلى حد ما بأن وهبتهن قدرا كبيرا من رقة المشاعر والعواطف. وفى المجتمع الذى تخيله كونت فى المستقبل سوف يكون لهن الدلال، والعبادة ، بل حتى الصلاة، لكنك إذا ما تصورت أنه سيكون لهن أى قدر من المشاركة فى صنع القرار أو المشاركة السياسية التى تتطلب عقلا وفكرا موضوعيا، فإنك فى هذه الحالة تسير فى طريق مُنافٍ للطبيعة وهو لا يعود إلا بكارثة على النساء وعلى المجتمع ككل.

أما مل فقد كان يعترف منذ البداية بالثغرات الواسعة فى معلوماته البيولوجية من التى حاول عبثا علاجها أخذ نبرة متواضعة إلى أقصى حد وتوفيقية فى مواجهة القناعات المغرورة لكونت (٢) فلم يكن على استعداد لأن يقبل ببساطة أن البيولوجيا وصلت إلى نتائج حاسمة فى هذا الموضوع . وكان يعتقد أنه ربما يأتى يوم يبرهن فيه على أن هناك فروقا فسيولوجية معينة بين مخ كل جنس من الجنسين لكنه شدد فى رده على كونت أنه لا توجد حتى الآن معرفة محددة عن العلاقة الدقيقة بين الخصائص الفزيقية للمخ والقوى العقلية لصاحبه والاعتماد على مثل هذه المبالغة فى التبسيط والذهاب إلى أن الرجال لأنهم أكبر حجما من النساء، فإن المخ لديهم لابد أن يكون أكبر حجما - ومن ثم فالقوى العقلية لابد أن تكون أكبر- فإن المرء يقع فى تهمة القول

(١) الرسائل ص ١٩٩ .

(٢) ويروي مل أنه قرأ عدة مجلدات لعالم البيولوجيا جال Gall أثناء مراسلاته مع كونت . ولقد زعم كونت أن موقفه الأعلى هو التفسير الوحيد لاختلاف الرأي بين هذين المفكرين الكبيرين فى مثل هذا الموضوع الأساسى هو أن مل يسير فى طور مضى سوف نشقى منه حالا بغير شك . (الرسائل ص ١٨٤) .

بأن الرجال الأكبر حجما هم أكبر عقليا من الرجال الأصغر حجما وأن الحيتان والفيلة أكثر ذكاء من الاثنين (١).

ولقد كان «مل» مقتنعا أن الاستدلال الذي يسير عليه «كونت» من المحتمل أن لا يؤدي إلى نتائج سليمة بصدد الفروق بين الجنسين ، طالما ظل إهمال تأثير البيئة على تطور الشخصية أو ما يسميه مل - بعلم الأخلاق Ethology (تأثير البيئة على الشخصية) على هذا الحال وهو يتحدث في كتابه «استعباد النساء» بحماس عن حاجتنا إلى تقدم هذا العلم . يقول : «يمكن أن نقول إن عدم اهتمام البشر وجهلهم الفاحش فيما يتعلق بالمؤثرات التي تشكل الشخصية الإنسانية هما من أكبر العقبات التي تعوق تقدم الفكر ، وتكوين الآراء السليمة المؤسسة تأسيسا جيدا من الحياة والتنظيمات الاجتماعية» (٢) ولم يكن واقعا تحت تأثير أى وهم بصدد صعوبة القيام بهذه الدراسة. مع مشكلاتها فى عزل العوامل المسببة فى جو تكون فيه ظروف التجارب العملية مستحيلة - غير أنه كان مقتنعا رغم الصعوبات بأن هذا المجال للعلم ينبغي أن لا نواصل تجاهله وهو يعرض فى كتاب «المنطق» بعض الأفكار التمهيدية لمثل هذا العلم، رغم أنه لم يسر به إلى الأمام من الناحية العملية (٣) وإلى أن يتقدم هذا العلم تقدما ملموسا فهو يرى أنه لا شىء من الفروق العقلية والأخلاقية بين الجنسين يمكن أن يقال بطريقة معقولة إن سببها عوامل فسيولوجية فطرية . يقول فى كتابه «استعباد النساء» بطريقة فظة : «فليس ثمة شخص له حق الأداء بآراء إيجابية فى هذا الموضوع» (٤).

وهكذا لا يمكن البرهنة بطريقة مؤكدة - مع هذه المعرفة المحدودة - بأن المرأة عاجزة عن أن تصل إلى نفس مستويات الإنجاز العقلى مثل الرجل، ولا يمكن أن ينظر إلى مثل هذا الاعتقاد بأنه يصلح كأساس للاحتفاظ بالنساء تابعات فى المجتمع، وأن

(١) ويضيف مل - لمنفعة أولئك الذين تبهرهم هذه الإحصائيات - أنه سمع عن رجل وزن أنواعا كثيرة من المخ البشري، وانتهى فى نهاية بحثه إلى أن أثقل مخ وزنه .. كان مخ امرأة «استعباد النساء» ص ٥٠٣ (وفى ترجمتنا العربية ص ١٢١ - المترجم).

(٢) استعباد النساء ص ٤٥٢ (وفى ترجمتنا العربية ص ٦٢ - المترجم).

(٣) المنطق ص ٤٥١ - ٤٦٣ .

(٤) استعباد النساء ص ٤٥٣ (وفى ترجمتنا العربية ص ٦٣ - المترجم).

ننكر عليهن أية فرصة ليظهرن ما يستطعن إنجازه . ويذهب مل فضلا عن ذلك إلى أن النساء أنجزن قدرا ملحوظا من النجاح في مجالات كثيرة رغم ثقل الظروف ، وقلة التعليم وضغوط الأحكام المبتسرة التي تمارس ضدهن وعلى الرغم من أن ذلك يعنى إقامة القضية على أسس متواضعة للغاية «عندما نضع فى اعتبارنا إلى أي حد تمّ تدريبهن على الابتعاد عن المهن والوظائف التي احتفظ بها الرجال ، بدلا من تدريبهن عليها (١) فإنه يستشهد بإنجازات مدام دي ستايل (٢) وجورج صاند (٣) فى ميدان الأدب، ثم يطبق حجته بقوة أكثر على قضايا السياسة التي أثبتت فيها المرأة كفاءتها على أعلى مستوى فى السلطة التنفيذية (٤) وها هنا لا يحصر المرء نفسه فى النظر فيما تستطيع المرأة أن تنجزه إذا ما تلقت تعليما مناسباً فما أنجزته النساء بالفعل فى ميدان السياسة هو فى حد ذاته دليل دامغ على ما يستطعن إنجازه. ويشير «مل» إلى أنه فى قمة المستوى السياسى الذى هو المجال الوحيد الذى سمح لهن عمليا بالعمل فيه «فكلما وضعت قدرات النساء فى الحكم موضع الاختيار أثبتن جدارة وكفاءة ..» (٥) وهو يستشهد بنماذج مثل «ديبوره» (٦) وجان دارك (٧) واليزابث ، ومارجريت النمساوية (٨)، وهو يذهب إلى أن هؤلاء النساء وغيرهن اللائى اختبرن كحاكمات أو قائدات تجعل من

(١) استعباد النساء ص ٤٨٩ (وترجمتنا العربية ص ١٠٥ المترجم).

(٢) مدام دي ستايل Madame de Stael (١٧٦٦ - ١٨١٧) أديبة وناقدة فرنسية اشتهرت بصالونها الأدبى كان يختلف إليه نخبة من رواد الفكر والأدب فى عصرها (المترجم).

(٣) اسم جورج صاند (١٨٠٤ - ١٨٧٦) هو الاسم الأدبى للروائية الفرنسية أماندين أوروديني التي برعت فى تصوير الحياة فى الريف (المترجم).

(٤) يشير «مل» إلى الملكة اليزابث الأولى، والملكة فيكتوريا وجان دارك - الخ . قارن كتابه "استعباد النساء" ص ١٠٦ من ترجمتنا العربية (المترجم).

(٥) استعباد النساء ص ٤٩٣ (وفى ترجمتنا العربية ص ١١١ - المترجم).

(٦) ديبوره Deborah امرأة نبية كانت قاضية فى إسرائيل وكان بنو إسرائيل يصعدون إليها للقضاء - سفر القضاة الأصحاح الرابع ٤-٦ (المترجم).

(٧) جان دارك (١٤١٢ - ١٤٣١) قديسة وبطلة قومية فرنسية قاتلت الإنجليز فى حرب الأعوام المائة، عندما كانوا يحتلون بلادها، قبضوا عليها وحكموا عليها بالإعدام حرقاً (المترجم).

(٨) اليزابث الأولى (١٥٣٣ - ١٦٠٣) ملكة إنجلترا يعتبر عصرها من أزهى العصور فى تاريخ إنجلترا (المترجم).

السخرى النظر إلى جنسهن على أنه غير صالح للمشاركة في جميع مستويات الحياة السياسية الأخرى. فقدرتهن في هذا الميدان قد تمت البرهنة عليها بالفعل بوصفهن متساويات على الأقل مع الرجال^(١).

ويؤكد مل أن هناك عددا قليلا من جميع مجالات النشاط البشرى، تلك التي أعطيت فيها للنساء فرص ضئيلة لإثبات أنفسهن، ولم يصل بعض النساء على الأقل فيها إلى إنجاز مستوى عال جدا. والواقعة أنهم لم يصلن حتى الآن لإنجاز أعمال من الدرجة الأولى، أعمال على مستوى العبقرية والأصالة، يمكن تفسيره بوجود نقص في التعليم الشامل الدقيق فيما يقول مل الذي هو الشرط السابق للوصول إلى نتائج أصيلة إذا ما توافرت جميع المبادئ الأولى في مجال معين إننا نتوقع من النساء، عادة تلبية دائمة لحاجات الرجال والأطفال ولهذا فإنه نادرا ما تكون لديهن فترات متواصلة للتركيز نظرا لظروف نشأتهن من حيث أنهم جنس بعد الرجال مثل الرومان الذين جاؤا بعد اليونان، فهن تاليات للرجال من الناحية الزمنية في جميع مجالات الفن والدراسة، لهذا السبب فإن «مل» يرى أن ما أنجزته النساء هو برهان حاسم على ما يستطعن إنجازه. لكنه رفض أن يعامل ما لم ينجزته حتى الآن على أنه برهان على شيء على الإطلاق.

لم يذهب «مل» إلى أنه أغلق قضية مساواة النساء بأن يبين لمعاصريه أن أسس تفرقتهم ضد النساء لا يمكن البرهنة عليها علميا. وهى في حالات كثيرة تتناقض مع وقائع التاريخ. لأن الناس قد أظهروا بصفة عامة - كما يشير في الفصل الأخير من كتابه «مذهب المنفعة العامة» عدم رغبتهم في الموافقة على الظلم فى أى تفرقة اجتماعية، وإلى أن يقتنعوا أنه أيضا غير مفيد. وهكذا فإن مل شعر أنه مضطر إلى أن يقول ليس فقط إن معاملة النساء بطريقة متحيزة ليس لها أساس عقلى فى طبيعة الجنسين، وإنما هى ضارة أيضا من الناحية الاجتماعية، وأن معاملة النساء كأنداد سوف يكون مفيدا لسعادة الجميع وتقدمهم. ومن ثم ترتبط العدالة - مثل المساواة فى حجج مل المؤيدة لقضية المرأة بموضوع دائم هو إصلاح الجنس البشرى.

(١) قارن في ذلك كله «استعباد النساء» ص ١٠٥ و ١٠٦ و ص ١٠٨ - ١٠٩ من ترجمتنا العربية (الترجم).

ويذهب «مل» في كتابه «استعباد النساء» إلى أن المعاملة الظالمة للنساء، لها نتائج ضارة منها محاولتهن اكتساب نفوذ بطرق مدمرة . ثم استخدامها لأغراض أنانية على نحو ما يحدث في حالات أخرى يتم فيها إنكار وصولهن المشروع إلى السلطة (١) وهو يذهب إلى أن النساء تضطر في ظروف معينة داخل الأسرة إلى الالتجاء إلى المكر والدهاء، وإلى الأساليب الخداعة لتحقيق رغباتهن عندما يختلفن مع أزواجهن، وليس ثمة دافع لمناقشة هذه الأمور بعقلانية وبصراحة ، طالما أن الأزواج يتخذون وضعاً مشروعاً بوصفهم صنّاع القرار في الأسرة. ويؤكد مل فيما يتعلق بالتأثير السياسي للنساء أن النفوذ غير المباشر الذي يمارسنه من خلال أزواجهن أصحاب الحقوق السياسية، المفروض أنه لا يهم أى شخص خارج الأسرة مباشرة ، ومن ثم فهو على خلاف روسو يدرك أن العالم الخارجى لا أمل له فى أن يكسب الأسرة فى صراع الولاءات التى تواجه النساء اللاتى ليس لهن حقوق سياسية ؛ « لأن وضعهن الاجتماعى لا يسمح أن يكون لهن أية مشاعر خارج الأسرة فيما عدا الميول أو عدم الميول الشخصية ، ويفترض أنه سوف تسيطر هذه الميول تماماً على أحكامهن ومشاعرهن فى المسائل السياسية » (٢) لكن لو كانت لهن حقوق سياسية، وبالتالي، كانت لهن وسائل مشروعة فى التأثير فى المسار السياسى، لكن قد أصبحن مع مرور الزمن - فيما يرى مل - قادرات على استعمال هذه الوسائل بطريقة مسئولة وبروح إنسانية أكثر «فعن طريق أن نخلق فى أذهانهن الاهتمام بالمصلحة المشتركة للجميع ، مصلحة بلادهن، وإصلاح البشر، والاتجاه نحو النظر إلى جميع المشكلات على أنها مشكلات شخصية سيكون اتجاهها صحيحاً» (٣).

ولما كان «مل» مقتنعاً باضطرابات «دى توكفيل» عن النتائج التربوية للمشاركة السياسية - فإنه كان على يقين أن النساء اللاتى يمارسن حقوقهن السياسية، سوف

(١) استعباد النساء ص ٥٢٦ - وص ٥٤٤ .

(٢) خطاب إلى ت . أ . كيف لسلي فى ٥ أكتوبر عام ١٨٦٩ - الخطابات المتأخرة مجموعة المؤلفات الكاملة المجلد السابع عشر ص ١٦٤٢ .

(٣) رسالة إلى كيف لسلي ص ١٦٤٢ .

يتلقين ما يثير ملكاتهن وقدراتهن. وسوف يوسع ذلك ويحرر الأثر على مشاعرهن وعواطفهن التي نادرا ما يفشل حق الاقتراع في إحداثه في أولئك الذين يخضعون له»^(١) وعلى ذلك فعندما يمنح المجتمع النساء حتى التصويت فإنه يربح ربعا مزدوجا: فإنه يقلل من المؤثرات الأنانية الضيقة التي يمارسها بالفعل الكثيرات منهن من خلال أزواجهن . كما أنه سوف يزيد من الغيرية والمسئولية لدى هيئة الناخبين ككل.

ويذهب مل أيضا إلى أن إلغاء عدم المساواة القانونية بين الزوج والزوجة سوف تكون له نتائج لا تقدر على قيمة الأسرة كمؤسسة تربوية. ما دام يعتقد أن «المجتمع في حالة المساواة يكون في وضعه الطبيعي» وفضلا عن ذلك «المدرسة الوحيدة للمشاعر الأخلاقية الأصيلة هي مجتمع مؤلف من أنداد»^(٢) وهو يرى أن الادعاء اليومي للرجال بتفوقهم على النساء يحط باستمرار من قيمة زوجاتهم، وزوجات الآخرين أيضا، وله نتائج بالغة الضرر على الأطفال فلا يمكن أن يكون هناك شيء يقترب من أعلى صحبة بشرية ممكنة بين موجودين بشريين أحدهما مقتنع، قبلها بقدراته وقيمه العظيمة وأن تكون له السيادة على الدوام على الطرف الآخر . ويتساءل «مل» كيف نأمل في تقدم أخلاقي للمجتمع طالما أن جو المنزل الذي يتلقى فيه جميع أعضائه التربية الأخلاقية المبكرة يقوم على أساس غير عادل في توزيع الحقوق والسلطات..؟ فقط عندما يعترف القانون والمجتمع بأن الزواج مشاركة تعاونية بين أنداد، ربما أصبحت الأسرة على الأقل بالنسبة للأطفال «مدرسة تعاطف وجداني ومساواة وعيش مشترك في حب ، دون أن تكون هناك سلطة في جانب وطاعة في جانب آخر» «عندئذ فقط يمكن إعداد الأطفال لما يسميه «الفضيلة الحقيقية بين الموجودات» أعني «ليكون صالحا للعيش معا كأنداد»^(٣).

(١) حديث لجون استوارت مل حول السماح للنساء بحق الانتخاب ص ١٢ ، وانظر أيضا الحكومة النيابية ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٢) استعباد النساء ص ٤٧٧ (وفي ترجمتنا العربية ص ٩٠).

(٣) استعباد النساء ص ٤٧٩ (وفي ترجمتنا العربية ص ٩٢ - المترجم).

وعلى الرغم من هذا الإصرار والتمسك بالمساواة داخل الأسرة ، فإن دفاع «مل» لم يف بالحاجة في مناصرته لقضية المرأة، والدفاع عن المساواة الحقيقية وحرية النساء المتزوجات بسبب افتراضاته وقناعاته عن دور الأسرة التقليدي . فقد كانت كتابات مل المناصرة للمرأة لا تهتم - ضمناً - إلا ببناء الطبقتين الوسطى والراقية في المجتمع وهي الأسرة البرجوازية وهي الأسرة النموذجية عنده (١) وعلى الرغم من أنه رفض مشروعية التفاوت في صورته الجزئية، فقد نظر إلى الأسرة ذاتها على أنها «أساسية بالنسبة للإنسانية» (٢) واهتم بأن يعيد التأكيد لقراءه ، بأنه ليس ثمة شيء تخشاه حياة الأسرة من المساواة السياسية والمدنية الكاملة بين الجنسين بل إنها على العكس سوف تجنى أرباحاً وفيرة «فالأسرة إذا ما تكونت تكويناً حقيقياً فلا بد أن تكون المدرسة الحقيقية لفضيلة الحرية» (٣).

وفضلاً عن ذلك فإن «مل» يوافق على القسمة التقليدية للعمل داخل الأسرة . ففي حين أنه يؤكد أن النساء ينبغي أن يكون لهن اختيار حقيقي في الاتجاه نحو العمل أو نحو الزواج، فإنه يذهب إلى أن الغالبية العظمى من النساء من المحتمل أن يواصلن تفضيل الزواج . وأن هذا الاختيار مرادف لاختيار العمل ، وهو يقرر:

«وعندئذ سيكون من المفهوم - بصفة عامة - أن المرأة عندما تتزوج مثل الرجل عندما يختار مهمة. إنما تختار إدارة منزل، وتكوين أسرة باعتبارها المهمة الأولى التي تركز لها جهودها إبان عدد من سنوات حياتها حسب ما يتطلبه تحقيق هذا الغرض -

(١) وهذا أوضح في طريقة مناقشاته (في كتابه استعباد النساء ص ٤٨٢) من أن الزوج لابد له أن يعمل لكسب دخل الأسرة (طالما أن معظم الطبقة العاملة من النساء في ذلك الوقت ، كما هي الآن، لا خيار لها في أن تعمل خارج المنزل أم لا) وأيضاً من واقعة انشغاله المستمر بصفة عامة في كتاباته المؤيدة لقضية المرأة ، فهي تهتم أساساً بالطبقة المتوسطة من النساء أكثر من اهتمامها بمسائل مثل الأجور التي كان يعلم تماماً أنها منخفضة أكثر كثيراً من أجور الرجال (مبادئ الاقتصاد السياسي ص ٣٩٤ - ٣٩٦).

(٢) خطاب إلى إميل دي لفلاي في ٩ سبتمبر عام ١٨٦٩ الخطاب الأخيرة، مجموعة المؤلفات الكاملة ، المجلد السابع عشر ص ١٦٣٨ .

(٣) استعباد النساء ص ٤٧٩ (وفي ترجمتنا العربية ص ٩٢ - المترجم).

وهي لا تتخلى عن جميع الموضوعات والوظائف الأخرى، بل تلك التي لا تتفق مع متطلبات هذه المهمة»^(١).

ويؤكد «مل» اتساقا مع هذه الطريقة في التفكير «أن هناك علاقة وثيقة بشكل لا متناه بين الطفل وأمه أكثر من أبيه»^(٢) وأنه «لا شيء يمكن أن يحل محل الأم في تربية الأطفال»^(٣) ولم يتوقف ليفكر في صفات الأمومة، وهي صفات ربما كانت مثل كثير من الفروق الموجودة بين الجنسين تُرد على الأقل جزئيا إلى عوامل البيئة. وربما كانت ترجع بصفة خاصة - إلى أساليب وعادات التنشئة الاجتماعية. ومرة أخرى على الرغم من رفضه بصفة عامة، لضغوط الرأي العام، فقد قبلَ بهدوء قسمة الواجبات بين الجنسين داخل الأسرة «إذ يبدو لي أن التنظيم الشائع بالتراضي وليس بالقانون الذي يجعل من مهمة الرجل الحصول على الدخل ومن مهمة الزوجة الإشراف على شئون المنزل هو أفضل تقسيم للعمل بين الزوجين». «وهو يدافع عن أفضل تقسيم للعمل بين الجنسين»^(٤).

وفي مقال مبكر «مل» عن «الزواج والطلاق» فإننا نرى هذا الوضع يطرح بطريقة دجماطيقية، وبمنظور لا يستطيع أن يستخدمه باتساق في كتابه «استعباد النساء» فهذا مجال يبدو فيه بوضوح أن الطريقة التي استخدمها في طرح أفكاره (رغم أنها لا تمس جوهرها) قد عدلتها أفكار هاريت تايلور التي كانت متباعدة. ففي عام ١٨٣٢ وهو العام الذي قرر فيه «أنه لا يوجد تفاوت طبيعي بين الجنسين» نراه يستمر ليقول إنه في منزل لا يوجد فيه خدم «فسوف يكون من الطبيعي، ومن الحسن.. أن تقوم ربة الأسرة بنفسها بدور الخدم» و«الأم هي المعلم الطبيعي». وينتهي - دون الالتفاف إلى ما يفضلانه - إلى أن «العمل العظيم للنساء ينبغي أن يكون تجميل الحياة.. وأن تُضفى

(١) استعباد النساء ص ٤٨٤ (وفي ترجمتنا العربية ص ٩٧ - المترجم) .

(٢) رسالة إلى ايزابيلا هوكر في ١٤ سبتمبر عام ١٨٦٩، الخطابات الأخيرة مجموعة المؤلفات الكاملة المجلد السابع عشر ص ١٦٤٠ .

(٣) رسالة إلى الأميرة ستشربانوف في ١٨ ديسمبر عام ١٦٨٨ الرسائل الأخيرة - المؤلفات الكاملة - المجلد السابع عشر ص ١٥٢٨ .

(٤) استعباد النساء ص ٤٨٣ (وفي ترجمتنا العربية ص ٩٦).

الجمال والأناقة والنعمة في كل مكان» طالما أن النساء بالطبيعة مزودات بأناقة ونوق أعظم (١).

لم يكن في استطاعة «مل» في الفترة التي كتب فيها «استعباد النساء»، أن يؤكد أن الدور المنزلي للمرأة هو دور طبيعي، طالما أنه يدرك بوضوح في هذا الكتاب ضرورة توحيد ما هو طبيعي بالعرف والالتجاء عندئذ إلى «طبيعة» النساء وذلك لتبرير وظائفهن المألوفة. وعلى الرغم من التغيير في المصطلح «فما هو مناسب أكثر» و«العرف المرغوب فيه» يحل محل الالتجاء إلى الطبيعة، فقد ظل جوهر أفكار مل كما هو لم يتغير. في تلك الأيام كانت أساليب منع الحمل، ونسبة الوفيات العالية من الأطفال؛ وأشغال البيت المرهقة قائمة، فلا بد أن يكون أمرا شاقا بالنسبة لمل أكثر منا أن يتصور المشاركة في رعاية الطفل وتربيته بالإضافة إلى الواجبات المنزلية. ومما يثير الدهشة أن «مل» لم يختر أن يناقش الأسرة والطريقة التي تطورت بها، على أي نحو، أو أن يدرس العلاقة بين مؤسسة الأسرة البرجوازية نفسها، والوضع المعاصر للنساء في المجتمع، إذ من الواضح أنه لم يكن إملأ من الطبيعة ذلك الذي أدى إلى تشكيل تدبير للمنزل خاص مع «عمل المرأة فيه»، وعالم الصناعة والمهن، «وعمل الرجل» خارج المنزل، والفصل التام بين هذين المجالين؛ إن زعم مل بثبات بنية الأسرة الموجودة وفشله في مناقشة انعكاساتها على حياة المرأة، يشكل هوة في فكره المناصر للمرأة، وهو ما حاول تيار الحركة المؤيدة للنساء علاجه.

فقبول «مل» للدور التقليدي للجنسين داخل الأسرة يضع حدودا جادة على المدى الذي يستطيع فيه تطبيق مبادئ الحرية والمساواة على النساء المتزوجات. **أولاً:** على الرغم من أنه يسير في نقاشه لصالح المساواة في حقوق الملكية للنساء المتزوجات، فإنها حقوقها في أن تمتلك ما ورثته أو ما تكسبه المرأة ذاتها، لكنها ليست حقوقا في حصص متساوية من دخل الأسرة. يقول مل: «القاعدة بسيطة وهي: كل ما كان ملكا للمرأة أو للرجل إذا كانا غير متزوجين يجب أن يكون تحت سيطرة كل واحد منهما أثناء الزواج» (٢). ومن الواضح إذن أن الدخل الذي يكسبه الذكر سيكون ملكه بعد الزواج على نحو ما كان قبل الزواج. ولم يدرك مل الخروج على المألوف، وهو أن

(١) مقالات عن المساواة بين الجنسين ص ٧٣ - ٧٧ .

(٢) مقالات عن المساواة بين الجنسين ص ١٠٥ النص والحاشية.

عمل المرأة في المنزل هو عمل غير مدفوع الأجر.. وأننا سوف نجد في «منح الحقوق السياسية للنساء» وحده تأكيداً أنه ليس فقط أمراً ضرورياً للنساء المتزوجات ليكن قادرات على كسب قوتهن ، بل إن وضعهن داخل الأسرة سوف يتحسن بشكل ظاهر «إذا ما تمكنت النساء من كسب، وامتلاك في آن معا جزءاً من دخل الأسرة»^(١) . وعلى الرغم من أن مل يوافق في كتابه «استعباد النساء» على أنه لا بد أن تكون النساء المتزوجات قادرات على أن يدعمن أنفسهن، فإنه يرفض صراحة أنه ينبغي عليهن أن يفعلن ذلك فعلاً، على اعتبار أن ذلك قد يؤدي إلى إهمال رعاية الأسرة والأطفال . مما يجعلنا نقول إنه من المحتمل جداً أن الفكرة التي ظهرت في الأعمال المبكرة كانت فكرة «هاريت تايلور». وهذا مثال على مدى توافق فكرها مع مناصرة حقوق المرأة في يومنا الحاضر أكثر من مل، فقد أدركت - وهذا ما لم يفعله مل - أهمية الاستقلال الاقتصادي المستمر للنساء سواء داخل علاقة الزواج أو في حالة تفككه.

ثانياً: دفاع مل عن الأدوار التقليدية للجنسين داخل الأسرة يعادل إنكار حرية الفرصة، والتعبير الفردي عن المواهب للغالبية العظمى من النساء اللاتي افترض أن يكون لهن باستمرار حق اختيار الزواج. رغم أنه كان واعياً تماماً أن رعاية الأسرة واجب لا ينقطع يستشهد به على أنه السبب الرئيسي للنقص النسبي عند النساء في إنجاز أعمال فنية ، والواقع أنه يتسامح مع هذا الحاجز المستمر لمعظم النساء^(٢). ورفضه للإذعان بأن التفاصيل المرهقة في الحياة المنزلية ينبغي أن تكون مشاركة بين الجنسين ، وفشله في مساءلة المؤسسات الاجتماعية التي جعلت مثل هذه المشاركة

(١) رسالة إلى الأميرة ستشر بانوف في ١٨ ديسمبر عام ١٦٨٨ الرسائل الأخيرة - المؤلفات الكاملة - المجلد السابع عشر ص ١٥٢٨ .

(٢) استعباد النساء ص ٥١٤ - ٥١٥ (وفي الترجمة العربية ص ١٢٤ - المترجم) يقول مل: «أن تحمل هذا النوع من الإدارة المنزلية للإشراف على شئون الأسرة.. يتطلب يقظة مستمرة، وعيناً ساهرة ، لا يفوتها شيء من أدق التفاصيل ، كما يعرض مسائل تحتاج إلى تدبرها وحلها ، وقد تكون مسائل متوقعة أو غير متوقعة ، في كل ساعة من ساعات اليوم، وليس في استطاعة المرأة المسئولة عن هذه الأمور أن تنفذ يدها منها تماماً».

بصفة خاصة مستحيلة، مدهشة في ضوء واقعة أنه أدرك أن الوسائل الرئيسية التي تصل بها النساء إلى حد الاعتراف بهن كأنداد، إنما يكون عن طريق النجاح في مجالات كانت في السابق حكرا على الرجال، ولقد كتب إلى «هاريت تايلور» يقول: «إن الطريق الوحيد لتبديد معظم معتقدات الناس المبتسرة المتحيزة حول نونية النساء - إنما يكون بأن نبين لهم براهين أكثر وأعظم وبالأمثلة على ما تستطيع المرأة أن تفعله» (١) وإذا كانت الغالبية العظمى من النساء ستظل ممنوعات، عمليا، إن لم يكن قانونيا، من مثل هذه الإنجازات، فكيف يمكن أن نتوقع أن تتغير هذه الأحكام المبتسرة المتأصلة في نفوس الناس؟

ومن هنا مرة أخرى يكون مقال «الحقوق السياسية للنساء» وثيقة أكثر راديكالية من الكتاب الذي كتب بعد وفاة «هاريت تايلور». هذه المقالة التي كتبت بالاشتراك تعبر عن رأيه بصراحة أكثر مما كان يكتبه بمفرده، يدافع فيها عن حاجة النساء المتزوجات في أن يكون لهن حياة وعمل خاص بهن وأن يكنَّ «مجرد تابعات للرجل» يتعلقن به بغرض تربية أطفاله، وجعل منزله مريحا بالنسبة له (٢). وربما كانت هذه جوانب من فكر زوجته، وهو فكر لم يشعر مل أنه مريح على الدوام.

لقد حاول جون استوارت مل أن يطبق، بحماس، مبادئ الليبرالية على النساء، وأراد - بصفة خاصة - أن يتجنب البيطرياركية داخل الأسرة، وكذلك التبعية السياسية والقانونية للنساء؛ وتلك كانت مفارقة تاريخية في العصر الحديث، وانتهاكا صارخا للحرية والعدالة لكن على الرغم من أن نظرته كانت نظرة مستقبلية تطلعية لتأييد النساء من جوانب كثيرة فإنه لم يدرك على الإطلاق الظلم المتضمن في مؤسسات وممارسات سمحت للرجل أن يكون له استقلال اقتصادي ووظيفي وحياة منزلية وأطفال. لكنها أرغمت المرأة على أن تختار بين الاثنين، ورفضه لمناقشة الأسرة التقليدية وما تتطلبه من النساء يضع حدا لـ «ليبراليتها في الدفاع عن قضية المرأة».

(١) الخطابات الأخيرة . مجموعة المؤلفات الكاملة المجلد الرابع عشر ص ١٢ .

(٢) مقال عن المساواة بين الجنسين ص ١٠٧ .

الجزء الخامس

المذهب الوظيفي

وقضية المرأة والأسرة

الفصل العاشر

النساء والمذهب الوظيفي في الماضي والحاضر

« ألفرد نورث وايتهيد » قال ذات مرة: « السمة العامة الأكثر أمنا للتراث الفلسفي الأوربي هي أنه عبارة عن سلسلة من الهوامش على فكر أفلاطون »^(١). ولقد سبق أن رأينا أنه إذا كان المقصود دراسة الفيلسوف للمرأة، فمن الواضح أن عبارة وايتهيد لا يمكن الدفاع عنها. فتراث الفكر الأرسطي - رغم أنه تم دحضه في جوانب كثيرة - فقد واصل في العصور الحديثة نشر المناقشات حول موضوع المرأة، وطبيعتها، ومركزها المناسب، وحقوقها في المجتمع، وأسلوب التفكير السائد عن النساء هو أسلوب وظيفي يقوم على افتراض ضرورة وجود الأسرة النووية التي يرأسها ذكر، وعن نور المرأة داخل هذه الأسرة، والآن وبعد مراجعة مسار الحجة حتى الآن، فسوف نرى كيف أن أسلوب إدراك النساء الذي كان سائدا عبر تاريخ الأفكار، واصلت على الوجود في كتابات المفكرين المؤثرين في عصرنا الحاضر.

لقد خرج سقراط وأفلاطون عن معايير القيم المتعددة المنتشرة بين اليونان، ومالا إلى النظر إلى النساء من منظور مختلف عن سابقهم^(٢). وفضلا عن ذلك فإن

(١) لقد عجزت عن أن أجد المصدر الأصلي لهذه العبارة . ولقد اقتبسها أ. لفجوى في كتابه «سلسلة الوجود الكبرى» كيمبرج عام ١٩٣٦ ص ٢٤ لكن نون أن يحدد مصدرها، وحتى بالبحث في معجم بنجوين للمقتبسات الحديثة لم أجد لها. وضاع السعي أدراج الرياح. ولما كان الاقتباس منسوبا إلى وايتهيد فربما ذكره في إحدى المحاضرات.

(٢) لا أعتقد أن ذلك صحيح، ولقد ناقشته بالتفصيل في كتابي : «أفلاطون... والمرأة» مكتبة مدبولي عام ١٩٩٦ - فليرجع إليه من يشاء (المترجم).

أفلاطون قام فى محاورة «الجمهورية» بإلغاء الأسرة ناظرا إلى موضوع النساء وطبيعتهن نظرة راديكالية جديدة: طالما أن المرأة لم تعد بعد «زوجة خاصة» - أو تعرف بوظيفة الأمومة أو تدير المنزل، فقد اضطر، رغم موقفه الذى ينتقص فيه بصفة عامة من قدر جنس الأنثى، لينظر فى قدراتهن كمواطنین أفراد - وكأشخاص ليس لهم وظائف محددة سلفا فى الحياة. إذ يتضمن الكتاب الخامس من «الجمهورية» مناقشة جديدة بالملاحظة عن الفروق بين الجنسين مناسبة سياسيا واجتماعيا، أكثر مما ظهر بعد ذلك فى ألفين من السنين. وبناء على النتائج التى وصل إليها فإن أفلاطون يستغنى عن الهيراركية المعتادة بين الجنسين فى مجتمع تصل فيه الهيراركية إلى أعلى درجاتها. فيصل إلى المساواة الشاملة فى التعليم ويجعل للحراس من الإناث دورا.

وعندما فكر أفلاطون فى إمكانيات النساء، انتهى إلى أن المجتمعات التى حصرتهن جميعا - بلا تفرقة - فى أعمال منزلية أضاعت على نفسها مصادر بشرية إلى أقصى حد - فإنه يجد نفسه فى موقف صعب عندما يعيد الأسرة من جديد فى محاورة «القوانين» مع أشكال أخرى من الملكية الخاصة؛ على حين أن الحجة النظرية للقدرات المتساوية، ومن ثم التربية المتساوية، والوظائف المتساوية للجنسين، قد سارت هنا أبعد من «الجمهورية». عندما يصل الأمر إلى تطبيق المفاهيم، نجد أفلاطون يتراجع؛ من الواضح أن السبب هو أن الزوجة الخاصة لن يُسمح لها بنفس الحياة العامة التى كانت للحراس من النساء، أو النساء الفلاسفة فى الدولة المثالية.

وبالتالى نُظر إلى النساء على أساس وظائفهن ووضعهن المنزلى المعتاد، وكن غائبات تماما عن نشاط المواطنة. وفضلا عن ذلك على الرغم من أنه ذهب فى «الجمهورية» إلى أن طبيعة الرجال وطبيعة النساء شئ واحد بصرف النظر عن الأوار النسبية التى يقوم بها كل منهما فى عملية الإنجاب : ويذهب أفلاطون فى «القوانين» إلى أن المرأة لابد أن تكون ساكنة هادئة وفيه فى حين لابد أن يكون زوجها نبيلًا وشجاعا. وهكذا نجد أن طبيعة المرأة لا تقل عن دورها، يرتبط بحضور الأسرة أو غيابها.

ومن الواضح أن معالجة أفلاطون للنساء فى محاورة «الجمهورية» ليست متوازية فى تاريخ الفكر الغربى. والفارق الجوهرى بين مناقشته للنساء فى القوانين، فضلا عن

ذلك - والمعالجة الفلسفية المتأخرة لهن ؛ هي أن أفلاطون كان على وعى بما يفعله، بجنس الأنثى، فى حين أن الفلاسفة التالين لايبدون أية إشارة على وعيهم هذا؛ ولما كان أفلاطون يذهب، صراحة، إلى أن الصفات النظرية للنساء لا يمكن أن تُعرف، طالما أن التربية والتنشئة الاجتماعية للجنسين كانت مختلفة للغاية ، و«الطبيعة» التى نسبها للنساء فى القوانين، هى طبيعة عرفية مكتسبة بشكل ظاهر، بدلا من أن تكون طبيعة وصفية، إنها الطريقة التى لابد أن تكون المرأة بها اجتماعية حتى ينجزن وظيفتهن المكتسبة داخل البنية البطريركية التقليدية التى يفترضها مجتمعه.

ما فعله أفلاطون بالنساء عن وعى، وطبيعتهن فى محاورة «القوانين». فعله، بلا وعى، فلاسفة سياسيون كثيرون، وهم الذين اهتموا منذ أفلاطون بهذا الموضوع : إلى الحد الذى سار فيه أفلاطون قُدمًا فى المناقشة العقلية للنساء وقدراتهن. وإن كان أرسطو قد أعادها إلى الوراء من جديد، ولم يكن تاريخ الفكر السياسى عن النساء - لسوء الطالع - حتى العصر الحاضر سوى مجموعة من الحواشى بالتراث الأرسطى. وفى مقابل أفلاطون الفلاسفة الذين نظروا إلى الأسرة على أنها فوق المناقشة - جزء أساسى وطبيعى من النظام البشرى - قد مالوا إلى النظر إلى النساء من منظور وظائف الجنس والإنجاب. ولا ينظر إلى اهتمامات النساء على أنها منفصلة، وإنما على أنها تندرج داخل اهتمامات الأسرة. كما نُظر إلى هدف النساء على أنه الإنجاب وتربية الأطفال، كما عُرُفت طبيعتهن من منظور أفضل الخصائص لإنجاز هذه الوظائف.

إن معالجة النساء فى حالة أرسطو نفسه، كانت تتسق مع بنية الفلسفة السياسية بأسرها. بسبب غائيته الأساسية ومعالجته الوظيفية للعالم ككل، فقد أهمل الغالبية العظمى من الشعب - الذكور والإناث معا - لوضع الوسيلة، التى هدفها تمكين قلة من الناس من متابعة غاياتهم البشرية الحقة.

غير أنه فى حالة «روسو» فإن المعالجة الوظيفية العرفية، للنساء تقف شاذة خارجة من القياس فى سياق الفلسفة التى تقوم على المثل العليا للحرية والمساواة البشرية. ولقد تجاهل روسو أفكاره الخاصة عن الحالة الأصلية للطبيعة، وتقدم زاعما أن الأسرة البطريركية طبيعية وضرورية. ومن ثم فلا بد أن تُعرف طبيعة المرأة تبعا لاحتياجاتها.

ولما كان قد تغاضى تماما عن أثر البيئة فى التطور البشرى وهو ما طبقه على الرجال فقد ذهب إلى أن المرأة بطبيعتها سلبية، خاضعة ومحتشمة؛ ولا بد أن تُربى بتلك الطريقة التى تدعم خصائصها الطبيعية، فبذلك وحده تكون سعيدة فى عالم وجدت فيه لإسعاد الرجل. ولقد عارض بقوة النتيجة التى انتهى إليها أرسطو والتى تقول إن بعض الناس خلُقوا بالطبيعة عبيدا بهدف خدمة البعض الآخر. ومع ذلك فقد فشل «روسو» فى إدراك إمكان تطبيق اعتراضاته على حججه هو نفسه ضد جنس الأنثى. وعلى الرغم من انشغاله المسبق بالفرد الذكر، وحقوقه وحريته، فإن روسو يواصل تطبيق حجج أرسطو عن طبيعة النساء وأغراضهن. وهكذا أصبح دور المرأة فى الأسرة البرجوازية عقليا، وهو أن تنجب وتربى ورثة لا شك فيهم ليرثوا ملكية الأسرة، كما ينبغى عليها أن تمنح زوجها السلوى السارة فى مواجهة الواقع الصعب الذى يجده فى العالم الخارجى، وأن تطيع زوجها بلا مناقشة. وأن تعتمد عليه اعتمادا تاما، وأن تقيم سمعتها كإنسانة عفيفة على أنها أتمن ما تمتلك - وذلك كله هو ما تمليه الطبيعة. وعلى حين أن تشخيصه النهائى للرجل أنه يمكن أن يُربى ليكون إما فردا أو مواطنا لكن ليس الاثنين معا، أما النتيجة المساوية للمرأة فهى أنها لا تكون هذا ولا ذاك.

ولقد حاول جون ستوارت مل أن تتكامل النساء كأشخاص لها حقها الخاص فى فلسفته السياسية الليبرالية. ولقد أدرك عبث الدعوى القائلة بأن الخصائص المعاصرة لجنس المرأة التى تُرى أنها كانت على الدوام تابعة لجنس الرجل هى التى تشكل طبيعة الأنثى. لا أحد يمكن أن يزعم أنه يعرف طبيعة المرأة إلى أن تتحرر المرأة وتطور هذه الطبيعة، وبسبب اقتناع مل بأهمية السعادة البشرية للفرد فقد أصبحت الحرية والعدالة هما الأساس فى معالجته لقضية تحرير النساء. غير أنه إلى الحد الذى كانت رؤيته للمرأة المتحررة قاصرة عن المساواة التامة فى الفرص وفى القوة، فكانت بذلك شاهدا على القضية التى تقول إن موقف الفلاسفة من الأسرة، قبل أى شىء آخر، هو الذى يحدد نتائجهم حول حقوق النساء ودورهن الاجتماعى.

ومن ناحية أخرى لقد رفض جون ستوارت مل - يقينا - العديد من التفاوتات والفروق - وعدم المساواة القانونية والعرفية للأسرة البطريركية، فهو لم يزعم - كما فعل

كثيرون - أن أفضل اهتمامات لكل أعضاء الأسرة، تندرج ضمن اهتمامات رأس الأسرة الذكر، وهكذا انتهى إلى أن النساء لابد أن يكون لهن حقوق سياسية ومدنية متساوية، ونفس التعليم ونفس الفرص لكسب قوت معيشتهم مثل الرجال. ومن ناحية أخرى فإن مل لم يتناول قط أو يعترض على أن المحافظة على الأنوار التقليدية بين الجنسين داخل الأسرة، بل يذهب صراحة إلى أنها مناسبة ومطلوبة. وعلى الرغم من اعترافه الصريح بالحد الذي يعوق فيه الانشغالات المنزلية النساء عن التقدم فى مجالات الحياة الأخرى، فإنه لم يلق بالا إلى إمكان مشاركة الجنسين فى الأعمال المنزلية وتربية الأطفال. والزم بأن النساء المتزوجات لا ينبغي أن يكسبن قوتهن أو يسعين إلى وظيفة إلا بمقدار ما تسمح به الالتزامات المنزلية ، بمعنى أن تأييد مل لقضية المرأة مقيد. والواقع أنه تسامح مع مواصلة وجود الفروق الملحوظة فى استعمال السلطة، وفى إتاحة الفرص أمام الرجال والنساء المتزوجين. وهكذا نجد أنه على الرغم من أنه يذهب إلى أنه لابد أن يسمح للنساء بحق المواطنة . فليست ثمة طريقة على الإطلاق لواقع الحياة كما تصورها يسمح لهن أن يكن مواطنات ، فى حين أن مل استثناء من بين الفلاسفة السياسيين - حاول أن يعالج النساء كأفراد ويعتبر سعادتهن وحريةهن مهمة بقدر أهمية سعادة وحرية الرجال، فإن إجماعه عن مناقشة البنية التقليدية للأسرة والأنوار الأساسية فيها منعه من النجاح الكامل فى تحقيق هدفه.

إن أهمية التحليل السابق تصل إلى ذروتها من واقعة أن أسلوب التفكير الوظيفى عن النساء، وحقوقهن، وحاجاتهن، ووضعهن فى المجتمع، لم تمت على الإطلاق. ولقد تم إحياء المذهب الوظيفى ككل فى العقود الأخيرة، لاسيما فى ميدانى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى. وهناك مثلان على ذلك : أعمال «إريك اريكسون» فى التحليل النفسى، و«تالكوت بارسونز» فى علم الاجتماع - وهما مثلان يكفیان للبرهنة على خط البرهان السائد فى قضية المرأة والأسرة، يوازى خط البرهان عند روسو وأرسطو ومن المهم أن نفهم كيف أن هذا الأسلوب فى التفكير - إذا ما طبق على النساء والأسرة - فإنه يحتفظ بهذا الالتماس.

لقد طرح «فرويد» هذا السؤال المثير : ما الذى تريده المرأة ؟ (١) على عدد من علماء النفس من نوى المكانة، وكذلك من علماء التحليل النفسى، ولم يترددوا فى تقديم الإجابة التى تدعم الفكرة القديمة والتى تقول إن المرأة ومطالبها واحتياجاتها تحددتها خصائصها الجنسية والتناسلية (٢) ، فبروتو بتلهم

مثلا - وهو يتحدث عن موضوع النساء فى المهن العلمية - يؤكد :

«علينا أن نبدأ من إدراك أن النساء - إذا أردن أن يكن عالمات أو مهندسات ممتازات، فهن بحاجة أولا وقبل كل شىء أن يكن صاحبات ورفيقات، بطريقة أنثوية للرجال، وأن يكن أمهات» (٣).

ولقد شعر بعض الباحثين من الذكور أنهم ليسوا مضطرين أبدا لإخفاء حقيقة أنهم يعرفون النساء - وظيفيا - من حيث علاقتهن بحاجات المجتمع. فعالم التحليل النفسى جوزيف راينولد يقول مثلا : «المرأة هى التربية والرعاية ... ويقول لنا علم التشريح إن حياة المرأة ... عندما تنمو بلا قلق من وظائفها البيولوجية وبلا تخريب لأنوثتها، ومن ثم عندما تدخل مجال الأنوثة بالشعور بالغيرية. فإننا عندئذ سوف نبلغ الحياة الطيبة فى عالم نأمن أن نعيش فيه» (٤).

ومن الواضح أن النساء عندما يتأقلمن اجتماعيا بنجاح مع الإيمان بأن تشريحهن هو مصيرهن، فإننا فى هذه الحالة (من؟) سوف نعيش حياة طيبة.

وبالطبع لا أحد من هؤلاء يبعد كثيرا عن الأفكار التى عبر عنها روسو عن المرأة، غير أن النمط الحديث لهذا الأسلوب فى التفكير موجود عند «إريك إريكسون» (Erik

(١) أرنست جونز «حياة سيجموند فرويد وأعماله» نيويورك ١٩٦١ ، المجلد الثانى ص ٤٢١ .

(٢) انظر تومى فيشتين «علم النفس - يشكل الأنثى» وأنا مدينة لفيلشتين لتوجيهى إلى الأمثلة التى ذكرتها.

(٣) «التعهد المطلوب من المرأة لكى تدخل مهنة علمية فى الجمعية الأمريكية فى الوقت الراهن» ... المرأة والمهن العلمية. مائدة حول النساء الأمريكيات فى العلم والهندسة. أدارها ج. ماتفليد و س. فان ايكن - كيمبردج - ماسوشست عام ١٩٦٥ ص ١٥ .

(٤) «الخوف من أن أكون امرأة» نيويورك عام ١٩٦٤ ص ٧١٤ .

(Erikson) - لقد حاول إريكسون في محاولة لإحياء المفهوم السلبي لفرويد القائل بأن تطور شخصية الأنثى مستمد إلى حد كبير من شعور الفتاة الصغيرة بالحسد نحو القضيب - أقول: حاول إريكسون بدلا من ذلك أن يذهب إلى أن التطور يتم حول امتلاك «مكان داخلي» له قوة هائلة هو : الرحم (١). فقدرة المرأة على حمل الطفل وتغذيته ليست إذن مجرد جانب من طبيعتها، فهويتها كلها، وحياتها التي تحياها يدوران حول ذلك «المكان الداخلي» الخاص بها، ورغبتها في امتلائه.

ويخبرنا إريكسون أن «الفراغ هو الصورة الأنثوية للعذاب ... التجربة القياسية لكل امرأة» (٢) وأنه أيا ما كان المجال الذي تقتحمه المرأة فلا بد لها أن تتخذ معها خاصيتها الأنثوية الخاصة - التي عرفها بأنها «المكان الداخلي»؛ ففي مجال السياسة - مثلا - فيما يقول إريكسون: «لن يتحقق تأثير النساء تماما، ما لم تعكس بلا أعذار وقائع «المكان الداخلي» وإمكانات وحاجات النفس الأنثوية» (٣) وبالتالي فإن النساء سوف ينجزن نوعا من الأنوار في الحياة يختلف عن نور الرجال. وكما فعلن ذلك، فإنهن لن ينسين أبدا «التخطيط الأساسي» الفريد لأجسامهن. ما دامت المرأة ليست أبدا مجرد امرأة، فهي لا تستطيع أن ترى أهدافها بعيدة المدى إلا في تلك الأساليب من النشاط التي تشمل وتتكامل مع استعداداتها الطبيعية « - فيما يقول إريكسون (٤).

وهكذا يزعم إريكسون - بطريقة إيجابية لا تقل عن طريقة روسو - أنه يعرف النساء على حقيقتهن وماذا يشبهن على نحو طبيعي. غير أن الاستدلال الذي يستخدمه في هذا الموضوع ليس حاسما ولا مقنعا أكثر من استدلال روسو. فبرهانه على أن النساء على وعى أساسي بـ «المكان الداخلي» عندهن نتيجة لتجارب كان

(١) «المكان الداخلي ، والمكان الخارجي ، تأملات حول الأنوثة».

(٢) «المكان الداخلي ، والمكان الخارجي » ص ٥٩٦ .

(٣) «المكان الداخلي ، والمكان الخارجي » ص ٦٠٤ .

(٤) «المكان الداخلي ، والمكان الخارجي » ص ٦٠٥ .

الأولاد والبنات فى سن مبكرة يطلبون تركيب مشاهد من عدد من اللعب المعطاة (١). ويستخدم إريكسون اختلاف المناظر التى يكونها الجنسان على أن شخصياتهم تأثرت تأثراً كبيراً باختلافات الأعضاء الجنسية وأعضاء التناسل بينهما. مما يذكرنا بإهمال روسو عند اكتشافه لتلك الاختلافات الطبيعية بين الجنسين وتأثير البيئة فى الطفل فى سن السادسة. ويرفض إريكسون التفسير «الاجتماعى» الخالص بطريقة قطعية لا تقبل النقد على أساس أن مثل هذا التفسير لا يستطيع أن يفسر جميع الاختلافات التى نشاهدها. كما يرفض النظر إلى المؤثرات فى المشاهد التى يبينها الأولاد والبنات، على أنها ذات مغزى، تلك المؤثرات فى تجارب اللعب عند كليهما فى ثقافة تقدم فيها كثرة من اللعب والأنشطة التى تعتبر مرتبطة بدقة بالجنس، أو توحدها بالسلوك المشروط اجتماعياً وتطلعات الآباء والبالغين الآخرين بجنسهم هم.

ويذهب إريكسون فى هذا البحث - فيما بعد - إلى أن الضرورة البيولوجية للحياة البشرية هى التى تجعل من تربية الطفل «الوظيفة الفريدة للمرأة». ومن ثم فالبيولوجيا هى التى تفسر الكثير من الاختلافات التى نلاحظها فى الفتاة الصغيرة. لا فقط رد الفعل على الأشياء بحنان ورقة أكثر بكثير من الولد، بل إنها تعلمت أيضاً أن ترضى بسهولة داخل دائرة محدودة من الأنشطة، وهى تُبدى مقاومة واندفاعاً أقل من ذلك النوع الذى يقود الأولاد والرجال فيما بعد إلى الانحراف (٢). وفى غياب أى اعتبار للتنشئة الاجتماعية بين الجنسين أو التوقعات التى ينتظرها منهما المجتمع، فكيف يفترض أن نؤمن بأن مثل هذه الاختلافات هى نتيجة للبيولوجيا؟ إن نتائج روسو المماثلة لم تتأسس على شواهد أشد سوءاً من هذا الدليل.

على الرغم من أن «إريكسون» يبرهن بسهولة على درجة غير عادية من التفكير المشوش، فإن هذا التفكير هو الذى يعوق باستمرار المناقشة العقلية للفروق بين الجنسين، تماماً مثلما أن معالجة «روسو» لهذا الموضوع اختلطت فيها العبارات الوصفية مع العبارات المكتسبة وغزلاً فى ضفيرة واحدة. يخبرنا إريكسون، مثلاً، فى

(١) «المكان الداخلى، والمكان الخارجى» ص ٥٨٨ - ٥٩٣ .

(٢) «المكان الداخلى، والمكان الخارجى» ص ٥٩٨ - ٥٩٩ .

عبارة حاسمة بالنسبة لحجته: «إن المرأة عليها التزامات بيولوجية وسيكولوجية وأخلاقية تجاه رعاية الطفولة البشرية»^(١). ومن الصعب على المرء أن يعرف معنى «الالتزامات البيولوجية»، فالالتزام بغير شك هو شيء يأخذ المرء المقصود على عاتقه القيام به. أما القول بأن لدى المرأة القدرة على حمل الأطفال فهو مسألة لا شك فيها، لكن أن تقول إن ذلك التزام بيولوجي دع عنك الرعاية التامة للطفل - فهو قول لا معنى له. أما بالنسبة لالتزامات المرأة السيكولوجية والأخلاقية لتربية الأطفال فهما معا - على الأقل إلى حد كبير - يرتبطان بالثقافة. والأولى، بدرجة غير معروفة ، نتيجة لظروف دور الجنس. فصهرهما اريكسون معا كواقعة بيولوجية عامة مع العوامل المكتسبة ثقافيا هي طريقة عنيفة ليستمد نتيجته غير المضمونة القائلة بأن تربية الطفل هي بالضرورة مهمة «تستغرق سنوات من الساعات التي تخصصها المرأة للعمل»^(٢).

وأهمية كتاب إريكسون في الدفاع عن الوضع القائم، في أنه يضيف تصديقا من علوم القرن العشرين على أسطورة قديمة. وهذه الأسطورة القديمة تزعم أن تمايز الأدوار بين الجنسين الموجود وتطلع الأولاد والبنات إلى أدوار مختلفة تماما في المستقبل لا يرجع إلى مؤثرات البيئة أو تصديقات اجتماعية وإنما هي تعود إلى فروق جنسية فزيائية. ومن ثم فإن انحصار الغالبية العظمى من النساء في المنزل أو أوضاع قانونية دنيا، في مجال الوظائف، ليست على الإطلاق مسألة شاذة في العالم الحديث. أو أنها مسألة تجد المرأة الطبيعية من ذات نفسها سببا لتحديه. وهذا مما يؤكد لنا اريكسون، لأن البيولوجيا النسائية ذاتها تؤكد أن المرأة - في مقابل الرجل الذي غزا الفضاء ونشر الكثير من الأفكار، قد وجدت هويتها في الرعاية التي تقوم بها بجسدها وفي الحاجة إليها، ويبدو أنها سلّمت بأن المكان الخارجي في العالم ينتمي إلى الرجال^(٣).

والمهمة التي يقوم بها علماء النفس تكملها مهمة علماء الاجتماع، لا سيما أولئك الذين ينتمون إلى «مدرسة الوظيفة البنيوية». «تالكوبن بارسونز» وزملاؤه في كتاب

(١) المكان الداخلي، والمكان الخارجي ص ٥٨٦ .

(٢) المكان الداخلي، والمكان الخارجي ص ٥٩٨ (والتشديد من عندي) .

(٣) المكان الداخلي، والمكان الخارجي ص ٥٩٣ .

«الأسرة، والتنشئة الاجتماعية وعملية التفاعل»، وفي عدد من المقالات التي أخذت على عاتقها البرهنة على أن الوظائف الأساسية التي تقوم بها الأسرة النووية من أجل المجتمع يفرقون بين تمايز العرف بين أنوار جنس الرجال وجنس النساء. فلو أن اريكسون في معالجته للنساء، هو «روسو» هذا العصر، فإن التحليل الوظيفي عند «تالكوت بارسونز»، للأسرة ولدور المرأة داخلها تكشفه على أنه أرسطو العصر.

بارسونز - على خلاف إريكسون - لا يبدو أنه يؤمن بدور العرف بين الجنسين الذي يتحدد بيولوجيا عن طريق تمايز الأنوار في الإنجاب. فقد أصبحت واقعتا الحمل والرضاعة، بالأحرى، الأساس لدور مختلف أتم الاختلاف وأسلوب حياة للنساء ينبغي تفسيره عن طريق عامل تأمل في الأسرة. يقول بارسونز «الواقع أننا نذهب إلى أنه ربما كانت أهمية الأسرة ووظائفها للمجتمع تشكل المجموعة الأقصر من الأسباب التي تجعل هناك تفرقة وتميزا بين الأنوار الاجتماعية وأنوار الإنجاب بين الجنسين» (١) وهكذا نجد أن وظائف أساسية في الأسرة النووية الحديثة هي التي تحدد بالضرورة «مكان المرأة».

لقد انتقد علماء الاجتماع المحدثون المناصرون لقضية المرأة كتاب «بارسونز» (٢). غير أن هناك عدة مسائل تحتاج إلى مناقشة في هذا السياق:
أولاً: أن بارسونز - مثل أرسطو في نظريته إلى المدينة وتدبير المنزل اليوناني - نظر إلى المجتمع الأمريكي في أربعينيات وخمسينيات هذا القرن وإلى الأسرة النووية التقليدية على أنها الأساس في نظريته. فقد سلم أن الأعضاء الراشدين في الأسرة «الطبيعية» يعتمدون على رجل له وظيفة وامرأة إما أن تبقى أو أن تتجه - إذا ما كانت تعمل - إلى أن تشغل وظيفة لا تنافس بها مكانة زوجها (٣). وهو يعرف وضع المرأة

(١) الأسرة والتنشئة الاجتماعية وعملية التفاعل ص ٢٢ .

(٢) انظر مثلاً أن أوكلى «عمل المرأة» ص ١٧٨ و ص ١٨٥ . وكتاب جوليت ميتشل «وضع المرأة» ص ١١٦ - ١١٧ .

(٣) الأسرة والتنشئة الاجتماعية - ص ١٢ - ١٥ و «السن والجنس في البنية الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية» ص ٦٠٥ ، ص ٦٠٨ - ٦٠٩ .

المتزوجة بأنه الوضع المستمد من مستوى وظيفة زوجها . أما مسألة وضع المرأة بالمقارنة بوضع الرجل فمهما اعترف بالتفاوت وعدم المساواة ترجع إلى العلاقات غير المتناسبة بين الجنسين مع البنية الوظيفية»^(١).

ولم يكن بارسونز غير واع أن هناك مشكلات، لا سيما بالنسبة للنساء، تنتج عن بنية دور الجنس في الأسرة النووية التي يعتبرها أمرا مسلما به. وهو يقول عن الانفصال الحديث الصارم بين «العمل» الخارجي في العالم عن عمل المنزل : «إنه يحرم المرأة من دورها كشريك في عمل مشترك». فهي تترك مع وظائف نفعية في تدبير المنزل الذي يمكن اعتباره نوعا من شبه الوظيفة^(٢). وهو يشير إلى أنه على الرغم من أن القدرة الأمريكية العالية على تحمل المشاق. فإن نساء الطبقة المتوسطة يتجهن نحو الخدمات المنزلية كلما سمحت القدرات المالية، كي يعزلن أنفسهن عن إتمام الأعمال المنزلية، وليقمن بدور في النشاط الاجتماعي حتى يتجنبن «وصمة أنهن زوجات فحسب»^(٣). كما يعترف كذلك بأن المشكلات التي تنشأ من واقعة دور النساء في تربية الأطفال تنتهي في العادة بأن يكون أزواجهن على قمة وظائفهن. إن الطبيعة التي تحصر حياة المرأة في المنزل والتخصيص الضيق لحياة الرجال في العمل ليس عملا وحيدا بتاتا لكلا الجنسين كما يقر بذلك. على حين أن الرجل يمكن أن يعوض بما ينجزه وبمسئولياته عن هذه الوظيفة - فيما يعترف بارسونز - فإن تمايز دور الجنس الصارم بالنسبة لمجتمعنا يلحق بالمرأة أعظم الضرر. كتب يقول : «من الواضح تماما أنه في دور الأنثى الناضجة، هناك من العناية والأمان، ما يكفي تماما، لكي يجعلنا نتوقع انتشار مظاهر السلوك العصبى»^(٤).

ومن المدهش - بصفة خاصة - بعد أن يكون لدينا مثل هذا الإدراك بعض نتائج بنية أنوار الجنسين كما ينظمها العرف - أن يرفض بارسونز النظر في إمكانيات

(١) السن والجنس ص ٦٠٥ .

(٢) السن والجنس ص ٦٠٩ .

(٣) الأسرة والتنشئة الاجتماعية ص ١٢٩ .

(٤) السن والجنس ص ٦١٣ .

التغيير؛ فهو يؤكد - بغير تعليق - أن دور الجنسين قد أصبح أكثر تحديدا لا أقل تحديدا (لقد كان يكتب، بالطبع قبل بداية الحركة النسائية السائدة). الحركة العاملة للنساء فى نمط «رجولى» للسلوك. فيما يعتقد «لن يكون ممكنا إلا مع التغييرات العميقة فى بنية الأسرة» وهو ينظر إلى «البنية التقليدية للأسرة» على أنها أكثر جوهرية مما كانت من قبل من منظور وظائفها، الاجتماعية الحيوية (١). ويتضمن ذلك أن مثل هذا التغيير العميق مهما كانت عواقبه على الصحة العقلية لنصف السكان، ليس مسألة مطروحة للنقاش.

ومن تحليل يأخذ البنية الاجتماعية المعاصرة على نحو ما هى قائمة - ينزلق بسهولة شديدة إلى نور التنبؤ، أو بالأحرى توصيف، المستقبل، وهو يميل إلى البدء بأساس الأسرة الأمريكية فى عصره - ثم يدعى أن النتائج التى وصل إليها ليست «مرتبطة بالثقافة» تذكرنا، إلى أقصى حد، بموافقة أرسطو وتصديقه على الوضع القائم بالبرهنة على أنه النظام الطبيعى للأشياء. وبعد أن يبرر سيطرة الذكر داخل الأسرة، نتيجة لموقف الزوج فى عالم الوظائف. يستمر بارسونز ليؤكد :

«حتى لو كان من الممكن أن يكون للمرأة المتوسطة نوع معين من الوظيفة - وهو يبدو ممكنا - فليس من الممكن فيما يبدو أن ينقلب هذا التوازن النسبى، أو تنعكس الأنوار أو أن يمحي تماما التمايز الكيفى فى هذه الجوانب» (٢).

ويقتبس بارسونز - تأكيدا لهذه النظرة - التوزيع الحالى للنساء على قوى العمل، وواقعة أنهن يشغلن أنوارا سائدة ومعبرة تدعم أنوار الرجال. تماثل دور الزوجة الأم فى الأسرة. فى حين أنه يدرك أن هناك رابطة بين الأنوار الداعمة والأنوار التابعة المخصصة للنساء سواء فى داخل الأسرة أو خارجها، ولم يكن بارسونز على الإطلاق يميل إلى القول بأنه ربما كان هناك أساس عقلى ولو ضئيل لهذا الدور المخصص لكلا

(١) السن والجنس ص ٦١٠ .

(٢) الأسرة والتنشئة الاجتماعية ص ١٥ وهامش ١٣ .

الجنسين، واقعة أنه حتى فى ميدان العمل تقوم النساء بأدوار التربية والرعاية، التى يفترض أنها تعزز الاقتناع بأن هذا هو دورهن المناسب داخل الأسرة.

هناك نقطتان أساسيتان فى حجة بارسونز حول أهمية تمايز الأدوار بين الجنسين هما أن الأسرة - كأي جماعة صغيرة - لابد أن يكون لها قائد معبر، وقائد منفذ، وأنه من المفروض أن الأم تقوم بالدور الأول فى حين أن الأب يقوم بالدور الثانى. ولقد انتقدت "آن أوكى" الزعم الأول انتقادا جيدا فأشارت إلى أن جميع موضوعات التجربة التى اعتمد عليها بارسونز هى نتاج التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة النووية من النوع الذى استهدف أن يستمد نتائجه منه، ومن ثم فإن الجماعات الصغيرة التى تشكلت من المحتمل جدا أن تكون على غرار بنية أسرة العرف، وأن النهاية التى انتهى إليها بارسونز والتى تقول إن الخصائص الملاحظة هى «خصائص تلك الجماعات الصغيرة فى كل مكان» لا تقوم على أساس (١).

لكن دعنا نقبل للحظة هذه النتائج عن أدوار القيادة فى الجماعة الصغيرة، ومن ثم فى الأسرة، فلماذا يخصص للأم الدور التعبيري، وللأب القيادة الفعالة فى الأسرة؟ ويذهب بارسونز إلى أن الدور التعبيري للأم مستمد من واقعتي الحمل والرضاعة. وعن طريق إهمال الواجبات، - إن الأب - طالما أنه لا يستطيع إنجاز هاتين الوظيفتين - لابد أن يخرج للعمل ويصبح القائد الفعال (٢) لكن مادام بارسونز ينكر أى صلة بين المرحلة الجنينية والتنشئة الاجتماعية للطفل، وهو يكتب ذلك فى عصر بلغت فيه زجاجة الرضاعة أوجها، وأن وظيفة التغذية تثبط همتها مهنة الطب - فيبدو أن الأساس يتضاءل جدا فى تخصيصه أدوار حياة طويلة على أساس الجنس. ويبدو أن بارسونز كان، إلى حد ما، على وعى بهذه المشكلة رغم أنه يكتب بصفة عامة من منظور «علاقة الأم بالطفل» ويسمى مربية الطفل بالأم، خلال مناقشته للمرحلة الحاسمة للاعتماد الشخصى يقول إن ما هو جوهرى لتطور «أنا الطفل» هو «التعلق». بموضوع واحد أو فئة من «الموضوعات الاجتماعية» التى تعتبر الأم النموذج الأصيل لها. ولقد كان حريصا أن يشير إلى أن «منسوب الرعاية» هو المفهوم الأساسى وأنه ليس ثمة حاجة

(١) عمل المرأة ص ١٨١ - ١٨٥ .

(٢) الأسرة والتنشئة الاجتماعية ص ٢٣ .

إلى أن ينحصر فى شخص واحد معين؛ فتلك هى الوظيفة الجوهرية (١) لكنه فى كل مرة يعود إلى تسمية «مندوب الرعاية» بالأم، مضللاً القارئ حول الانطباع العام الذى تمت البرهنة على أنه بالضرورة دور الأنثى.

من الواضح أن بارسونز يعتقد أن التمايز الواضح بين أنوار الوالدين خلال «مرحلة أوديب» بالغ الأهمية فى التنشئة الاجتماعية للطفل، والسبب أن الطفل فى هذه المرحلة يتقمص شخصية الأب (أو الأم) حسب جنسه (أو جنسها). لا بد أن يتوجه بنجاح الدور المناسب لجنسه، وهذا جزء حاسم من امتصاص الطفل «للنمط المؤسس فى المجتمع» (٢) لكى تصبح الفتاة «شخصاً مطيعاً ومتكيفاً» ويصبح الابن «منجزاً فنياً على نحو مقنع» (٣). ولا بد من صبغهما بالصبغة الاجتماعية فى الأسرة النووية التى يتم فيها هذا التمايز لأنوار الجنسين ويلاحظ بوضوح. لكن من المؤكد أن هناك شيئاً أشبه بالدور فى هذا الاستدلال. فجزء كبير من ضرورة أنوار الجنس تعتمد على الحاجة إلى التنشئة الاجتماعية للأجيال القادمة، فى أنوار الجنس حتى يستطيعا بدورهما أن يصبغا أطفالهما بالصبغة الاجتماعية لأنوار الجنس.. وهكذا إلى ما لا نهاية وبصفة خاصة طالما أن بارسونز كان على وعى ببعض النتائج غير الصحية لأنوار الجنسين التى يقول بها العرف: فإن المرء ليعجب لماذا اهتم كل هذا الاهتمام للاحتفاظ بها؟

لقد كان بارسونز - بوصفه عالم اجتماع - مؤهلاً تماماً للقيام بتحليل النظرى للمؤسسات الثقافية التى تفرق بين الجنسين، غير أنه ليس له ما يبرر - أكثر من أرسطو - أن يعرض النظرية من مجموعة جزئية تاريخية خاصة من المؤسسات كحكم على السلوك البشرى من منظور الأزل. والطبيعة الأكاديمية المحايدة المزعومة لدراسته لم تظهر حقيقة نتائج الرجعية عن ضرورة تحديد أنوار صارمة للجنسين لكى نحافظ على صحة المجتمع الوظيفى.

(١) الأسرة والتنشئة الاجتماعية ص ٤٣ و ص ٦٣ .

(٢) الأسرة والتنشئة الاجتماعية ص ٣٥، ص ٨٠، ص ٩٤، ص ٩٨، ص ٢٨٧ .

(٣) الأسرة والتنشئة الاجتماعية ص ٥١ شكل ٤ .

وهكذا نجد أنه في نفس العصور الحديثة كان هناك تصديق قوي على أسطورة التفرقة بين الجنسين من علماء لهم نفوذ مؤثر في المجر الرئيسي لعلومهم. إن استدلال روسو عن طبيعة النساء يوجد هنا نماذج له وقد مثله أريك إريكسون، ومزاعم أرسطو عن الطبيعة المقدسة التي لا تتغير لبنية الأسرة القائمة تمثلها بوضوح مدرسة بارسونز في علم الاجتماع التي عززت المبرر للمعالجة التي تفرق بين الجنسين، واستمر ذلك حتى بداية الحركة النسائية في أواخر الستينيات التي بدأت في كسر الاحتكار، وفضلا عن ذلك فإن الرجال والنساء معا، تغنوا أثناء تنشئتهم الاجتماعية على الغبار المتساقط من هذه الآراء : من خلال الكتب المدرسية، والإعلانات ، وتنشئة الطفل، وقنوات أخرى لا حصر لها «الطبيعة» المكتسبة المفروضة على النساء بسبب بيولوجيا التناسل عندهن وينضم إليها الزعم بأن بنية الأسرة كما يحددها العرف، لا تفترضها في الواقع أية آراء بديلة.

الفصل الحادى عشر

الأشخاص والنساء والقانون

ننتقل الآن إلى مجموعة من الأفكار كان لها - ولا يزال - تأثير مباشر على الأوضاع التى تعيش فيها النساء فى هذا البلد. وأعنى بذلك القانون، وبصفة خاصة تعرضه للمراجعة التشريعية أمام أعلى المحاكم فى هذا البلد. ومن هنا يصبح من الواضح أن الأمر لم يكن فقط فى تاريخ الفكر السياسى ، والأبراج العاجية للأوساط الأكاديمية التى خدمت الأساليب الوظيفية للفكر فى تبرير المعاملة غير المتساوية للنساء. ولقد استخدمت المحاكم أيضاً فى الماضى وحتى يومنا الراهن حججاً نفعية تقوم على الدور التقليدى للنساء داخل الأسرة - المعترف بأنه دور حتمى وطبيعى - فى صنع كثير من القرارات الهامة والتميزة من حيث نوع الجنس. إن المساواة بين الأفراد أمام القانون قد عبّر عنها بوضوح الدستور فى الولايات المتحدة؛ وتقضى المادة الرابعة عشرة المعدلة أنه:

«ينبغى أن لا تقوم أية ولاية بسن قانون أو فرضه - أى قانون من شأنه أن يحرم المواطنين فى الولايات المتحدة من المزايا - أو الحصانة - التى يتمتعون بها. أو أن تقوم أية ولاية بحرمان أى شخص من حق الحياة أو الحرية أو التملك بدون الإجراءات القانونية اللازمة، وأن لا تنكر على أى شخص فى نطاق سلطتها الحماية المتساوية من القانون».

فى ضوء هذه الشروط، بالإضافة إلى بند الإجراءات الواجب اتخاذها فى المادة الخامسة المعدلة - فقد يبدو غريباً من الوهلة الأولى أن المادة المعدلة الخاصة بالحقوق المتساوية التى هى بالتحديد لا تسمح بالرفض أو الحرمان للحقوق على أساس الجنس أن تكون ضرورية. لأنه بالرغم من أن المادة الرابعة عشرة المعدلة قد قصد

بها بالتحديد التأكيد على المساواة القانونية للعبيد المحررين^(١). فإن البنود المذكورة فيما سبق تشير إلى كلمة «أشخاص». وعلى الرغم من ذلك - وخشية أن نقفز سريعاً إلى نتيجة مؤداها أن كلمة «أشخاص» تشمل تلقائياً النساء، فإن من الضروري أن نتذكر أن القسم الثانى من نفس المادة، وفى إشارتها إلى تعيين الممثلين قدمت كلمة «ذكر» إلى الدستور لأول مرة. وكما لاحظ المحامى الدستورى «كيث جنسبرج» أن العبارات الضخمة فى القسم الأول من المادة الرابعة عشرة المعدلة «كان يجب على أحسن تقدير أن تشير إلى أنها تنطبق على النساء»^(٢) والواقع أن تاريخ الحجج والقرارات الخاصة بالمحاكم فى قضايا التفرقة أو التمييز بين الجنسين على مدى القرن الماضى يثبت أنه من خلال المعنى المناسب، فإن النساء قد حُكمنَ لهن أن يكن من الأشخاص. وبينما كشفت دراسة عام ١٩٧٢ عن أن ما يزيد عن ثمانمئة قسم من مجموعة قوانين الولايات المتحدة. والتي اشتملت على إشارات صريحة للجنس وأنه يوجد العديد من آلاف القوانين المشابهة الخاصة بالولايات - فإن التفسير القانونى كان على نحو لم يكن عليه حتى عام ١٩٧١، حين حصلت المحكمة العليا بالولايات المتحدة إلى التمييز المبني على الجنس غير دستورى وفى هذا الجزء سوف نقوم بتحليل الأفكار، والحجج الخاصة بالنساء التى دعمت مظاهر التمييز بالقانون، ونبين المدى الذى اتجهت إليه طرق التفكير عن المرأة ومكانتها فى المجتمع، والتى ما زالت تسود الفكر السياسى الغربى، وما زالت تصر على تفسير النظام القانونى الأمريكى الحديث على هذا النحو.

ومثلما رأينا بصدد تفسير الفلاسفة، فإن المفتاح الرئيسى لفهم التفسير القانونى فى موضوع المرأة هو الأسرة والمزاعم الخاصة بدور المرأة فيها - فما من شك فى أن الأسرة التى يرأسها الرجل قد اعتبرها كل من المشرعين والمحاكم

(١) أصدرت المحكمة العليا فى عام ١٨٧٢ أى بعد أربع سنوات فقط من التصديق على تعديل المادة الرابعة عشرة - قراراً يقول إنه ليس من المحتمل أبداً أن يؤخذ فى الاعتبار فى بند الحماية المتساوية أى نوع آخر من التفرقة سوى التفرقة العنصرية. انظر روث جنسبرج «الجوانب الدستورية المبنية على أساس الجنس» ص ١٢٠ وقد ثبت خطأ النبوءة، بالطبع، فيما بعد.

(٢) الجوانب الدستورية ص ٢ .

الأساس الرئيسي للمجتمع في الولايات المتحدة. وكما قال أحد القضاة في إحدى المحاكم عام ١٩٤٩ التي رفض فيها منح الوصاية لامرأة على ابنتها بسبب فسوقها (لأنها زانية) - قال القاضي: «إن مجتمعنا بأسره مبني على قضية السياسة على نحو مطلق، وهي أن الزواج الذي يخلق أهم علاقة في الحياة له الأثر الأكبر في الأخلاق والحضارة» في حياة الشعوب أكثر من أية مؤسسة أخرى^(١).

وفي قضية أخرى من قضايا عام ١٩٥٣ - أقر القاضي أن رفض حق الزواج في اختيار مكان الإقامة، يؤدي إلى التضحية بوحدة الأسرة وهي الوحدة (أو الكيان) الذي تبني عليه حضارتنا...»^(٢). ولما كانت الأسرة هي الوحدة الغربية للمجتمع فإنه يبدو غريباً أن الدستور - وبخاصة وثيقة الحقوق - لم تذكرها ولكنها ذكرت بالكمال بلغة الأشخاص الأفراد. وهذا شيء غريب. وعلى الرغم من ذلك فإنه فقط حينما يدرك المرء أن هؤلاء «الأشخاص» الذين أشار إليهم الدستور، - تماماً كالموافقين على العقود الأصلية عند هوبز، ولوك، وروسو - لم تشمل هذه العقود كل فرد بالغ، بل فقط رؤساء الأسر من الذكور، كل واحد منهم من المفهوم أنه يمثل مصالح هؤلاء الذين يشكلون المحيط الأبوي. ويؤكد توماس جيفرسون في إشارته الصريحة إلى أن واضع الدستور في أقصى ما كانوا يحلمون به - لم يقصدوا بعبارة «الأشخاص» في دستورهم أن تعني أكثر من ذلك - يقول: «لو كانت بولتنا ديمقراطية خالصة، فإننا كنا سنستثنى من تداولتنا المرأة التي يجب أن لا تختلط بتجمعات الرجل بلا شرح لمنع حرمان الأخلاق والتباس القضايا»^(٣). وعلينا أن

(١) بونيم ضد بونيم ٢٩٨ نيويورك ٣٩١ . مقتبس في «مينارد ضد هل» ١٢٥ الولايات المتحدة ١٩٠، ٢٠٥ .

(٢) 75 Ariz. 308, 309. وقد اقتبسه «ليون كانوفتس» في «النساء والقانون ثورة لم تتم» ص ٥٠ .

(٣) مقتبس في م. جروبرج «النساء في السياسة الأمريكية» Oshkosh Wisc 1968, P. 4

نعترف بأن الدساتير الخاصة بالولايات، والدساتير الاتحادية، كانت قد وضعت من منظور أن النساء من زوايا كثيرة هامة لسن أشخاصاً من الناحية القانونية، بل أعضاء تابعات للأسرة البطريركية (الأبوية).

لاستبعاد النساء - بصفة خاصة بعد الزواج - من الشخصية القانونية أساس متين في القانون العام الذي يخلق كياناً خاصاً للمرأة المتزوجة. ولقد شرح بلاكستون ذلك في كتابه «شروح على قوانين إنجلترا» بقوله: «الزوج والزوجة عن طريق الزواج يصبحان شخصاً واحداً أمام القانون: بمعنى أن وجود المرأة القانوني معلق خلال الزواج - أو على الأقل - يدمج في - أو يتحد مع - وجود الرجل الذي تقوم الزوجة بتنفيذ كل شيء تحت جناحه وحمايته وغطائه...».

.. لكن على الرغم من أن قانوننا بصفة عامة يعتبر الرجل والزوجة شخصاً واحداً، فإن هناك بعض الأمثلة التي تعتبر فيها المرأة بطريقة مستقلة - أقل من الرجل (أو ثانوية بالنسبة للرجل) وتعمل بضغط منه. ولهذا فإن الأعمال التي تنفذها كلها، والأعمال التي تقوم بها المرأة منفردة أثناء وجودها في الأسرة تعتبر باطلّة ولا أساس لها.. (١).

وهكذا فإن - المرأة المتزوجة: إما أن لا تكون شخصاً على الإطلاق أو تكون شخصاً تابعاً يقوم زوجها بإجبارها على جميع الأفعال التي تكون على عكس ذلك مسئولة عنها قانوناً ويذهب «بلاكستون» إلى أن ذلك فيه معاملة متميزة للنساء. ويختتم مناقشته للقضية بملاحظة أنه «حتى انعدام الأهلية القانونية التي تخضع لها الزوجة هي في الأعم الأغلب قد جاءت لحمايتها ولصالحها. وتلك إذن ميزة عظيمة لجنس الأنثى في قوانين إنجلترا...» (٢).

وعلى حين أن كيان الزوجة في الأسرة لا ينطبق بصورة رسمية إلا على المرأة المتزوجة فحسب، فإن معناه الضمني يمتد - من حيث التطبيق - ليشمل جميع أعضاء جنس الأنثى. أولاً: لأن الغالبية العظمى من النساء متزوجات في الجزء الأكبر من

Book, 1, Chap. 15. pp 468 - 473. Boston 1799.

(١)

(٢) شروح ص ٢٧١ .

حياتهن الناضجة. ثانياً : أن القانون والمحاكم قد أسست تمييزها أو تفرقتها بين الجنسين بصفة عامة، على الزعم بأن النساء هن زوجات، ولسن زوجات فحسب بل أمهات أيضاً^(١). وعلى الرغم من أن قوانين ملكية المرأة المتزوجة، كانت قد أبطلت الكثير من صور انعدام الأهلية التي عانت منها المرأة بمقتضى مبدأ الوصاية، وبعض المظاهر اللامعقولة الباقية، قد تمَّ إبطالها في السنوات الحالية، وما زال هناك بقية باقية منها، ومن أبرزها هو المطالبة بأن تحمل المرأة اسم زوجها، ومحل إقامته، كاسم ومحل إقامة لها. وليس السبب هو نقص الفرصة، أو تغيير تلك القوانين مما أدى إلى استمرار وجودها في الكتب. «لقد أكدت المحكمة العليا في الولايات المتحدة عام ١٩٧١، دون إبداء الرأى فى دستورية مطلب أن تحمل الزوجة اسم زوجها إلا إذا غيرته قانوناً إلى اسمها»^(٢). وفى ديسمبر من عام ١٩٧٦ رفضت المحكمة نظر اعتراض لمطلب ولاية كنتاكي أن تستخدم المرأة المتزوجة اسم زوجها عند تقدمها للحصول على رخصة قيادة. وطبقاً لمحكمة الولاية، فإن التمييز كان مؤسساً لا على أساس الجنس، بل على الحالة العائلية أو الزوجية، وعلى هذا فإنها لا تحمل تمييزاً أو تفرقة. ولقد وجد سبعة أعضاء من المحكمة العليا هذه الحجة معقولة.

جرى تطبيق مبدأ خضوع المرأة لعصمة الرجل فى أشد أشكاله تطرفاً - على نحو يمس الحقوق الدستورية للنساء - وذلك بالإنكار الواضح لشخصية المرأة (أو أهليتها لأن تكون شخصاً) - إنكاراً صريحاً - وكما أن فلاسفة من أمثال أرسطو وروسو لم يجدوا تناقضاً بين الحديث عن «البشر» أو «البشرية». وبين إقصاء جميع النساء خارج مجال رؤيتهم - فإن هذا الاتجاه ذاته نلمسه فى عدد من الدعاوى المهمة التى سبقت فيها دفوع قضائية تعبر عنه صراحة ؛ فقد رفعت دعوى أمام المحكمة العليا بالولايات المتحدة فى تسعينيات القرن التاسع عشر، بشأن حرمان

(١) انظر التعليقات القادمة لأمثلة أخرى.

(٢) فوربوش ضد ولاس. ضاحية م. د بولاية الباما، عام ١٩٧١ - ٢٤١ اقتبس منه كانوفتس فى «دور

الجنسين فى القانون والمجتمع» ص ٥١٧ - ٥٢٠ .

ولاية فرجينيا لإحدى النساء من مزاوله المحاماة، على الرغم من أن الموضوع المتصل بموضوع الدعوى، كان الحديث فيه يدور حول «أشخاص». وقالت المحكمة: «إن المحكمة العليا بولاية فرجينيا هي بالفعل الفيصل في تقرير هل كلمة «شخص» (الواردة في نص القانون) تقتصر على الذكور أم لا، وتقرير هل يسمح للنساء بمزاولة مهنة المحاماة أم لا في تلك الولاية...»^(١). وظلت تلك القضية - هل يجب أن تفهم كلمة «أشخاص» على أنها تتضمن النساء أيضاً أم لا؟ - مطروحة إلى ما بعد مطلع القرن العشرين. ونلمس نفس الموقف المتشكك في دعوى رفعت في ولاية ماسوسيتش في عام ١٩٣١. ففي هذه الولاية أنكرت أهلية النساء للانضمام إلى هيئة المحلفين، على الرغم من أن القانون كان ينص على أن «كل شخص يحق له الانتخاب» يحق له الانضمام إلى هيئة المحلفين.

وأكدت المحكمة العليا بولاية ماسوسيتش أنه «لا يصح أن يستنتج من حذف كلمة ذكر أن هناك نية لضم النساء...»^(٢) يبدو إذن أنه لأغراض تشريعية، وكذلك أيضاً بالنسبة للفلسفة السياسية، أن النساء لا يُنظر إليهن بالمرّة على أنهن أشخاص.

وعلى الرغم من أن المحاكم ظلت تلجأ من آن لآخر إلى الفكرة القائلة بأن النساء لسن بالضرورة أشخاصاً، فإن التجاءها إلى ذلك لم يكن الوسيلة الرئيسية للتأكيد على دستورية التمييز بين الجنسين أمام القانون. فكما سنرى فيما بعد، اعتمد القضاة، من القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر - في تبريرهم للتمييز بين الجنسين في نظر القانون على نفس الطريقة الوظيفية في التفكير بشأن النساء وبشأن «الطبيعة» النسائية التي وجدناها شائعة في الفكر السياسي. وهناك مثال مبكر هو قضية «ميرا بردويل» التي رفض الترخيص لها عام ١٨٧٢ بمزاولة مهنة المحاماة في ولاية «النيوي»... فلجأت إلى المحكمة العليا في الولايات المتحدة على

(١) لوكوند ١٥٤ الولايات المتحدة ١١٦ (والتشديد من عندي).

(٢) الدولة ضد ويلوسكى ٢٧٦ ما س . ٢٩٨ الولايات المتحدة ٦٨٤ (١٩٣٢).

أساس المادة الرابعة عشرة المعدلة بما لها من مزايا وحصانة، وصدر الحكم ضد «برديويل» وفي حضور ثلاثة مستشارين بناء على الحجة الآتية:

«لا يمكن التأكيد - يقيناً - كواقعة تاريخية (أن حق الانخراط فى أى عمل أو مهنة أو وظيفة فى الحياة المدنية) يتقرر كمزايا أو حصانة أساسية للجنس. فالقانون المدنى - على العكس مثله مثل الطبيعة ذاتها - يعترف دائماً بفروق واسعة فى المجالات الخاصة - وكذلك فى مصير كل من الرجل والمرأة.. فمن الواضح أن الخجل والتهيب ورقة المشاعر التى تخص جنس الأنثى لا تجعلها صالحة لكثير من الوظائف فى الحياة المدنية. إن تكوين منظمة الأسرة الذى يقوم على أساس الشريعة الإلهية، بقدر ما يقوم على طبيعة الأشياء، يشير إلى مجال الخدمة المنزلية بوصفه المجال الذى يناسب وظائف النساء. إن الانسجام - دع عنك وحدة المصالح والآراء التى تخص أو ينبغى أن تخص مؤسسة الأسرة، تنفر من فكرة تمايز مهنة المرأة واستقلالها عن زوجها»^(١).

والتجاء القضاء إلى سلطة «الشريعة الإلهية»، وطبيعة الأسرة، أو طبيعة النساء. كان ظاهرة من ظواهر القرن التاسع عشر أكثر منها ظاهرة فى القرن العشرين - رغم أنها لم تختلف تماماً^(٢). وهناك سمتان أخريان بارزتان فى هذه الحجة، تظهر، وتعاود الظهور فى الآراء القضائية حتى يومنا الراهن. فهناك الطريقتان نفسيهما فى التفكير عن النساء، واللذان بيّتا سيطرتهما على قسط كبير من التاريخ فى ثقافتنا:

(١) برديويل ضد الولاية ٨٣ الولايات المتحدة (١٦) ١٣٠ عام ١٨٧٢. وكان تعبير «الجنس» شائعاً،

ومستنكر بوضوح، أسلوب القرن التاسع عشر فى الإشارة إلى جنس الأنثى.

(٢) سنشهد بالخالق كسلطة حديثاً عام ١٩٧٠ فى محكمة أوريجون للاستئناف «لقد اهتم الخالق بتصنيف

الرجال والنساء على نحو مختلف». وتذهب المحكمة إلى أنه «إذا كان التشريع يقبل هذه الفروق فى

أمور كهذه، فنحن لسنا على استعداد لأن نقول إن التصنيفات المعمول بها ليست بدون مبرر جيد...».

الدولة ضد بيركب ٤٦٣. وفى نفس التيار ينظر «سنتور سام ارفن» إلى تعديل حقوق المساواة على أنه

محاولة «لإبطال ما صنعه يد الرب» اقتبس كانونفتس فى كتاب «أنوار الجنس فى القانون والمجتمع»

ص ٤٥ .

أولاً: الأسرة التي يرأسها ذكر، من الطبيعي إذ لم يكن منصوباً عليه في الشريعة الإلهية أن وظيفة المرأة ومجالها الأعمال المنزلية. إن وحدة الأسرة لا بد أن تكتب لها السيادة على الحقوق المحتملة للمرأة كفرد، والمطالبة بأنه ليس لها مهنة منفصلة أو وجود منفصل خارج نطاق المجال الخاص.

ثانياً: هنا كما هي الحال مع أرسطو وروسو، هناك هوية مفترضة بين ما يعرف بأنه مجال المرأة أو وظيفتها وطبيعتها؛ إنه بصفة خاصة «مجال المرأة ومصيرها» الذي يشار إلى «الطبيعة، والخجل والتهيب ورقة المشاعر» التي يفترض أنها تعوقها عن عمل أي شيء خارج هذا المجال حتى لا نتساءل: ماذا عن المرأة التي اختارت أن لا تتزوج. إن المستشار برادلي صاحب الفكرة لا يجيب فقط بأنها استثناء، بل إن النساء **ينبغي** أن يتزوجن «أعلى مصير وأسمى رسالة للمرأة هي أن تحقق الوظائف النبيلة الحميدة للزوجة والزوج، فذلك هو قانون الخالق..»^(١). وهكذا نجد أن الطبيعة والخالق هنا قد قدرا تنظيم الأسرة، وحاجات الأسرة لا تملأ فقط لا فقط كل نور للمرأة، بل طبيعتها كذلك.

تلك هي مع استثناءات طفيفة - قضية ماسوشست - التي لاحظناها فيما سبق - فلم تذهب في هذا القرن إلى أنه لا يوجد أدنى شك في أن كلمة «الأشخاص» تشمل النساء، أو أن التعديل الرابع والخامس لا يمكن انطباقهما من حيث المبدأ على جنس الأنثى. ومع ذلك فإن ما حدث هو انطباق معيار أقل دقة بكثير في نظرة القضاء على التفرقة والتمييز على أساس الجنس أكثر مما طُبِّق لعشرات السنين من التفرقة على أسس أخرى مثل العرق، والجنس الغريب، والأصل القومي. وعلى الرغم من أن التعديل الرابع عشر كان من الواضح منه منع الفروض التعسفية على بعض الناس - أصلاً السود - يُعفى منها الآخرون بحكم القانون، فإن المحكمة العليا قررت أن «الدستور ليس بحاجة إلى أمور مختلفة في الواقع أو في الرأي ليعالجها القانون

(١) ٨٤ الولايات المتحدة ١٣٠ ، ١٤١ .

كما لو كانت نفس الشيء»^(١). غير أنه في مجال مثير للجدال كالاختلافات بين الرجل والمرأة، التمايز القانوني الذي له ما يبرره بينهما، هذه القاعدة العامة ضئيلة النفع. كما ذهب المستشار برادلي وبرهنت آراء كثيرة تالية أن «وقائع» وآراء بعض المستشارين الذكور حول الخلافات بين الجنسين كانت تسمح في النهاية بأي درجة بينهما من التفرقة القانونية.

معياران متمايزان للنظرة القضائية تطورا وتقرر بناء عليهما ما إذا كانت القوانين التي تفرق بين فئات الأشخاص تُعدُّ خرقاً للمسارات الواجبة. أو لبُنود المساواة في الدستور^(٢). والمعيار الأكثر دقة (والذي ظهر لأول مرة في قضية «كورماتسو» ضد الولايات المتحدة) «الذي خضع فيها التشريع لتدقيقات صارمة» قد طُبِّق على قضايا سواء أكان فيها الحق الأساسي قائماً (مثل حق الحرية الدينية، أو الاجتماع، أو حقوق التنقل، أو التصويت أو أن يكون له أطفال أو عمل) أو كان تصنيف التشريع المطعون فيه قد اعتبر «في ذاته محل شك» (أصلاً: العرف، وفي الوقت الحاضر الأجنبي الدخيل، الأصل القومي أو الفقر) وفي أمثال هذه الحالات فإن المدافعين عن القانون المشار إليه يحملون «عبئاً ثقيلاً من التبرير»؛ فلا بد لهم أن يبينوا المبررات الاضطرارية لهذه التفرقة أو التمييز التي سوف تتفرد من الناحية الدستورية «فقط إن كان ذلك ضرورياً ولا ترتبط عقلياً فحسب بإتمام السياسة

(١) تبخر ضد تكساس ١٤١، ١٤٧ .

(٢) من أجل مناقشة موجزة لهذه النقطة انظر «تعديل حقوق المساواة» ٨٧٩ - ٨٨٠، دي كرو «العدالة بين الجنسين» ص ٢٨ - ٢٩ . جنسبرج «الجوانب الدستورية للتفرقة القائمة على أساس الجنس» ص ٦٢ - ٦٣ . استشهد بها في «ريد ضد ريد» وكانوفتس في «أنوار الجنسين» ص ٤٨٦ والاستشهاد في هذه الفترة من قضايا أساسية نوقشت في هذه المصادر: - كورما تسو ضد الولايات المتحدة ٣٢٣ . الولايات المتحدة ٢١٤ و ٢١٦ (عام ١٩٤٤) ماكلوفلين ضد فلوريدا ٣٧٩ الولايات المتحدة ١٨٤ و ١٨٦ (عام ١٩٦٥). «ولفنج ضد فرجينيا» ٢٨٨ الولايات المتحدة ١، ١١ (عام ١٩٦٧). وأنا مدينة لصامويل كيرسلوف لتوضيح هذه النقطة لي.

المسموح بها للولاية. وفي جميع الحالات الأخرى التي يطعن فيها على التشريعات على أساس أنها تنتهك المسار الواجب أو حقوق الحماية المتساوية فإنه يطبق معيار «التصنيف المعقول». ويقع العبء في هذه الحالة على عاتق الطاعن على التشريع أن يبين أن التصنيف المطعون فيه متعسف ولا يرتبط ارتباطاً معقولاً، بأغراض التشريع. «التفرقة التي تثير الضغائن» هي وحدها - أو التصنيف الذي يتضح تعسفه تماماً، والذي ينقصه على نحو مطلق «التبرير العقلي» هو الذي يعلن عدم دستوريته. وتحت هذا المعيار الأقل دقة فإن مواد التفرقة والتمييز في قانون الولاية لن توضع جانباً لو أن الوقائع كانت تتصور تبريرها بطريقة معقولة.

وهذا المعيار الثاني هو الذي ظل مطبقاً باتساق - حتى عام ١٩٧٠ في حالات التفرقة التي تقوم على أساس الجنس. وطالما أن الجنس لم يؤخذ على أنه تصنيف «محل شبهة» فإنه يقع على الطاعن العبء في أن يبين أن كل تمايز قانوني بين الرجال والنساء يثير الأحقاد والضغائن، ومن الواضح تماماً تعسفه. والواقع أنه لم يحدث كسب أية قضية على هذه الأسس في المحكمة العليا في الولايات المتحدة حتى عام ١٩٧١. وفضلاً عن ذلك فإننا عندما نعود إلى العوائق القانونية التي وجدت المحكمة أنها «ترتبط ارتباطاً معقولاً» بالفروق بين الجنسين، فإننا نجد أنه على الرغم من أنها تعرض بطريقة خافية بصفة عامة - أن الموضوعات الأساسية نفسها والمبتسرات التي عبر عنها برادلي عام ١٨٧٢ والتي سبق أن رأينا في هذه الدراسة أنه قد عبر عنها بعض كبار الفلاسفة في الحضارة الغربية. وهكذا نجد أنه في الحالات التي لا تكون فيها للفروق الفيزيائية بين الجنسين أية قيمة، فإن أحكام المحكمة العليا تصدر معلنة المسارات الحقة الواجبة والحماية المتساوية التي تتطلبها عقلانية معاملة الجنسين على نحو مختلف على اعتبار الوظيفة الخاصة للمرأة داخل الأسرة «وطبيعتها» المناظرة لها. بل أكثر من ذلك في حالات تتضمن الحقوق والواجبات التي اعترفت المحاكم بأنها أساسية ورئيسية مثل الخدمة في نظام

المحلفين، الإنجاب والعمل^(١) فإنه يطبق معياراً أقل دقة وتدقيقاً، وتتأيد التفرقة القانونية بين الجنسين.

إحدى القضايا الأولى التي تدرس بإفازة الموقف الدستوري للنساء كانت قضية «مولر ضد أوريجون»^(٢)، التي أقيمت عام ١٩٠٨ حول دستورية تشريع يقوم بحماية العاملات من النساء، في الوقت الذي كان فيه تشريع مماثل يُطبق على العاملين من الرجال، وقيل إنه غير دستوري، وهكذا فعلى الرغم من أن المحكمة قد حكمت قبل ذلك بثلاث سنوات أن تشريع حماية العامل بالنسبة للرجال ينتهك الحق الدستوري في حرية التعاقد^(٣)، فإن المحكمة في قضية «مولر» قد تأثرت تأثراً كبيراً بمختصر براديس الشهير - أقررت أنه ليس تعسفياً وغير معقول أن نسمح بساعات قصوى تسن بالنسبة للنساء. والمختصر ورأى المحكمة في هذه القضية لهما أهمية قصوى في الصراع المقبل من أجل حقوق متساوية للنساء أمام القانون. وكما قال «ليون كاتوفيتس»:

«المحكمة في قضية مولر لا تستطيع ببساطة أن تقاوم التعبير عن بعض الأفكار العتيقة عن تفوق الذكر. وعلى حين أن كلمات المستشار «بردير» في قضية «مولر ضد أوريجون» ترتفع إلى مستوى من الفطنة أعلى من ملاحظات المستشار

(١) في قضية «وايت ضد كروك» عام ١٩٦٦ قالت محكمة الضاحية «إن هيئة المحلفين من جانب مواطني الولايات المتحدة تعتبر في ظل قانون هذه البلاد إحدى الحقوق الأساسية وواجبات المواطنة» (٢٥١). ف ٤٠١). وفي قضية أيزنشتيتان ضد بيرد يكون للشخص الحق في أن يكون حراً من التدخل الحكومي غير المضمون في أمور تؤثر على هذا النحو في الشخص وفي قراره أن يحمل أو ينجب طفلاً « ٤٠٥ الولايات المتحدة ٤٢٨ و ٤٥٣ ». في عام ١٩١٥ أكدت المحكمة العليا القول بأن «حق العمل لأي كائن في الوظائف العامة في المجتمع هي جزء لا يتجزأ من ماهية حرية الشخص وفرصه تلك التي كانت الهدف من تعديل المادة الرابعة عشرة لضمانها» ترواكس ضد راين ٢٢٩ - الولايات المتحدة ٢٢ و ٤١ .

(٢) ٢٠٨ الولايات المتحدة ٤١٢ .

(٣) لوشنر ضد نيويورك ١٩٨ الولايات المتحدة ٤٥ لعام ١٩٠٥ .

برادلى فى قضية برادويل، فقد كان عليها أن تواصل إفساد التقاضى الدستورى التالى فى رقعة عريضة من قوانين التفرقة المبنية على أساس الجنس»^(١).

وكان للحكم فى قضية «مولر ضد أوريجون» فى النهاية مغزى إيجابى هائل نضال حركة العمل من أجل الحقوق. غير أنه يبدو واضحاً - تراجعياً - أن العمال الذكور كانوا - وما زالوا - فى وضع مماثل منصف من اللامساواة من حيث علاقتهم بالموظفين مثل العاملات من النساء ، وأن التنظيمات القانونية لساعات العمل وظروف كلا الجنسين ليست على الإطلاق قيوداً غير مقبولة على حرية التعاقد. ولم تعترف المحكمة العليا بهذا المبدأ الأوسع حتى عام ١٩٣٧ . «فى عام ١٩٠٨ كان على حجة التشريع من أجل حماية النساء أن تركز على الدعوى بأن الفروق بين الجنسين تجعلها معقولة بالنسبة لقضية النساء، بينما تجعلها انتهاكاً للحرية فى حالة الرجال. «برانديز» بعد عرض قدر كبير من الدلائل والشواهد على أوضاع العمل عند النساء وتنظيمها فى بلادنا تذهب إلى أنه أ) التنظيم الفزيقى للمرأة. ب) وظيفتها فى الأمومة. ج) صيانة المنزل. هى كلها مهمة جداً لدرجة أن الحاجة إلى مثل هذا الخفض [لساعات العمل] تصعب مناقشتها»^(٢). وهنا تستطيع أن ترى فى الحال اختلاط الفروق الفزيقية (الجسدية) بين الجنسين مع أنوارهما التقليدية، مبنية على الزعم لا فقط على أن جميع النساء هن زوجات وأمهات - وإنما على أن الدور المناسب والسائد لها فى الحياة هو نور مربية الطفل ومدبرة المنزل. وبمعنى ما، بالطبع، فإن هذا عرض معقول تماماً لما تفعله معظم النساء معظم الوقت ولما يظنونه فى أنفسهم. غير أنه لو أن براديز^(٣) رأى فعلاً أن هذا الدور للنساء هو الدور الأساسى والجوهري لرخاء المجتمع، فسوف يبدو غريباً أنه لم يسأل لماذا تجبر بعض النساء - بحكم الضرورة - على العمل عشر ساعات فى اليوم فى المغسلة؟ وهو ما كان قد سمح به الحكم، ومن الواضح أن حجة نور المرأة فى الأمومة وأعمال

(١) النساء والقانون ص ١٥٢ .

(٢) مقتبس فى كتاب جنسبرج ص ١٢ - ١٣ حاشية ١ .

(٣) المختصر كان بالفعل إلى حد كبير من عمل «جوزفين جولد مارك».

المنزل لا تؤخذ إلى نتائجها المنطقية. وعندما نفعل ذلك فإننا نحرم أصحاب العمل من الحصول على مصدر رخيص للعمل. لكن كيف يُنظر إلى ذلك الجنس على أنه أرق وأشد خجلاً من مزاولة مهنة القانون في حين أننا نتخيل أنه قادر على العمل عشر ساعات يومياً في مغسلة تجارية؟!!

في رأى المحكمة - كما هو في المختصر - أن الفروق الجسدية بين النساء والرجال قد اندمجت مع «وظائفها المناسبة». «القول بأن البنية الجسدية للمرأة وإنجاز وظائف الأمومة يجعلها توضع في مركز سيئ في الصراع من أجل الوجود فذلك أمر واضح»^(١). ادعت المحكمة أنها معقولة بطريقة مضادة للتاريخ تماماً، ولم تشر إلى واقعة أنها ليست رقيقة في طبيعتها، لكن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بصفة خاصة هي التي تحدد ما إذا كانت تربية الطفل وتدبير المنزل يضعان من يمارسهما في وضع سيء؛ أو ما إذا كانت تعتبر جوانب ذات قيمة للإنتاج الاجتماعي والذي ينال بالتالي مكافأة. وفضلاً عن ذلك فالأمر ليس من أجل خاطر النساء وحدهن بل بسبب «صحة الأمهات التي هي أساسية لنسل قوي». «إن تمام الصحة الجسدية للمرأة يصبح موضوعاً للاهتمامات العامة والرعاية، وذلك للمحافظة على قوة وسلامة الجنس البشرى...»^(٢) في كل جزء من هذا الرأي نجد جمعاً بين «الفروق الداخلية بين الجنسين» مع الوظائف المختلفة وللحياة التي يقومون بها» مما أدى إلى النتيجة التي انتهت إليها المحكمة - وهي بالغة الأهمية لمستقبل الالتجاء إلى القضاء. إن المرأة هي «إذا ما وضعت وصفاً سليماً في طبقة من نفسها» وأن الجنس - من ثم هو الأساس المعقول الذي له ما يبرره في التصنيفات التشريعية. ومن الواضح أن المحكمة لم تحصر نفسها في السؤال: ماذا تشبه - أو ماذا تعنى - النساء؟» بل سألت بالأحرى تماماً مثلما فعل أرسطو وروسو: «من أجل ماذا تكون النساء؟»

(١) ٢٠٨ الولايات المتحدة ٤١٢ ، ٤٢١ .

(٢) ٢٠٨ الولايات المتحدة ٤١١ ، ٤١٢ .

وبالإضافة إلى ذلك فإن المحكمة زعمت الزعم الكبير وهو أنه حتى إذا ما مُنحت النساء الحقوق المتساوية كاملة، فسوف يظل اعتمادهن على الرجال وحمائتهن، لأن: «التاريخ يكشف واقعة أن المرأة كانت بصفة مستمرة معتمدة على الرجل. ولقد أقام سيطرته عليها في البداية على أساس تفوقه في القوة البدنية. ولقد استمرت سيطرته حتى الآن بأشكال مختلفة وبشدة أقل. وعلى الرغم من أن القيود على الحقوق الشخصية والتعاقدية قد أزالها القانون فما زال في استعدادها وعادات حياتها ما سوف يعمل ضد الإقرار التام لهذه الحقوق. وسوف تظل موجودة (هكذا) حيثما يكون هناك تشريع لحمايتها يبدو ضرورياً ليكفل المساواة التامة في الحقوق. ولا شك أن هناك استثناءات فردية، وهناك زوايا كثيرة لها فيها مزايا تفوق الرجل، لكننا إذا نظرنا إليها من منظور الجهد الذي يُبذل لتأكيد موقف مستقل في الحياة فإنها لن تكون في وضع المساواة. فإذا ما افترقت بواسطة هذه الأمور عن الجنس الآخر، فقد وضعت نفسها بطريقة مناسبة في طبقة بواسطة نفسها...»^(١).

أولاً: إن الاعتماد على التفوق البدني للرجل كحقيقة كلية وأهمية ثابتة، يتجاهل واقعة أنه في أوائل القرن العشرين تناقضت أهمية القوة البدنية بشكل هائل بسبب تقدم التكنولوجيا.

ثانياً: الحجة تنطوي على زعم يقول إنه ليس فقط الدونية البدنية للمرأة، بل أيضاً «استعدادها، وعادات حياتها» هي خصائص ثابتة مستقلة عن سيطرة المؤسسات الذكورية التي نشأت فيها نشأة اجتماعية وتعيش حياتها في حين أن «التاريخ»، تفوق القوة البدنية للرجل «واستعداد المرأة وعادات حياتها» يحل محلها صراحة الالتجاء إلى «قانون الطبيعة»، والاستدلال هنا هو أساساً استدلال روسو. ويدرك اعتماد النساء اقتصادياً على الرجال على أنه لا يرتبط بالضرورة بقيم ومعايير ببنى اقتصادية واجتماعية معينة. والنتيجة هي أن المساوىء الاجتماعى

(١) ٢٠٨ الولايات المتحدة ٤١٢ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ .

والاقتصادية التي تعاني منها النساء ينظر لها على أنها من نفس نوع المساويء أو أنها من الطبيعي أن تكون مصاحباً لها، اختلافاتهن عن الرجال، بدلاً من التعرف عليها على أنها نتائج مجتمع بطرياركى (أبوى) استغلالي.

فى حين أنه لا شك فى أن تشريع العمل الوقائى لكلا الجنسين ضرورى، وكانت تكفله بصفة خاصة ظروف العمل فى أوائل القرن العشرين، إن تشريع العمل الوقائى المقتصر فقط على النساء كانت له نتائج استمرار أسطورة أن النساء لسن فعلاً أعضاء فى قوة العمل بنفس المعنى الجاد الذى يكون فيه الرجال كذلك. ولقد استمرت هيراركية اجتماعية واقتصادية وضعت فيها النساء بطريقة مبتسرة. ومما له مغزى أن المحكمة العليا فى الولايات المتحدة نفسها قد أدركت فى الآونة الأخيرة نتائجها المزوجة، الرأى الذى أكدته المحكمة العليا فى عام ١٩٧٣ «أن التمييزات بين الجنسين التى ينص عليها القانون كثيراً ما تكون لها نتيجة تثير الحقد وهى الهبوط بطبقة الأنثى بأسرها إلى وضع قانونى أدنى بغض النظر عن القدرات الفعلية لأعضائها الفرديين..» إن التفرقة بين الجنسين الرأى المعترف به، قد برره اتجاه أو موقف «أبوى رومانسى» «يضع النساء من الناحية العملية، لا على قاعدة تمثال بل فى قفص...»^(١).

وهذا التنوير حديث جداً وجزئى، ولفترة طويلة كان رأى «مولر» بالغ الأهمية من حيث إنه سابقة. والواقع - كما قرر كانوفتس - «أن الاعتماد التالى فى الأحكام القضائية على لغة «مولر» هو نموذج كلاسيكى على سوء استخدام السابقة وعلى التنويم المغناطيسى الذى تفرق فيه المحاكم المتأخرة، بسبب ما **قالت** المحاكم المتقدمة أكثر مما **فعلته**...»^(٢). لقد وجدوا أن الجنس أساس معقول للتصنيف سبق استخدامه، فى حماية مماثلة وفى سياق العمليات الواجبة، فى قضايا كان الجنس فيها أقل من أن تكون أساساً معقولاً للتصنيف عما كان عليه عند «مولر». فقد استخدم مثلاً لاستبعاد النساء من هيئة المحلفين ومن وظائف ليست القوة البدنية

(١) فرونتيرو ضد ريتشاردسن ٤١١ - الولايات المتحدة ٦٧٧، ٦٨٤ عام ١٩٧٣ .

(٢) النساء والقانون ص ١٥٤ .

فيها ضرورية، ومن كليات ثانوية في الولاية^(١). وحتى في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين أخذت المحكمة العليا في الولايات المتحدة وغيرها من المحاكم الكبرى بالتفرقة بين الجنسين على أنها «مبررة عقلياً» في قضايا من الواضح أنها لا تنطوي على اختلافات بدنية بين الجنسين.

ومثال جيد على سوء استخدام الزعم بأن التصنيف عن طريق الجنس معقول هو قضية عام ١٩٤٨ الذي طلب فيها من المحكمة العليا في الولايات المتحدة أن تحكم في دستورية «تشريع ميتشجان» الذي يقضى بحرمان النساء بصفة عامة من أن تكون نادلة (ساقية في حانة) بينما يستثنى في الوقت نفسه زوجات وبنات ملاك مؤسسات الخمور..^(٢). وكانت دعوى حقوق النساء في قضية «جوسرت ضد كليفرى»، مرفوعة أخيراً تحت بند الحماية المتساوية في المادة الرابعة عشرة المعدلة مباشرة.

وما تجدر ملاحظته هنا هو أنه حتى في قضية تنطوي على ما سبق أن اتخذت فيه المحكمة قراراً بوصفه حقاً أساسياً بناءً على المادة الرابعة عشرة المعدلة - وهو حق العمل، فقد كان التصنيف المعقول أكثر من مقياس «التدقيق الشديد» المستخدم وترك لمقدم الدعوى عبء إثبات أن التفرقة تعسفية. فقررت أنه ليس غير دستوري بالنسبة للولايات أن تستخلص «خطأ صارماً بين الجنسين» ومن ثم ففي استطاعتها لو شاعت أن تستبعد جميع النساء من العمل خلف القضبان، لكن ليس من غير المعقول أن يقوم تشريع ميتشجان بالاستثناء الذي قام به طالما أن وجود والد النادلة (ساقية البار) أو زوجها يقلل من «المخاطر» التي يمكن أن تواجهها في غير تلك الحالة^(٣). وأكثر من ذلك فقد قررت المحكمة على وجه الخصوص في مواجهة مباشرة مع استدلالها في قضية «براون ضد لائحة التعليم» بعد ذلك بست سنوات فحسب، «أن الدستور لا يحتاج تشريعات ليعكس البصيرة الاجتماعية أو لتغيير المعايير الاجتماعية أكثر من حاجته إليها لكي يبقى على المعايير العلمية

(١) موراي وايتوود «جين كرو و القانون» ٢٣٧ .

(٢) «جوسرت ضد كليفرى» ٢٣٥ الولايات المتحدة ٤٦٤ .

(٣) ٢٣٥ الولايات المتحدة ١٦٤ في ٤٦٦ .

الأخيرة جنباً إلى جنب»^(١). وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة هذا المنظور لدور النساء، وحقوق النساء قد تم إهماله في النهاية.

«الخط الفاصل الحاد بين الجنسين» الذي كان مسموحاً للمشرعين حتى وقت قريب جداً باستخلافه - لعب دوراً هاماً في دعم وضع النساء كطبقة ثانية في النظام الاجتماعي والاقتصادي، كما أنه أثر مباشرة - بالإضافة إلى ذلك - على الجدية التي نظرت بها النساء كمواطنات، كما أنه كان واضحاً كإمتحان موجز للرأي القضائي في القوانين مرتبطاً بهيئة المحلفين من النساء. وهنا أيضاً نستطيع أن نرى في قضية بعد قضية، أن تعريف النساء طبقاً لوظائفهن داخل الأسرة قد حصر حياتهن وحدد بقسوة المدى الذي يَكُنْ قادرات فيه أن يكن شريكات كاملات في المجال السياسي .

ولقد قررت المحكمة الفيدرالية عام ١٩٦٦: «أن هيئة المحلفين من جانب مواطني الولايات المتحدة تعتبر في حكم قانون هذا البلد، واحدة من الحقوق الأساسية وواجبات المواطنة...»^(٢) وفضلاً عن ذلك فإن فكرة استبعاد النساء من هيئة المحلفين هي علامة على النقص والدونية ترد على الأقل إلى عام ١٨٧٩ عندما قررت المحكمة العليا:

«إن واقعة أن السود قد انفربوا بأن أنكر التشريع صراحة كل حق لهم في المشاركة في تنفيذ القوانين، كمحلفين، بسبب لونهم رغم أنهم مواطنون، ورغم أنهم قد يكونون من جوانب أخرى أكفاء تماماً - يعد من الناحية العملية وصمة ألحقها بهم القانون ليؤكد بونيتهم، وحافزاً لذلك الحقد العنصري الذي كان عائقاً لكي يضمن لأفراد هذا الجنس عدالة المساواة التي استهدف القانون ضمانها للآخرين جميعاً...»^(٣).

ومن سخریات القدر أنه في هذا القرار نفسه أن المحكمة أكدت صراحة حق الولاية في أن تحصر هيئة المحلفين في نطاق الذكور. ومن الواضح أنه لم يدهشهم

(١) ٣٣٥ الولايات المتحدة ٤٦٤ في ٤٦٦ .

(٢) «وايت ضد كروك» ٥١، و ٤٠١ عام ١٩٦٦ .

(٣) سترونر ضد فرجينيا الغربية ١٠٠ الولايات المتحدة ٣٠٣ .

ذلك كأمر مهم - إن كان قد أدهشهم على الإطلاق، أن الوصمة والإجحاف المرتبط بإنكار مثل هذا الحق الأساسى تعانى منه النساء جميعاً على نحو ما يعانى منه الرجال السود.

فى القرن العشرين فحسب، وفى قضايا كثيرة بعد أن نالت النساء حق الاقتراع بفترة طويلة، سمح لهن جميعاً بالدخول فى هيئة المحلفين، وإن كن فى كثير من نوائر الاختصاص، لا يزال لا يسمح لهن بالخدمة فيها مثل الرجال. وكانت ولاية مسيسبى هى آخر ولاية فى عام ١٩٦٨ أبطلت من قوانينها استبعاد النساء من هيئة المحلفين. وقيل ذلك بسنتين - الأعذار الأبدية - رقة النساء ووظائفهن المنزلية - كان يستشهد بها للبرهنة على معقولية استبعادهن من حق المواطنة. وقررت المحكمة العليا فى «ولاية مسيسبى» أن للمشرع الحق فى استبعاد النساء، ومن ثم فلهن الحق فى تكوين هيئة كأمهات وزوجات ومدبرات للمنزل، وكذلك لحمايتهن (وببعض الطرق لا يزلن على قاعدة التمثال) من البذاءة والفحش، والجو الضار الذى كثيراً ما ينتشر فى قاعة المحكمة أثناء انعقاد جلسة المحلفين»^(١). غير أن مناخ الرأى قد تغير. وفى نفس السنة حكمت المحكمة الفدرالية بعدم دستورية تشريع مماثل فى «ولاية ألباما» - وقررت أنه كان «... تعسفاً فى ظل الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية الحديثة...»^(٢). وبالتالي انتهاكاً لبند الحماية المتساوية.

ولم يحدث إلا منذ وقت قريب أن أعلن - وببطء - عدم دستورية الاستثناءات على أساس الجنس. ولا بد فى هذا السياق أن نتذكر أن الاستبعاد التلقائى لفئة من الأشخاص من هيئة المحلفين يساوى من الناحية العملية استبعاداً فعلياً. وكان هناك فى مسألة الاستبعاد التلقائى للنساء حكمان لنوعين من المحاكم العليا، فى عامى ١٩٦١ و ١٩٧٥ - اللذان يشيران إلى تغيرات جذرية بدأت تحدث فى وجهة نظر

(١) «الولاية ضد هال» (الأنسة) ١٨٧ وكذلك ٨٦١ (عام ١٩٦٦).

(٢) «وايت ضد كروك» ٢٥١ و ٤٠١ عام ١٩٦٦ .

المحكمة بشأن النساء. وهذا التغير يعنى على الأقل التنازل جزئياً عن الفكرة القائلة بأن النساء يمكن تعريفهن من الناحية الوظيفية - بدورهن داخل الأسرة. وبالتالي يمكن أن تكون هناك تفرقة قانونية. وفي عام ١٩٦١ فى قضية «هويت ضد فلوريدا» حكمت المحكمة بإجماع الآراء بتأييد تشريع فلوريدا الذى يمنح النساء استثناء مطلقاً من العمل فى هيئة المحلفين ما لم يقمن صراحة بالتطوع لهذا العمل^(١). وقد جاء فى الحكم: «إننا بالطبع نعترف أن المادة الرابعة عشرة المعدلة لم تصل فقط إلى الاستثناءات التعسفية لطبقة ما المبنية على أساس العرق أو اللون، من العمل فى هيئة المحلفين، بل أيضاً إلى جميع الاستثناءات الأخرى التى تفرز أو تبعد «أى طبقة أو فئة من الأشخاص بسبب معاملات مختلفة لا تقوم على أية تصنيفات

(١) هيئة المحلفين ليست واجباً ضئلاً بحيث يترك للتطوع، ولم تكن الظروف والمكافأة المالية تشجع على المشاركة التطوعية من جانب أولئك الذين ليسوا مسئولين قانونياً. ومن الواضح أنه لو أن امرأة كان لديها مسئولية رعاية أطفال صغار أو لديها وظيفة تعمل فيها، فإنه لن يكون هناك تعويض بالنسبة لها للوقت الذى تقضيه فى هيئة المحلفين، ولذلك فلا يحتمل أن تتطوع لمثل هذا العمل. وتكون النتيجة أن نسبة النساء فى كثير من هيئات المحلفين ستكون ضئيلة من حيث نسبة عدد النساء إلى عدد السكان. (انظر كويلون «مناظير دستورية» ٥) . فإذا سلمنا بذلك كان من المهم أن تلاحظ «التفكير المزدوج» غير العادى لقاضى محكمة ولاية نيويورك الذى قال فى رده على الطعن فى استبعاد الولاية التلقائى عام ١٩٧٠ من هيئة المحلفين - قال لمقدمة الدعوى الأنثى «أنت فى المنبر الخطأ» إن أردت رفع الحيف، وأن عليها أن تتوجه بالخطاب إلى «المادة التاسعة عشرة المعدلة» عن النساء التى تفضل: النظافة، والطبخ، ورعاية الأطفال، والمسلسلات التلفزيونية، ولعب الورق، والألعاب المنزلية الأخرى، والتسوق، بدلاً من أن تدخل نفسها فى شبك التقاضى. (ديكوسنكو ضد برانت ٣١٢، ولاية نيويورك ٨٢٧، ٨٣٠ عام ١٩٧٠). وهذا القاضى نفسه قبل ذلك بأربع سنوات قد أخذ بتشريع اعتبره «معقولاً» يقضى بأن يكون للمدرسين مرتبات كاملة للذكور لكن ليس للمدرسين من النساء، على أساس أن النساء يمكن أن يتجنبن ممارسة هيئة المحلفين وواجباتها عن طريق الاستثناء! (جولد بلات ضد لائحة التعليم ولاية نيويورك ٥٥٠ عام ١٩٦٦) . وأنا مدينة إلى روث جنسبرج بهذا المثال انظر «الجوانب الدستورية فى التفرقة القائمة على أساس الجنس» ص ٥٢ .

معقولة»^(١). غير أنه قيل عندئذ أن الاستبعاد القانوني للنساء لا ينتهك المادة الرابعة عشرة المعدلة. لحقوق النساء اللاتي استأنفن الدعوى (اللائي اقتنعن بواسطة المحلفين الذكور لأن يكن الدرجة الثانية بالنسبة لأزواجهن) لأنها في الواقع «تقوم على أساس (أ) تصنيف معقول». إن عقدة حكم المحكمة يكمن في العبارة الآتية:

«بالرغم من التحرر المستتير للنساء من قيود وحماية السنوات الماضية، ودخولهن إلى مناطق كثيرة من الحياة الاجتماعية من التي كان يُنظر إليها في السابق على أنها محجوزة للرجال، فما زال ينظر للنساء على أنهن مركز المنزل والحياة الأسرية. ولسنا نستطيع القول بأنه من غير المسموح به - دستورياً - للولاية، التي تعمل من أجل الصالح العام، أن تستنتج من ذلك أن المرأة ينبغي أن تُعفى من الواجب المدني في العمل في هيئة المحلفين ما لم تقرر هي بنفسها أن هذه الخدمة تتفق مع مسئولياتها الخاصة...»^(٢).

ومن الواضح أن المحكمة العليا لا تزال تنظر في عام ١٩٦١ إلى واجبات النساء الخاصة في الأسرة على أن لها الأولوية على خدماتها الأساسية كمواطنة. وفي وقت حديث - في عام ١٩٧٠ - أخذت المحكمة الفيدرالية باستبعاد النساء على أساس جنسهن وحده - من الناحية الدستورية. بناء على أن هذه التفرقة بين الجنسين «لها أساس معقول وسليم». وذهبت المحكمة مثلما ذهبت المحكمة العليا منذ ثماني سنوات خلت.

(١) قضية «هويت ضد فلوريدا» ٣٦٨ الولايات المتحدة ٥٧ (١٩٦١). قارن استدلال المحكمة عام ١٨٧٩ حول حقوق الحماية المتساوية التي رفعها مدّع أسود (تذكر أن القضية الأولى كانت استبعاداً مطلقاً وليس استبعاداً عملياً ناتجاً من نص إيجابي مستجل للقضية المطروحة..).

فكيف نقول إذن إن إجبار الرجل الأسود للخضوع لمحاكمة طوال حياته بواسطة محلف مأخوذ من هيئة استبعدت منها الولاية صراحة كل رجل من بني جنسه لسبب واحد هو لونه حتى ولو كان مؤهلاً تأهيلاً جيداً من جوانب أخرى؛ أليس في ذلك إنكاراً له من حماية المساواة القانونية؟ ستراوور ضد فرجينيا الغربية ١٠٠ الولايات المتحدة ٣٠٢، و ٣٠٩ .

(٢) «هويت ضد فلوريدا» ٣٦٨ الولايات المتحدة ٥٧ و ١٢٢ .

«إذا سلمنا أن بعض النساء يمتهن أعمالاً تجارية، فإن الغالبية العظمى منهن يشكن قلب المنزل حيث ينشغلن بأعماله طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم في إنجاب الأطفال وتربيتهم، وإعداد المنزل للأسرة بأسرها وإنجاز الأعمال المنزلية اليومية، وهذه الأعمال كلها تتطلب طاقتهن الكاملة. وعلى الرغم من أن بعض النساء يتشككن الآن في هذه الترتيبات، فإن تشريعات الولاية قد سمحت بالاستثناء حتى لا تغامر بتمزيق الوحدة الأساسية للأسرة؛ أن عملها أبعد ما يكون عن التعسف»^(١).

فمطلب أن تكون الزوجة والأم على الدوام مستعدة لرعاية الرجال والأطفال معاً واضحاً وصريحاً في هذه الفقرة؛ فالرسالة الواضحة هي أنه لا غناء عن النساء في المنزل، وليس ثمة تنظيمات أخرى بديلة يمكن تصورها لصحة الأسرة وراحتها ولو حتى مؤقتاً، لكن يمكن الاستغناء عنهن في قاعات المحاكم حيث العدالة لا تصح ولا تفسد، ولا تنتهك الحقوق، إذا ما واصل الرجال السيطرة على مجالات أنشطتهم التقليدية.

كانت مواقف النساء تتغير بسرعة - في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي، وكان على المحكمة العليا في النهاية أن تعكس هذا التغيير. في أوائل السبعينيات احتفظت ولاية واحدة باستبعاد النساء من العمل في هيئة المحلفين ما لم يعلن صراحة أنهن متطوعات. وفي عام ١٩٧٥ راجعت المحكمة العليا للولايات المتحدة هذا الموضوع، وأصدرت قراراً بمعارضة شخص واحد، هو في الواقع عكس حكمها في الأربع عشرة سنة السابقة. وفي قضية «تايلور ضد لوزيانا» ذهبت المحكمة إلى أن النصوص التي تستثنى بل في الواقع تستبعد النساء من هيئة المحلفين هي نصوص غير دستورية، ما دامت تخالف ما تطالب به المادة السادسة المعدلة من أن هيئة المحلفين لا بد أن تتشكل من قسم متقاطع منصف من المجتمع؛ ويتساءل الحكم «لو كانت فردة الحذاء في القدم الأخرى. فمن سيدعى أن المحلفين يمثلون المجتمع إذا إذا ما استبعد الرجل عمداً وبطريقة نسقية

(١) «ليتوت ضد جودمان» ٣١١، ١١٨١ و ١١٨٣ ولاية نيويورك عام ١٩٧٠.

من الهيئة؟»^(١). وعلى الرغم من أن المحكمة تنظر إلى حق المدعى في هيئة محلفين مناسبة هو حق أساسى «لا يمكن التغاضى عنه على أسس عقلية فحسب» فإن الحكم يعتبر معقولة استبعاد النساء - كما سُمح به فى قضية «هويت» - ورفضته «فإنه لا يمكن الدفاع عنه فى هذه الأيام» واستدلت المحكمة «أنه لا بد أن يكون مما يشق على كل امرأة أن تعدّ هيئة محلفين أو أن المجتمع لا يستطيع أن يوفر أية امرأة من واجباتها الحالية...»^(٢). وبصفة خاصة استشهد الاستئناف فى قضية «هويت» بوظيفة المرأة يوصفها «مركز المنزل والحياة الأسرية». ولقد لفتت المحكمة الانتباه فى قضية «تايلور» إلى واقعة أن الغالبية العظمى من النساء بين سن الثامنة عشر والرابعة والستين هن من القوى العاملة ويؤكد «أن هذه الإحصاءات ... من المؤكد أنها تبطل الاقتراح بأن جميع النساء وينبغى استبعادهن من العمل فى هيئة المحلفين يقوم فقط على أساس الجنس والدور المزعوم الذى تقوم به المرأة فى المنزل»^(٣). وهكذا حكمت المحكمة - على عكس الحكم فى قضية «هويت» بأنه:

«لم يعد من الممكن الدفاع عن الرأى القائل بأن النساء كطبقة يمكن استبعادهن أو تقديم استثناء تلقائى يقوم على أساس الجنس وحده إذا ما كانت النتيجة أن الأوامر القضائية باستدعاء المحلفين الجنائين هى كلها، فى الأعم الأغلب، للذكور... ولو كانت المسألة أن النساء غير مؤهلات للجلوس على مقاعد المحلفين، أو أنه لا أحد منهن مطلوب للعمل فى هيئة المحلفين، أن زمن ذلك قد ولى منذ فترة طويلة»^(٤). المغزى الإيجابى للحكم فى قضية «تايلور» أنه يهدم الفكرة التى تقول إن النساء كطبقة لا غنى عنهن فى مسئوليات الأعمال المنزلية، وأن دورهن

(١) «تايلور ضد لويديانا» ٤١٩ الولايات المتحدة ٥٢٢، ٥٢١ (عام ١٩٧٥). مقبتس فى «بالارد ضد الولايات المتحدة» ١٨٧ و ١٩٣ (عام ١٩٤٦).

(٢) تايلور فى ٥٢٤ .

(٣) تايلور فى ٥٢٤ حاشية ١٧ .

(٤) تايلور فى ٥٢٧ .

كمواطنات لابد باستمرار أن يسبق لورهن كزوجات وأمهات وقصوره - بما أنه يقوم على حقوق المدعى فى المادة السادسة المعدلة - ربما أنه لا يمكن تطبيقه فى حالات لا تؤدي فيها حالات التفرقة للنساء إلى أن يكُنَّ تحت الطلب فى الأوامر القضائية للاستدعاء إلى هيئة المحلفين. ومع ذلك فحتى فى مثل هذه الحالات، فإن الاستثناء المحض للنساء على أسس أخرى غير أسس الرجال، بمعزل عن نتائجها، تساوى الإعلان بأنهن أدنى أهمية فى المجال المدنى. وكما اعترفت المحكمة العليا منذ مائة سنة خلت، استبعاد فئة من المواطنين من هيئة المحلفين هو فى الواقع «حكم.. بالدونية». استبعاد فئة أو طبقة له - يقينا - بعض المضامين الخطيرة ذاتها.

من هذه الرواية عن التقاضى بالنسبة لواجبات النساء فى هيئة المحلفين وحدها، يتضح أن التغييرات ذات المغزى فى المواقف القضائية قد حدثت لكن منذ أوائل السبعينيات (١٩٧٠) فقط. وفى عام ١٩٧١ . راجع جونسون وناب - وهما أستاذان فى جامعة نيويورك - مجال ستة قوانين للتفرقة وقد قررا بحق:

«على وجه العموم فإن إنجاز القضاة الأمريكين فى ست مناطق للتفرقة يمكن أن يوصف بإيجاز بأنه غير كريم أو أنه مستهجن. فقد فشلوا - مع بعض الاستثناءات الملحوظة، فى أن يجلبوا إلى ست حالات تمييز مبنية على الجنس تلك الفضائل القضائية الخاصة بعدم التحيز، والتروى، والتحليل النقدى التى نفعتهم تماما فى قضايا اجتماعية أخرى حساسة.. إن التفرقة بين الجنسين وإصدار مزاعم لا مبرر لها (أو على الأقل لا سند لها) عن القدرات الفردية، والمصالح، والأهداف، والأنوار الاجتماعية على أساس الفروق الجنسية، وحدها - من السهل تمييزه فى الأحكام القضائية المعاصرة على أنه عنصرية قبل أى شىء آخر»^(١).

وفى مقال عن مراجعة قانونية أخرى عام ١٩٧١ ذهب المؤلفان إلى أن الحاجة إلى تعديل حقوق المساواة تشير إلى أنه منذ ذلك التاريخ لم تُظهر المحكمة العليا أية

(١) جونسون وناب: «التفرقة القائمة على أساس الجنس بواسطة القانون» ٦٧٦ .

دلائل على تطبيق معايير دقيقة تحسم حالات التفرقة بين الجنسين^(١). فلا شيء فى اللغة المستخدمة فى الحكم «تتبع.. نظرة القرن التاسع عشر إلى وضع النساء وظيفتهن فى المجتمع» وينتهيان إلى أنه إذا ما سلمنا بالتطبيق المحدود جدا للتعديلين الخامس والرابع عشر بالنسبة للنساء - فإن الطريقة الوحيدة لتأكيد التفرقة الجنسية المشروعة هى من خلال تعديل صريح يحرمها.

ولقد حدث تغير سريع منذ كتابة هذه المقالات فى النظرة القضائية لوضع النساء القانونى، ولا شك أنه حفزتها الحركة الجديدة المناصرة لقضية المرأة، وموافقة الكونجرس على تعديل حقوق المساواة. وفى عام ١٩٧١ فى حكم كان علامة مميزة، وجدت المحكمة العليا فى النهاية أن التفرقة القانونية بين الجنسين انتهاك لبند الحماية المتساوية فى المادة الرابعة عشرة المعدلة. وفى قضية «ريد ضد ريد» أبطلت تشريع «اداهو»^(٢) الذى كان يفضل تلقائيا الذكور على الإناث فى إدارة الشركة فى ظروف يتساوى فيها الجانبان من حيث علاقتهما بالمتوفى^(٣) فى حين أن محكمة «اداهو» قد أعلنت أن «الطبيعة ذاتها قد أقرت التمييز (بين الجنسين) وأن هذا التشريع لا يقصد به التفرقة وإنما تخفيف مشكلة حضور الجلسات»^(٤). ولقد قررت المحكمة العليا أن تشريع التفرقة لا يرضى حتى أقل قدر من معيار الحماية المتساوية. وكان القرار كما يلى:

«إعطاء تفضيل قضائى لأعضاء من أحد الجنسين على أعضاء من الجنس الآخر، فقط لاستكمال حذف الجلسات بموضوعية - يعنى الإقدام على نفس نوع الاختيار التشريعى التعسفى الذى حرّمته مادة الحماية المتساوية فى المادة الرابعة عشرة المعدلة؛ ومهما قيل من القيم الإيجابية لتجنب الخلافات داخل الأسرة، فإن

(١) براون «تعديل حقوق المساواة» ٨٨١ - ٨٨٢ .

(٢) «اداهو» ولاية فى شمال غرب الولايات المتحدة (المترجم).

(٣) قضية «ريد ضد ريد» ٤٠٤ الولايات المتحدة ٧١ (١٩٧١).

(٤) مقتبس من كتاب «جنسبرج» ص ٦١ - ٦٢ .

الاختيار فى هذا السياق ربما كان غير قانونى من الناحية القضائية إذا أقيم فقط على أساس الجنس...»^(١).

وعلى حين أن القرار فى هذه القضية يكشف لنا أن المحكمة لم تعد على استعداد للزعم بأن أية مصلحة للأسرة لها الأولوية تلقائياً على حقوق المرأة، وأنها على استعداد لأن تفرض معياراً أكثر دقة «للعلاقات المعقولة» أكثر مما كان فى الماضى، ولا يزال العبء يترك للمدعى البرهنة على أن التفرقة التى يقول بها التشريع غير معقولة.

أعظم تقدم باهر فى السبعينيات فى هذه المنطقة هو اعتراف بعض القضاة من المحكمة العليا أن الجنس، مثل العرق، والأصل القومى والغريب هو تصنيف «مشكوك فيه ذاتياً» ومن ثم فالشرائع التى تنطوى على تفرقة تقوم على الجنس لا يمكن أن تكون صحيحة بمعيار «التصنيف المعقول»، بل لا بدُّ أن تخضع لتدقيق بمعيار أشد دقة: هذه النظرية قد أقرتها لأول مرة المحكمة العليا فى كاليفورنيا عام ١٩٧١^(٢). ولقد ترددت حجتها إلى حد كبير، بعد ذلك بعامين، فى حكم أصدرته المحكمة العليا فى الولايات المتحدة بالأغلبية، ذهبت فيه إلى أن الجنس هو، فى الواقع، تصنيف مشكوك فيه. وفى قضية «فروننتيرنو ضد ريتشاردسن»^(٣). ضابطة من القوات الجوية طحنت فى دستورية المطلب الذى يطلب منها - لكى تدعى أن زوجها «تابع لها» [أو أنها تعوله] حتى يحصل على بعض المنافع - فإن عليها أن تثبت أنه معول لها بأكثر من نصف وسائل التعيش، فى حين أن الرجل فى الخدمة العسكرية يستطيع أن يدعى أن زوجته «معولة له» بغض النظر عن اعتمادها الفعلى عليه. وعلى حين أن ثمانية من القضاة وافقوا على أن مطلب التفرقة غير دستورى، بوصفه انتهاكاً لبند الحق الواجب، للمادة الخامسة المعدلة، نجد أن أربعة فقط من

(١) ريد فى ٧٦ - ٧٧ .

(٢) جان سيلر ضد كيربى (عام ١٩٧١).

(٣) «فروننتيرنو ضد ريتشاردسن» ٤١١ الولايات المتحدة ٦٧٧ (١٩٧٣).

القضاة انضموا لرأى المحكمة القائل بأن التصنيف بناء على الجنس «مشكوك فيه ذاتيا». وقد ذهبوا إلى أنه:

«طالما أن الجنس مثل العرق، والأصل القومي هو خاصية ثابتة تحدها فقط حادثة الميلاد، فإن فرض المعوقات الخاصة بالجنس سوف يبدو انتهاكا للمفهوم الأساسي لنظامنا القائل بأن الأعباء القانونية لا بد أن يكون لها علاقة ما بالمسئولية الفردية...» وأن التمايز بين الجنسين على أساس مثل هذه الحالات التي لا شك فيها مثل الذكاء، والإعاقة البدنية، يجعلها في صف واحد من المعايير المعترف بأنها مشكوك فيها هو أن الجنس خاصية كثيرا ما لا تكون لها أية علاقة بالقدرة على الإنجاز أو المساهمة في المجتمع. ونتيجة لذلك فإن التمييزات القانونية بين الجنسين كثيرا ما تكون لها نتيجة تثير الأحقاد عندما تهبط بطبقة الأنثى بأسرها إلى وضع قانونى أدنى، دون النظر إلى القدرات الفعلية للأعضاء الأفراد^(١).

إن الأسلوب الوظيفي في التفكير من النساء عند الأرسطيين وأتباع روسو - كما رأينا في الأحكام القضائية السابقة، يبدو هنا أنه يستبعد منظورا شبيها بمنظور أفلاطون في الكتاب الخامس من محاوره «الجمهورية». الاعتراف بأن جنس الشخص هو خاصية تحددت على نحو عارض ليس هو - أو هي - مسئولا عنها، وأنها كثيرا ما لا يكون لها أى علاقة بقدرات ذلك الشخص. أدى بغالبية المحكمة أن تقر، كما فعل أفلاطون، أن من يستطيع أن يفرق بين الجنسين، من أى جانب لا بد أن يتحمل عبء البرهان بأن هذه التفرقة لها ما يبررها.

غير أنه سيكون يقينا من الأحكام المبتسرة، أن نعلن استدلالاً وظيفيا عن النساء بواسطة أحكام قضائية منقرضة. على حين أنه ليس هنا المكان لتقديم تأريخ

(١) «فرونتيرو» في ٦٨٦. وهناك ضربة قوية وجهت إلى الرأى القضائي التقليدى عن جنس الأنثى في حكم للمحكمة العليا عام ١٩٧٥ الذى قرر بأغلبية الآراء وبصراحة «لم تعد الأنثى مخصصة للمنزل ورعاية الأسرة فحسب، والذكر فقط للأسواق وعالم الأفكار...» قضية «ستانتون ضد ستانتون ٤٢١» الولايات المتحدة ٧٠، فى ١٤ - ١٥ (عام ١٩٧٥).

حديث للوضع الدستوري الدقيق. لتشريعات التفرقة بين الجنسين^(١). فمن الأهمية أن نعترف أن الميل القديم لتقرير الحقوق القانونية للنساء بالتساؤل عما هي وظيفة المرأة لا يزال موجودا في بعض المحاكم العليا في صورة مقنعة، رغم أنه لا يوجد شيء كهذا في العن. هناك قراران صدرا في عام ١٩٧٤ و عام ١٩٧٦ يشيران إلى أن موضوع الحمل لا يزال من الموضوعات التي نجد أن الغالبية العظمى من أعضاء المحكمة العليا ليسوا على استعداد لمعاملة النساء فيها على أساس أنهن موجودات بشرية متساوية، فرغم الميول الحديثة عند الغالبية العظمى من أعضائها لنبد النظر الوظيفية العتيقة بالنسبة للنساء ودورهن «الطبيعي» داخل الأسرة. وكان الموضوع في القضيتين هو الوضع القانوني لبرامج تأمين إعاقة الموظف، وهو يستثنى بصفة عامة من الحصر الإعاقات المرتبطة بالحمل من مجال التغطية.

في قضية «جدولج ضد أيللو» - مع ثلاثة من المشتركين في وجهة النظر «التصنيف المشتبه فيه» التي لا تزال تقسم الجنس، فقد ذهبت المحكمة إلى أنه لما كان الحمل حالة بدنية موضوعية ذات خصائص فريدة، فإن التفرقة على أساس

(١) واجهت المحكمة العليا منذ وقت قريب عددا من القضايا الصعبة، التي اختبرت فيها التفرقة بين الجنسين ضد مركب الحماية المتساوية للمادة الخامسة المعدلة، أو ضد العنوان ولانحة الحقوق المدنية لسنة ١٩٦٤ انظر مثلا «كان ضد شفين ٤١٦ الولايات المتحدة ٢٥١. (عام ١٩٧٤) «شلزنجر ضد بالارد» ٤١٩ الولايات المتحدة ٤٩٨ (١٩٧٥). «كاليغانو ضد ويسترن» ٤٣٠ الولايات المتحدة ٣١٣. (١٩٧٧). لوس أنجلوس «قطاع الماء والقوى» ضد مانهارت، ٤٢٥ الولايات المتحدة ٧٠٢ (١٩٧٨). وقد انقسمت المحكمة حيال هذه القضايا. وبعض هذه القضايا حسمت بهامش ضئيل جدا، أما بالنسبة للقضاة المتعاطفين أكثر مع قضية المرأة، كان العامل الحاسم هو هل التفرقة المطروحة تقوم على تعميمات عتيقة ومنبوذة عن قضية النساء، أو الدور النمطي الذي فرضه المجتمع طوى لا على النساء...» أم أنها تخدم «الغرض المسموح به لكي يصلح المجتمع المعاملة الطويلة المتباينة للنساء». وليس ثمة شك في تحقيق إصدار قرارات متكافئة فيما يتعلق بالتفرقة القانونية المبرمجة بين الجنسين، في عالم فيه الكثير من النساء لا سيما العجائز شكل المجتمع حياتهن وتوقعات الحياة بطريقة ليس فيها مساواة. انظر «المحكمة العليا عام ١٩٧٤ - مجلة هارفارد للقانون» مجلد ٨٩ عدد ١ ص ٩٦ - ١٠٣ لدراسة نقدية لأحكام المحكمة في القضايا المبكرة.

الحمل لا تُعدّ تفرقة مبنية على أساس الجنس. ومن ثم فقد قررت المحكمة أن حالة برنامج التأمين للمعاقين الذي يستبعد الإعاقات المرتبطة بالحمل لا ينتهك المادة الرابعة عشرة المعدلة من بند الحماية المتساوية^(١). ولقد لاحظت كاترين بارلت وهي تراجع القضية أن حجة المحكمة بشأن تفرد الحمل، ضعيفة للغاية، طالما أن البرنامج يغطي «بالفعل كل حالة إعاقة أخرى.. بغض النظر عن حالتها الاختيارية، أو سلوكها المتوقع، أو تفرداها أو أنها حالة «اعتيادية مألوفة». والأمثلة الواضحة في مثل هذه الحالات هي التعقيم الاختياري، وأنيميا الخلايا المنجلية، وعمليات استئصال البروستاتا، وعمليات تغيير الجنس، والأضرار الناجمة عن الحوادث أثناء السكر^(٢). والواقع أن قرار المحكمة بُنى أساسا، على الحجة التي تقول إن قابلية تنفيذ البرنامج من الناحية المالية ستكون عرضة للخطر لأنها تشمل العجز الموجود في الحمل الطبيعي الذي يصعب فيما يبدو أن يكون مبررا مشروعاً في حالة تتعلق بالحق الأساسي للمواطنين في أن يعاملوا على قدم المساواة أمام القانون «وحقهم المدني الأساسي» في أن يحملن أطفالاً. لو أن شيئاً لا بد أن يتم استبعاده لدواعٍ اقتصادية، فلماذا يكون الحمل؟ كان جواب المحكمة غير مقنع:

«على حين أنه من الصواب أن نقول إن النساء وحدهن هن اللاتي يكن حوامل، فإنه لا ينجم عن ذلك أن كل تصنيف تشريعي بخصوص الحمل، هو تصنيف يُبنى على أساس الجنس كالحالات المتطورة في قضايا «ريد» فيما سبق، و«فرونتيرو» فيما سبق؛ فالحمل الطبيعي يمكن تعريفه بأنه حالة بدنية ذات خصائص فريدة..»^(٣).

وما يفترض أن تعنيه هذه الجملة الأخيرة الغامضة أبعد من أن يكون واضحاً. إذ يبدو من غير المعقول أن أقل ما يقال في الموضوع أنه بالنسبة للمحكمة التمييز بين الحمل وجميع الإعاقات الأخرى التي يشملها البرنامج على أساس إما

(١) «جدولج ضد أيللو» ٤١٧، الولايات المتحدة ٤٨٤ لسنة ١٩٧٤ .

(٢) «الحمل والدستور: مصيدة التفرد» ١٩٦٢ .

(٣) «جدولج» في ٤٩٦ حاشية ٢٠ .

موضوعيته أو تفرده. إذ كيف يمكن لمن بُترت ساقه أو أصيب بمرض الحصبة أو ما إلى ذلك - أن لا يقع فى نفس الفئة؟

وفى القضية الثانية «شركة جنرال إليكتريك ضد جلبرت» التى حكم فيها فى ديسمبر ١٩٧٦ خطة تأمين لعجز مماثل يشبه استبعاد الحمل اختبر ضد بند التفرقة على أساس الجنس فى لائحة الحقوق المدنية لعام ١٩٦٤ . وقد بنت حكمها فى قضية «جدولج»، وخفضت بصفة خاصة من فرص العمالة المتساوية لعام ١٩٧٢ بمبادئ توجيهية تحدد أن العجز المرتبط بالحمل يجب أن يعامل فى سياسة التوظيف وممارساته كغيره من ألوان العجز المؤقت، قررت المحكمة أن استبعاد الحمل من خطة منافع حالات العجز.. التى تزودنا بها التغطية العامة ليس تفرقة تقوم على أساس النوع على الإطلاق»^(١).

والفكرة نفسها التى تقول «إن التصنيف الذى يدور حول الحمل لا يرتبط ارتباطا وثيقا بجنس النوع هو إهانة للإحساس العام. وكما أشار المستشار «ستيفن» فى حكمه المخالف: إن أى برنامج يستبعد الإعاقة المترتبة على الحمل على أساس «التعريف» إنما يفرق على أساس الجنس طالما أن القدرة على أن تصبح حاملا هى التى تفرق أساسا بين الأنثى والذكر»^(٢).

(١) «شركة جنرال الكتریک ضد جلبرت» ٤٢٩ الولايات المتحدة ١٢٥ لعام (١٩٧٦) [والتشديد من عندنا] . انظر أيضا شركة «ناشفييل جاز ضد ساتي» ٤٢٤ الولايات المتحدة ١٣٦ لعام ١٩٧٧ . التى قررت فيها المحكمة أيضا، استشهاد جلبرت - أى استبعاد الحمل عن خطة المنافع لأية إعاقات أخرى «ليس تمييزا مبنيا على أساس النوع». لكنها قررت - لأغراض أقدم - أن إجازة الحمل لا يمكن أن تعامل بطريقة مختلفة عن الأشكال الأخرى من الاجازات، ويبدو أن الغالبية العظمى من أعضاء المحكمة هنا قد اتبعت خطأ رقيوا لخصه المستشار ستيفن فى حكمه على النحو التالى:-
على الرغم من أن محاكمة جلبرت لم تشأ أن تذهب إلى أن التمييزات ضد الحمل - إذا ما قورنت بالإعاقات البدنية الأخرى - هى تفرقة تقوم على أساس الجنس. فيمكن أن يكون من الصواب رغم ذلك أيضا أن التفرقة ضد الحامل، أو الموظفات الحوامل، إذا ما قورنت بالموظفين الآخرين تشكل تفرقة تقوم على أساس الجنس (ناشفييل فى ١٥٥).

(٢) جنرال إليكتريك فى ١٦٢ .

غير أن المشكلة هي أن الطريقة التي ينظر بها إلى النساء عبر القرون، تؤدي إلى عجز كثير من الناس - بما في ذلك الغالبية العظمى من المستشارين في المحكمة العليا - عن إدراك التفرقة ضد الحمل على أنها تفرقة ضد النساء. فبدلاً من أن يستدلوا من واقعة أن الحمل هو خاصية يتميز بها أساساً جنس الأنثى، نتيجة تختلف عن الإعاقات الأخرى هي تفرقة ضد النساء، فإنهم يصلون إلى نتيجة تقول إن الحمل هو تلك الوظيفة الطبيعية المألوفة للمرأة وأنها بطريقة ما فريدة، وليست كإعاقات الأخرى على الإطلاق. على نحو ما أشار «بارلت» بصدد قضية «جدولبرج»:

«إن قرار المحكمة... يعكس تصوراً سيئاً عن الحمل، ويختلف اختلافاً عميقاً عن جميع ظروف الإعاقة الأخرى التي تصيب الجنس البشري. الفكرة التي تقول إن الحمل يختلف عن ألوان العجز الأخرى فيما يخص برنامج التأمين عن الإعاقة يوحي بالمجموعة النمطية المألوفة التي تقول إن النساء تختص بالمنزل وتربية الأطفال. وما أن تترك المرأة العمل ليكون لديها أطفال فإنها لا تحسب من بين القوة العاملة. وعلى الرغم من أن الحمل يقعد المرأة عن العمل فإنه ليس «عجزاً أو إعاقة»، إنما هو بركة تريد كل امرأة أن تحققها من أعماقها، وأن النساء يساعدهن - وهذا ما يحدث وينبغي أن يحدث - أزواجهن وليس الدولة. وتظهر هذه الأنواع النمطية محفورة بعمق، ومرتبطة بالمعتقدات الأساسية عن مكانة المرأة في العالم بوصفها مربية أطفال. ومن الواضح أن المحكمة لم تلاحظ أنهن لا علاقة لهن بالأغراض المعلنة عن برنامج التأمين للعجز أو الإعاقة^(١).

وعلى حين أنه سيبدو من السخف أن نرد تجربة الحمل بأسرها إلى وضع العجز أو الإعاقة. فلا شك أنها حالة تتضمن درجات مختلفة وبوام العجز أو الإعاقة لنساء مختلفات تمنعهن، مؤقتاً، من مواصلة حياة العمل الطبيعية. ورفض الاعتراف بهذه الجوانب من الإعاقة واختلاف النساء عن الرجال كما يمكن مقارنتها تماماً

(١) «الحمل والدستور» ١٥٦٣ - ١٥٦٤ .

بالإعاقات الأخرى التي يخبرها الناس طوال حياتهم يساوى القول بأن حياة النساء بأسرها ينبغي أن تكون محدودة ومشروطة بعوامل الحمل وميلاد الطفل. وأمثال هذه الأحكام التي أصدرتها المحكمة العليا منذ وقت قريب مع نظرة «التفرد» إلى الحمل تساوى فى نتائجها إعادة تأكيد قوى لوضع النساء بوصفهن طبقة ثانية فى جميع مجالات الحياة خارج أعمال المنزل.

وهكذا فإنه على الرغم من الميل المضاد للأقلية من المستشارين، فإن غالبية أعضاء المحكمة العليا، يواصلون الاعتماد على المزايم الضمنية، عن الدور الطبيعى والمناسب للمرأة، ووظيفتها ووضعها داخل الأسرة لكى يتم الأخذ بالتفرقة ضدها: أربعة فقط من مستشارى المحكمة العليا - اعتزل أحدهم - اعترفوا أن الجنس كواقعة مصادفة للميلاد، وبمعنى مماثل لتلك الخصائص المرتبطة بالعرق والأصل القومى - مشكوك فيه ذاتيا كتصنيف تشريعى. ولقد واصلت الغالبية العظمى من المحكمة إذن الحكم فى قضايا تتضمن تفرقة تقوم على أساس الجنس بمعيار أكثر تسامحا «ومعقولة»، وبعدد من قراراتها الحديثة التى تخدم فى أن تجعلنا واعين أن الأحكام المبتسرة القديمة حول ما هو معقول بخصوص الفروق بين الجنسين لم تختلف تماما على الإطلاق^(١).

(١) هذا النمط من الاستدلال عن التفرقة القانونية بين الجنسين ليس، بالطبع، فريدا بين القضاة. فالسننوير «ارفين» وهو يصدّق بوضوح على هذه النظرة الوظيفية - اقترح أن تعديل حقوق المساواة ينبغي صياغته بحيث يسمح بالتمييزات القانونية بين الجنسين «التي تقوم على فروق فسيولوجية أو وظيفية بينهما».. «النساء وتعديل حقوق المساواة» نشرته كاترين ستمبسون . سلسلة وثائق الكونجرس نيويورك ولندن ١٩٧٢ ص xiii وانظر أيضا ص ٥٢١ - ٥٢٢ . والاعتراف كما نفعل الآن بما فى اللامساواة من عنصرية وانحراف التى يمكن تبريرها عن طريق الفروق الوظيفية بين الجنسين، على نحو ما عرفها وطورها الفلاسفة من الرجال وسيطرة النظام التشريعى الرجال، فإننا نستطيع أن نرى عقم أمثال هذه التعديلات «لحقوق المساواة». هويت، ضد وجوسارت، ومولر، وحتى براويل - جميع القضايا الشهيرة تؤكد أن اللامساواة القانونية للنساء يمكن أن تظل كما هى بلا أدنى تاثر.

مراجعتنا للمواقف القضائية تجاه التفرقة القائمة على أساس الجنس في قانون الولايات المتحدة. أثبتت أنه على الرغم من التغيير الواضح السهل الذي بدأ يحدث في سنوات حديثة جدا. إن دراسة أنماط من استدلال الفلاسفة السياسيين عن النساء ليست سرية أو خافية على الإطلاق. إن التفرقة بين الجنسين بالنسبة لحقوقهن وواجباتهن السياسية الأساسية. فرصهن في التعليم والعمل، ووضعهن الاجتماعي والاقتصادي، حقوقهن وواجباتهن بالنسبة لبعضهن البعض من حيث العلاقات الشخصية، أخذت بها المحاكم على أسس مشابهة لتلك الأسس التي لجأ إليها الفلاسفة. ومثلهم زعمت الهيئة القضائية أنه لا مندوحة من البنية التقليدية للأسرة كانوا أكثر استعدادا للإشارة إلى دور النساء ووظيفة النساء من الاعتراف بأهمية حقوق النساء وقدراتهن. ولقد مالوا كذلك إلى رؤية خصائص «الأنوثة» ورقة النساء واعتمادهن على من حولهن كعوامل لا يمكن أن تتغير - بوصفه الوضع «الطبيعي» للنساء - بدلا من الاعتراف بأنها إلى حد كبير نتائج للظروف الأبدية للمجتمع في الماضي والحاضر. وهم مثل أرسطو وروسو كثيرا ما ذهبوا إلى أن السؤال الأبدى هو: «من أجل ماذا وُجِدَتُ النساء؟».

الفصل الثاني عشر

خاتمة

تستهدف هذه الدراسة الإجابة عن سؤالين طرحناهما في البداية.. يتناول أولهما ما إذا كان بإمكان الفلسفة السياسية فى شكلها المتعارف عليه حالياً أن تشمل المرأة ضمن موضوعاتها على قدم المساواة مع الرجل. والسؤال الثانى يدور حول ما يمكن أن نتعلمه بشأن تحليل كيفية تناول المرأة فى الفلسفة السياسية بشأن اقتراح النساء السياسية والرسمية والتي لم تؤد إلى المساواة الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية الحقيقية بين الجنسين. وفى هذا الفصل الأخير سوف يتم استخدام نتائج هذه الدراسة لصياغة إجابتين عن هذين السؤالين على التوالى .

المكان الوحيد فى الفلسفة السياسية الذى تمّ فيه ضم المرأة فعلاً على قدم المساواة مع الرجل كان فى طبقة الحراس عند أفلاطون فى «الجمهورية». وفى «الجمهورية» يؤدى إلغاء الجانب الشخصى من الحياة، وتنظيم النسل.. وجعل رعاية الأطفال وجميع الوظائف المحلية أمورا اجتماعية مشتركة، يؤدى ذلك كله، فى طبقة الحراس من الرجال والنساء إلى تعليم واحد وعمل واحد. ويتم تصور الفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة فى أضيق الحدود. كما يتم الحد من المهام التقليدية للمرأة، لتقتصر فقط على الجهود الفسيولوجية الخاصة بالحمل والرضاعة. وهكذا يصبح نساء طبقة الحراس فى منزلة مساوية لخصائص الرجال فى الوقت الذى يكون فيه الحديث عن «الحقوق» الفردية فى سياق محاورة الجمهورية حديثاً لا معنى له.

يوجد فى جميع أعمال الفلاسفة الذين ناقشناهم - وكذلك فى محاورة «القوانين» لأفلاطون - منطقة متميزة للحياة الأسرية الخاصة، بمنأى عن مجال الحياة العامة،

مما يؤدي إلى المبالغة في تقدير الفروق البيولوجية بين الرجل والمرأة، إلى إدراك أن النساء يناسبن أساسا وظائف «أنثوية» خاصة في محيط المنزل، وبالتالي يبرر احتكار الرجال للعالم الخارجى بأسره. دعنا الآن نرى ماذا يحدث عندما نتخيل انضمام المرأة كشريك مناظر للرجل في جميع النظريات التي قمنا بدراستها. هل مثل هذا الافتراض سوف يغير النظريات تغيرا ذا مغزى؟ هل يثق فيهم بغض النظر عن الشكل، أم يكشف تناقضات لا تكون ظاهرة طالما زعمنا أن النساء مستبعدات عن المقدمات والنتائج النظرية الرئيسية؟ وبعد تطبيق هذا الافتراض على كل من الفلاسفة السياسيين كل بدوره، هل سيتم وضع هذه الدلالات الهامة بشأن التعديل الضروري لأية نظرية سياسية، وذلك من حيث معاملة المرأة ككيان مساوٍ للرجل.

إن المشكلات العملية في المجتمعات التي وصفها «أفلاطون في محاوره القوانين» وأرسطو في كتاب «السياسة» - التي سببها تحول النساء إلى مواطنات مشاركات في الحياة العامة مشاركة تامة مثل الرجال، والتي ستخفف منها إلى حد ما مؤسسة الرق. غير أن هذا «الحل» يمكن أن يكون حلاً جزئياً فحسب. لأنه لا أفلاطون ولا أرسطو يكون سعيدا بالاحتكاك الطويل في المستقبل بين الأطفال الأحرار والعبيد ولهذا فمن المشكوك فيه جدا أن نتوقع أن تسير إدارة المنزل مع أفضل مصالح الأسرة لو تركت تماما في أيدي العبيد بون إشراف من ربة الأسرة. ولا أحد ينكر أن سلامة المنزل الخاص بكل مواطن في هذه المجتمعات الذي تكون فيه الحياة المدنية بالغة الأهمية، تعتمد إلى حد كبير على واقعة أن النساء في حالة أرسطو مستبعدات تماما من مجال الحياة العامة، وفي «محاوره القوانين» لأفلاطون يلعبن نورا ثانويا جدا.

وعلى الرغم من ذلك توجد مشكلات أخرى أشد عمقا ينطوى عليها افتراض المساواة التامة للنساء في البوة المثالية الثانية لأفلاطون، والسياسة التي يفضلها أرسطو. لأنهما معا يدركان الأسرة بوصفها جانبا من الملكية الخاصة تشكل فيه الزوجة نفسها مكوناً رئيسيا، فالمواطنون الذكور في هذين المجتمعين يمكنهم

زوجاتهم، ومن الواضح أن ذلك لا يمكن أن يحدث إذا ما كان الرجال والنساء متساوين. وكما سبق أن أوضحنا فى الفصل الثالث، فإن أفلاطون لم يستطع أن يتصور درجة المشاركة، فى الحياة المدنية التى يمكن أن يقوم بها الحراس النساء فى «الجمهورية»، على نحو ما يحدث للزوجات الخصوصيات فى «محاورة القوانين»، على الرغم من واقعة أن اقتناعاته عن إمكانات النساء قد أصبحت أقوى فى السن الذى كتب فيه «القوانين». وفى المجتمع الفاضل الثانى لآبد من فرض طبيعة المرأة عليها وذلك حتى يتلاءم مع دورها كزوجة. أما فى كتاب «السياسة» لأرسطو، فإن حياة الأسرة تعرف صراحة خارج نطاق السياسة التى تشمل الأب فقط. ومن الواضح أنه ينبغى إدخال تغييرات قوية فى هذه المفاهيم عن الأسرة، حتى يُسمح للمرأة أن تكون عضواً على قدم المساواة مع الرجل سواء فى الحياة الأسرية أو كمواطنة. لآبد للأسرة أن تظهر كمؤسسة يدعمها الأعضاء الراشدون كمنظراء تماماً بدلاً من النظر إليها على أنها موضوع للملكية، أو كشرط ضرورى لتزويدنا بالورثة أو للوفاء بالاحتياجات اليومية. ويعد ذلك انسلاخاً جوهرياً من الأفكار اليونانية المعاصرة التى لم يعد يصلح لها لا كتاب السياسة لأرسطو المبني على العرف، ولا حتى كتاب القوانين لأفلاطون.

وفضلاً عن ذلك ففى كتاب «السياسة» لأرسطو لا تزال تُطرح مشكلات أكثر جدية عندما افترض المعاملة المتساوية بين الرجل والمرأة. ويعتمد التصور الغائى الذى تقوم عليه فلسفة أرسطو السياسية كلها - على افتراض أن كل الأعضاء الآخرين من السكان - العبيد والحرفيين وكذلك النساء - قد وجدوا فقط لى ينجزوا المهام التى تخص كلاً منهم تجاه الأقلية الأخرى من الرجال الأحرار الذين يشاركون مشاركة تامة فى الحياة العامة. وقد تمَّ تعريف «طبيعة» كل مجموعة من الناس وفقاً لأدائها الأمثل لوظيفتها المتعارف عليها على النحو المرضي. فإذا ما منحت المرأة مكانة مساوية للرجل داخل طبقة المواطنين، فسوف يتقوض بالكامل أساس النظرية الوظيفية عند أرسطو، ولو أنه أنكر الطبيعة الدونية للنساء. والحجة التى على أساسها يقمن بأداء الوظائف فى الحياة المعاصرة فى أثينا، كما أن حجته المتوازنة

عن الطبيعة الدونية للعبيد سوف تتعرض للخطر. فما أن يحدث أنه لم يعد ثمة اتفاق حول الطبيعة الدونية للنساء وضعفن العقلي؛ ولا أنها قد وجدت فقط بهدف المحافظة على استقرار الأسرة وأمانها وإنجاب الورثة الشرعيين وتربيتهم - فكيف يمكن عندئذ الإبقاء بشكل مستمر على طبقة العبيد وحدها بهدف القيام بوظيفتهم في تقديم الخدمات، أو قل الشيء نفسه عن طبقة الحرفيين بسبب الأعمال التي تصادف أن يقوموا بها، فهم لا يصلون بالتالي للحياة السياسية؟. إن توحيد أرسطو للوضع الهيراركي القائم مع ما هو طبيعي وضروري وحسن، لا يمكن أن يصمد أمام تحرر النساء واشتراكنهن في الحياة السياسية. فنظام أرسطو السياسي يقوم بشدة على أساس التباين الاجتماعي، فإذا ما تمَّ التغاضي عن أي من مفاهيم عدم المساواة، فإن هذا النظام كله سوف يتعرض للخطر. ويصبح واضحا مدى ضعف أساس هذه البنية عندما يتضح أن المعالجة الوظيفية للنساء لا مشروعية لها.

وعلى العكس، كان من الممكن أن يحقق إدخال روسو للنساء كمواطنات أكفاء، في جمهوريته الديمقراطية المثالية - الأثر المطلوب لإزالة التناقضات التي تواجه نظريته على نحو ما عليه. فسوف تحل التباين بين مبدأ المساواة وأساس التراضي في أفكاره عن الحكومة؛ واللامساواة القصوى في الأسرة التي يشكل فيها الأب الشخصية المحورية، والتي يقوم بدعمها بشكل طبيعي، ولا يمكن الاستغناء عنه. ولن تكون تصريحات روسو المثيرة للدهشة بعد ذلك عن المساواة والحرية متعارضة مع كل ما يقوله عن العلاقات بين الجنسين، وهناك أيضا مشكلة أخرى سوف يحلها انضمام الأسرة إلى الحياة العامة، ألا وهي خطر الصراع بين الولاءات الذي ناقشناه في الفصل الثامن فيما سبق. فإذا لم تعد المرأة توجه بشكل خاص وشخصي تماما، فمن المحتمل أن لا تكون أقل من الرجل في خطورتها على تلك الولاءات الأوسع والتي كان روسو يُقدرها تقديرا عاليا.

غير أن المشكلات التي تظهر نتيجة تحول النساء إلى نظراء أنداد هي مشكلات ضخمة في حالة روسو بل أضخم من المشكلات في حالة «القوانين» لأفلاطون، و«السياسة» لأرسطو، وبمعنى عملي هي أشد قسوة. ذلك لأن الجمهورية المثالية عند

روسو تتطلب مشاركة مدنية. كما هي الحال عند أرسطو - ومع ذلك فإن المجال الخاص بحياة الأسرة مسألة حاسمة بالنسبة له - لا فقط على أسس اقتصادية، على نحو ما كان الأمر عند اليونان، وإنما بجانب بالغ الأهمية للحياة النشطة. ولقد اعترف «روسو» نفسه بأن الحرية السياسية مطلوبة جدا، وأنه سيكون من المستحيل الإنجاز بدون قيام مؤسسة العبيد بإمدادنا بالاحتياجات اليومية. ولما كان روسو لم يستطع أن يتصور هذا الوضع بشكل شرعي، فقد ظلت هذه المشكلة معلقة بغير حل. وعلى الرغم من ذلك فقد اعتبر استبعاد المرأة من الحياة المدنية مسألة طبيعية وكذلك انحصارها في مجال خاص، بناء على التعريف الوظيفي للنساء. وذلك مبعثه افتراض أن الأسرة التي يشكل فيها الأب الشخصية المحورية شيئا طبيعيا.

دعنا نحاول أن نتصور المساواة بين الجنسين في جمهورية روسو :

أولاً: لابد أن تتغير بنية الأسرة تغيرا جذريا حتى تتسق مع حقوق المساواة والمسئوليات الخاصة بكل عضو من أعضائها الناضجين. وينبع تصور روسو كله للعلاقات بين الرجل والمرأة، والذي يمكن أن ينقلب رأسا على عقب - ينبع من خوفه البالغ من فكرة التبعية، فيما عدا على الشخص الذي يمكن للمرء التحكم فيه.. وفضلاً عن ذلك فسوف يتعين على الزوج والزوجة أن يصبحا قادرين على الوثوق بعضهما ببعض وهو الأمر الذي يبدو أن روسو لم يستطع أن يتخيله. ومرة أخرى لم يعد من الممكن الإشارة إلى المرأة، والنموذج الكامل للحياة وفقا لاحتياجات الرجل فقط، كما هو غير ممكن بالنسبة للرجل أيضا. وتأخذنا هذه المتطلبات أبعد كثيرا من «اميل» و«صوفي»، ومن نساء «جنيف» العفيفات اللاتي صورهن روسو بطريقة مثالية.

ثانياً: إذا كان من شأن المرأة أن تتساوى مع الرجل في الجانب السياسي فإنه يتعين عليها هي أيضا قضاء مدة من الوقت ليست بقليلة في الاجتماعات السياسية وعدة أنشطة عامة أخرى. وفي نفس الوقت الذي يقول فيه روسو إن التعليم الرسمي للمواطنين يجب أن يصبح عاما، يكون من الواضح أنه يعتبر التربية المبكرة للأطفال نشاطا خاصا، ويرى الأسرة كملجأ للرجال من المتطلبات المرهقة للعالم الخارجي؛

فإذا ما كان يجب على الراشدين من الرجال والنساء أن ينشغلوا بالنشاطات الاجتماعية كواجبات وطنية لفترة طويلة، فمن الذى سيدعم هذا القطاع الخاص من الحياة - وأعنى به الأسرة - والذى يرى روسو أنه بالغ الأهمية؟. ومن الواضح أنه سيكون من الواجب القيام بالعديد من التغيرات الكبيرة فى مجال خصوصية الكيان الأسري، حتى نسمح للنساء بالمشاركة مشاركة تامة فى حقوقهن كمواطنات.

فسوف يبدو، بالتالى، على الأقل فى مجتمع يقوم على مبدأ المساواة، أن المرء لا يستطيع أن يحقق كلاً من الحياة المدنية، بكثافة شديدة، وكذلك الخصوصية التامة فى الحياة الأسرية دون التقسيم الثنائى لمجالات العمل بين الجنسين ويجب - فى المجتمع الذى نظمته «روسو» التضحية بشيء ما، فى سبيل أن تصبح المرأة مساوية للرجل - أما مدى المشاركة المدنية المطلوبة منها كمواطنة أو تجنب الطبقة الموجودة لخدمة الآخرين، أو الخصوصية التامة للحياة الأسرية والملكية.

أما بالنسبة «لجون ستوارت مل» فإن إشراك المرأة لم يعد مسألة افتراضية فحسب، ذلك لأنه قام بجهد وعزم لتحرير المرأة داخل حق المواطنة. وعلى الرغم من حجته التى كانت راديكالية فى عصره - القائلة بأنه يجب إتاحة الفرص السياسية، والتعليمية، والوظيفية للمرأة على الرغم من ذلك - افترض أن مقتضيات الحياة الأسرية ستحد من استغلال كل امرأة لهذه الفرص بالكامل، إلا إذا كانت غير متزوجة وهذه المجموعة من النساء ستظل أقلية. والتغلب على هذه القيود وإحداث مساواة دائمة تستفيد منها المرأة المتزوجة وغير المتزوجة، سوف يتطلب تبديلاً جذرياً فى مفهوم «مل» عن الأسرة، وعلاقتها مع العالم الخارجى. أما بالنسبة لآرائه عن العمل المنزلى، والعناية بالأطفال والمهام الواجبة فى الأسرة المستقلة القائمة بذاتها، وأنها بالضرورة عمل المرأة ولا تتقاضى عنه أجراً فإن جميع هذه الآراء سوف يتعين التخلي عنها إذا ما أرادت المرأة أن تحقق شيئاً فى سبيل المساواة الحقيقية مع زوجها.

وبما أنه وافق على فكرة التمثيل النيابى كبديل عملى عن الديمقراطية المباشرة، فإن طبيعة المشاركة السياسية فى دولة «مل» اللبرالية لا تستهلك الكثير من الوقت،

وبالتالى حتى تخلق مشاكل عندما نفترض المساواة للمرأة مع الرجل، رغم أنها بالتأكيد تخلق بعضها منها. فنحن مثلاً نجد أن «مل» نظر إلى هيئة المحلفين على أنها جانب من النشاط التربوى الهام للمواطنة. ومع ذلك فلا يمكن أن نتصور أنه يمكن أن يخالف قرار المحكمة العليا فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦١، الذى ينص على أن المرأة هى «محور البيت والحياة الأسرية»، ومن ثم لا ينبغي أن تكون عرضة للخدمة الإلزامية فى هيئة المحلفين. وقل مثل ذلك فى التربية السياسية التى اقترحها «مل» نتيجة لتطبيق الديمقراطية فى ساحة العمل، والمشاركة المباشرة فى الحكومة المحلية التى لن تكون متاحة كثيراً للسيدات المتزوجات^(١) ويقول مل، على نحو مباشر، إنه يجب على المرأة الانتهاء مما وصفه بمسئولياتها المنزلية، وذلك قبل قيامها بالأنشطة والواجبات الخارجية. وعلى الرغم من ذلك فإن المسألة الأكثر أهمية هى أنه فى الوقت الذى كتب فيه «مل» هذه الكتابات، كانت الأسرة والحياة الاقتصادية قد أصبحتا منفصلتين تماماً بعضهما عن بعض، وذلك بتطور اقتصاد السوق الرأسمالي، فقد أصبح السبيل الوحيد أمام المرأة (بخلاف الوراثة الشرعية) التى تستطيع أن تحقق به مساواة اقتصادية مع الرجل هى أن تكون لديها الحرية، والقابلية للتكيف. وكذلك التدريب الكافى لتتمكن من الوقوف على قدم المساواة مع الرجل من حيث ترويج العمل الخاص بهما. ولا توجد، بالطبع، أية وسيلة تستطيع المرأة المتزوجة عن طريقها، مهما كانت إمكانياتها وقدراتها، أن تنافس الرجل فى المجال الوظيفى فى حالة ما استجابت للالتزامات التى فرضها عليها «مل».

وليس ثمة شك فى أن مل - لاسيما فى العصر الذى كتب فيه مؤلفاته - كان نصيراً شجاعاً للمرأة، وبعيد النظر فى تفكيره. فقد رفض الاشتراك فى عديد من مزاعم النظرية السياسية السابقة بشأن استبعاد النساء من مجال السياسة،

(١) انظر «كارول باتمان - المشاركة والنظرية الديمقراطية» كيمبرج ١٩٧٠ ص ٣١، ٢٥ ودينيس ف توميسون « جون ستوارت مل والحكومة النيابية». برتستون عام ١٩٧٦ . ص ٢٦ - ٤٣ . بخصوص أفكار «مل» عن التربية السياسية من خلال المشاركة المباشرة.

والطبيعة التمثيلية للزوج فى الأسرة حيث يكون عمادها الوحيد لجميع الأغراض السياسية والقانونية. غير أنه - مع «مل» أيضا مجال التفرقة الدقيقة بين ما هو خاص والمجال العام، وبين الأسرة والحياة الاقتصادية. وكذلك افتراض أن الرعاية اليومية للأسرة هى وظيفة المرأة، الواجبة عليها، فقد كان من شأن ذلك كله أن يتقوض تماما إذا ما اشتركت المرأة فى نظرية «مل» التى تجعلها مساوية للرجل تماما.

وتتأثر بهذه الضرورة التى أضفناها كل من النظريات السياسية الأربعة التى قمنا باختبار الاشتراك المفترض للنساء على قدم المساواة بالرجال - وذلك على الرغم من تفاوت درجات هذا التأثير. ففى الدولة المثالية الثانية عند أفلاطون، والدولة التى فضلها «أرسطو»، وفى دولة «روسو» الديمقراطية المنسوجة بدقة - وكذلك، إلى حد كبير، دولة «مل» الحرة - فى كل ما سبق يعتمد مجال الحياة العامة فى العديد من الحالات الهامة المقدمة بشكل منطقى على وجود القطاع الخاص فى الأسرة والذى تتعرف متطلباته دور المرأة وأسلوب المعيشة وتعزلها عن المشاركة، وكذلك المكانة المتساوية مع الرجل فى عالم الحياة العامة والاقتصادية. ومن الواضح أنه يجب تغيير بنية الأسرة، وتوزيع المهام والمسئوليات بداخلها إلى حد كبير، وذلك فى أية نظرية تتضمن فكرة أن المرأة موجود بشرى مساوٍ للرجل ومشارك بالتساوى فى المجالات العامة.

هناك عديد من الجوانب ذات المغزى لابد أن تتغير فيها النظريات السياسية بصفة عامة، إذا ما أرادت المرأة أن تتكيف كعضو فى المجتمع السياسى مساو للرجل ولقد قام المنظرون السياسيون كفتة (على الرغم من «مل» كان استثناءً جزئياً مثيراً) - بوضع عدد من المزايم الخاصة بالأسرة وعلاقتها بالمجتمع الذى لا يعترف بالنساء كأفراد، متساويات مع الرجال:

أولاً: جعلوا من الأسرة - على عكس ما يبدو أحيانا - الوحدة الأساسية لنظرياتهم، بدلاً من الفرد البشرى الراشد. وكانت النتيجة المثيرة للاهتمام والواضحة فى الوقت ذاته - هى أن العلاقات الأسرية الداخلية بغض النظر عن مدى القوة والسيطرة التى تمثلها - تتميز بأنها خارج المجال السياسى .

ثانياً : أدركوا أن العلاقات الإنسانية داخل الأسرة تختلف اختلافاً كبيراً شاملاً عن العلاقات بين «الممثلين» في المجال السياسي - بمعنى الأشخاص البالغين المتحكمين في شؤون الأسرة. هذه الافتراضات - السائدة عن الموضوع الرئيسي للنظرية السياسية، وعن العلاقات الأسرية الداخلية والخارجية، من الضروري إدراك كيفية تغيرها لتتلاءم مع المساواة بين الرجل والمرأة.

ومن الواضح أن أفلاطون في محاوره «القوانين» وكذلك أرسطو، وروسو، اعتبروا الرجل عماد كل أسرة بوصفه الممثل السياسي الأوحيد لها. ذلك أيضاً، وعلى نحو متناقض ظاهرياً بصورة أكبر - على النظريات السياسية عند كل من : هوبز، ولوك، وكانط، وهيغل، وجيمس مل - وذلك بسبب واقعة أن المذهب الليبرالي يقوم، افتراضاً، على أساس المذهب الفردي. وكما أدرك «بريان باري» مؤخراً، فإن «ماهية الليبرالية» هي صورة المجتمع على أنه مكون من وحدات مستقلة وتلقائية تتعاون فيما بينها فقط عندما تكون شروط التعاون تجعلها تعزز غايات كل من هذه الأحزاب^(١).

والواقع أنه على الرغم من ذلك، فمن الواضح أن الأسرة تقوم في خلفية الخطاب الفردي، وليس الفرد الراشد في حد ذاته، وذلك لدى الفلاسفة الليبراليين وغير الليبراليين. وعلى الرغم من مقدمات المذهب الفردي المفترضة، للتراث الليبرالي، فإن جون ستوارت مل كان الأول من بين أعضائها الذي أكد أن مصالح المرأة ليست مدعومة بشكل تلقائي من جانب الرجل المسيطر على الأسرة التي تنتمي إليها، وبالتالي يتعين على المرأة كفرد مستقل بذاته، أن يكون لها حقوق سياسية وشرعية مستقلة. هذه المقترحات التي بدت وكأنها متطرفة على نحو خطير من خلال الآراء السائدة في أواخر القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، ظهرت كأنها بيان واضح للغاية للقيود التي فرضها المبدأ الفردي النزعة الخاص بالنظرية الليبرالية السابقة.

(١) «النظرية الليبرالية عن العدالة» أكسفورد عام ١٩٧٣ ص ١٦٦ .

وعلى الرغم من ذلك فإذا كان من شأن البالغين فى كل أسرة أن يُنظر إليهم على أنهم متساوون، ولهم حياتهم المستقلة، بخلاف الحياة التى يشاركون فيها بما أنهم أعضاء فى أسرة واحدة. فلن يكون من الممكن تحقيق الافتراض بأن جميع اهتماماتهم مشتركة، وأنه يمكن أن يمثلها بشكل جيد واحد منهم فحسب بناء على جنسه. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن معظم الأسر لديها اهتمامات ومصالح مشتركة فيما بينها أكثر من المجموعات العشوائية من الأفراد، وذلك بسبب واقعة أنهم يعيشون معا، وبسبب قوة العواطف التى تربط بينهم. ومما يجب إدراكه أن هناك مجالات يمكن أن تهتم بها أسر تختلف فيما بينها أتم الاختلاف بل حتى يصارع بعضها بعضا. غير أن ذلك يصعب أن يدركه المنظرون الذين يجعلون الأسرة، لا الفرد، الوحدة الأساسية فى مناقشاتهم، وهناك جوانب كثيرة إما أن تختلف فيها مصالح أعضاء الأسرة وتتباعد أو تتصادم. ولقد أصبح ذلك واضحا أكثر عندما بدأت القسمة الثنائية القديمة لأدوار الجنسين تنهار فى السنوات الأخيرة. وعندما يكون لدى كل من الزوج والزوجة حياة مستقلة، لاسيما فى مجال العمل، فمن الواضح أنه ستكون هناك خلافات حول رغباتهما بشأن أمور أساسية مثل المكان الذى يتعين عليهما السكنى فيه على سبيل المثال إلا أنه - وحتى عهد قريب - كان يفترض فى كل من القانون والنظرية السياسية أن مثل هذه الأمور يجب أن يقوم رأس الأسرة بتحديدتها متمثلاً فى الرجل، وهو الافتراض الذى سيتعين التخلي عنه إذا كان بشأن الرجل والمرأة أن يكونا على قدم المساواة.

غير أن ذلك لا يعنى أنه ينبغى معاملة الناس وفقا للنظريات السياسية أو القانون، طوال الوقت كأشخاص منعزلين بعضهم مع بعض ، أو أنهم ليسوا أعضاء فى أسرة أو مجموعات أخرى طويلة المدى، وأنهم يختارون العيش فيها بعضهم مع بعض، وأن يشتركوا فى المسئوليات؛ ومع الوقت يتحول المجتمع ليصبح مفككا بشكل واضح، وذلك دون الرفض التام للمجموعات التى يعيش فيها الناس حياة حميمة، ويعتمدون فيها بعضهم على بعض اقتصاديا وعاطفيا، وفى غير ذلك من المجالات. لكن فى بعض الحالات فإن معاملة شخص على أنه عضو متساو مع غيره فى

مجموعة مترابطة بعضها مع بعض بشكل خاص، كالأسرة مثلاً، لا تكون هي نفسها معادلة للزعم بأن أوضاع ووظائف الأشخاص المختلفة في تلك المجموعة، والتعرف على حقوقه، وتحديد فرصه المثلى في الحياة وفقاً لهذه المزاعم.

وحتى في حالة التشريع وسن القوانين - مفترضين أن الأسرة وحدة - التي تتحاز ضد الرجال، فإن النتيجة بصفة عامة إعادة دعم وضع المرأة غير المستقل داخل هذه الوحدة، والحد من خيارات أعضاء الأسرة حول كيفية تنظيم حياتهم^(١). ولم يكن إقرار المنظرين السياسيين والقضاة بوجود الأسرة في حد ذاته، بل زعمهم بشأن تركيبها المبني على شخصية الأب الذي قام بتأكيد وجودها كبناء يحد من فرص الناس في حياة حرة ومبدعة ومرضية بدلاً من دعمها.

وعند هذه النقطة يجب ملاحظة أن حقيقة الأسرة هي العلاقة الاجتماعية الدائمة الوحيدة التي تم الاعتراف بها بين الناس، هي حقيقة منحازة في حد ذاتها، وليس ضد المرأة فحسب، وتعدّ الأسرة «الطبيعية»، والتي تكون الزوجة فيها مستقلة أفضل في العديد من الجوانب اجتماعياً واقتصادياً على حساب الأشخاص الذين لا يشكلون جزءاً من هذه الأسرة^(٢). وتتكون هذه الأسر من أشخاص من جنس واحد أو من كلا الجنسين، وسواء كان هناك أطفال أم لم يكن. ويجب أن يتم وضع النظريات السياسية والقوانين على أساس الإقرار بوجود العلاقات المتعلقة باعتماد الأشخاص بعضهم على بعض، والترتيبات المعيشية التي يختارها الناس لأنفسهم، والتي ستتضمن أسرهم بالطبع. وبخلاف ذلك، يجب أن يتم وضع تلك النظريات والقوانين بحيث لا يكون هناك مجال لأي افتراضات بشأن الوظائف الشخصية

(١) انظر القضايا المشار إليها في هوامش الفصل الحادي عشر فيما سبق.

(٢) يوجد مثال واضح على ذلك في مراسيم التقسيم المحلي إلى مناطق كثيراً ما تحد عدد الأشخاص غير المرتبطين، - وليس المرتبطين - الذين قد يعيشون في أية وحدة منزلية. أما بالنسبة لنقد الأحكام المبتسرة عموماً لمجتمعنا لصالح الزواج الواحدي. انظر جون ماك موري «نقد الزواج الواحدي».

المتنوعة أو الالتزامات أو الأوار المعتمدة على نوع صاحبها، أو المهام الشخصية فى تلك الأسر. وإذا ما تمَّ إحداث هذه التغييرات فقط، عندئذ سيكون من شأن أشكال التحيز الحالية أن تزول، والموجهة ضد النساء جميعاً، وكذلك الرجال الذين يختارون الحياة فى معيشة فى مجموعات أقل تقليداً من الكيان الأسرى.

أما الأسلوب الثانى من التفكير فى الأسرة فهو الذى ينبغى إعادة تقييمه وفقاً للمساواة بين الرجل والمرأة، وهو يغلب انتشاره عند المفكرين الليبراليين، وإن كان موجوداً أيضاً عند «روسو». وكما لاحظنا من قبل فإن التراث الليبرالى السائد يفترض أن سلوك الممثلين السياسيين سوف يقوم على المصلحة الشخصية، فالرجال من أصحاب الحقوق الطبيعية المعينة، أو على الأقل ممن لديهم مشاعر معينة، بحاجة إلى إشباع، يشكل بعضهم مع بعض جماعات سياسية للدفاع عن أنفسهم ضد أى اعتداء أو مضايقات. وكذلك لى ينافس الواحد منهم الآخر فى بيئة تسويقية يكونون فيها آمنين تحت عباءة القانون. ومن ناحية أخرى يتم إدراك العلاقات داخل الأسر على نحو مختلف تماماً؛ فالمنظرون الذين اكتسبوا درجة عالية من الأنانية لتحديد العلاقات بين الأفراد فى مجال السوق، اكتسبوا هم أنفسهم أسلوباً غيرياً تماماً لإدارة العلاقات بين أفراد الأسرة بعضهم البعض.

ويمكن أن نرى أوضح مثال على هذا التناقض فى فلسفة هيجل الذى اعتبر الأسرة والمجتمع المدنى شيئين مختلفين أتمَّ الاختلاف، تنبع منهما الدولة بشكل جدلى كتركيب من غيرية الأولى وشمولية الثانية. وعلى الرغم من ذلك فإننا عندما نقوم بقراءة الفقرات التى تحدتَّ فيها عن الأسرة فى كتابه «أصول فلسفة الحق» نجد أن وحدة الأسرة تقوم على أساس مبدأ الرفض التام للسماح للمرأة بأن يكون لها أى وجود مستقل. ويؤكد أحد ملحقات الجزء الخاص بالأسرة أن الرجال كالحوانات والنساء كالنباتات^(١). وبما أنه لم ينظر إلى المرأة على أن لها أى حياة

(١) «الفرق بين الرجال والنساء هو كالفرق بين الحيوانات والنباتات: فالرجال يناظرون الحيوانات، والنساء النباتات لأن تطورهن أكثر هدوءاً، والمبدأ الذى يحكمه هو الوحدة الغامضة...» ملحق للفقرة رقم ١٦٦ فى ترجمتنا العربية لـ «أصول فلسفة الحق» ص ٦٢٠ من طبعة مذبولى عام ١٩٩٦ (المترجم).

أو رغبات على الإطلاق، فلم يكن من الصعب بالنسبة له اعتبار الأسرة مكانا بلا أى نزاعات أو خلافات بين الرغبات، وحيث تسود أسمى معانى الحب والغيرية. وتأتى الوحدة والمحبة السائدة فى أسرة هيجل تقوم على أساس إنكار الشخصية للزوجة والام^(١).

وقل مثل ذلك عند «روسو» فعلى الرغم من نهاية «اميل وصوفي» التى تتصارع فيها مصالح الأب وإرادته مع سلامة واستقرار الأسرة، مما يؤدى إلى تدميرها، - على الرغم من ذلك - حافظ «روسو» على أن تقوم الأسرة على أسس مغايرة تماما لتلك التى يقوم عليها العالم الخارجى. وبعتماده على الغيرية فى العلاقات الأسرية الداخلية. أصر هو أيضا على اعتبار الأبوة الممثل الوحيد والأنسب لرغبات واهتمامات الأسرة، حيث اعتبر أى شكل آخر من أشكال التمثيل تنازلاً عن الحرية. وحالما يدرك المرء وجود المرأة ككيان مستقل له حقوق لذاتها - فإن هذا الاعتقاد يصبح بشأن وحدة اهتمامات، ورغبات الأسرة، عرضة للشك والتقويض (كما لو كان أسطورة). كما كان حاله دائما. كما أن التعارض الواضح، والذى أشار إليه العديد من الفلاسفة، بين جو المحبة والغيرية فى الأسرة من ناحية والعالم القاسى والتنافس فى الخارج - يصبح من الصعب تمييزه. وربما يؤدى مثل هذا الإدراك إلى إعادة دراسة جانبى القسمة الثنائية المبالغ فيه - لافتراض الذرات فى العالم الخارجى مثل الدرجة غير الواقعية من الغيرية التى يفترض أن تتصف بها العلاقات الأسرية. وإذا

(١) هيجل «أصول فلسفة الحق» فقرات ١٥٨ - ١٨١ ص ١١٠ - ١٢٠. ويقول هيجل صراحة: «وتصبح الأسرة شخصا واحدا» (إضافة للفقرة ١٦٣ - وانظر ترجمتنا العربية ص ٤١٠ من طبعة مديولى عام ١٩٩٦ - المترجم). ويقول: «الزواج ينتج من التنازل الحر لكلا الجنسين عن شخصيته..» (فقرة ١٦٨ ص ٤١٥ من ترجمتنا العربية - المترجم). لكن واقعة أن الرجل هو الذى يريد ملكية الأسرة، وأنه هو الممثل الوحيد لها فى المجالات العامة. يوحى أن تنازله عن شخصيته مسألة رمزية أكثر منها حقيقية. من حيث المقابلة بين الرجال والحيوانات والنباتات والنساء (انظر ملحق للفقرة ١٦٦ - ص ٦٢٠ من ترجمتنا العربية - المترجم).

كان الوضع كما يبدو، فسوف يكون من شأن الحب والغيرية المفترضين فى الأسرة المبنية على عدم المساواة بين الرجل والمرأة، بشكل متطرف، سيكون من شأنهما تلطيف التأثير الشديد لمحيط من الأشخاص المعينين بذاتهم فحسب، وربما كانت معاملة المرأة على أنها مستقلة بذاتها ورغباتها بغرض الكشف عن المضامين الكاملة للنظرية التى تفترض أن الاهتمام بالذات هو قاعدة سلوكية فى الحياة الاقتصادية والسياسية.

ومن المفترض الآن أن يكون واضحاً أنه ليس من السهل بأي شكل من الأشكال، دمج النصف الأنثوى من الجنس البشرى بكامله فى أساس نظرية سياسية مبنية، تقريباً بلا استثناء، على الاعتقاد الراسخ بأنه يجب أن يتم تعريف المرأة فقط وفقاً لدورها فى الأسرة، وهو ما حدث بالفعل، وكذلك على أن العلاقات الأسرية الداخلية تأتى خارج منظور العلاقات السياسية. ولقد كانت المرأة تعامل على أنها شخصية ثانوية، لا سبيل لمعاملتها على أنها شخصية أساسية، ولا إشراكها فى نطاق دراما الحياة السياسية بون أن تتحدى المزايم الأساسية القديمة عن الأسرة ودورها المعتاد فيها كزوجة وأم ، وعلاقة ذلك كله بالمجتمع الأكبر أعنى المجتمع السياسى.

وقبل أن نغادر موضوع تكيفات النظرية السياسية التى ستكون ضرورية لكى يتم تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة - قبل ذلك يجب أن نوضح مفهوماً كان من شأن النظريات الديمقراطية دعمه وتقويته بتلك الوسيلة بشكل أكبر من تماسكه فى حد ذاته - وبالنسبة لأى مُنظرٍ يصبو إلى مساواة سياسية حقيقية، يعد تحول الأسرة إلى مجموعة متساوية بشكل أكبر أمراً موضع ترحيب؛ وذلك لأسباب لها أثرها على سلامة المجتمع السياسى ككل. فإذا كان من شأن أى أسرة أن تتخلص نهائياً من فكرة شخصيتها المحورية. وأن تصبح مؤسسة محكومة بشكل ديمقراطى، ويكون الأمر الوحيد المفضل بالنسبة للسلطة هو المتعلق مؤقتاً بالسن، عندئذ فقط سوف يؤثر ذلك كله على القدرة الكامنة فى الأسرة كعامل اجتماعى نشط بالنسبة للمجتمع السياسى الأكبر. ولقد كان يُعدّ مبدأ اعتبار شخصية الأب محور الأسرة فى القرن

السابع عشر، هو أقرب عامل مشترك. قام المنظرون السياسيون بتوضيحه بين بنية السلطة والطاعة الأسرية والحكومة^(١). وما هو واضح أن هؤلاء الباحثين يرون أن الطبيعة الهيراركية (التصاعدية) للأسرة يجعلها عاملاً اجتماعياً نموذجياً لهيراركية العالم بين الملك ورعاياه. وعلى الرغم من ذلك كله يبدو للمنظرين السياسيين الديمقراطيين من أصحاب التساوي، أن بنية الأسرة التي تقوم على المساواة والديمقراطية سوف تخدم مهمة إعداد المواطنين في المستقبل لحياة تسودها المساواة والمشاركة السياسية.

وتعد القضية الآن - مقبولة بشكل عام تلك التي كتب عنها عالم الاجتماع «ت.ب. بوتومور» قائلاً: «إن المؤسسات المتعددة الموجودة في القطاعات المتنوعة للمجتمع لا تتواجد فقط مع بعضها البعض في آن واحد، بل تترايط بعضها البعض بعلاقات منسجمة أو متناقضة وتؤثر بدورها بعضها في بعض بشكل تبادلي^(٢). وهذا يعنى بالطبع أننا لا نستطيع أن نتجاهل العلاقة الواضحة بين بنية المجتمع السياسى الكبير وبنية الأسرة التي هي جزء منه. ولقد طور «هارى اكشتين» هذه الفكرة على نحو أشد وضوحاً والذي ذهب إلى أن استقرار أى نظام سياسى يعتمد على «الانسجام» بين بنى السلطة الحاكمة وبنى أخرى في المجتمع بما في ذلك تلك الموجودة في مواقع العمل، ومجموعات الضغط، والمدارس، وعلى نحو أكثر أهمية بالنسبة للأسرة في سياقنا الحال^(٣). وينتهى اكشتين إلى نتيجة تقول: «بما أنه من الصعب فرض الديمقراطية على بعض هذه القطاعات بما في ذلك الأسرة - نون أن تكون هناك نتائج «عبارة عن خلل وظيفى حاد». إن الحاجة إلى الانسجام تتطلب أن لا تكون الحكومات المستقرة «ديمقراطية خالصة أعنى متطرفة» ولكن من الأفضل أن

(١) انظر نون شويسست «النظام الأبوى (البيتريركي) في الفكر السياسى».

(٢) «الصفوة والمجتمع» انجلترا عام ١٩٦٤ ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٣) «نظرية عن الديمقراطية المستقرة» ملحق ب «الانقسام والالتحام فى الديمقراطية» برنستوف عام

١٩٦٦ ص ٢٢٢ - ٢٦٩ . وأنا مدينة لبطرس ستيلار ، كلية فيسار، بتوضيح هذا المثل لي.

تتضمن «عنصرا صحيا من إخضاع الفرد للسلطة»^(١). والأمر الغريب فى هذه النتيجة التى وصل إليها «اكشتين» لا سيما إدراكه «للتساوى الواضح» بين الجنسين فى دراسته عن النرويج^(٢). (والتي تمثل نظرية الانسجام جزءا ملحقا بها) - أنه لم يفرق بوضوح بين الجوانب التى تجعل الأسرة ديمقراطية أعنى العلاقة بين أعضائها البالغين، وكذلك الأبناء حتى بلوغهم سن الرشد. والجوانب التى تجعل القرارات الديمقراطية لا معقولة Absurd مثل: هل ينبغى على الطفل فى سن الثلاث سنوات أن يذهب إلى الحضانة أم لا؟. وبالطبع لا أحد يستطيع أن يختلف فى الرأى مع العبارة التى يقول فيها اكشتين «إنه لا يمكن رعاية أى طفل على نحو ديمقراطى»^(٣). غير أن ذلك لا يعنى - من جوانب كثيرة - أن الأسر لا يمكن أن تختلف اختلافا كبيرا فيما يتعلق ببنية السلطة فيها. فلا شك أن درجة المساواة الموجودة بين الوالدين، ومدى احترام الأطفال أنفسهم بوصفهم موجودات بشرية، والمشورة فى اتخاذ القرارات الأسرية كلما كبروا، سوف يُعطى لهم انطبعا قويا سوف يحملونه معهم كجزء من شخصيتهم، إلى مجالات أخرى من الحياة. بما فى ذلك علاقتهم مع المواطنين الآخرين ومع الحكومة.

وعلى العكس تماما من «الانسجام» يمكن رؤية مفارقة الأسرة الأبوية بوضوح فى مجتمع على درجة عالية من الديمقراطية فى كتابات «روسو». ففي بداية كتاب «اميل» يؤكد روسو أن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية الأساسية للمحافظة على المجتمع، والتى تتكيف مع متطلباته ومفتاحه الأمومة الجيدة لإحياء الوعى الجمهورى، وأن الشعور الطبيعى بالحب «للوطن الصغير» هو أهم أساس للحب الذى يدين به المواطنون لدولتهم؛ كما يقول روسو كذلك، وبوضوح تام، بالمشاركة فى قضية عامة، شبيهة جدا بنظرية «الانسجام» التى عرضناها فيما سبق. وفى خطاب

(١) «الانقسام والالتحام» ص ٢٦٢ - ٢٦٣ وص ٢٦٥ .

(٢) «الانقسام والالتحام» ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) «الانقسام والالتحام» ص ٢٢٧ .

إلى «دالمبير» يبرر فيه وجود نوادٍ مدنية يؤكد: «أنه لا توجد دولة ذات بناء جيد لا توجد فيها ممارسات ترتبط بشكل الحكومة وتساعد بالتالي على المحافظة عليها»^(١). غير أنه من الواضح أن الأسرة عند روسو يحكمها الأب الذي تعتمد عليه في رفاهيتها اعتماداً تاماً، ومثل هذه الأسرة ليست بيئة مناسبة لتنمية المشاعر الديمقراطية أو الوعي بالمساواة في نفوس من سيكُونون مواطني المستقبل. الأسرة هي المكان الوحيد في الدولة المثالية عند روسو الذي لا تطبق فيه فكرة الإرادة العامة على الإطلاق؛ وبالتالي من المستحيل أن ترى كيف سيكون من الممكن أن ينشأ المواطنون الصغار، ولديهم أدنى فكرة عن المساواة بين كرامتهم وكرامة الموجودات البشرية المحيطة بهم، إذا ما نشأوا في جو تغيب عنه تماماً فكرة المساواة بين الكبار حيث يمارس عضو راشد واحد دوراً مهيمناً على عضو آخر؛ وتعد أسرة روسو التي يسيطر عليها الأب سيطرة كاملة كارثة، وذلك باعتبارها عاملاً اجتماعياً لجمهورية الديمقراطية.

انتهينا بالفعل إلى أن المساواة بين النساء والرجال لا يمكن التوصل إليها في أية نظرية سياسية بدون إعادة بناء الأسرة إعادة جذرية. وفي استطاعتنا الآن أن نرى بالمقابل أن مثل هذا التحول للأسرة لا يمكن أن يحدث سواء في النظرية أو الحياة الواقعية دون أن يكون له قدر ليس بالقليل من الآثار والنتائج على النظام السياسي المتعلق بالأسرة. فإذا كان هدفنا هو المجتمع الديمقراطي، بحق، أو نظرية ديمقراطية شاملة، فإنه يتعين علينا الاعتراف بأن أي شيء غير الأسرة الديمقراطية التي تقوم على المساواة التامة، والاعتماد المتبادل داخلياً بين أعضائها من الجنسين، أي شيء خلاف هذه الأسرة سوف يكون عائقاً قوياً للغاية في سبيل تحقيق هذا الهدف.

أما الآن فسوف نعود إلى السؤال الثاني الذي طرحناه في المقدمة وهو: لماذا لم يؤد التحرر السياسي الرسمي للنساء إلى المساواة بين الجنسين، وما هو الضوء الذي يمكن أن تلقيه دراستنا الخاصة بمعاملة المرأة في النظرية السياسية على هذا

(١) خطاب إلى دالمبير ص ٩٨ .

السؤال؟. وبالطبع سوف نهتم هنا أكثر بوضع المرأة في العالم الواقعي الحقيقي عالم مجتمعا المعاصر.

النساء اللاتي كافحن ليكون لهن حق التصويت في بدايات القرن العشرين كن على وعى تام بأن تحقيق ذلك لن يكون سوى بداية صراع على نطاق أوسع، وذلك لتحقيق المساواة. وفي عام ١٩٢٢ قام حزب المرأة القومي بتفسير سبب اقتراحه بتعديل المساواة في الحقوق، وقد كان السبب هو التغلب على القيود المفروضة على تعديل وضع حق المرأة في الاقتراع:

«وفي أثناء عملنا على تعديل حق الاقتراع القومي.. بدأنا نؤمن بقوة أننا نتمكن من تحقيق المساواة التامة للمرأة في هذا القرن بتلك الوسيلة. ولكننا كنا فقط نتخذ خطوة هامة للغاية في سبيل تحقيق هذه المساواة أو هكذا بدت لنا...»^(١).

وقد أظهر استمرار التفرقة بين الجنسين في المجال التشريعي فقط أن هؤلاء السيدات كن على حق تماما في اعتقادهم أن حق الاقتراع ليس سوى الخطوة الأولى؛ إلا أن محاولاتهم في اتجاه تعديل حقوق المساواة - كانت فاشلة ، ويوافق معظم أنصار المرأة في يومنا الراهن على أن تحرر النساء سياسيا لم يجلب معه سوى أقل القليل من النتائج، وذلك بالنسبة لوضعها الاقتصادي والاجتماعي وتجربتها الفعلية في الحياة. وعلى الرغم من الافتراض السائد بأن المرأة تملك من القدرات ما يؤهلها للمساواة مع الرجل ببساطة عن طريق إتاحة الفرص المتساوية أمامها. لكن على الرغم من ذلك فإن وضع المرأة في بولتنا من حيث المركز والتعليم والدخل يتضاغل بالتدرج، بشكل مستمر على مدى العقود القليلة الماضية^(٢).

ويجب أن توضع هذه النتيجة في الاعتبار، وذلك في ضوء حقيقة أن عددا متزايدا من النساء سواء كن متزوجات أم غير متزوجات قد دخل بالفعل في مجال

(١) عبارة مابل فيرنون - السكرتير التنفيذي لحزب النساء القومي - هور. ج. رس ٧٥ أمام لجنة البرلمان التشريعية - الكونجرس الثامنة والستين عام ١٩٢٥ مقتبس في كتاب جنسبرج «الجوانب الدستورية للتفرقة المبنية على أساس الجنس» ص ٩ - ١٠ .

(٢) عبارة موجزة من الشهادة في هذا الموضوع انظر «دين نورسن» «الوضع المتدهور للنساء».

القوى العاملة. وعلى حين أنه في عام ١٩٤٠ شكلت النساء ٢٦٪ من القوى العاملة التي يدفع لها أجور، فإنه في عام ١٩٧٧ وصلت هذه النسبة إلى ٤٨٪ حيث شكلت أكثر من ٤٠ بالمائة من إجمالي عدد القوى العاملة التي تعمل بواما كاملاً^(١). وفضلاً عن ذلك فإن معظم النساء يعملن بسبب ضرورة اقتصادية. وفي عام ١٩٧٥ كانت ٤٢٪ من النساء في القوى العاملة غير متزوجات وأرامل، مطلقات أو منفصلات، بالإضافة إلى ١٤٪ لهن أزواج يكسبن أقل من سبعة آلاف دولار في السنة^(٢). وقد أكدت هذه الحقائق عن مشاركة المرأة في القوى العاملة مفهوما خاطئاً بشأن عمل المرأة على أنه مضيعة للوقت أو لتأمين «مصاريفها الشخصية».

غير أن وضع المرأة ضعف كثيراً على الرغم من جهود الحكومة لتحسينه من خلال قانون المساواة في الرواتب لعام ١٩٦٣ - والمادة السابقة من قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٥٤. وكما عبّرت المحكمة الأمريكية العليا في رأيها عام ١٩٧٤ قائلة «سواء كان ذلك نتيجة لتفرقة علانية أو لعملية التكيف الاجتماعي للحضارة التي يسودها الرجل فإن سوق العمل لا يرحب بالمرأة الباحثة عن أي فرصة عمل إلا بالنسبة لذات الدخل المنخفض...»^(٣). وفي الوقت الذي حاولوا فيه جذب الانتباه إلى قلة نتائج قانون المساواة في الرواتب والمادة السابعة المشجعة، صرح القضاة «أن عدة ممارسات عدائية للغاية تقاوم مثل هذه الضغوط» كما استشهدوا بمعلومات ليبينوا أن المرأة العاملة لروام كامل في عام ١٩٧٢، كان لديها متوسط دخل ٧٥,٩ فقط بالمئة من متوسط دخل الرجل أي ست نقاط أقل مما حققته المرأة عام ١٩٥٥. وفي عام ١٩٧٠ في الوقت الذي كان فيه ٧٠٪ من الرجال العاملين يكسبون ما يفوق ٧ آلاف دولار أمريكي كانت نسبة ٢٦,١٪ فقط من النساء العاملات يحققن نفس

(١) «التوظيف من منظور النساء العاملات» - الولايات المتحدة قطاع العمل، إدارة معايير التوظيف، مكتب النساء عام ١٩٧٨ - «النساء العاملات في يومنا الراهن» - الولايات المتحدة، قطاع العمل، مكتب النساء ١٩٧٦ ص ١.

(٢) «لماذا تعمل النساء» الولايات المتحدة قطاع العمل، مكتب النساء ١٩٧٦ ص ١.

(٣) «كان ضد شنن» ٤١٦ الولايات المتحدة (١٩٧٤) في ٢٥٣.

الدخل أو أعلى منه^(١). وفضلاً عن ذلك ففي الوقت الذي تعد فيه أسباب هذا التباين في الرواتب بلا شك نتيجة للاختلافات في التدريب أو التعليم - فإن الكثير منها ليس كذلك بالطبع. وفي عام ١٩٧٢ كان متوسط الدخل السنوي للمرأة التي درست في الجامعة أربع سنوات يفوق دخل الرجل الذي لم يتم عاما واحدا من تعليمه الثانوي بـ مائة دولار أمريكي بالضبط، وعلى الرغم من قانون المساواة في الرواتب، فإنه من المعتاد أن تتقاضى المرأة راتبا أقل بكثير من الرجل على الرغم من قيامها بمهام متماثلة أو شبه متماثلة. فمثلاً في عام ١٩٧٠ كان متوسط دخل المرأة العاملة في مجال المبيعات أقل من نصف متوسط دخل نظيرها الرجل، كما كانت المرأة ذات المهارة والتدريب العملي والخبرة، تتقاضى ما يعادل ٦٧,٥٪ من دخل الرجل الذي يشاركها نفس المنصب والمهارات^(٢).

وبالطبع فإن التفاوت في مكافأة التعويض - المعتمدة في حد ذاتها على التباين في التعليم والتدريب - من الممكن أن ينسب بطريقة غير مباشرة إلى التفرقة بين الجنسين على نحو ما هو واضح في سياسة القبول في مؤسسات التدريب والتعليم، والمفاهيم عن الذات والآمال التي يكتسبها الأولاد والبنات أثناء عملية التنشئة الاجتماعية. وعلى الرغم من تغير توقعات وآمال المرأة، ولا سيما في الطبقة المتوسطة، فإنها ما زالت بعيدة عن الغاية عن تلك التي يكون الرجال على استعداد لتحقيقها. ونرى بوضوح أن عدم مساواة المرأة مع الرجل المستمرة، وليس فقط بالنسبة للعاملات، أنها تدعم وظائف هامة في الاقتصاد الرأسمالي الذي نعيش فيه الآن. وخارج نطاق القوى العاملة المتعارف عليها، تقوم المرأة بالمهام التي تتعلق بشكل طبيعي بها كأمراة مثل: رعاية الأطفال، والأعمال المنزلية، والتي لا يتم تقديرها من الناحية الاقتصادية على الإطلاق. وكما وضع عدد من مؤيدي المرأة، فقد أدت الأفكار التقليدية بشأن الأسرة، والمهام الشخصية المعتمدة على جنس صاحبها

(١) «هوة الدخل بين النساء والرجال» الولايات المتحدة قطاع العمل - مكتب النساء عام ١٩٧٦ ص ١ .

(٢) «هوة الدخل» ص ٢ - ٣ و ص ٨ .

بها إلى تسهيل التفرقة الواضحة بين القطاعين العام والخاص^(١). ومن ناحية، يوجد ذلك العمل المنتج المعروف، والذي يؤديه الرجل والمرأة في أماكن العمل خارج المنزل، ويتلقون عليه أجراً؛ إلا أنه ما زال مرتبطاً بجنس العامل. ومن ناحية أخرى، ما زال يوجد ذلك العمل المنتج الذي تقوم به المرأة في المنزل والذي لا يُعترف به نوعاً ما، ولا تتقاضى عنه أجراً، كالأعمال المتعلقة بالولادة والتربية وصحة وسلامة القوى العاملة. ولا يمكن أن ننكر أن ما تعطيه الزوجة والأم هو في حد ذاته عمل، ونو أهمية كبرى. وعلى الرغم من ذلك، ليس من المعتاد النظر إليه على اعتبار أنه عمل: «فالأمهات العاملات» هن الأمهات اللاتي يعملن خارج بيوتهن فقط - وخاصة في هذه السن من الإدراك العام. وكثيراً ما يُنظر إلى كل من ولادة الطفل وتربيته على أنها رفاهية، وانغماس في الحياة الخاصة؛ وليست عملية اجتماعية شديدة الأهمية.

أما بالنسبة لمشاركة المرأة المتزايدة في مجال العمل خارج المنزل، فقد كانت عاملاً هاماً في تشكيل القوى العاملة المعاصرة^(٢). وتقوم المرأة بتأدية قدر متزايد من العمل في مقابل القليل للغاية من الأجر، مقارنة بما يقوم به الرجل، ويتلقى عليه أجراً معقولاً. ويبرر ذلك تبريراً ملائماً، ولكنه خيالي بعض الشيء بأن المرأة جزء من الكيان الأسري، يقوم الرجل بدعمها بشكل كاف. وبالإضافة إلى تدفق المرأة السريع بقطاع المبيعات، والخدمات المتزايدة، فإن نسبة المرأة في المهام التي كان يُنظر إليها باعتبارها خاصة بالرجل تتزايد بوضوح بدلاً من تناقصها. وبقليل من التدريب المتخصص، والتكيف الاجتماعي، مما يجعلها تنظر إلى مشاركتها في القوى العاملة كمجال أقل أهمية في حياتها، تقوم المرأة بوظائف لقاء أجر زهيد في مجال عدة صناعات مهمة، وكان أغلبهم من الرجال، وذلك قبل أن يتم تجزئة هذه الوظائف،

(١) انظر مثلاً إيلي زارتسكي «النظام الرأسمالي، الأسرة، والحياة الشخصية» أجزاء ١ و ٢ وجوليت ميتشل «منزلة المرأة». ومارجريت بنستون «الاقتصاد السياسي لتحرير النساء». وشارتي جوتل «الماركسية، وقضية المرأة».

(٢) تعتمد القراءة التالية تماماً على الشهادة والتحليل المعروضتين في كتاب سميث ومولر «أهمية أن تكون هامشياً».

وإدخال التقنيات العالية عليها. وبالنسبة لأي رأسمالي ، فإن المميزات الواضحة لهذا هي أن تكلفة العمالة كبيرة (ستحتاج إلى زيادة متوسط أجر المرأة العاملة لدوام كامل بنسبة ٧٥٪ وذلك لكي يتماثل مع أجر الرجل). كما أن قدرته على السيطرة على القوة العاملة لديه تكون أكبر. وبما أن المرأة التي تؤدي العمل الآن تعد أقل تدريباً وتوحداً في نقابة من الرجل الذي كان يؤدي نفس العمل ويصبح ضابطها، وكذلك طردها من العمل أو استبدالها، أسهل بكثير. وفضلاً عن ذلك تُعد المشاركة واسعة النطاق للمرأة في القوى العاملة عاملاً مهماً للغاية، يحافظ على معدل عالٍ من البطالة، ويزيد بدوره من سيطرة أصحاب العاملين لديهم.

ارتباط المعلومات السابقة كلها عن عدم مساواة المرأة بالرجل المعاصرة - بمعاملة المرأة وفقاً للنظرية السياسية هي - كما كانت في الماضي - استمرار لاضطهاد المرأة يدعمه - أيديولوجيا - بقاء أساليب التفكير الوظيفي. ولما كانت المرأة تُعرف، وظيفياً، من حيث علاقتها بالرجال. ومن ثم تحرم من التعليم والحقوق، وفرص المشاركة في المجال السياسي ، فإنها اليوم - رغم أنها مواطن حر - فإنه يعوقها بشدة واقعة أنه لا تنشئتها الاجتماعية ولا تدريبها، ولا التوقعات المنتظرة منها، ولا الفرص أو المكافآت الممنوحة لها في حياتها الناضجة - ذلك كله لا يساعدها على تحقيق مساواة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية مع الرجل، ومع استخدام الأسرة النووية التقليدية التي لا يمكن الاستغناء عنها على أنها حلقة الوصل التي تتسع بواسطتها الفروق البيولوجية بين الجنسين إلى مجموعة كاملة من الصفات والوظائف المفروضة على المرأة والتي تشكل نورها المتعارف عليه. ولا تزال المحاكم، كما سبق أن رأينا، تستخدم تعريف النساء من زاوية نورهن بوصفهن الزوجة. والأم، وكذلك المجتمع بصفة عامة، لتبرير ألوان كثيرة من التفرقة ضدنهن لا سيما في مجال التعليم والتوظيف.

وعلى الرغم من أنه من الواضح أن الظلم الذي تعاني منه المرأة في مجال العمل، لا يمكن أن يُرفع إلا إذا تمّ التخلص مما تواجهه المرأة في مجال التعليم. فما زالت تجربة تعليم النساء يقيدنها ذلك الإيمان بأن المرأة خلقت للمنزل وهو نفس

الاعتقاد الذي ظل يلاحقها في مجال العمل أيضا. وكما ذهب أحد علماء الاجتماع مؤخرا فإن التمييز على أساس الجنس هو حقيقة واقعة بلا شك في مجال العمل يدفعه في هذا الصدد ذلك التوجس الاقتصادي المرتبط بحلقة الزواج، والحمل، والأمومة، وما يستتبع ذلك من الغياب الجسدي والنفسى للمرأة. وإن لم يكن هناك من الأدلة ما يدعم هذا الطرح»^(١). على أن ما يزيد من وطأة استغلال المرأة في ميدان العمل هو ذلك التصنيف المتدنى لهن في الأجر، وعدم جدارتهن بالمزيد، وتبعاً لذلك، خروجاً (من نطاق الأسرة) إلى المجتمع الكبير، فإنه يُنظر إلى المرأة على أنها خلقت في المقام الأول للقيام بوظائف تربوية متميزة، ويُنظر إلى المرأة ذات العقل الراجع على أنها استثناء من القاعدة...»^(٢).

وهذا الأسلوب في التفكير يعكسه كتابات «تالكون بارسون» و«أريك أريكسون» وقد سبق أن قمنا بتحليله. فذلك التقييد لدور المرأة بحيث لا تخرج عن إطار قدرتها الإنجابية من شأنه أن يبقئها في وضع تفتقد إلى المساواة في مجال العمل. وهذا بدورها يثنيهن عن التطلع إلى الفرص - أو إذا كان لها حق الاختيار عن التطلع إلى العمل على الإطلاق. ويعزز من الترويج لفكرة أنها لا قبل لها على القيام بالأعمال الوجيهة، وتلك التي تتطلب تحدياً من نوع خاص. والقول بأن مكان المرأة هو المنزل هو - إلى حد بعيد - نبوءة تتحقق ذاتياً.

وعلى ضوء ذلك كله، فليس غريباً أن يطالب قطاع عريض من أنصار المرأة المعاصرين بإلغاء الأسرة على اعتبار أنها مؤسسة طالما أسهمت في قهر النساء، فإن «أوكللي» - على سبيل المثال - تهاجم الأسرة نفسها، كما أنها لا تتورع عن مهاجمة تحليل بارسون لها^(٣)، حيث تقول إن إلغاء دور ربة المنزل، وذلك الافتراض التلقائي

(١) دين نودسن «الوضع المتدهور للمرأة» ص ١٩٠ .

(٢) اليس س . روسي: «المساواة بين الجنسين» ص ١١١ .

(٣) عمل المرأة ص ٢٢٤ وص ٢٣٦ .

بأن نور المرأة هو تربية الأطفال - هي خطوات ضرورية في اتجاه تحقيق المساواة التي تنشدها النساء. وإن كانت هذه الخطوات هي في حد ذاتها ليست كافية، ذلك أنه ينبغي إلغاء مؤسسة الزواج أيضاً، لأنها معوق أساسي في سبيل المساواة بين الجنسين في مجال العمل». على أنني أتفق أنه - وفي الظروف الحالية - فإننا إذا ما نظرنا إلى أوضاع العمل والزواج نجد أن الزواج فعلاً هو «معوق أساسي». ويؤكد ذلك على سبيل المثال أن نسبة النساء العاملات في إنجلترا من بين من لم يتزوجن تفوق نسبة الرجال الذين يحترفون العمل بثلاث بل بأربع مرات. على أن هذا ليس معناه أنه بالنظر إلى التغيرات الجذرية التي طرأت على هيكل وظروف العمل، فإنه يستحيل تواجد هيكل أسرى معدل متوافق مع المساواة بين الجنسين في المجال المهني.

وتخطو «شولاميث فايرستون» خطوة كبيرة أبعد في هذا الاتجاه بتطلعها إلى ذلك اليوم الذي لا يتم فيه القضاء على مؤسسة الزواج فحسب، بل وتحرر فيه النساء تماماً من الحمل والإنجاب^(١) فكما أشرنا، فيما سبق، فإن «فايرستون» لديها الحق في القول بأن الأسرة: «قد ساهمت في تأصيل الفئوية الجنسية من منطق بيولوجي» وأن «هيكل الأسرة هو مصدر للقهر النفسي، والاقتصادي، والسياسي للمرأة»^(٢). غير أن ذلك لا يعنى - من ناحية أخرى - أن نعترف أن أى تركيب أسرى هو بالضرورة غير متوافق مع المساواة بين الجنسين. وفضلاً عن ذلك فإن «فايرستون» ترتكب الخطأ نفسه الذي وقع فيه معظم مناهضى حقوق المرأة وهو اعتبار نور المرأة في المنزل، والمتعلق بالضرورة بالإنجاب من الناحية البيولوجية، وتؤكد على ذلك بقولها: «إن الطبيعة هي التي أوجدت اللامساواة الجوهرية، إذ يتعين على نصف البشر أن يقوموا بولادة وتربية أبنائهم جميعاً»^(٣). وتنتهى «فايرستون» إلى أن الطريقة الوحيدة لتحرير المرأة هي أن يحل الإنجاب الصنّاعى محل الإنجاب

(١) «جدل الجنس» خاتمة، في أماكن متفرقة.

(٢) «جدل الجنس» ص ٢١٢ و ٢٢١ .

(٣) «جدل الجنس» ص ٢٠٥ .

الطبيعى خلافا لما يقوله أعداء تحرير المرأة من أن دور المرأة المتعلق بجنسها لا يمكن الاستغناء عنه.

على أننا ينبغي أن نعترف أولاً : أنه فى غياب همزة الوصل الخاصة بتقسيم الأنوار بين الجنسين فى الأسرة، لن يكون هناك سبب لكى يجعل ولادة المرأة لطفل يلزمها بتربيته بمفردها. وثانياً: فإن فارستون مقتنعة بأن الوسائل الصناعية للإنجاب تُعدّ أساساً ضرورياً لمساواة المرأة مع الرجل، بناءً على رؤيتها لوظيفة المرأة الإيجابية عبارة عن وظيفة «بربرية»، و«خرقاء وغير فعالة»، و«استبدادية» و«ظالمة تماماً»^(١). وبالطبع على الرغم من أنه يمكن أن توصف عملية الإنجاب بأنها ظالمة وبربرية بالنسبة للمرأة فى مجتمع شديد التحيز للتفرقة بين الجنسين يتحكم فيه الرجل، فإنه ليس ثمة ما يبرر مثل هذه الأحكام القاسية عن تجربتى الحمل والولادة فى ذاتهما. والواقع أن كون المرأة هى عامل الإنجاب الأساسى فى المجتمع فى حد ذاتها ليس هو السبب الذى أدى إلى ظلمها، وإنما كان السبب حدوث الإنجاب فى نطاق كيان يحكمه الرجل تماماً، وقد اعتبر كياناً خاصاً أكثر منه كياناً اجتماعياً، حيث بدا وكأنه يُملأ على المرأة حياتها بالكامل، وعلى أنه يعرف طبيعتها ذاتها.

وقد حذر عدد كبير من أنصار المرأة من الرغبات السطحية والموجهة اتجاهاً خاطئاً نحو إلغاء الأسرة. فهم لا يعتقدون أن الهجمات السلبية الشديدة على بنية الأسرة ستقوم بحل أى شيء، وذلك على الرغم من نظرتهم إلى البنية الحالية للأسرة على أنها مؤسسة تظلم المرأة من حيث قيامها بخدمة وظائف هامة للرأسمالية، وأيديولوجية الأسرة بوصفها دعماً قديماً للعهد لعدم مساواة النساء مع الرجال^(٢).

(١) «جدل الجنس» ص ١٩٨ و ص ٢٠٦ و ص ٢٢٥ - ٢٢٦ و ص ٢٤١ .

(٢) مثلاً ميتشل «منزلة المرأة» ص ١٤٩ . وروبوتمان «وعى المرأة، وعالم الرجل» ص ٥٩ - ٦٠ . روسو «منظور بيولوجى اجتماعى عن الوالدية».

ومن الواضح أن صراع أنصار المرأة ضد «ما تمليه الطبيعة» يتجسد في أعمال جوليت ميتشل في إدراكها لأن الخط الذي تسير فيه هذه الحجة هو فكرة كيان الأسرة. وتفسر ميتشل ذلك بقولها: -

«إنه على الرغم من أن الأسرة - مثل المرأة - تبدو شيئاً طبيعياً، فإنها في الحقيقة نتاج ثقافي. وليس ثمة شيء ضروري عن شكل الأسرة ودورها، أكثر مما يوجد عن شخصية المرأة أو دورها... إن هدف الأيديولوجيا هو تقديم هذه الأنواع الاجتماعية على أنها جوانب من الطبيعة ذاتها... ومن الممكن جعل الحالة الطبيعية الواضحة أكثر جاذبية من ميل البشر الشديد نحو الثقافة»^(١).

لقد كان هدف «ميتشل» هو تحقيق المساواة للمرأة كنتيجة لانتصار الثقافة على الطبيعة؛ وفي بحث رائع أولاً ثم في تطويره ككتاب بعد ذلك، ذهبت إلى أن جنور مشكلة نور المرأة هي أن وظائفها داخل الأسرة نُظر إليها على أنها مترابطة ذاتياً^(٢). ولم تستطع المرأة التحرر من القيود الوظيفية النمطية في الماضي إلا عند إدراك أن الإنجاب، والجنسية، والتنشئة الاجتماعية للأطفال - رغم اندماجها في الدور التقليدي للأنثى يمكن في الواقع فصل بعضها عن بعض.

وكما رأينا في نطاق هذه الدراسة فإن طبيعة المرأة المزعومة، قد استخدمت على مر التاريخ، وحتى يومنا الراهن لتبرير بقاء المرأة في مكانة غير متساوية مع الرجل: سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً. ومن الواضح من خلال الحجج المعقدة من أرسطو، وحتى الباحثين النابغين، وقضاة المحكمة العليا في القرن العشرين، أن طبيعة المرأة قد تم وصفها وصفاً تفصيلياً وفقاً للمهام التي قامت بها في عالم كان للرجل فيه اليد الطولي، وخاصة في نطاق الأسرة التي يتحكم فيها الرجل، والتي أصبحت محددة بما يتلاءم مع ما تمليه الطبيعة. وذلك بسبب الأوار المبنية على الجنس في إطارها. الاختلافات البدنية، القليلة ولكنها ذات مغزى، بين الرجل والمرأة

(١) «منزلة المرأة» ص ٩٩ - ١٠٠. وانظر أيضاً كريستين بيرس «لغة القانون الطبيعي والنساء». ففيه مناقشة ممتعة لاستخدام مفهوم «الطبيعة» لقمع النساء.

(٢) «النساء: أطول ثورة. منزلة المرأة» الفصلان الخامس والثامن لا سيما ص ١٠٧ و ص ١٥٠.

كالقُدرة على الحمل والرضاعة، والقوة العضلية الأني. كل هذه الأمور تمُّ النظر إليها على أنه يترتب عليها نطاق واسع من الاختلافات الطبيعية بين الجنسين: اختلافات أخلاقية، وعقلية، وعاطفية، ولما كانت النظم السياسية، والقوانين، والمؤسسات، وعمليات التنشئة الاجتماعية، قد قامت بفرض مثل هذه الأفكار - فقد أدى ذلك إلى إعاقة المرأة كإنسان وشلُّ حركتها. وعجزت شخصيات من كلا الجنسين عن تطوير شخصياتها وإمكاناتها بحرية.

إن مَنْ يدرك اليوم الصفات المتفق عليها في النساء، ومَنْ أدرك خصائص النساء في القرن الرابع قبل الميلاد، أو في أى وقت آخر، على أنها «طبيعة المرأة»، هؤلاء جميعاً رفضوا الاعتراف بأن شخصية المرأة كانت نتاجاً للمجتمع أو أنها على أقل تقدير قد شكلتها المجتمعات التي عاشت فيها والتي كان الرجل هو المتحكم الأول فيها. وكما أدرك أفلاطون قديماً وجون ستوارت مل حديثاً أنه لا أحد يعرف طبيعة المرأة، واختلافها عن الرجل، ولن يستطيع أحد أن يعرف ذلك حتى يستطيع كل من الرجل والمرأة النمو والترقي، وذلك في غياب أى تفرقة بين الجنسين خلال عملية التنشئة الاجتماعية وعلى مدى حياتهما بأكملها. وحتى إذا لم نعلم ما هي طبيعة المرأة، فإنها تستحق التوقف للتساؤل عن التداعيات التي ستلى ذلك سواء نظرياً أو عملياً. وبعبارة أخرى ما هي «القيمة» التي تملكها «الطبيعة» كمعيار لقياس السلوكيات البشرية أو المؤسسات أو الممارسات...؟!.

وكما أوضح عدد من أنصار حقوق المرأة، وكما بينَ ماركس عند مناقشته للعلاقة بين الجنسين، فإن الحضارة المعاصرة بعيدة جداً عن الطبيعة، وكذلك فإن عملية التاريخ البشرى كانت إلى حد بعيد، قهراً للطبيعة، وجعل الثقافة تحتل موقع الصدارة بالنسبة لها. وهكذا نجد أن «الطبيعة البشرية»، عندما كانت تُفهم لتعني الخصائص الجوهرية للبشر بصفة عامة - لم تكن شيئاً ثابتاً بمرور الوقت وسوف يداوم على ثباته، وإنما هي شيء تمُّ تحقيقه كمحصلة لمرور الآلاف من السنين: الرجال والنساء، كأفراد مستقلة، وكذلك في علاقاتهم بعضهم مع بعض، لديهم الطاقة الكامنة الكافية ليصبحوا بشراً أكثر تميزاً، وبالتالي اختلفوا عن الحيوانات

الأخرى، وعن طريق تحررهم إلى حد كبير من ضغوط الواجبات المفروضة عليهم، بطبيعة الحال، يستطيع البشر تحقيق قدراتهم البشرية تحقيقاً تاماً^(١).

وفضلاً عن ذلك لم يتم تطبيق متطلبات الطبيعة. في نطاق الإنجاب فقط ولكن كذلك في نطاق التكاثر. وبالطبع فإن العديد من كتابات ماركس معنية بالعملية التاريخية لتحرير البشرية ذاتها من الضغوط الشاقة والتي كان من نتائجها وسائل المعيشة للبشر، وتحقيق ذلك «المجال من الحرية» في النهاية، والذي سيتمكن جميع البشر من خلاله من الإبداع والعيش حياة ليست حيوانية بل شديدة الأدمية واجتماعية للغاية لأول مرة. ومن الواضح أن الطبيعة البشرية لا بد أن تتأثر، وبشكل ملحوظ، سواء أكانوا يريدون قضاء ساعتين أو اثنتي عشرة ساعة يكدهون يومياً في سبيل توفير الطعام والكساء لأنفسهم؛ وكذلك بالظروف التي تحدث عملية التناسل في نطاقها إلا أن لهذه الصورة جانباً آخر مهماً جداً بالنسبة للمرأة، ألا وهو تحرير البشرية بأكملها من الضغوط الدائمة الناتجة عن الحاجة إلى التناسل، وذلك بالنسبة للمرأة بشكل خاص بسبب تكوينها البدني.

ولقد أدت الطفرات العلمية التي أطالت من الحياة بصفة عامة إلى القضاء على الأوبئة نهائياً، وقللت إلى حد كبير وملحوظ من وفيات الأطفال، بمعنى أنه لم تعد هناك حاجة إلى أن تقضى المرأة سوى جزء ضئيل من حياتها لإنجاب العدد الكافي من الأطفال للحفاظ على معدل التعداد السكاني. وفضلاً عن ذلك فقد وفرت التكنولوجيا طرقاً يمكن الاعتماد عليها أكثر لتحديد النسل، وأخرى أكثر أماناً لوسائل الإجهاض التي يمكن لكل امرأة اختيارها إذا ما كانت، أو عندما، تريد إنجاب الأطفال. وكما أثرت خصائص سبل الإنتاج على تقدم البشر وطبائعهم، كذلك أثرت على وسائل التناسل. ولا يمكننا أبداً الادعاء بأن طبيعة المرأة التي تعلم أنه في أية لحظة، ولدة ثلاثين عاماً، من الممكن أن تصبح حاملاً، وأنه في سبيل تربية

(١) انظر المقدمة - فيما سبق. وأيضاً سيمون دي بوفوار «الجنس الآخر» الخاتمة لا سيما ص ٤٤٩ .
وبنيامين باربر «تحرير النساء» لا سيما الفصل الثالث.

طفلين، يجب أن تتجنب اثني عشر طفلاً، هي ذاتها طبيعة حال المرأة التي تستطيع التحكم في جسدها بشكل كافٍ لقضاء عامين مخطط لهما مسبقاً من حياتها في عملية التناسل مع تحقيق النتيجة نفسها في النهاية. وهناك فكرة تتفق مع فكر موريس بخصوص الإنتاج تقول إنه من الممكن أن تحقق المرأة حرّيتها وأن تطور طبيعتها البشرية تطوراً كاملاً. وذلك فقط عندما يصبح إنجاب الطفل وتربيته نشاطاً تختاره بحرية، بحيث يكف عن إملاء أسلوب حياة كاملة عليها.

ولكى تتحقق هذه الأوضاع الاجتماعية فإننا نحتاج إلى أكثر من ثورة في التكنولوجيا، إننا نحتاج إلى أن تتزامن معها أيضاً ثورة على الظروف، وطرق التفكير، وعلى الرغم من أن ذلك قد بدأ بالفعل إلا أنه لم يكتمل بأي شكل من الأشكال. وهذه الثورة الأخيرة ينبغي أن تحقق غايتين: أولاً: يجب أن تعتبر الأمومة شيئاً خاضعاً لحرية اختيار المرأة. وبالطبع، فإن منع الحمل في حد ذاته لا يجعل تربية الأطفال أمراً اختيارياً. إذا كانت تنشئة المرأة اجتماعياً موجهة إلى حد كبير، نحو الأمومة، أو إذا لم يتم دعم المرأة أو تقديرها تقديراً غامراً، في أي مجال من المجالات الأخرى في الحياة. وثانياً: يجب أن تنجح الثورة في التفرقة، - بوضوح - بين تلك الجوانب الخاصة بالإنجاب التي تخص المرأة بيولوجياً، مثل الحمل بالضرورة، والرضاعة إذا شاعت - عن تلك الجوانب الخاصة بتربية الأطفال لمدة طويلة، والتي لا يتحتم أن تكون وظيفة المرأة، إلا أنها قد تم جعلها تبدو كذلك على حساب البناء الأسري المتعارف عليه. وكما رأينا في حالة «فايرستون» فإن بعضاً من أنصار المرأة، وأيضاً بعضاً من مناهضيها، وقعوا في فخ اعتبار تربية الأطفال شيئاً لا ينفصل عن إنجابهم، وهو ما يعنى ، بالطبع، أنه إذا كان إنجاب الأطفال من مهمة المرأة، فإن تربيتهم كذلك تكون من مهمتها.

والآن فلما كانت التكنولوجيا قد أعطت المرأة وسائل لتحديد النسل (من حيث المبدأ، على الرغم من عدم ممارستها بصفة عامة). فإنه يوجد احتمال أكبر لتحقيق الفصل بين المهمتين. وواقعة أنه أصبح لدى العديد من النساء الآن الحرية التامة - وإننا لنأمل في المستقبل أن تكون لدى جميع النساء - الحرية لاختيار أن ينجبن

أطفالاً، ومتى يقمن بذلك عندما يردن، مما يعنى أنه ليس ثمة حاجة لأن تعتبر حياة المرأة - عن طريق تصورها هي أو تصور المجتمع لها - تملئها عليها مطالب الأمومة البدنية.

أما بالنسبة لتنشئة الأطفال اجتماعياً - فى الوقت الذى تكون فيه ذات أهمية بالغة - فلا يوجد أي سبب يجعلها مهمة امرأة واحدة أى ألام الولادة. وفى هذه المساحة فإنه يتعين تغيير التكوين الأسرى الذى ساد على مر العصور تغيراً جنسياً. وذلك إذا ما أردنا للمرأة أن تتساوى مع الرجل. ورغم ذلك فما زال هناك العديد من الناس ممن يؤمنون بأن التقسيم المعتاد للأوار بين الجنسين ، وخاصة فيما يتعلق بتربية الأطفال، ذو أهمية شديدة لدعم استقرار الحضارة وكذلك لا يمكن الاستغناء عنه، وذلك للحفاظ على الوحدة الأسرية. وكما سبق أن رأينا فإن كلاً من «باسوت» و«اريسكوث» يجسدان مثل هذا الأسلوب من التفكير.

وهناك كتابان حديثان شهيران «لجورج جلدز» هما: «الانتحار الجنسي» و«البدانة العارية»^(١). مبنياً على الافتراضات ذاتها، بالإضافة إلى إيمان الكاتب. أن الرجل بما أنه أقل تحضراً بشكل ظاهر، فإن ذلك يستدعى أن تقوم المرأة باستمرار «بتنشئته اجتماعياً» وحتى خلال حياتهما كبالغين. وعندما اعترض «ريتشارد نيكسون» على مذكرة لرعاية الطفولة فى عامى ١٩٧١ - ١٩٧٢ ، فقد كان ذلك على أساس أنها ستؤدى إلى تدمير الأسرة الأمريكية^(٢). ولقد تضمن تعريفه للأسرة الأمريكية - بوضوح - إجراءات رعاية الأطفال بشكل كامل فى نطاق الوحدة الأسرية.

من خلال تفانى المرأة فى سبيل هذا الهدف فى الوقت الذى يقوم فيه الأب بدعم الأسرة بالكامل. والواقع أن حوالي أكثر من نصف الأسر الأمريكية الموجودة الآن لا تتلاءم مع هذا التعريف الافتراضى، كما أنه من الممكن تخيل العمل على تحقيق تركيبة أسرية لا يتم فيها افتراضى أي من هذه الأمور

(١) نيويورك عام ١٩٧٣ - ونيويورك عام ١٩٧٤ .

(٢) اقتبس دى كرو فى «العدالة بين الجنسين» ص ٦٠ .

ومن الواضح أن مبدأ عدم المساواة القديم في الأسرة هو السبب وراء الحافز على تحطيم قداستها. وعلى الرغم من ذلك، فإن عدم المساواة السائدة في الماضي، ينبغي أن لا يعوق تحقيق بنية أسرة تعنى بالمساواة بين الجنسين في المستقبل.

وينبغي أن يكون هدفنا أن يأتي اليوم الذي يتقاسم فيه الجنسان رعاية الأطفال. وهذا أمر لا غنى عنه، إذا كان للنساء أن ينعمن بالمساواة، وذلك لثلاثة أسباب:

أولاً: أن الغالبية العظمى من النساء اللاتي صرن أمهات، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكن أندادا للرجال في القوة العاملة، أو في أي مجال من مجالات النشاط خارج البيت، في الوقت الذي تكون فيه حياتهن العاملة، خاضعة على مدى عدد من السنين لتأثير تحملهن للمسئولية الكاملة عن تربية الأطفال. فالنساء في الوقت الحالي يعانين من الإعاقة في مجال العمل والنشاط العام، وليس مصدر هذه الإعاقة الوحيد أن معظم النساء ما زلن يتحملن بالفعل، قدرا أكبر من المعقول من المسئولية عن الأعمال المنزلية، ورعاية الأطفال، ولكن تتبع الإعاقة أيضا من أن النساء - حتى إذا لم يتحملن تلك المسئولية - فإن هذا ما يتوقعه العالم منهن بصفة عامة، أي أصحاب العمل، والمحاكم، والناخبين، وغير هؤلاء من الأشخاص والمؤسسات التي لديها القدرة على التحكم فيما تفعله النساء في العالم الخارجي والذي يمارس التمييز ضدهم بالقدر الذي وصفناه فيما سبق.

ثانياً: عندما يشارك الرجال بالتساوي في مهام مثل الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال - عندئذ فقط سوف يُنظر إلى هذه الأعمال على أنها لا تقل أهمية وقيمة عن الأعمال «الذكورية» التي يراها المجتمع حالياً، أعمالاً منتجة ويكافئ القائمين بها، يدفع المال لهم وأحيانا بمنحهم مكانة مرموقة، حينئذ لن يكون هناك «عمل نسائي» من درجة أدنى، ولن يلحق النساء وحدهن في القوة العاملة وفي المنزل - بأعمال ذات مستوى أدنى مثل أعمال الرعاية المعبرة عن النفس والمساندة والتي يحصلن في مقابلها على أجور منخفضة.

ثالثاً: من الواضح أن الأطفال يكتسبون الأنوار التقليدية للجنسين بتمثلهم لسلوك الأبوة كما يقول بارسونز. فالبنت والأولاد لا يمكن أن ينشأوا وقد تكون لدى

هؤلاء وأولئك أفكار متفتحة عن أنفسهم، وعن أنواع الحياة التي يريدونها هؤلاء وأولئك في المستقبل - إلا إذا شاهدوا البالغين ولا سيما أقرب البالغين إليهم - الأبوين - وهم يقومون بجميع أنواع الأنوار ويعبرون عن أنفسهم من خلالها. ولا يمكن أن يتحقق أى من هذه الأهداف الثلاثة إلا إذا حدث تقاسم للأعمال المنزلية، وحلَّت «الوالدية» محل الأمومة .

ولكى يتحقق ذلك، لا بد أن تحدث تغييرات كثيرة فيما يتعلق بالدمج بين الوظائف التي ما زالت حتى الآن تُعدّ الوظائف الخاصة وغير المنتجة للحياة الأسرية، وبين العمل العام المنتج في إطار اقتصاد السوق. فمن ناحية، يمكن أن يتم القيام بالقدر الأعظم من الأعمال المنزلية الخاصة - ولا سيما رعاية الأطفال (ذلك العمل الذي يستغرق الكثير من الوقت) - خارج البيت . أحد الحلول لتلك المشكلة هو توفير مراكز الرعاية النهارية الجيدة المدعومة التي يمكن الوصول إليها والتي يعمل بها أفراد من الجنسين. ولكن بالإضافة إلى ذلك لا بد أن يتم تخليص بنية العمل، والظروف التي يتم فيها خارج المنزل من عدم المرونة التي صارت تتصف بها والتي قامت على الاعتقاد بأن النساء مسئولات عن البيت والأسرة. ولا بد أن يغير أصحاب العمل والمؤسسات من مواقفهم إزاء الرجال والنساء ولا بد أن يكفوا عن اعتبار النساء تابعات، وملحقات بأزواجهن، مستعدات دائماً لأن ينقلن من مكان إلى آخر، وكأنهن قطع أثاث. وأن يعطين وقتهن طواعية ومجاناً حتى يرتقى الرجال في مجال عملهم، وأن يقبلن أجراً منخفضاً، وعدم الاطمئنان على نواام العمل الذي يحصلن عليه خارج المنزل. وذلك لأنه من المفترض أن رجلاً يقوم بإعالتهن، وأن يكون لديهن الاستعداد لأن يقبلن طواعية تحمل مسئولية رعاية الأطفال تحملاً كاملاً. ويجب أن يقر أصحاب العمل والمؤسسات، وكذلك القانون، بأن الأب يتساوى مع الأم في قدر المسئولية الذي يتحملة في رعاية أطفالهما. وعندما تتحقق هذه المرونة الجديدة، وعندما يُعترف بأن يوم العمل المكون من ثمانى ساعات ليس أكثر قداسة من يوم العمل الذي كان يتكون من عشر أو اثنتى عشرة ساعة، عندئذ فقط سوف يصبح من الممكن أن نخلق مجتمعاً يتقاسم فيه الرجال والنساء مباحج وأعباء المهام التي يجرى

تقسيمها بيد كل منهما تقسيما تعسفيا. إن إمكانية أن تتحقق تغيرات كنتك داخل إطار الرأسمالية هو سؤال يجب البحث فيه خارج مجال هذا الكتاب. ويكفى الآن أن نقول: نظرا للمزايا التي من الواضح أن الرأسمالية تحصل عليها عن التفرقة بين أدوار الجنسين في الوقت الحالي - ولا سيما العمل المضنى الرخيص أو المجانى الذى تقدمه النساء - فإن التغيرات المذكورة من المتوقع أن تلقى مقاومة شرسة من أصحاب القوة الاقتصادية وأصحاب المصلحة فى إبقاء الوضع على حاله.

لقد وصلنا فى تطورنا التكنولوجى والاقتصادى إلى نقطة ينبغى أن تمكننا من الاستغناء عن الأدوار الجنسية تماما باستثناء، حرية اختيار المرأة لممارسة قدرتها الإنجابية. فالنساء اليوم (من حيث المبدأ، وليس من حيث الممارسة الفعلية حتى الآن) فى موقف يناظر من ناحية مهمة موقف الحراس فى «جمهورية» أفلاطون. كان من المقرر أن يقوم حكام تلك الدولة المثالية بتقييد عملية الإنجاب للحراس، غير أن التكنولوجيا الحديثة منحت النساء السيطرة، ولأول مرة على أجسامهن، وحررتهن من الالتزام بأن يقضين حياتهن فى فترة البلوغ، وهو: ينجب الأطفال، لقد كان من الضرورى - من وجهة نظر أفلاطون - إلغاء الأسرة حتى يتمكن من السيطرة على الإنجاب على هذا النحو. ولكن لم يعد ذلك شرطا للتمكن من التخطيط لعدد وتوقيتات حالات العمل. وإذن ففى العصر الحديث، كما هى الحال فى جمهورية أفلاطون، لا يوجد أساس عقلاى لتعريف طبيعة النساء، ولتحديد حياتهن كاملة باللجوء إلى وظائفهن الجنسية والتناسلية.

وكما رأينا من قبل ما زالت تجرى محاولات للتمسك بالممارسات القديمة التى كان يتم فيها تعريف النساء على أساس وظائفهن. ولكن مثل تلك المحاولات يمكن دحضها بالتحليل العقلاى للوظائف التى تؤديها النساء، والوظائف المنفصلة - التى تؤديها الأسرة. ثم بالاعتراف بأن جميع هذه الوظائف يمكن أن يتولاها الرجال والنساء، بدلاً من أن يتم تقسيمها على أساس من الجنس، إن الاتجاه الذى يميل إلى أن يُعدَّ الرجال أشخاصا كاملين نوى قدرات وحقوق، ولكنه ينزع إلى تعريف

النساء بالرجوع إلى الوظائف التي يؤديها بالنسبة إلى الرجال، هو اتجاه لا مبرر له. ورغم أنه ينسجم مع المفهوم الهرمي للمجتمع الصالح كما هو الحال عند أرسطو، فإنه لا مكان له بالمرّة في مجتمع يزعم أنه يقوم على مبدأ المساواة بين البشر.

وفي مجتمع كهذا، يجب أن يُعامل النساء من جميع الجوانب: السياسية والاجتماعية والاقتصادية - على أنهن متساويات مع الرجال. ويجب تحريرهن من قبضة اعتقادات تدور حول أنواع العمل التي خلّقت من أجلها. ويجب تمكينهن من الوصول إلى وضع مساو لوضع الرجال في القوة العاملة، وفي جميع جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية. ولا يمكن أن تصير النساء مواطنات أو عاملات أو كائنات بشرية متساويات للرجال - ناهيك عن إمكانية أن يصرن ملكات فيلسوفات - إلا إذا مات المفهوم الوظيفي لجنس النساء.

ملحق للفصل الثاني

الشروح المدرسية التي قدمها الباحثون عن أول ما كتب أفلاطون من «أمواج المفارقات». تناهض بشدة فكرة أن تتبوأ المرأة مكانة مساوية لمكانة الرجل حتى في أكثر المجتمعات «يوتوبية». ولقد كتبت مؤخرا «كريستين بيرس» موضوعا في غاية الإثارة عن هذا الجانب من دراسة أفلاطون، فتوصلت إلى أن الانجرافات البعيدة التي سبق إليها «الباحثون الخُلص»، و«الرجال المفكرون»، عند تقديم تفسيرات مثيرة للجدل لفقرات واضحة ومباشرة في الكتاب الخامس من «الجمهورية» - هي مثال صارخ للنزعة إلى «إعلاء العادات والمعتقدات الخاصة بشخص ما فوق الفلسفة الماضية..»^(١).

وهي تتناول في بحثها، بشكل وافٍ، الاعتراضات على مقترحات أفلاطون الراديكالية عن المرأة والتي ساقها علماء الجيل السابقون: أ. تيلور، دارنست باركر - كما أنها تكثيف عن افتقاد الأساس في اتهام «ليون شتراوس» أن محاولة مساواة المرأة هي ببساطة أحد الأمثلة التي يوضح فيها أفلاطون بمهارة - طريق «التجريد من الجسد» ومن الحب الشهواني Eros - أن المدينة العادلة هي ضد الطبيعة، وبالتالي يستحيل وجودها. أما الجانب الوحيد الهام الذي تغطيه الدراسة فهو معالجة «ألان بلون» لتناول أفلاطون للمرأة.

لقد عُرِفَت ترجمة «بلوم» للجمهورية بسرعة على أنها من أكثر الترجمات دقة. ولهذا السبب يصبح من الأمور الجوهرية أن يتم انتقاد الأخطاء والأمور الغريبة الموجودة في تعليقه على قسمي ١٤٤٩ أ - و ٤٧٣ ج. حيث يذكر «بلوم» أنه في الوقت الذي كان فيه اقتراح سقراط عند هذه النقطة قاسيا فإنه لم يكن غريبا. فإن أول موجتين من الكتاب الخامس هي «تصورات منافية للعقل». والتي لم توجد قط في

(١) المساواة - الجمهورية الكتاب الخامس ١٠ .

واقع أو أفكار الرجال الجادين»^(١). وكما يذكر «بلوم» فإن الكتاب الخامس بازدرائه للعرف والطبيعة، وفي جرحه لكافة المدركات لكبرياء وخجل الذكور، والأسرة، وفن إدارة الحكم، والمدنية ينافى العقل، ولهذا «فقد كان سقراط يتوقع أن يعامل باستخفاف»^(٢). ويزعم «بلوم» أن الغرض من ذلك تقديم دليل لأرستوفان على أن سقراط يستطيع أن يكتب كوميديا أخف منه ظلماً^(٣).

وفضلاً عن ذلك فعلى حين أن سقراط يؤكد بنفسه أن موجته الثالثة من المفارقات «هي الأكبر والأشد صعوبة» - فإن بلوم يذكر «أن فكرة الملوك الفلاسفة ليست في ذاتها مفارقة بالنسبة لنا» و«أن الرجال العصريين» قد يجنون أن هذه الموجة الثالثة «أقل عرضة للاستنكار» سواء بالنسبة لإلغاء الأسرة أو فكرة منح المرأة نورا مساويا^(٤). وفي توسيع لحجة شتراوس شرع يبين أن نسيان سقراط للجسد عند مناقشة معالجة الحراس من النساء - هو مؤشر أكيد للقارئ للاستحالة الجوهرية للمدينة الفاضلة.

أولاً: يشرع بلوم في تناول اقتراح سقراط أن تدريب كل من الجنسين. وهما مجردان من الملابس، ويقول إن ذلك يؤدي إلى الشهوانية، فالعري العام مباح فقط حيث ينعدم احتمال أن يؤدي ذلك إلى الرغبة الجنسية، ويستعين بمثال يبدو سانجا

(١) مقال تنويلى ص ٢٨٠ .

(٢) مقال تنويلى ص ٢٨٠ .

(٣) مقال تنويلى ص ٢٨٠ . لبعض الاعتراضات المتأخرة المعقولة ضد التنويل الكوميدي لبوم للكتاب الخامس من الجمهورية - انظر بيل هول: «الجمهورية وحدود السياسة» النظرية السياسية المجلد الخامس رقم ٣ عام ١٩٧٧، ص ٢٩٥ - ٢٩٨ . ولا شيء مما قاله «بلوم» في رده على هول (ص ٢١٥ - ٢٣٠ في نفس الموضوع) يؤكد دعواه أن مقترحات أفلاطون في الكتاب الخامس من الجمهورية كانت ساخرة. والقول بأن هول قد فشل في أن يرى الدلائل الواضحة للرابطة بين الكتاب الخامس وبين مسرحية أرستوفان «نساء الجمعية» - فإن بلوم قد غابت عنه النقطة الهامة في حديث هول، وهي ليست أنه لا توجد رابطة بين العملين، بل إن مقترحات أفلاطون يمكن قراءتها بترحيب أكثر من مسرحية «أرستوفان» أكثر من السخرية المتوازية عن المساواة بين الرجل والمرأة (بلوم ٢٢٥، وهول ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٤) الجمهورية ١٤٧٢أ - مقال تنويلى ص ٣٩٠ .

فى السىاق اللىونانى وهو أنه من الممكن تواجد الرجال معا فى حالة عرى «لأنه من السهولة - نسبيا - تجريد علاقاتهم معا من الصفات الجنسية!»^(١). ومع ذلك فإن بلوم يعكس موقفه - فيما يبدو - ويذكر أن عرى الرجال والنساء معا هو هراء لأن «الخل هو مكون للعلاقات الشهوانية بين الرجال والنساء...»^(٢). والذى يعد بدوره أساسيا للحفاظ على المدنية ومن الواضح أن مصدر الخوف هنا ينبع من أن العرى سيقود إلى اللامبالاة الجنسية. وبغض النظر عن واقعة أن ذلك أمر يرفضه سقراط وجلوكون - فإن الوجود المستمر للقبائل العديدة والتي تتعرى بصورة عادية، سوف يبدو طافيا لتبديد مخاوف بلوم، كما أن الدليل الواضح للشهوانية الشديدة بين الرجال اليونانيين تزيد من قيمة ذلك.

فيما يتعلق بالمفهوم الأول المعارض وهو أن العرى سيؤدى حتما إلى جنس خارج حدود السيطرة، فإن سقراط يقر أن «الاتصال الجنسي الشاذ» سوف يمثل غواية لكنه يذكر أن حكام المدينة سوف يتمكنون من إنشاء التنظيمات الضرورية للعلاقات الجنسية^(٣). وكذلك لا تبدو محاولة بلوم لتوضيح استحالة وجود مساواة للمرأة بدون أساس فحسب - وإنما هي أيضا جريئة إلى حد ما من حيث إن سقراط

(١) مقال تولى ص ٢٨٢ . وهناك شواهد كثيرة حتى داخل محاورات أفلاطون على أن ما يقوم به الرجال والفلمان من تمرينات رياضية وهم عراة كمثير للشهوة الجنسية المثلية، انظر فايدروس ٢٥٥ ب . ومحاوره المأذبة ١٢١٧ والقوانين ٦٣٦ ب. شراح آخرون من العالم القديم من أمثال أرسطوفان، وشيشرون، يتفقون مع هذا الانطباع. ويتفق الدارسون المحدثون للممارسات الجنسية عند اليونان أيضا على ذلك. انظر مثلاً «سيمونز» ص ٦١ - ٦٢ «العرى الذى اعتاد اليونان السماح به فى الألعاب الرياضية، وفى بعض الطقوس الدينية، يسهم بغير شك فى القوة الشهوانية للعاطفة الرجولية». وفى «رد على هول» عدل بلوم عبارته فما يقصده هو أن علاقات الجنسية المثلية، وما يرتبط بها من جاذبية، يمكن أن يعرّمها المشرع باتساق. وليس كذلك الجنسية المغايرة «مع النساء» ص ٢٢٤ . غير أن أفلاطون يذهب فى مدينته إلى أنه من الضرورى ومن الممكن معاً أن ننظم الاثنين بدقة. بون أن تخرج فى الحالتين على القانون.

(٢) مقال تولى ص ٢٨٢ .

(٣) الجمهورية ٤٥٨ ! .

ومستمعيه يتفقون على ذلك في نص أفلاطون. وحتى في حالة المفارقة الثالثة - والتي هي أكثرها مفارقة - فإن سقراط يصرّ على أنه «لا يتحدث عن مستحيالات»^(١).

وعلى نحو ما برهنت «كريستين بيرس» فإن بلوم يأخذ بعد ذلك في تأكيد أفلاطون أن الرجال كطبقة اجتماعية هم أكثر قدرة من النساء كطبقة اجتماعية أخرى، وهي تفسر معنى ذلك بقولها «أن أفضل النساء دائما يكن أدنى عند مقارنتهن بأفضل الرجال» - وهو ما يبدو واضحا أنه غير صحيح^(٢). وتنتهي من ذلك إلى أن: «من المستبعد - إلى حد كبير - وضع المرأة في الاعتبار لعضوية طبقة اجتماعية أعلى». على أساس القدرات الخاصة، وكان عليه أن يعثر على تفسير لواقعة أن سقراط لا يشمل المرأة في هذه الطبقات. ويستنتج بلوم أن السبب الرئيسي الذي يدعو سقراط أن يكذب بشأته (عادةً يخبرنا أفلاطون أنه يكذب، فلم لم يفعل هذه المرة؟) - هو أن المرأة مطلوبة في المراتب العليا لإنجاب المزيد منهم؛ ومن هنا يكون اختلافهن الجوهرى، وليس تشابههن مع الرجال - أيا ما ذكر النص أنه العكس - هو ما يضيف المشروعية على اشتغال طبقة الحراس على النساء. والآن - وكما تذكرنا بيرس - فإن هذا سيكون أخطر ما يتطرق إليه أفلاطون، ذلك لأنه لا ينبغي تقييد دور الحراس من النساء، بالتنازل فقط، لكن ينبغي أن يشاركن في جميع أوجه الحكم والدفاع عن المدينة. وكما تمّ إعلامنا بصراحة، ينبغي أن يصلن إلى مراتب الفلاسفة. ومع ذلك فقد أكد أفلاطون على المخاطر الجسيمة (لإقحام أى شخص غير مؤهل من قبل الطبيعة في طبقة الحراس، ذلك لأن هذا الإقحام - كما يذكر - قد يؤدي إلى تدمير المدينة)^(٣). ولهذا فمن غير المحتمل أنه قد يتحمل السماح للمرأة بالدخول في أعلى طبقة، إذا كان اعتقاده هو أنه تعوزهن القدرات الضرورية لذلك.

(١) الجمهورية ٤٩٩ د .

(٢) مقال تؤولى ص ٢٨٢ . «المساواة: الجمهورية» الكتاب الخامس ٩ .

(٣) الجمهورية ٤٢٤ ب ص ١٠ .

من الواضح أن «ألان بلوم» مثال عصرى على سلسلة من المثقفين الذين وجدوا أن البراهين التي ساقها أفلاطون في معرض مناقشته لموضوع النساء - براهين يصعب تصديقها واحتمالها. ومع ذلك حاول «ألان بلوم» وشتراوس - على عكس غيرهما من النقاد تبرئة أفلاطون من السخف الواضح بمحاولة إقناعنا بأن أفلاطون فى الحقيقة لم يكن يقصد ما يعتقد الناس أنه كان يقصده.

و«ألان بلوم» يُحمد له أنه الباحث الوحيد الذى كان صريحا بما فيه الكفاية لأن يعترف بأن قيام سقراط بجرح «أعز مشاعر الكرامة الرجولية» قد أدى إلى إثارة رد فعله. ومن سخریات القدر أن سقراط قد تنبأ بريود الأفعال التى على هذا النحو. وقد وضع فى اعتباره أن مقترحاته سوف تبدو غير معقولة فى كثير من جوانبها فى نظر أشخاص أفراد مثل بلوم، الذى اعتادوا وضعا تكون فيه الأشياء مختلفة أتم الاختلاف. «وعلى الرغم من ذلك فإنه يأمل أن يصمد منطق حجته، وأن يدرك الرجال العقلاء، أنه ليس ثمة شيء غير معقول، وإنما شرير، وأن المساواة بين الجنسين ليست هى الشيء غير الطبيعي، وذلك لأن الحال التى عليها والأمور الآن هى التى ضد الطبيعة على ما يبدو»^(١). الكتاب الخامس ليس كوميديا، وإن كان تعليق ألان بلوم - فيما يبدو - أنه كوميدى - ومن يضحك أخيرا هو سقراط.

(١) الجمهورية ٤٥٦ ب - ج وكذلك يزعم بلوم فى رده «على هول» كدليل على تأويله للكتاب الخامس على أنه ضرب من الكوميديا، واقعة «أن سقراط كان يتحدث مرارا عن الكوميديا والضحك بخصوص مقترحاته». (ص ٢٢٤). والشيء الذى ما زال يفشل فى أخذه فى الاعتبار هو الفقرة الحاسمة التى يوضح فيها سقراط أنه على الرغم من أن الناس «السطحيين» قد يجدون مقترحاته ماثرا للسخرية، فإنه بما له من معيار فى الجمال يحمل إرادة طيبة لا يضحك (الجمهورية ٤٥٢ د).

المراجع

أولاً : المراجع العامة:

سبقت الإشارة إليها في المقدمة، والفصل العاشر، والخاتمة.

- Barber, Benjamin R. *Liberating Feminism*. New York, 1975.
- Beardsley, Elizabeth Lane. "Referential Genderization." *the Philosophical Forum*, Vol. 5 Nos. 1-2, 1973 - 1974, 285 - 293 .
- de Beauvoir, Simone,. *the Second Sex*. Trans. H. M . Parshley. London, 1953 (First published in French, 1949).
- Bebel, August. *Under Woman Socialism*. Trans. David de Leon; Intro. Lewis Coser. New York, 1971.
- Benston, Margaret, "The Political Economy of Women's Liberation . " *Monthly Review*, September 1969.
- Campanella, Tommaso. *The City of the sun, in Ideal Empires and Republics*. Ed. Charles M. Andrews. London, 1901.
- Chodorow, Nancy , "Famil Structure and Feminine Personality," Rosaldo and Loius Lamphere. Stanford, 1974.
- Coser, Lewis *Greedy Institutions*. New York, 1974 .
- Daly, Mary . *Beyond God the Father*. Boston , 1973.
- Eishtain, Jean Bethke. "Moral Woman and Immoral Man". *Politics and Society*. Vol. 4 .1974. 453 - 473 .
- Engels, Frederick. *The Origin of the Family, Private property and the state*, in Karl Marx and Frederick Engels, *Selected Works*, Vol. 3 Moscow. 1970 .
- Erikson, Erik. H ."Inner and Outer space: Refections on Woman hood . " *Daedalus*. Vol. 93 No. 2 ,1964 , 582 - 606 .
- Figes, Eva. *Patriarchal Attitudes* Greenwich Conn., 1970 .
- Firestone, Shulamith . *The Dialectic of sex*. New York, 1970 .
- Fourier, Charles. *The Utopian Vision of Charles Fourier*. Trans. J. Beecher and R. Bivenvenu. Boston, 1971 .

- Guettel, Charmie. Marxism and Feminism. Toronto, 1974 .**
- Hegel, G.W. F. The Philosophy of Right . Trans. T. M . Knox. Oxford, 1952 .**
- Hegel, G. W. F. The Phenomenology of Mind. Trans. James Ballie, 2 nd ed . London , 1931.**
- Held, Virginia "Marx, Sex, and the Transformation of Society," The Philosophical forum , vol . 5 Nos, 1-2, 1973 -1974 .168 -184 .**
- Horney, Karen" The Dread of Woman: International Journal Of Psychoanalysis, Vol. 13, No . 3, 1932, 348 - 360 .**
- Knudsen ,Dean D. The Declining Status of Women: Popular Myths and the Failure of functionalist Thought," social Forces, Vol. 48, No .2,1969 , 183 -193 .**
- Macintyre, Alasdair. A short History of Ethics. London, 1967.**
- Manuel, Frank. the Prophets of Paris . Cambridge, Mass., 1962.**
- Marx, Karl . Early writings, Trans. and ed. T. B. Bottomore . London , 1963 .**
- McMurtry, John. "Monogamy: A Critique. " The Monist,m Vol. 56 , No. 4, October 1972, 587 - 599 .**
- Mitchell, Juliet, Women: The Longest Revolution. Reprinted in Boston From the New Left Review , November - December 1966 .**
- ____ . Woman's Estate. New York, 1973 .**
- ____. Psychoanalysis and Feminism. New York, 1974 .**
- More, Thomas. Utopia. Trans . Paul Turner . London , 1975 .**
- Mothersill, Mary . "Notes on Feminism. "Monist, Vol. 57, No. 1, 1973, 105 - 114 .**
- Oakley , Ann. Woman's Work: The Houswife, Past and Present . New York, 1974.**
- O'Faolain, Julia, and Lauro Martines, eds . Not in God's Image, New York , 1973 .**
- Parsons, Talcott. "Age and Sex in the social Structure of the United states. "American sociological Review , Vol. 7 , No. 5, 1942, 604 - 616 .**
- Parsons, Talcott, and Robert F. Bals Family , Socialization and Interaction Process. Glencoe, 1955 .**
- Patai, Daphne, "Utopia For Whom?" Aphra, Vol, 5, No3, 1974, 2 - 16 .**

Pierce, Christine. "Natural Law Language and Women." *Woman in Sexist society*, ed. Vivian Gornick and Barbara K. Moran. New York, 1971.

Rosenthal, Abigail. "Feminism without Contradictions." *Monist*. Vol, 57, No. 1, January 1973, 28 -42 .

Rossi, Alice S. "A Biosocial Perspective on Parenting." *Daedalus*, Vol. 106, Spring 1977, 1 - 31 .

_____. "Equality between the sexes: An Immodest Proposal." *Daedalus*, Vol.93, No 2, 1964, 607- 652 .

Rowbotham, Sheila. *Women, Resistance and Revolution*. New York, 1974 .

_____. *Woman's Consciousness, Man's World* . London, 1973.

Savramis, Demosthenes. *The Satanizing of Woman*. Trans. Martin Ebon. New York, 1974 .

Scholzman, Kay, "womenandUnemployment: Assessing the Biggest Myths." *Women : A Feminist . Perspective*, 2 nd ed. Ed.Jo Freeman. Palo Alto, 1979 .

Smith, Joan and David K. Miller . "The Importance of Being Marginal: Feminization-of the Labor force." *Unpublished manuscript, Department of sociology, Dartmouth College, 1976 .*

Strauss, Leo, and Joseph Cropsey . *History of Political Philosophy*. 2nd ed. Chicago, 1972 .

Weisstein, Naomi. "Psychology Constructs the Female." *Warner Modular Publications Reprint 752* . Andover, Mass., 1973 .

Whitbeck, Caroline. "theories of Sex Difference". *the Philosophical forum*, Vol. 5 Nos . 1-2, 1973 - 1974, 54 - 80 .

Wolin, Sheldon . *Politics and Vision*. London .1961 .

Wollstonecraft, Mary. *A Vindication of the Rights of Woman*. London, 1792 .

Zaretsky, Eli . "Capitalism, the Family and Personal Life"Parts 1 and 2 . *Socialist Revolution*, Vol. 3, 1973, No. 1, 69 - 125 and No. 3, 19 - 70 .

ثانياً: أفلاطون وأرسطو

Adam, J. "On the relation of the Fifth book of the Republic to Aristophanes' *Ecclesiazusae*." Appendix I to *Book of the republic of Plato*. 2 nd ed. Cambridge, 1975, Vol. I.

- Adkins, A.W. H. Merit and Responsibility : A study in Greek Values. Oxford, 1960.**
- Adkins, A. W.h. Maral Values and Political Behaviour in Ancient Greece. London , 1972 .**
- Allan, D. J. The Philosophy of Aristotle. 2 nd ed .London ,1970 .**
- Annas, Julia. "Plato's Republic and Feminism. "Philosophy, Vol. 51,No .3, July 1976, 307 - 321 .**
- Aristophanes . TheBirds. Trans.William Arrowsmith . Ann Arbor, 1961 .**
- ____ . ecclesiazusae. Trans. Douglass Parker. Ann Arbor , 1967 .**
- ____. Lysistrata. Trans . Douglass Parker. Ann Arbor,1967 .**
- Aristotle. De Anima . Trans. Kendon Foster and silvester Humphries, Fromthe ver- sion of william of Moerbecke. London, 1951**
- ____ . Eudemian . Trans. Douglass Parker.Ann Arbor , 1967 .**
- ____. Lysistrata . trans. Douglass Parker. Ann Arbor , 1967 .**
- Aristotle. De Anima . Trans. KendonFosterand Silvester Humphries, Fromthe ver- sion of williamof Moebecke .London , 1951 .**
- ____. Eudemian Ethics. Trans . H. rackham. Loeb Classical Library, 1935 .**
- ____. The Generation of Animals. Trans. A. L. Peck. Loeb Classical Library , 1943 .**
- ____. History of Animals . Trans . A. L. Peck. Loeb Classical Library, 1965 - 1970 .**
- ____. Metaphysics. Trans. Richard Hope. New York, 1952 .**
- ____. Nichomachean Ethics. Richard Hope. New York, 1952 .**
- ____. Poetics. Trans. W. Hamilton Fyfe. Loeb Classical Library, 1927 .**
- ____. Poetics.Trans. Ernest Varker, Oxford, 1946.**
- ____ . The "Art" of Rhetoric . Trans. John Henry Freese. Loeb Classical Library, 1967 .**
- ____. Oeconomica (now Considered to be spurious, but written by one of the Arit- otelian School) . Trans. G.C. Armstrong. Loeb Classical Library, 1933 .**
- Barker, Ernest. The Political Thought of Plato and Aristotle. London , 1906 .**
- Cornford, F. M. "Psychology And Social Structure in the Republic of Plato. " The Classical Quarterly, Vol. 6, No . 4 ,1912 , 246 -265 .**

- _____. **Before and After socrates. Cambridge, 1968 (First published 1932) .**
- _____. **From Religion to Philosophy, New York , 1957 (First published 1912).**
- Crombie,I. M. Plato: The Midwife's Apprentice. London, 1964.**
- Demosthenes. Private Orations, Vol. 6, trans. A. T. Murray. Loeb Classical Library, 1939 .**
- Diamond, Stanley . "Plato and the Definition of the Primitive," in Culture In History, ed. Diamond New. York , 1960, PP. 118 - 141 .**
- Dickason, Anne. "Anne . "Anatomy and Destiny: The Role of Biology in Plato 's Views of Women . "The Philosophical Forum, Vol.5, Nos. 1-2, 1973 - 1974, 45 - 52.**
- Ehrenberg, Victor. The People of Aristophanes. 2nd rev. ed. Oxford,1951 .**
- _____. **Society and Civilization in Greece and Rome. Cambridge, Mass ., 1964 .**
- Ferguson , John . Moral Values in the Ancient World . London. 1958 .**
- Finley, John H. Four Stages of Greek Thought . Stanford, 1966 .**
- Finley, M . I. The World of Odysseus. London 1956 .**
- _____. **The Ancient Greeks, New York , 1963 .**
- Gomme, A. W. Essays in Greek History and Literature. Oxford, 1937 .**
- Gouldner, Alvin W. enter Plato. Classical Greece and the origins of social Theory . New York, 1965 .**
- Grube, G.M. A. Plato's thought. London, 1935 .**
- Hall, Dale, "The Republic and the Limits of Politics. "Political theory, Vol. 5, No. 3 , 1977 , 293 - 313 .**
- Havelock, Eric. The Liberal Temper in Greek Politics. London , 1957 .**
- Herodotus. Histories. Trans . A. D. Godley . Loeb Classical Library, Vol.4 .**
- Hesiod. The Works of Hesiod, Callimachus and Theognis. Trans. J. Banks. London .**
- 1889 .**
- Homer . The Illad. Trans. E.V. Rieu . London , 1950 .**
- _____. **The Odyssey. Trans. E. V. Rieu . London, 1946 .**
- Ithurriague, Jean . Les Idées de platon sur la condition de la femme au regard des traditions antiques. Paris, 1931 .**

- Levinson, Ronald B. In Defense Of Plato. Cambridge, Mass., 1953.**
- Licht, Hans. Sexual Life in Ancient Greece. London . 1932 .**
- Lloyd, G.E.R. Aristotle: The Growth and structure of his Thought. Cambridge, 1968 .**
- Morrow , Glenn r. Plato's Cretan City: A Historical Interpretation of the Laws. Princeton, 1960 .**
- Osborne, Martha Lee. "Plato's Unchanging View of Woman: A Denial that Anatomy Spells Destiny." The Philosophical Forum, Vol. 6, No. 4, 1975, 447 - 452 .**
- Pierce, Christine. "Equality: republic v" Monist, Vol. 57, No .1, January, 1973 . 1-11 .**
- Plato. The Republic of plato. Trans. With Notes and an "Interpretive Essay, " Allan Bloom. New York, 1968 .**
- _____. The Laws. Trans . R. G. Bury . Loeb Classical Library, 1968 .**
- _____. Plato : The Collected Dialogues. Eds, Edith Hamilton and Huntington Cairns. New York, 1961 . This edition was used for all Plato's works except The Republic and the Laws.**
- Plutarch. Moralia, Trans. Frank Cole Barrett. Loeb Classical Library, 1931 .**
- Pomeroy, Sarah B. Goddesses, Whores, Wives, and Slaves : Women in Classical Antiquity . New York , 1975 .**
- Randall, John Heman, Jr. Aristotle. New York, 1960.**
- Rankin, H. D. Plato and the Individual . New York. 1964 .**
- Rawson, Elizabeth. The spartan Tradition in European Thought Oxford, 1969 .**
- Rice, T. Talbot. The Scythians. New York, 1957 .**
- Ross, W.D. Aristotle . London, 1923 .**
- Sophocles. Ajax, Electra, Trachiniae, Philoctetes. Trans. F. Storr. Loeb Classical Library, 1913 .**
- _____. Antigone. Trans. R.C. Trevelyan, London , 1924 .**
- Strauss, Leo. The City and Man. Chicago, 1964 .**
- Sulimirski, T. The Sarmatians. Southampton, 1970 .**
- Symonds, John Addington. A Problem in Greek Ethics. Printed For Private Circulation, London, 1901 .**

Taylor, A. E. Plato, The Man and his Work . London, 1926; 7th ed., 1960 .

theognis . See under Hesiod.

Thucydides. The Peloponnesian War. Trans. Richard Crawley, into. John H. Finley, Jr. New York, 1951 .

Vlastos, Gregory, ed . plato: A Collection of Critical Essays. New York, 1971 .

____. Platonic Studies. Princeton, 1973 .

xenophon. Recollections of socrates and Socrates' Defense before the Jury . Trans . Anne S. Benjamin. New York, 1965 .

ثالثاً: روسو:

Baud - Bovy, Samuel , et al . Jean - Jacques Rousseau. Neuchatel, 1962 .

Burgelin , Pierre. "L Education de Sophie." Annales Jean - Jacques Rousseau, 35 . Geneva. 1959 -1962 .113 - 120 .

Charvet, John, The social Problem in the Philosophy of Rousseau. Cambridge, 1974 .

Diderot, D. Rameau's Nephew and Other Works. Trans. Jacques Barzun and Ralph H. Bowen . NewYork, 1956 .

Diderot, D., and . J. Le R. d'Alembert, eds. Encyclopédie ou dictionnaire raisonné des sciences,des arts at des métiers. Paris, 1756 .

Fénelon, François . Aduentures of Telemachus. Trans. W. Hawkesworth. London ,1841.

____. The Education of Girls Trans. Kate Lupton. Boston. 1891 .

Grimsley, Ronald . Jean - Jacques Rousseau. .Cardiff,1961 .

____. The Philosopy of Rousseau. Oxford, 1973 .

Helvétius, C. A. ATreatise on Man, His Intellectual faculties and His Education. Trans. W. Hooper . London , 1810 .

Holbach, P.H. Baron d' Système socialeou principes naturels de la morale et de la politique . London , 1773 .

Masters, Roger D. The Political Philosophy of Rousseau . Princeton, 1968 .

Montesquieu, C. L.Persian Letters. Trans . Christopher Betts. London ,1973 .

____ . The Spirit of The Laws. Trans .Thomas Nugent. New York , 1949 .

Rapaport, Elizabeth. "On the Future of Love: Rousseau and the Radical Feminists." *The Philosophical Forum*, Vol. 5, Nos. 1-2, 1973- 1974 , 185 - 205 .

Rousseau, Jean - Jacques. *Correspondance générale*. Ed. T. Dufour, Paris, 1924 - 1934 .

_____. *Oeuvres complètes*. Hachette, Paris, 1909.

_____. *Oeuvres complètes*, Vols. 1-4 .Ed. B. Gagnebin and M. Raymond Pléiade Edition. Paris, 1959 -1969 .

_____. *The First and Second Discourses*. Trans . Roger D. and Judith R. Masters. New York, 1964 .

_____. *Politics and the Arts. Letter to M. d'Alembert on the Theater*. Trans. Allan Bloom. Ithaca, 1968 .

Shklar, Judith N. *Men and Citizens: A Study of Rousseau's Social Theory*. Cambridge, 1969 .

Starobinski, Jean. *Jean- Jacques rousseau: La Transparence et l'obstacle (2nd ed.) , with Sept essais sur Rousseau*. Paris, 1971 .

Wexler, Victor G. "Made for Man's Delight": Rousseau as Antifeminist ." *American Historical Review*, Vol. 81 , No 1, 1976 . 266-291 .

رابعاً: مل (وغيره من اللبراليين)

Banks, J. A., and O. *Feminism and family Planning in Victorian England* . Liverpool, 1964 .

Bentham, Jeremy. *Plan of Parliamentary Reform In the Form of a Catechism* . Vol. 3 of *Works* , ed. Bowring, 1843 .

_____. *Constitutional Code*, Vol. 4 of *Works*, ed. Bowring. Burns, J. H "John Stuart Mill and Democracy 1829 - 1861". *Political Studies*, 1957 , Vol. 5 , Nos . 2 and 3 .

Chapman, Richard Allen. "Leviathan Writ Small : Thomas Hobbes on the Family. " *The American Political Science Review* , Vol 69, No, 1 , 1975, 76 - 90 .

Clark, m Lorenne M.G. "Women and John Locke; or, Who Owns the Apples in the Garden of Eden?" *Canadian Journal of Philosophy*, Vol. 7, No 4, December 1977 , 499 - 724 .

Comte, Auguste . Letters d'Auguste Comte á John Stuart Mill, (1841 - 1846) Paris , 1877 .

Hayek, F. A. John Stuart Mill and Harriet Taylor : Their Correspondence and LSubsequent Marriage. London and Chicago. 1951 .

Held, Virginia. "Justice and Harriet Taylor" The Nation, October 25, 1971 . 405 -406 .

Himes, N.E. "The Place of John Stuart Mill and Robert Owen in the History of English Neo - Malthusianism. "Quarterly review of Economics, Vol. 42, May 1928 .

Himmelfarb , Gertude. On Liberty and Librealism . New York, 1974 .

Hinton, R.W.K. "Husbands, Fathers and Conquerors," Political Studies, Vol. 15, No, 3, 1967 ,291 - 300 , and .Vol. 146 ,No 1,1968 , 55 - 67 .

Hobbes, Thomas . De corpore Politico, in Body, Man andCitizen. Ed . Richard S. Peters. New York , 1962 .

____De Cive. in Manand Citizen . Ed Bernard Gert. New York . 1972 .

____. Leviathan . Ed. A. D. Lindsay . New York ,1950 .

____. A Dialogue between a philosopher and a student of the common laws of England . Ed. Joseph Cropsey. Chicago. 1971 .

Locke, John. Two Treatises of Government. Ed . Peter Laslett . Cambridge, 1963 .

Mill. James. "Government ." Written for the 1820 Supplement to the Encyclopaedia Britannica, and reprinted as a pamphet, London, 1821 .

Mill, John Stuart. Autobiography. London. 1873 .

____. Collected Works of J. S. Mill. toronto. 1963.

____. Logic, 9 th ed . London . 1873 .

____. On Liberty, Representative Government and the Subjection of Women. Ed. Millicent Garrett Fawcett. London , 1912 .

____. Periodical Literature 'Edinburgh Review.'"Westminster Review, Vol . 1 , No . 2, April 1824 , 505 - 541 .

____. "Speech of John Stuart Mill , M.P., on the Admission of women to the Electoral Franchise . " Spoken in the House of.

BIBLIOGRAPHY IV. MILL

- Commons, May 2 oth , 1867 , and Published as a pamphlet, London , 1873 .**
- ____. Utilitarianism. Ed. Mary Warnock. London , 1962.**
- Mill, John stuart, and Harriet Taylor. Essays on Sex Equality, Ed. Alice Rossi . Chi-
cago, 1970 .**
- Mineka, Francis E. The Dissidence of Dissent: The Monthly Repository, 1806 - 1838 .
chapel Hill, 1944 .**
- Packe, Michael St. John. The Life of John stuart Mill . London. 1954 .**
- Panhurst, R.K.P. The Saint- Simonians, Mill and Carlyle; A Preface to Modern
Thought. London . 1957 .**
- Pappe, H. O. John Stuart Mill and the Harriet Taylor Myth. Melbourne, 1960 .**
- Pateman, Carole, and Teresa Brennan. "Mere Auxiliaries to the Commonwealth, :
Women and the Origins of Liberalism." Forthcoming in Political Studies, 1979 .**
- Robson . J. M. The Improuement of Mankind, The Social and Political Thought of
John stuart Mill. Toronto, 1968. .**
- Schochet, Gordon. Patriarchalism in Political Thought. NewYork, 1975 .**
- ____. "Thomas Hobbes on the Family and the State of Nature. " Political Science
Quarterly, Vol . 82 , No. 3, 1967 , 427 - 445 .**
- Shanley, Mary L, "Individual, Family and State: LThe Equal Rights Amendment and
Beyond. " Women Organizing . Ed Bernice Cummings and Victoria Schuck. N. Y., 1979 .**
- ____. "Marriage Contract and Social Contract in Seventeenth Century English Polit-
ical Thought " Western Political Quarterly, Vol. 32, No 1 .1979 .79 - 91 .**
- Stephen , James Fitzjames. Liberty, Equality, Fraternity. 1873, 2 nd ed . London ,
1874 .**
- Stephen, Leslie . The English Utilitarians, London , 1955 . Vol. 3 , John stuart Mill.**
- Stillinger , Jack, ed . The Early Draft of john Stuart Mill's Autobiography. Urbana,
1961 .**
- Thompson. William . Appeal of One Half The Human Race, Women , again the Pre-
tensions of the Other Half, Men , to.**
- BIBLIOGRAPHY V. WOMEN AND THE LAW**
- Retain Them in Political, and thence in Civil and Domestic Slavery. London , 1825 .**
- whittaker, Thomas . Comte and Mill . New York, 1908.**

Willford, Miriam. "Bentham on the rights of Women " *Journal of the History of Ideas*, Vol. 36, No. 1, 1975 , 167- 176 .

خامساً: النساء والقانون

Bartlett, Katharine T. "Pregnancy and The Constitution : The Uniqueness Trap." *California Law Review*, Vol. 62 . No. 5 , 1974 , 1532 - 1566 .

Brown , Barbara A., Thomas I. Emerson , Gail Falk , and Anne E. Freedman. "The Equal Rights Amendment : A Constitutional Basis For Equal Rights For Women " *Yale Law Journal*. Vol. 80, No . 5, April 1971 , 871 -985 .

Copelon , Rhonda, Elizabeth M. Schneider, and Nancy Stearns. "Constitutional Perspectives on Sex Discrimination in Jury Selection " *Women's Rights Law Reporter* , Vol . 2 No .4 June 1975 . 3 -12 .

Decrow, Karen, *Sexst justice*. New Ylrk, 1974 .

Ginsburg, Ruth B., *Constitutional Aspects of Sex - Based Discrimination*. St. Paul, 1974 .

Johnston, J.D. and C. L. Knapp. "Sex Discrimination by Law: A Study in Judicial Perspective." *New York University Law Review*. Vol. 46 . No 4 , 1971 .675 - 747 .

Kanowitz, Leo. *Women and the Law : the unfinished Revolution* . Aobuquerque, 1969 .

_____. *Sex roles in Law and society* , Albuquerque, 1973 .

Murray, Pauil, and MaryO. Esatwood. "Jane Crow and the Law: Sex Discrimination and Title VII " *George Washington Law Review* . Vol. 34 ,No 2, December, 1965 , 232 - 256

Peratis, Kathleen, and Elizabeth Rindskopf, "Pregnancy Discrimination as a Sex Discrimination Issue," *Women's Rights Law Reporter* ., Vol . 2, 1975 , 26 -34 .

Weltzman , Lenore J. "Legal Regulation Of Marriage: Traditon and Change" *California law Review*, Vol. 62 No . 4 , 1974 . 1169 - 1288 .

المحتويات

5	مقدمة بقلم المترجم
13	مدخل
23	الجزء الأول: أفلاطون
25	الفصل الأول: أفلاطون والتراث اليونانى فى كراهية المرأة
41	الفصل الثانى: الملكة الفيلسوفة والزوجة الخاصة
69	الفصل الثالث: طبيعة الأنثى والبنية الاجتماعية
91	الجزء الثانى: أرسطو
93	الفصل الرابع: مكانة المرأة والطبيعة فى عالم الوظائف
119	الجزء الثالث: روسو
121	الفصل الخامس: روسو والتراث الأبوى البطريركى الحديث
129	الفصل السادس: المرأة الطبيعية ودورها
163	الفصل السابع: المساواة والحرية بين الرجال
189	الفصل الثامن: مصير بطلات روسو
219	الجزء الرابع: مل
221	الفصل التاسع: جون استيوارت مل: النصير اللبرالى
259	الجزء الخامس: المذهب الوظيفى وقضية المرأة والأسرة
261	الفصل العاشر: النساء والمذهب الوظيفى فى الماضى والحاضر
277	الفصل الحادى عشر: الأشخاص والنساء والقانون
309	الفصل الثانى عشر: خاتمة
343	ملحق للفصل الثانى عشر
348	المراجع

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

ت : أحمد نرويش	جون كوين	١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهور باننيكار	٢ - الوثنية والإسلام
ت : شوقي جلال	جودج جيمس	٣ - التراث المسروق
ت : أحمد الحضري	انجا كارييتكوف	٤ - كيف تتم كتابة السيناريو
ت : محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	٥ - ثريا في غيبوبة
ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	٦ - اتجاهات البحث اللساني
ت : يوسف الأنطكي	لوسيان غولمان	٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة
ت : مصطفى ماهر	ماكس فريش	٨ - مشعلو الحرائق
ت : محمود محمد عاشور	أندروس. جودي	٩ - التغيرات البيئية
ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزني وعمر حلي	جيرار جينيت	١٠ - خطاب الحكاية
ت : هناء عبد الفتاح	فيسوفا شيمبوريسكا	١١ - مختارات
ت : أحمد محمود	بيفيد براونستون وايرين فرانك	١٢ - طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	١٣ - ديانة الساميين
ت : حسن المومني	جان بيلمان نويل	١٤ - التحليل النفسي والأب
ت : أشرف رفيق عفيفي	إدوارد لويس سميث	١٥ - الحركات الفنية
ت : بإشراف / أحمد عثمان	مارتن برنال	١٦ - أثنية السوداء
ت : محمد مصطفى بدوي	فيليب لاركين	١٧ - مختارات
ت : طلعت شاهين	مختارات	١٨ - الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية
ت : نعيم عطية	جودج سفيريس	١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة
ت : يمني طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	٢٠ - قصة العلم
ت : ماجدة العناني	صمد بهرنجي	٢١ - خوخة وألف خوخة
ت : سيد أحمد علي الناصري	جون أنتيس	٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين
ت : سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	٢٣ - تجلي الجميل
ت : بكر عباس	باتريك بارنر	٢٤ - ظلال المستقبل
ت : إبراهيم السموقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	٢٥ - مثنوي
ت : أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	٢٦ - دين مصر العام
ت : نخبه	مقالات	٢٧ - التنوع البشري الخلاق
ت : منى أبو سنه	جون لوك	٢٨ - رسالة في التسامح
ت : بدر الديب	جيمس ب. كارن	٢٩ - الموت والوجود
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهور باننيكار	٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)
ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامي
ت : مصطفى إبراهيم فهمي	بيفيد روس	٣٢ - الانقراض
ت : أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هويكنز	٣٣ - التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية
ت : حمزة إبراهيم المنيف	روجر ألن	٣٤ - الرواية العربية
ت : خليل كلفت	بول . ب . بيكسون	٣٥ - الأسطورة والعداثة

- ٣٦ - نظريات السرد الحديثة والاس مارتن
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها بريجيت شيفر
٣٨ - نقد الحدائق آلن تورين
٣٩ - الإغريق والحسد بيتر والكوت
٤٠ - قصائد حب أن سكستون
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية بيتر جران
٤٢ - عالم ماك بنجامين باربر
٤٣ - اللهب المزوج أوكتايفو پاث
٤٤ - بعد عدة أصياف الدوس هكسلى
٤٥ - التراث المغفور روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين
٤٦ - عشرون قصيدة حب بابلو نيرودا
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١) رينيه ويليك
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية فرانسوا نوما
٤٩ - الإسلام فى البلقان ه . ت . نوريس
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير جمال الدين بن الشيخ
٥١ - مسار الرواية الإسبانية أمريكية داريو بيانوبيا وخ . م بينياليستي
٥٢ - العلاج النفسى التدميمى بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل
٥٣ - الدراما والتعليم أ . ف . ألنجتون
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح ج . مايكل والتون
٥٥ - ما وراء العلم چون بولكنجهوم
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١) فديريكو غرسية لوركا
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢) فديريكو غرسية لوركا
٥٨ - مسرحيتان فديريكو غرسية لوركا
٥٩ - المحبرة كارلوس مونيهيت
٦٠ - التصميم والشكل جوهانز ايتين
٦١ - موسوعة علم الإنسان شارلوت سيمور - سميت
٦٢ - لذة النص رولان بارت
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢) رينيه ويليك
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة) آلان وود
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى برتراند راسل
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية أنطونيو جالا
٦٧ - مختارات فرناندو بيسوا
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى فالنتين راسبوتين
٦٩ - العلم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين عبد الرشيد إبراهيم
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية أوخينيو تشانج رودريجت
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرسمى داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مغيث
ت : منيرة كروان
ت : محمد عيد إبراهيم
ت : عطف لحد / إبراهيم قصى / محمود ملجد
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تانرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد على
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جويجاتى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : محمد برادة وعثمانى ليلود ويوسف الأطكى
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
ت : مرسى سعد الدين
ت : محسن مصيلحى
ت : على يوسف على
ت : محمود على مكى
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهيم
ت : صبرى محمد عبد الفنى
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاعى .
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض .
ت : رمسيس عوض .
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد هشاد
ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمالِك في مصر
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية
٧٦ - جاك لاكن وإغواء التحليل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢
٧٨ - العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»
٨١ - الجماعات المتخيلة
٨٢ - مسرح ميغيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالتقرب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - وسم السيف (قصص)
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسباني وأمريكي المعاصر
٩٣ - محدثات العولمة
٩٤ - الحب الأول والصحة
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)
٩٨ - الهم الإسباني والابتزاز الصهيوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مساطة العولمة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوبرا ماهوجني
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأندلسي
١٠٧ - صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . إيوت
جين . ب . توميكنز
ل . ا . سيمينوفا
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
بوريس أوسبنسكي
الكسندر بوشكين
بنديكت أندرسن
ميجيل دي أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكي أقطاي
جمال مير صانقي
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنتوني جينز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
باربر الاسوستكا
كارلوس ميغل
مايك فيذرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بويرو بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روينسون
بول هيرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليط
عبد الكريم الخطيب
عبد الوهاب المؤيد
برتوات بريشت
چيرارچينيت
د . ماريا خيسوس روبييرامتي
نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومي
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
ت : مكارم الغمري
ت : محمد طارق الشرقاوي
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالي
ت : عبد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحي يوسف شتا
ت : ماجدة العناني
ت : إبراهيم النسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العثمانوي
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إيوار الخراط
ت : بشير السباعي
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحي
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجميدى

- ١٠٨ - ثلاث رسائل عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل برويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادئ أرلين علوى ماكليود
١١٣ - راية التمرد سادى پلانت
١١٤ - مسرحيات صناد كونجى وسكان المستنقع وول شوينكا
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده فرچينيا وواف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر بث بارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإتصان جوزيف فوجت
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وملاقاتها العواية نينل الكسندر وفناواينا
١٢٤ - الفجر الكاتب جون جراى
١٢٥ - التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفى
١٢٦ - فعل القراءة فولفانج إيسر
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحي
١٢٨ - الألب المقارن سوزان باسنيت
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا نولورس أسيس جاروته
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فيذرستون
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على
١٣٤ - تشريح حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥ - المختار من نقد س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كونو
١٣٧ - مفكرات ضابط فى الحملة الفرنسية جوزيف مارى مواريه
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيلينا تارونى
١٣٩ - باريسفانل ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار هريوت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣ - قضايا التطير فى البحث الاجتماعى بيريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولونى
- ت : محمود على مكي
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سمىة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : لميس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحه الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقى جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبورى
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كاراوس فوينتس ت : أحمد حسان
- ١٤٦ - الورقة الحمراء ميغيل دي ليس ت : على عبد الرؤوف البمبي
- ١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة تانكريد نورست ت : عبد الغفار مكاوي
- ١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت ت : على إبراهيم على منوفى
- ١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وألونسو عاطف فضول ت : أسامة إسبير
- ١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. ليمان ت: منيرة كروان
- ١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل ت : بشير السباعي
- ١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب ت : محمد محمد الخطابي
- ١٥٣ - غرام الفراعنة فيولين فاتويك ت : فاطمة عبد الله محمود
- ١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل سليتر ت : خليل كلفت
- ١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء ت : أحمد مرسى
- ١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جى آنبال وآلان وأوديت فيرمو ت : مى التمساني
- ١٥٧ - خسرو وشيرين النظامى الكتوجى ت : عبد العزيز بقوش
- ١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل ت : بشير السباعي
- ١٥٩ - الإيديولوجية ديفيد هوكس ت : إبراهيم فتحى
- ١٦٠ - آلة الطبيعة بول إيرليش ت : حسين بيومى
- ١٦١ - من المسرح الإسباني اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا ت : زيدان عبد الطيم زيدان
- ١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا الأسيوى ت : صلاح عبد العزيز محجوب
- ١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١ جورجون مارشال ت بإشراف : محمد الجوهري
- ١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور) جان لاکوتير ت : نبيل سعد
- ١٦٥ - حكايات الشعب أ . ن أفانا سيفا ت : سهير المصانفة
- ١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والطمانيين فى إسرائيل يشعياهو ليفمان ت : محمد محمود أبو غدير
- ١٦٧ - فى عالم طاغور رابندرانات طاغور ت : شكرى محمد عياد
- ١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين ت : شكرى محمد عياد
- ١٦٩ - إبداعات أدبية مجموعة من المبدعين ت : شكرى محمد عياد
- ١٧٠ - الطريق ميغيل ديليبس ت : بسام ياسين رشيد
- ١٧١ - وضع حد فرانك بيجو ت : هدى حسين
- ١٧٢ - حجر الشمس مختارات ت : محمد محمد الخطابي
- ١٧٣ - معنى الجمال والترت . ستيس ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء ايليس كاشمور ت : أحمد محمود
- ١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية لورينزو فيلشس ت : وجيه سمعان عبد المسيح
- ١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتبرج ت : جلال البنا
- ١٧٧ - أنطون تشيخوف هنرى تروايا ت : حصه إبراهيم منيف
- ١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث نخبة من الشعراء ت : محمد حمدى إبراهيم
- ١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ١٨٠ - قصة جاويد إسماعيل فصيح ت : سليم عبدالأمير حمدان
- ١٨١ - النقد الألبى الأمريكى فنسنت . ب . ليتش ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والنبوة و . ب . بيتس
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه چيلسون
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تتام هانز إيندورفر
١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنورود
١٨٧ - الأرضة بُزْرَج طوى
١٨٨ - موت الأنب الفين كرنان
١٨٩ - العمى والبصيرة پول دى مان
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
١٩١ - الكلام رأسمال الحاج أبو بكر إمام
١٩٢ - سياحته إبراهيم بيك زين العابدين المراغى
١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
١٩٤ - مخترات من لقد الأثجو - لمركى مجموعة من التقاد
١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
١٩٦ - المهلة الأخيرة فالنتين راسبوتين
١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إيوين إمري وآخرون
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندائوى
٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبروك
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا روس
٢٠٢ - تاريخ نقد الأنبى الحديث جء رينيه ويليك
٢٠٣ - الشعر والشاعرية الطاف حسين حالى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شاراز
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافالى - سفورزا
٢٠٦ - الهولوية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
٢٠٧ - ليل إفريقيا رامون خوتاسنديز
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوربان
٢٠٩ - الصرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
٢١٠ - مثويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى
٢١١ - فرديناند نوموسير جوناثان كلر
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين
٢١٣ - مصر في عهد بلبلين حتى رحيل جد القاهر ريمون فلور
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيينز
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك جء زين العابدين المراغى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
٢١٧ - مسرحيتان طليعتان صمويل بيكيت
٢١٨ - رايولا خواير كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
ت : فتحى العشرى
ت : نسوقى سعيد
ت : عبد الوهاب طوب
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : علاء منصور
ت : بدر الديب
ت : سعيد الغانمى
ت : محسن سيد فرجاني
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : محمود سلامة علاوى
ت : محمد عبد الواحد محمد
ت : ماهر شفيق فريد
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : أشرف الصباغ
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد الطيف حماد
ت : فخرى لبيب
ت : أحمد الأنصارى
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : أحمد محمود هويدى
ت : أحمد مستجير
ت : على يوسف على
ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت : محمد أحمد صالح
ت : أشرف الصباغ
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : محمود حمدي عبد الفنى
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : سيد أحمد على الناصرى
ت : محمد محمود محى الدين
ت : محمود سلامة علاوى
ت : أشرف الصباغ
ت : نادية البنهاوى
ت : على إبراهيم على منوفى

ت : طلعت الشايب	كازو ايشجورد	٢١٩ - بقايا اليوم
ت : على يوسف على	بارى باركر	٢٢٠ - الهولوية في الكون
ت : رفعت سلام	جريجورى جوزدانيس	٢٢١ - شعرية كفاى
ت : نصيم مجلى	رونالد جراى	٢٢٢ - فرانز كافكا
ت : السيد محمد نقادى	بول فيرابنر	٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر
ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد	برانكا ماجاس	٢٢٤ - دمار يوفسلافيا
ت : السيد عبد الظاهر عبد الله	جابريل جارثيا ماركت	٢٢٥ - حكاية غريق
ت : طاهر محمد على البريرى	ديفيد هريت لورانس	٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى
ت : السيد عبد الظاهر عبد الله	موسى مارديا ديف بوركى	٢٢٧ - المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر
ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن	جانيت وولف	٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
ت : أمير إبراهيم العمري	نورمان كيمن	٢٢٩ - مازق البطل الوحيد
ت : مصطفى إبراهيم فهمى	فرانسواز جاكوب	٢٣٠ - عن الذباب والفنران والبشر
ت : جمال أحمد عبد الرحمن	خايمى سالوم بيدال	٢٣١ - الدرافيل
ت : مصطفى إبراهيم فهمى	توم ستينر	٢٣٢ - ما بعد المعلومات
ت : طلعت الشايب	أرثر هيرمان	٢٣٣ - فكرة الاضمحلال
ت : فؤاد محمد عكود	ج. سبنسر تريمنجهام	٢٣٤ - الإسلام فى السودان
ت : إبراهيم السوقى شتا	جلال الدين الرومى	٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج ١
ت : أحمد الطيب	ميشيل تود	٢٣٦ - الولاية
ت : عنايات حسين طلعت	روبين فيدين	٢٣٧ - مصر أرض الوادى
ت : ياسر محمد جاد الله وعمرى مديولى أحمد	الانكتاد	٢٣٨ - العولة والتحرير
ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيلرافر - رايوخ	٢٣٩ - العريى فى الأدب الإسرائيلى
ت : صلاح عبد العزيز محمود	كامى حافظ	٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار
ت : ابتسام عبد الله سعيد	ك. م كويتز	٢٤١ - فى انتظار البرابرة
ت : صبرى محمد حسن عبد النبى	وليام إمبسون	٢٤٢ - سبعة أنماط من الفموض
ت : مجموعة من المترجمين	ليفى بروفنسال	٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١
ت : نادية جمال الدين محمد	لاورا إسكييل	٢٤٤ - الغليان
ت : توفيق على منصور	إليزابيتا أديس	٢٤٥ - نساء مقاتلات
ت : على إبراهيم على منونى	جابريل جرثيا ماركت	٢٤٦ - قصص مختارة
ت : محمد الشرقاوى	ولتر أرمبرست	٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والعدالة فى مصر
ت : عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	٢٤٨ - حقول عدن الخضراء
ت : رفعت سلام	دراجو شتامبوك	٢٤٩ - لغة التمزق
ت : ماجدة أباطة	نومنيك فيتك	٢٥٠ - علم اجتماع العلوم
ت : بإشراف : محمد الجوهري	جورنون مارشال	٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢
ت : على بدران	مارجو بدران	٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية
ت : حسن بيومى	ل. أ. سيمينوفا	٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ليف روينسون وجودى جروفز	٢٥٤ - الفلسفة
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ليف روينسون وجودى جروفز	٢٥٥ - أفلاطون

٢٥٦ - ديكارت	ديف روينسون وجودي جروفز	٢٥٦ - تاريخ الفلسفة الحديثة
٢٥٧ - الفجر	وليم كلي رايت	٢٥٨ - الفجر
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	سير أنجوس فريزر	٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	نخبة جوربون مارشال	٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إيوارد مندوتا	٢٦٢ - مدينة المعجزات
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وهموثيل جونسون	٢٦٥ - روايات مترجمة
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	٢٦٦ - مدير المدرسة
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	٢٦٧ - فن الرواية
٢٦٨ - ديوان شمس تيريزي ج٢	جلال الدين الرومي	٢٦٨ - ديوان شمس تيريزي ج٢
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢
٢٧١ - الحضارة الفريية	توماس سى . باترسون	٢٧١ - الحضارة الفريية
٢٧٢ - الأبيرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	٢٧٢ - الأبيرة الأثرية فى مصر
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط
٢٧٤ - السيدة بربارا	روماو جلاجوس	٢٧٤ - السيدة بربارا
٢٧٥ - س. س. إليت شامراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	٢٧٥ - س. س. إليت شامراً وناقداً وكاتباً مسرحياً
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	٢٧٦ - فنون السينما
٢٧٧ - الجنيتات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	٢٧٧ - الجنيتات : الصراع من أجل الحياة
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	٢٧٨ - البدايات
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية
٢٨٠ - من الألب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وأخرون	٢٨٠ - من الألب الهندى الحديث والمعاصر
٢٨١ - الفريوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	٢٨١ - الفريوس الأعلى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	٢٨٣ - السهل يحترق
٢٨٤ - هرقل مجنوناً	يوربيديس	٢٨٤ - هرقل مجنوناً
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى
٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراضى	٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج٢
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى
٢٨٨ - الفن الروائى	بيفيد لودج	٢٨٨ - الفن الروائى
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوس	٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغانى
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جودج مونا	٢٩٠ - علم اللغة والترجمة
٢٩١ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج١	فرانشيسكو رويس رامون	٢٩١ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج١
٢٩٢ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج٢	فرانشيسكو رويس رامون	٢٩٢ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج٢
٢ : إمام عبد الفتاح إمام		
٣ : محمود سيد أحمد		
٤ : عبادة كحيله		
٥ : فاروچان كازانچيان		
٦ : بإشراف : محمد الجوهري		
٧ : إمام عبد الفتاح إمام		
٨ : محمد أبو العطا عبد الرؤوف		
٩ : على يوسف على		
١٠ : لويس عوض		
١١ : لويس عوض		
١٢ : عادل عبد المنعم سويلم		
١٣ : بدر الدين عروكي		
١٤ : إبراهيم الدسوقي شتا		
١٥ : صبرى محمد حسن		
١٦ : صبرى محمد حسن		
١٧ : شوقى جلال		
١٨ : إبراهيم سلامة		
١٩ : عنان الشهاوى		
٢٠ : محمود على مكى		
٢١ : ماهر شفيق فريد		
٢٢ : عبد القادر التمساني		
٢٣ : أحمد فوزى		
٢٤ : ظريف عبد الله		
٢٥ : طلعت الشايب		
٢٦ : سمير عبد الحميد		
٢٧ : جلال الحفناوى		
٢٨ : سمير حنا صادق		
٢٩ : على البمبى		
٣٠ : أحمد عثمان		
٣١ : سمير عبد الحميد		
٣٢ : محمود سلامة علاوى		
٣٣ : محمد يحيى وأخرون		
٣٤ : ماهر البطوطى		
٣٥ : محمد نور الدين		
٣٦ : أحمد زكريا إبراهيم		
٣٧ : السيد عبد الظاهر		
٣٨ : السيد عبد الظاهر		

ت : نخبة من المترجمين	روجر آلان	٢٩٣ - مقدمة للأدب العربي
ت : رجاء ياقوت صالح	بوالو	٢٩٤ - فن الشعر
ت : بدر الدين حب الله النيب	جوزيف كامبل	٢٩٥ - سلطان الأسطورة
ت : محمد مصطفى بنوى	وايم شكسبير	٢٩٦ - مكبث
ت : ماجدة محمد أنور	ليونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني	٢٩٧ - فن النعربين اليونانية والسوريانية
ت : مصطفى حجازى السيد	أبو بكر تفاقا بليوه	٢٩٨ - مأساة العبيد
ت : هاشم أحمد فزاد	جين ل. ماركس	٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية
ت : جمال الجزيرى وبهاء جاهين	لويس عوض	٣٠٠ - أسطورة برومثيروس مج١
ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى	لويس عوض	٣٠١ - أسطورة برومثيروس مج٢
ت : إمام عبد الفتاح إمام	جون هيتون وجودى جروفز	٣٠٢ - فنجنشتين
ت : إمام عبد الفتاح إمام	جين هوب وبورن فان لون	٣٠٣ - بوذا
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ريوس	٣٠٤ - ماركس
ت : صلاح عبد الصبور	كروزيو مالابارته	٣٠٥ - الجلد
ت : نبيل سعد	جان - فرانسوا ليوتار	٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ
ت : محمود محمد أحمد	ديفيد بايننو	٣٠٧ - الشعور
ت : ممنوح عبد المنعم أحمد	ستيف جونز	٣٠٨ - علم الوراثة
ت : جمال الجزيرى	انجوس چيلاتى	٣٠٩ - الذهن والمخ
ت : محيى الدين محمد حسن	ناجى هيد	٣١٠ - يونج
ت : فاطمة إسماعيل	كولنجوود	٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى
ت : أسعد حليم	وايم دى بويز	٣١٢ - روح الشعب الأسود
ت : عبد الله الجعيدى	خابير بيان	٣١٣ - أمثال فلسطينية
ت : هويدا السباعى	جينس مينيك	٣١٤ - الفن كعدم
ت : كاميليا صبحى	ميشيل بروندينو	٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى
ت : نسيم مجلى	أ. ف. ستون	٣١٦ - محاكمة سقراط
ت : أشرف الصباغ	شير لايموفا - زنيكين	٣١٧ - بلاغذ
ت : أشرف الصباغ	نخبة	٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة
ت : حسام نايل	جايتير ياسبيفاك وكريستوفر نوريس	٣١٩ - صور نريدا
ت : محمد علاء الدين منصور	مؤلف مجهول	٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج
ت : نخبة من المترجمين	ليفى برو فنسال	٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢
ت : خالد مقلح حمزة	دبليو. إيوجين كلينباور	٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن العربى
ت : هانم سليمان	تراث يونانى قديم	٣٢٣ - فن الساتورا
ت : محمود سلامة علاوى	أشرف أسدى	٣٢٤ - اللعب بالنار
ت : كريستين يوسف	فيليب بوسان	٣٢٥ - عالم الآثار
ت : حسن صقر	جورجين هابرماس	٣٢٦ - المعرفة والمصلحة
ت : توفيق على منصور	نخبة	٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة
ت : عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	٣٢٨ - يوسف وزليخة
ت : محمد عيد إبراهيم	تد هيوز	٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد

- ٣٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد
٣٣١ - عندما جاء السربين ستيفن جراي
٣٣٢ - رحلة شهر الصل وقصص أخرى نخبة
٣٣٣ - الإسلام في بريطانيا نبيل مطر
٣٣٤ - لقطات من المستقبل آرثر س. كلارك
٣٣٥ - عصر الشك ناتالي ساروت
٣٣٦ - متون الأهرام نصوص قديمة
٣٣٧ - فلسفة الولا جوزايا رويس
٣٣٨ - نظرات طرفة وتمص أخرى من الهند نخبة
٣٣٩ - تاريخ الأدب في إيران ج٢ على أصغر حكمت
٣٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط بيرش بيربيروجلو
٣٤١ - قصائد من رلكه راينر ماريا رلكه
٣٤٢ - سلامان وأبسال نور الدين عبد الرحمن بن أحمد
٣٤٣ - العالم البرجوازي الزائل نائين جورنيمر
٣٤٤ - الموت في الشمس بيتر بلانجوه
٣٤٥ - الركض خلف الزمن بونه ندائى
٣٤٦ - سحر مصر رشاد رشدى
٣٤٧ - الصبية الطائشون جان كوكتو
٣٤٨ - المتصوفة الأولون في الأدب التركي جا محمد فؤاد كويريلى
٣٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة آرثر والديون وآخرين
٣٥٠ - بانوراما الحياة السياحية أقلام مختلفة
٣٥١ - مبادئ المنطق جوزايا رويس
٣٥٢ - قصائد من كفافيس قسطنطين كفافيس
٣٥٣ - الفن الإسلامى في الأندلس (مقدسية) باسيليو بابون مالدونالد
٣٥٤ - الفن الإسلامى في الأندلس (نباتية) باسيليو بابون مالدونالد
٣٥٥ - التيارات السياسية في إيران حجت مرتضى
٣٥٦ - الميراث المر بول سالم
٣٥٧ - متون هيرميس نصوص قديمة
٣٥٨ - أمثال الهوسا العامية نخبة
٣٥٩ - محاورات بارمنيدس أفلاطون
٣٦٠ - أنثروبولوجيا اللفة أندريه جاكوب ونويلا باركان
٣٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة آلان جرينجر
٣٦٢ - تلميذ باينبرج هاينرش شبورال
٣٦٣ - حركات التحرر الأفريقى ريتشارد جيبسون
٣٦٤ - حدائق شكسبير إسماعيل سراج الدين
٣٦٥ - سأم باريس شارل بودلير
٣٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب كلاريسا بنكولا
- ت : سامى صلاح
ت : سامية دياب
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : بكر عباس
ت : مصطفى فهمى
ت : فتحى العشرى
ت : حسن صابر
ت : أحمد الأنصارى
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : فخرى لبيب
ت : حسن حلمى
ت : عبد العزيز بقوش
ت : سمير عبد ربه
ت : سمير عبد ربه
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال الجزيرى
ت : بكر الحلو
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : أحمد عمر شاهين
ت : عطية شحاتة
ت : أحمد الأنصارى
ت : نعيم عطية
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : محمود سلامة علاوى
ت : بدر الرفاعى
ت : عمر الفاروق عمر
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : حبيب الشارونى
ت : ليلى الشربينى
ت : عاطف معتمد وأمال شاور
ت : سيد أحمد فتح الله
ت : صبرى محمد حسن
ت : نجلاء أبو عجاج
ت : محمد أحمد حمد
ت : مصطفى محمود محمد

ت : البراق عبد الهادي رضا	نخبة	٢٦٧ - القلم الجريء
ت : عابد خزندار	جيرالد برنس	٢٦٨ - المصطلح السردي
ت : فوزية العثماني	فوزية العثماني	٢٦٩ - المرأة في أدب نجيب محفوظ
ت : فاطمة عبد الله محمود	كلير لا لويت	٢٧٠ - الفن والحياة في مصر الفرعونية
ت : عبد الله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كوبريلي	٢٧١ - المتصوفة الأتراك في الأدب التركي
ت : وحيد السعيد عبد الحميد	وانغ مينغ	٢٧٢ - عاش الشباب
ت : علي إبراهيم علي منوفي	أمبرتو إيكو	٢٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه
ت : حمادة إبراهيم	أندريه شديد	٢٧٤ - اليوم السادس
ت : خالد أبو اليزيد	ميلان كونديرا	٢٧٥ - الخلود
ت : إيوار الخراط	نخبة	٢٧٦ - الغضب وأحلام السنين
ت : محمد علاء الدين منصور	علي أصغر حكمت	٢٧٧ - تاريخ الأدب في إيران ج٤
ت : يوسف عبد الفتاح فرج	محمد إقبال	٢٧٨ - المسافر
ت : جمال عبد الرحمن	سنيل باث	٢٧٩ - ملك في الحديقة
ت : شيرين عبد السلام	جوتتر جراس	٢٨٠ - حديث عن الخسارة
ت : رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١ - أساسيات اللغة
ت : أحمد محمد نادي	بهاء الدين محمد إسفنديار	٢٨٢ - تاريخ طبرستان
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣ - هدية الحجاز
ت : إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤ - القصص التي يحكيها الأطفال
ت : يوسف عبد الفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	٢٨٥ - مشتري العشق
ت : ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦ - دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
ت : بهاء جاهين	چون دن	٢٨٧ - أغنيات وسوناتات
ت : محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازي	٢٨٨ - مواظ سعدى الشيرازي
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩ - من الأدب الباكستاني المعاصر
ت : عثمان مصطفى عثمان	نخبة	٢٩٠ - الأرشيفات والمدن الكبرى
ت : منى الدروبي	مايف بينشي	٢٩١ - الحافلة الليكيا
ت : عبد اللطيف عبد الحليم	فرناندو دي لاجرانخا	٢٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية
ت : نخبة	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣ - في قلب الشرق
ت : هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤ - القوى الأربع الأساسية في الكون
ت : سليم حمدان	إسماعيل فصيح	٢٩٥ - آلام سياوش
ت : محمود سلامة علاوي	تقي نجاري راد	٢٩٦ - السافاك
ت : إمام عبد الفتاح إمام	لورانس جين	٢٩٧ - نيتشه
ت : إمام عبد الفتاح إمام	فيليب تودي	٢٩٨ - سارتر
ت : إمام عبد الفتاح إمام	بيفيد ميروفتمس	٢٩٩ - كامى
ت : باهر الجوهري	مشيائيل إنده	٤٠٠ - مومو
ت : ممدوح عبد المنعم	زيادون ساردر	٤٠١ - الرياضيات
ت : ممدوح عبد المنعم	ج . ب . ماك ايفوى	٤٠٢ - هوكنج
ت : عماد حسن بكر	تودور شتورم	٤٠٣ - ربة المطر والملابس تصنع الناس

ت : ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤ - تعويذة الحسى
ت : حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥ - إيزابيل
ت : جمال أحمد عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦ - المستعربون الإسبان فى القرن ١٩
ت : طلعت شاهين	أقلام مختلفة	٤٠٧ - الألب الإسبانى للعصر بقلم كلبه
ت : عنان الشهاوى	جوان فوتشركنج	٤٠٨ - معجم تاريخ مصر
ت : إلهامى عمارة	بتراند راسل	٤٠٩ - انتصار السعادة
ت : الزاوى بفررة	كارل بوير	٤١٠ - خلاصة القرن
ت : أحمد مستجير	جينيفر أكرمان	٤١١ - همس من الماضى
ت : نخبة	ليفى بروفنسال	٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ٢
ت : محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣ - أغنيات المنفى
ت : أمل الصبان	باسكال كازانوف	٤١٤ - الجمهورية العالمية للآداب
ت : أحمد كامل عبد الرحيم	فريدريش نورنيماث	٤١٥ - صورة كوكب
ت : مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردز	٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٥
ت : عبد الرحمن الشيخ	جين هاثواى	٤١٨ - سياسات الزمر للملكة فى مصر العثمانية
ت : نسيم مجلى	جون ماريو	٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية
ت : الطيب بن رجب	فولتير	٤٢٠ - مكرو ميغاس
ت : أشرف محمد كيلانى	روى متحدة	٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى
ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم	نخبة	٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج ١
ت : وحيد النقاش	نخبة	٤٢٣ - إسرامات الرجل الطيف
ت : محمد علاء الدين منصور	نور الدين عبد الرحمن الجامى	٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق
ت : محمود سلامة علاوى	محمود طلوعى	٤٢٥ - من طاووس حتى فرح
ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب	نخبة	٤٢٦ - الخليليش وقصص اخرى من أفغانستان
ت : ثريا شلبى	باى إنكلان	٤٢٧ - يانديراس الطاغية
ت : محمد أمان صافى	محمد هوتك	٤٢٨ - الخزانة الخفية
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ليود سينسر وأندريجى كروز	٤٢٩ - هيجل
ت : إمام عبد الفتاح إمام	كرستوفر وانت وأندريجى كليموفسكى	٤٣٠ - كانط
ت : إمام عبد الفتاح إمام	كريس هيروكس وزوران جفتيك	٤٣١ - فوكو
ت : إمام عبد الفتاح إمام	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	٤٣٢ - ماكياڤلى
ت : حمدى الجابرى	ديفيد نوريس وكارل فلنت	٤٣٣ - جويس
ت : عصام حجازى	يونكان هيث وچودن بورهام	٤٣٤ - الرمانسية
ت : ناجى رشوان	نيكولاس زديرج	٤٣٥ - توجهات ما بعد الحدائة
ت : إمام عبد الفتاح إمام	فردريك كويلستون	٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج ١)
ت : جلال السعيد الحفناوى	شيلى النعمانى	٤٣٧ - رحالة هندى فى بلاد الشرق
ت : هايدة سيف الدولة	إيمان ضياء الدين بييرس	٤٣٨ - بطلات وضحايا
ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب	صدر الدين عيني	٤٣٩ - موت المرابى
ت : محمد الشرقاوى	كرستن بروستاد	٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية

ت : فخرى لييب	أروندهاتى روى	٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة
ت : ماهر جويجاتى	فوزية أسعد	٤٤٢ - حتشبسوت (المرأة الفرعونية)
ت : محمد الشرقاوى	كيس نرستينغ	٤٤٣ - اللغة العربية
ت : صالح علمانى	لاوريت سيجورنه	٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة
ت : محمد محمد يونس	پرويز نائل خانلرى	٤٤٥ - حول وزن الشعر
ت : أحمد محمود	ألكسندر كوكيرن وجيفرى سانت كلير	٤٤٦ - التحالف الأسود
ت : ممنوح عبد المنعم	ج. پ. ماك ايفوى	٤٤٧ - نظرية الكم
ت : ممنوح عبد المنعم	ديلان ايفانز - أوسكار زاريت	٤٤٨ - علم نفس التطور
ت : جمال الجزيرى	مجموعة	٤٤٩ - الحركة النسائية
ت : جمال الجزيرى	صوفيا فوكا - ريببكارايت	٤٥٠ - ما بعد الحركة النسائية
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ريتشارد أوزبورن / بورن فان لون	٤٥١ - الفلسفة الشرقية
ت : محى الدين مزيد	ريتشارد إيجنانزى / أوسكار زاريت	٤٥٢ - لينين والثورة الروسية
ت : حليم طوسون وفؤاد الدهان	جان لوك أرنو	٤٥٣ - القاهرة : إقامة مدينة حديثة
ت : سوزان خليل	رينيه بريدال	٤٥٤ - خمسون عاماً من السينما الفرنسية
ت : محمود سيد أحمد	فردريك كويلستون	٤٥٥ - تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)
ت : هويدا عزت محمد	مريم جعفرى	٤٥٦ - لا تنسنى
ت : إمام عبد الفتاح إمام	سوزان مولر اوكين	٤٥٧ - النساء فى الفكر السيلسى الغربى

طبع بالهيئة العامة لشتون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٧٦٧ / ٢٠٠٢

WOMEN IN WESTERN POLITICAL THOUGHT

SUSAN MOLLER OKIN

يعالج هذا الكتاب موضوع النساء في الأعمال الفلسفية الكلاسيكية لدى مفكرين عظام، أمثال: «أفلاطون» و«أرسطو» و«مل» و«روسو»، وذلك من خلال مراجعة أفكارهم الفلسفية السياسية والاجتماعية التي تأسست عليها صورة المرأة ووضعها في النظام السياسي والاجتماعي. ويناقش قضية المرأة والأسرة في المجتمع الأمريكي، والأثر الهائل للأوضاع الاجتماعية في تشكيل الإطار الذي يتم وضع المرأة فيه. ويستخلص الكتاب أن النظرة الوظيفية التي حصرت دور المرأة في أمور كالجنس والإنجاب وغيرها من الوظائف البيولوجية ليست بمعزل عن رؤية هؤلاء الفلاسفة للأسرة باعتبارها مؤسسة «طبيعية» و«ضرورية»؛ ومن ثم فقد رأوا أن هذا الدور الوظيفي قد أملتته على المرأة طبيعتها الذاتية. وتلك النظرة قد حصرت البحث في طبيعة النساء - عبر هذا الفكر الفلسفي - عند العوامل الفطرية الكامنة خلف الغشاء الذي أنتجته التنشئة الاجتماعية والعوامل البيئية الأخرى، وأنها لا تزال تحكم عددًا من التصورات الاجتماعية والسياسية لوضعية المرأة حتى وقتنا الراهن.